onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والعاف الإنسان





الفير الكالمين في المان المان



القرآن الانسكاني والستلوك الإنسكاني

محمد بهائى سليم



الإخراج الفنى : ماجدة البنا الاشراف الفنى : عفاف توفيق

« بسم الله الرحمن الرحيم »

هذا الكتاب ليس تفسيراً للقرآن الكريم كها جرى عليه مفسروه الذين تناولوا آيات خاتم كتب الله آية آية ، ففسروا ألفاظها وأهدافها ، ليكون قارئه على بينة وفهم صحيح لمقاصد هذه الآيات والحكمة الإلمية من إنزالها .

ولكنًا فى وضعنا هذا الكتاب قد اتجهنا اتجاهاً جديداً ، إذ تناولنا فيه جوانب السلوك الإنسانى كما يجب أن يكون ، وكما أمر به العزيز الحكيم ، ربُّ العالمين .

وقد استرشدنا فى ذلك بالمناسب من آيات الله البينات التى تضمنها خاتم كتب الله ، قرآنه الكريم .

وإننا في عالمنا المعاصر ، حيث تعددت احتياجات الإنسان وتنوعت ، وحيث تشابكت المصالح بين أفراد المجتمع الإنساني وشعوبه ، وتعقدت الوسائل والسبل والمسالك في رحلتنا القصيرة في هذه الحياة الدنيا لأحوج إلى معرفة أنفسنا على حقيقتها .

لماذا خُلقنا؟ وما نوازعنا ورغباتنا؟ وما أهدافنا في هذه الحياة؟ ، وكيف نعيش حياة إنسانية كريمة؟ ، وما أقوم الوسائل التي يجب أن نأخذ بهـا في سلوكنا وعلاقاتنا بخالقنا وبأنفسنا وبغيرنا من بني آدم؟ .

كل هذا تناولناه فى هذا الكتاب ، فبيّنا فيه خَلْقَ الإنسان وطبيعته البشرية ، كها تناولنا معنى الإيمان ووسائله وأهدافه فى جميع اتجاهات هذا السلوك ومظاهره من حيث الفكر والقول والعمل ، كها أراده الله لخير من امن به وبكتبه ورسله وباليوم الآخر ، وكها بيّنها ، سَمَت حكمته ، أوضح بيان وأبلغ مقال فى خاتم كتبه .

فكل ما ينادى به البشر في عالمنا المعاصر من مذاهب ومبادى، ومُثُل ولا يعملون بها ، قد سبق أن بينها العزيز الحكيم في قرآنه الكريم . وما نُزَل هذا القرآن إلا لخير البشر ما سار عابه البشر وسلكوا صراط ربهم المستقيم . وما نُزَّل هذا القرآن إلا ليبين المناس ، وتنيف يعيش الإنسان في هذه الحياة الدنيا حراً كرياً خيراً مؤمنا تقياً عادلاً عبا للسلام ، بعيداً عن أهواء النفس الأمّارة بالسوء ، مهدياً في سلوكه بتلك التعاليم والمبادىء الربانية السامية التي أوردها الله في محكم التنزيل ، في القرآن الكريم .

« والله ولى التوفيق »

المؤلف

من آيات الله البينات

بسم الله الرحمن الرحيم

«وإذا قُرِىءَ القرآنُ فاستمِعوا له وأنصتوا ، لعلكم تُرْخُونَ «١١) .

«إِنَّ هذا القرآنَ يهدى للتى هي أقومُ ويبشَّرُ المؤمنينَ الذين يعمَلونَ الصالحاتِ أَنَّ لهم أُجراً كبيراً» (٢).

«وأنَّ هذا صراطى مستقيهاً فاتَّبِعُوه ولا تَتَّبعُوا السُّبُلَ فَتَفرَّقَ بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكم به لعلكم تتقون»(٣) .

«نَزّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزَلَ التّوراةَ والإنجيلَ»(٤) .

«شَرَع لكم من الدَّين ما وَصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدِّينَ ولا تتفرقوا فيه كبُر على المشركين ما تدعوهم إليه الله الله عبي إليه من يُنيب»(٥).

«إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكّروا بها خرُّوا سُجَّداً وسبَّحُوا بحمدِ ربِّهم ، وهم لا يستكبرون»(٦) .

«تتجـافَى جنُوبهم عن المضَـاجع يـدْعُون ربّهم خـوفـاً وطمعـاً وممـا رزقْنَـاهم يُنفقون»(٧) . « إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجِلت قلوبهُم وإذا تُليت عليهم آياتُه زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون »(^) .

« الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابها مّثاني تقشيرٌ منه جلودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهم ثم تلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذِكْرِ الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يُضلِلِ اللهُ فيها له من هادٍ هها (٩٠).

« وما منع الناس أن يؤمنوا إذْ جاءهُمُ الهدى إلا أن قالوا أَبَعَثَ اللهُ بشراً رَّسُولاً »(١٠) قل لو كان في الأرض ملائكة يمشونَ مطمئنين لنزَّلْنا عليهِم من السَّماء مَلَكاً رَّسُولاً »(١١) « ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرونَ بالمعروفِ وينهَوْنَ عن المنكر وأولئك هُمُ المُفْلِحونَ»(١٢) .

صدق الله العظيم

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« ن والقَلَم وما يَسْطُرونَ * ما أنت بنعمة ربِّكَ بمجنونٍ * وإنَّ لك لَأَجْرًا غير منونٍ * وإنَّك لَعَلَى خُلُقِ عظيم * فستُبْصرُ ويُبْصِرُونَ * بأَيِّكُمُ المفتون * إنَّ ربك هو أعلمُ بالمهتذينَ * فلا تُطع المكذَّبينَ * وَهُو أعلمُ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * ولاتُطعْ كُلُّ حلاف مَّهِينٍ * هَمَّازِ مَشَاءٍ بِنَميمٍ * منَّاعٍ للخيرِ مُعْتدٍ أثيمٍ * عُتُلٌ بعد ذلك زَيمٍ * (3) .

صدق الله العظيم

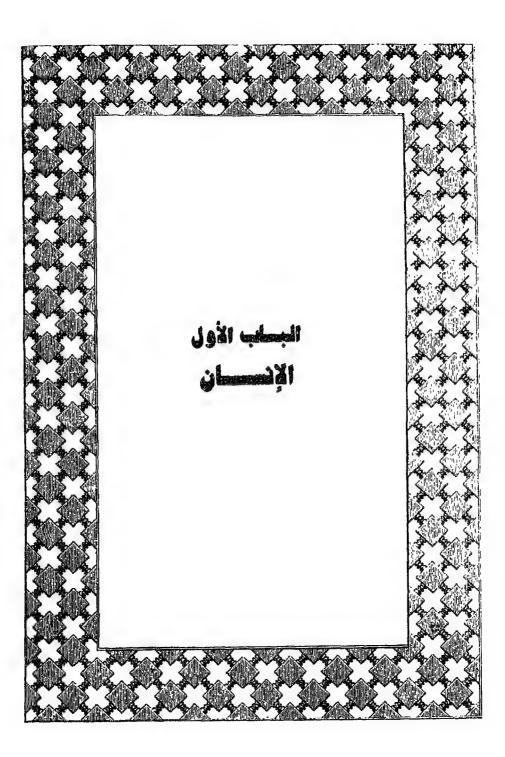
عن رسول الله ﷺ ، أنه قال :

(إَنَّمَا بُعثتُ لَأَتْمُمكارمَ الْأَخْلَاقِ) ۞ (أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي) .

صدق رسول الله

وعن عائشة ، رضى الله عنها ، عندما سئلت عن أخلاق الـرسول ، عليـه الصلاة والسلام ، أنها قالت : (كان خُلُقُه القرآن) .

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





كلمة الإنسان لغة من أنس ، وفعله أنِسَ أى اطمأن وهـدأ بالـه وفـرح ، فالإنسان إذن مصدر للإرتياح والفرح ، حتى أنه ليأنس ويطمئن بلقاء بني جنسه .

فليعمل الإنسان بإسمه وصفته ، وليكن مصدر خير وفرح لغيره من البشر .

وليسبح باسم خالقه الذى خلقه وصوره فأحسن تصويره . وليشكر ربه إذْ زوده بالعقل الذى به يدرك ما يحس وبه يدبر أمره . وليحمد ربه الذى استخلفه على أرضه ولم يتركه عليها سدى ، بل رعاه ولحظه ورباه بما أنزل عليه من محكم التوجيه وسديد النصح فيها تضمنته كتبه السماوية وخاتمها القرآن الكريم ، وأوحى بها إلى رسله وخاتمهم سيدنا محمد على المسلمة .

وليكن هذا الإنسان جديرا بخلافته على الأرض ، وليعمل على عمرانها بدلا من تخريبها والإصلاح فيها بدلا من الإفساد ، مسترشدا فى كل ما يفكر أو يقول أو يعمل ، بما نزّل الله من آيات بينات .

هذا الإنسان!

الذي نسى نشأته الأولى إذْ لم يكن شيئا مذكورا ، ونسى أو تناسى الذي أنشأه ، سبحانه وتعالى ، وسواه رجلا ، وغفل عن حكمته من خلقه .

هذا الإنسان! الذى لا يذكر من أنشأه وكيف أنشأه ونفخ فيه الروح التى بها يحيا على هذه الأرض وعليها يسعى وفيها يثوى ، ثم منها يُبعث بأمر ربه ليحشره مع الخلق أجمعين يوم الحساب العظيم .

هذا الإنسان! الذى لا يزال يسلك من وعر المسالك ما تدفعه فيها غرائزه العمياء دفعا، إنّ هذا الإنسان ما زال يطغى ويستكبر ويتجبر، ويفسد فى الأرض التى استخلفه عليها خالقه ومصوره ليصلح فيها، وينفذ فيها مشيئته التى شاءت له الخير والفلاح، وللأرض العمران والإصلاح، بعد أن زوّده العلى القدير ببصر يتبصر به الخير من الشر، وبسمّع يميز به ثم يتدبر، وفؤ اد يحس به صراط ربه المستقيم ليتبعه والعوج السقيم فيناى بنفسه عنه.

هذا الإنسان!، الذي حاد عن صراط ربه المستقيم، الذي رسمه له خالقه القدير ليسير عليه وفق تعاليم الحكيم العليم، فعصى أمر ربه الذي:

« خَلَقَ الإِنسان من نُطفةٍ فإذا هو خصيم مُّبِينٌ »(١٤)

ما أحرى هذا الإنسان بذكر ربه وبالتوبة إليه وبالعودة إلى صراطه المستقيم ، بعد ذكره وشكر فضله عليه ، والسير عليه جادًا مخلصا آمنا مؤمنا ، مستخدما في كل هذا ما أنعم به الله عليه من سمع وبصر وفؤ اد ، حتى لا تجرفه غواية إبليس اللعين عدوه المبين ، الذي يعيث فسادا في قلب الإنسان الضعيف ، فيضل الصواب في سيره وسريرته ويسىء إلى نفسه التي أراد الله بها الخير والفلاح للفرد وللمجتمع .

وها هى تعاليم الخالق المبدع ، البصير الخبير ، قد أودعها قرآنه المبين ، دستور البشرية الأزلى القويم ، أنزله الرحمن رحمة وهدى للناس كافة فى كل زمان ومكان ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

هذا الكتاب القيّم! الذى لم يتركُ صغيرة ولا كبيرة من شئون الدنيا والأخرة إلا وأحاط بها وأحصاها ، ولم يتعرض لمشكلة إلا وأوجد لها الحل الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وهل أصدق مما جاء بأيات الخالق المبينات في محكم تنزيله وخاتم كتبه ؟ فليرجع إليها الإنسان مؤمنا بحكمة الخالق ، ومخلصا له الدعاء ، فيتضاءل في حضرة العلى الكبير ويخشع ويسلم الأمر كله له ، بدلا من المعاندة والمكابرة والتخبط ، والإمعان في الضلال .

«إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شَاكُواً وإمَّا كَفُوراً»(١٥) .

هذا الإنسان!

كيف خُلق؟ وممّ خُلق؟

لحكمة لا يعلمها إلا الخالق المبدع القدير العليم ، لم يخلق آدم ، أبا البشر ، من نور ولا من نار ، ولم يخلقه من صخر صلد ولا من معدن نفيس أو من حجر كريم ، بل خلقه مما هو أدنى من هذا وذاك ، خلقه من تراب وطين :

« قَالَ كَذَلَك قال رَبُّك هُو عَلَى هَينٌ ، وقَدْ خَلَقتُك من قَبلُ ولم تَكُ شيئاً »(١٦) .

« إِنَّ مَثْلَ عِيسَى عَنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ مِن تُرابٍ ثُم قَالَ لَـهُ كُنْ ، يَكُونُ ، (١٧) .

« الذي أَحْسَنَ كُلُّ شيءٍ خَلَقَهُ وبدأ خَلْقَ الإنسانِ من طينِ ۽ (١٨) .

« إِنَا خَلَقْنَاهُم مَنْ طَيْنِ لَازِبِ »(١٩) .

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حماء مسنون ١٠٠١) .

« خَلَقَ الإِنسانَ من صَلْصَال مِكَالْفَخَار ٣١١) .

ولم يأبه ، سبحانه وتعالى ، لقول إبليس اللعين ، الذى أبي واستكبر حين أمره الله بالسجود لآدم :

« قال ما منعك ألا تسجد إذْ أَمَرتُكَ قال أنا خيرٌ مِّنهُ خلقْتَني من نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ من طِينٍ »(٢٢) .

ومن آدم الذي لم يكن شيئا مذكورا قبل أن يخلقه رب العالمين ، ومن حواء ،

وهى قطعة من نفس نوع آدم ، نَسَل الإنسانُ ، ولا يزال وسيظل يَنسِل إلى يـوم الدين ، من ماء مهين :

« أَلَمْ نَخَلُقَكُم مِّن مَاءٍ مَّهِينٍ ٣٢٣) .

« أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مِنِّ يُمِنِّي "(٢٤) .

وفى هذه النطفة أوجد العلى القدير أبسط صور الحياة وهو الحيوان المنوى الوحيد الخلية الذي يندمج في بويضة الأنثى فيكونان العلقة :

« خَلَقَ الإِنسانَ من عَلَقٍ »(٢٥) .

فإذا علمنا أن أبسط ما يتحرك على الأرض من حيوان هى الدودة التى تعيش على الأرض وتتحرك بكامل جسمها وراء طعامها ، وأنها إذا ما عثرت على ما يصلح لغذائها التقمته بفمها وأدخلته فى جوفها حيث تتم عملية هضمه .

وإذا علمنا أن أبسط أنواع هذه الدودة وأدناها وأقلهـا حيلة هي العَلَقَة التي لا تجهد نفسها في السعى بحثا عن طعامها ، بل تتطفل وتعلق بغيرها من الحيوانات وتلتصق بها لتمتص منها عصارة الحياة تامة الهضم .

إذا علمنا هذا ، تبين لنا مدى ضآلة هذا الإنسان ، وهوانه على خالقه ، ما لم يلكره ويَتقُه .

ويبين الخالق ، سبحانه وتعالى ، فى محكم تنزيله ، كيف يتدرج الخالق فى تخليق هذه العلقة شيئا فشيئا حتى يتمها إنسانا كامل الخلقة :

« ولقد خَلَقْنَا الانسَان من سُلاَلَةٍ مِّن طين ، ثم جَعَلْنَاه نُطفةً في قَرارٍ مَّكين ، ثم خَلَقْنَا النَّطفة عَلَقة ، فَخَلقْنَا العَلقة مُضغةً ، فَخلقْنَا النَّطفة عَظَاماً ، فكسَوْنا العِظَامَ لِحَا ثُم أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخرَ فتباركَ اللهُ أَحْسنُ الخالقين »(٢٦)

وهذا ما توصل إليه العلم الحديث بعد مرور أكثر .من ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن ، فالنطفة هي السائل المنوى الذي ينزل من صلب الرجل إلى رحم المرأة ثم يندفع من الرحم خلال دهليز ضيق في نهايته مبيض المرأة الذي يفرز بويضات حية

يتكون كل منها من خلية واحدة فيلتصق واحد من الحيوانات المنوية بإحدى هذه البويضات ويندمج فيها فيتم ما يسمى باللقاح ثم تعود هذه البويضة الملقحة من هذا الدهليز إلى الرحم وهى تنمو وتكبر خلال هذه العودة مكونة ما يسمى بالعلقة وتلتصق هذه العلقة بجدار الرحم وتثبّت عليه بواسطة شعيرات دقيقة تنغرس في هذا الجدار ويتكون ما يشبه جذور النبات ، لأنها تُثبّت هذه العلقة في جدار الرحم وتمدها بالغذاء الذي تمتصه من دماء المرأة . والعلقة في أول أمرها لا شكل لها بل تشبه إلى حد كبير جسما هلاميا يكبر شيئا فشيئا فيتحول إلى عظام لينة (غضروفية) ثم تكسى باللحم ثم تبرز من هذا الجسم زوائد مكونة الرأس والأطراف ثم يتخلق الجسم وتتكون ملامح الجنين حتى إذا ما استكمل غوه خرج إلى نور الدنيا بشرا سوبا ، والمدة بين عملية التلقيح إلى الحمل إلى الولادة حوالى تسعة أشهر في المتوسط :

« فَتَبَارَكُ الله أحسنُ الخالِقين » .

لا شك أن في خلق الإنسان على هذا النحو ، حكمة إلهية سامية :

فهل كان من حكمة الخالق أن يبصّر الإنسان بأنه لم يكن شيئا مذكورا ، فيتضاءل بنفسه أمام قدرة خالقه وعظمته فيؤ من إيمانا مطلقا بهذه القدرة ويتقيها فيتجه إلى ربه بالعمل الصالح ويسبّح بحمده ؟ أو هل كان من حكمته ، سبحانه وتعالى ، أن يبين للإنسان كيف أن الله قد خلق آدم أبا البشر من أدنى المواد ، وخلق بنى آدم من أدنى الحيوانات ، ثم أكرم آدم ونسله فأحسن صورهم وجعلهم أرقى الكائنات التى تعيش على الأرض ، فيذكروا نعمة ربهم ويشكروا للخالق فضله ، وهو سبحانه الغنى عن العالمين ؟

لا شك أن هذا وذاك كان إعدادا للإنسان ، الذى اختاره الله من بين خلقه واستخلفه فى الأرض ، ليؤدى فيها وظيفة سامية هى تعمير الأرض بالحق والعدل ، وفق مشيئة العليم الخبير ومحكم توجيهه ، فيحمل الأمانة مخلصا ومؤمنا بقدرة خالقه ، سائرا فى فكره وقوله وعمله وفق تعاليمه التى أنزلها لخير البشر أجمعين .

« مَنْ عَمِل صَالِحًا فلنفْسِه ومن أَسَاءَ فعلَيْها وما ربُّك بظلاُّم للعَبيدِ »(٢٧)

« هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كَفَر فَعَلَيْهِ كفرهُ ولا يَزيدُ الكافرينَ كفرُهُم عند ربهم إلا مَقْتاً ولا يَزيدُ الكافريَن كُفرهُم إلا خَسَاراً »(٢٨) .

ولوشاء الخالق ، جلت قدرته ، لجعل من الملائكة خلائفه على الأرض ، ولكنه سبحانه وتعالى ، ولحكمة لا يعلمها إلا هو ، قد شرّف الإنسان فاستخلفه في الأرض لإجراء أحكامه وتنفيذ مشيئته في عمارتها ونشر الخير فيها :

« وإِذْ قال ربُّك للملائكةِ إِنَّى جاعلٌ في الأرضِ خليفةً قالوا أتجعل فيها من يُفْسِدُ فيها ويَسفِكُ الدِّمَاء ونحن نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونَقَدِّسُ لَكَ قال إِني أعلمُ ما لا تعلمونَ »(٢٩)

وإذْ سوَّى الله بين الناس فى خَلقهم واستخلافهم فى أرضه ، ما زال سبحانه وتعالى ، يمتحنهم بالبسط والمنع ، فيجعلهم درجات بعضهم فوق بعض فى القوة أو فى المال أو فى العلم ، ليرى بعد ذلك سلوكهم بما قسم لهم ، ثم يجزى كل نفس بما كسبت وقدَّمت :

« وهـ و الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فـ وق بعض درجاتٍ ليَبْلؤكم فيها آتاكم إن ربَّك سريعُ العِقابِ وإنه لغفورٌ رحيمٌ "٣٠٪ .

فمنهم من اتقى ربه واهتدى بنوره ، ومنهم من مسه الشيطان بالغرور بما آتاه الله من مال وولد وسلطان فنسى ربه وأنكر نعمته ، وظن أن ما أوتيه من نِعَم لا فضل لأحد غيره فى إتيانه ، وأن ما أوتيه دائم وخالص له لا يقدر أحد أن ينزعه منه فيتعالى على الناس ويثير حقدهم ويفسد فيهم ، فيمد الله له فى الرزق ليزداد غرورا وعتوًا وفسادا وإفسادا ، ثم يأخذه ربه أخد عزيز مقتدر بكفره وظلمه ، وأى انتقام أشد على الإنسان من الفقر بعد الغنى ، وأى عذاب أقسى من الهوان بعد العزة والضعف بعد القوة .

فهذا قارون الذى آتاه الله من المال والسلطان ما لم يؤ تِ أحدا من البشر ، جعله مثلا فى القرآن وعبرة لمن يعتبر ، إذْ أخذه الله بغروره واستعلائه وكفره بنعمة ربه .

« إِنَّ قارونَ كان من قوم موسى فبغَى عليهم وآتيناهُ مِن الكنوز ما إِنَّ مفاتِحَهُ لتنوءُ بالعُصْبةِ أُولِي القوة إِذْ قال له قومُهُ لا تفرحْ إِنَّ الله لا يحبُّ الفَرِحِينَ »(٣١) . « وابْتغ ِ فيها آتاك الله الدَّارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبَكَ من الـدّنيا وأحْسِنْ كسها أحسَنَ الله الله الله ولا تَبْغ ِ الفسادَ في الأرض إنَّ الله لا يحبُّ المفسِدينِ ٣٢٥).

« قال إنما أُوتيتهُ على عِلم عندى أوَ لَم يعلمْ أنَّ الله قد أهلك مِن قَبْلِهِ من القُرونِ مَنْ هو أشدُّ منه قوةً وأكثرُ جُمْعاً ولايُسالُ عن ذنوبهِمُ المجرمونَ »(٣٣) .

« فخسَفْنا به وبداره الأرضَ فها كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ ينصرونَهُ مِن دُونِ اللهِ وما كانَ مِنَ المنتَصِرينَ »(٣٤) .

وليس المقصود بعدم فرح الإنسان حرمانه من السرور والسعادة أو أن يظل حزيناً مكتئباً ، بل المقصود به ذلك الفرح الذى يستخف صاحبه إلى عدم ذكر ربه وشكره على نعمه وتقواه ، ومظاهر هذا الشكر والحمد أن يحسن إلى الناس كها أحسن الله إليه وأن يعطى للغير بعضاً مما آكاه ربه من فضل ، وألا يتخذ مما أنعم الله عليه به وسيلة للفساد والإفساد .

والمقصود بعدم سؤال المجرمين ومناقشتهم الحساب يوم القيامة ، أنهم قد امعنوا في الإجرام وانغمسوا في ذنوبهم وهم على وعى تام بما يفسدون ثم لم يستغفروا ربهم ولم يتوبوا إليه ، فلا جدوى من مناقشتهم أو حسابهم يوم القيامة لأن جرائمهم وذنوبهم آخذة برقابهم ومحيطة بهم من كل جانب ، فهؤ لاء سيحشرون حشراً اكيداً مع أمثالهم في جهنم وبئس المصير .

ومَن غضب الله عليه ، صب عليه جام غضبه في دنياه أيضا قبل آخرته ، ليكون عبرة لغيره في الحياة الدنيا ، وهو سبحانه يأخذه أُخْـلَةً لا دافع لهما إلا هو العملي القدير ، وهل يستطيع مخلوق أن يدفع قَدَرَ الخالق ؟

فعلى المؤمن أن يتقى ربه فيها أنعم عليه به فيقابل نِعَمَهُ بحمده وشكره والعمل بأوامره .

وعلى المؤمن التقى ألا يستخفه الفرح بما آتاه الله ويفقده رشده فيطغى بِمَا لِه ويفسد . فالمؤمن التقى من ظل على ثباته وإيمانه وتقوى ربه فى السراء والضراء ، ولا يصرفه سروره ولا يهزه فرحه عن ذكر الله وشكره ، ولا ينأى به الحزن والأسى عن حمده والرضا بقَدَرِه وإسلام الأمر كله له وحده..

وما يجرى على الفرد بفساده أو تقواه بما آتاه الله من بسط أو قبض ، يجرى على الأمم ، فالأمة مجموع الأفراد على اختلاف درجاتهم ومستوياتهم ، إن صلح حال كل فرد فيها صلح حالها ، وإن فسد فسدت وذهبت ريحها .

وقد يمتحن الله الأمة بفرد يؤتيه القوة والسلطان ثم يؤمِرَه عليها ، ليرى سبحانه وتعالى مدى إيمان الأمة وثباتها على صراطه المستقيم ، وليرى هل تنجرف الأمة في تيار فساد حاكم وطغيان معتد أو تثبت على إيمانها وتقواها فتعيد المفسد إلى جادَّة الحق والصواب ، فيأخذها الله بما سلكت .

« وإذا أردنا أن نُهلكَ قريةً أمَرنا مُترَفيها فَفَسَقُوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدْميراً »(٣٥) .

والأمة إذا استسلمت لمعتد أثيم ، عاث فيها فساداً وأذلها وسامها الهوان :

« قالت إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزَّةَ أهلهـا أذِلَّةً وكـذلك يفعلون »(٣٦) .

وضعف الأمة النفسى واستسلامها للأراجيف والشائعات الباطلة التي ينفثها أعداؤ ها بين صفوفها حسداً وحقداً وطمعاً ، من عوامل تخذيل الأمة وانحلالها ونهايتها .

وانحلال أفراد من الأمة خُلُقياً يفشيّ الانحلال في الأمة كلها ، فيصيبها الضعف والتفكك ، فتصبح فريسة سهلة ولقمة سائغة لأعدائها المتربصين بها ، وينتهى أمرها إلى الفناء .

وتقليد الأمة الأعمى لمظاهر وعادات وتقاليد وطرق معيشة الأمم الأخرى ، من عوامل ضعف الأمة والحلالها ، فلا هي ثبتت على حالها الذي أملته عليها ظروفها وإمكاناتها وتقاليدها ، ولا هي أحسنت اختيار الصالح المفيد من غيرها من الأمم .

فتظل مهتزة متأرجحة بين هذه وتلك حتى تسقط فى الهاوية وتصبح كأن لم تكن بالأمس .

وفى القصص القرآنى الواقعى عبر وصور صادقة لمثل هذه الأمم التي آتاها الله فضلا من الغنى والسلطان مازادت به كفراً وبطراً وطغياناً ، فذهبت ريحها بما قدمت وأفسدت وخربت .

وها هو نوح عليه السلام ، جاء قومه بالحق من ربه ، فنأوا عن الحق وأمعنوا في الفساد ، فأخذهم الله بكفرهم ونَجيَّ من بينهم نوحاً ومن تبعه من الصالحين .

« فكذَّبوه فنجَّيْناه ومنْ معَه في الفُلْكِ وجعلناهم خلائفَ وأغرقنا الذين كذَّبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذَرينَ »(٣٧) .

« أو عجِبْتم أَنْ جَاءَكُم ذِكرٌ من ربِّكم على رجل منكم ليُسْلِرَكُم واذكروا إذْ جعلكم خلفاء من بعدِ قوم ُ نوح وزادكم في الحَلْقِ بَصْطَةً فاذكروا آلاءَ الله لعلكم تُفلِحون »(٣٨)

وهو سبحانه الذي ذهب بقوم عاد حين طغوا وأفسدوا في الأرض :

« كذَّبَت عادٌ فكيف كان عذابي ونُذُر $^{(P9)}$.

« إِنَّا أرسلنا عليهم ريحاً صَرْصَرًا في يوم نحس مستمر »(٤٠) .

 $_{\rm W}$ تُنْزِعُ النَّاس كأنهم أعْجازُ نخل مُنْقَعِر $_{\rm W}^{(1)}$.

ولما ذهب الله بقوم عاد بما كفروا ، استخلف من بعدهم قوم ثمود ، وأرسل فيهم نبيه صالحاً عليه السلام ، يختبر مدى إيمانهم بالله وتسليمهم له وطاعتهم أوامره وحمده على نعمائه بطاعة الله والعمل الصالح ، فلما عصوا أمر ربهم وكفروا به استحقوا من ربهم سوء العذاب .

« وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرُهُ قد جاءتكم بيّنة من ربكم هذه ناقةُ الله لكم آيةُ فذروها تأكلُ في أرض ِ الله ولاتَمَسُّوها بسوءِ فيأخذكمَ عذابٌ أليمٌ «٢١٪) . « واذكروا إذْ جعلَكُم خلفاءَ من بعدِ عاد وبؤَأكم في الأرض تَتَّخِذُونَ من سهولها قصوراً وتنجِتُون الجبالَ بيُوتًا فاذكروا آلاءَ الله ولا تعْثُوا في الأرضَ مفسدين »(٤٣) .

ولكنهم تحدُّوا أمر الله ، سبحانه وتعالى ، واستهانوا بالنذير :

« فعقرُوا النَّاقة وعتوا عن أمرِ ربِّهم وقَالُوا يا صَالِح ائتنا بما تَعدنا إن كنتَ من المرسلين »(٤٤) .

« فأخذَتْهم الرجفة فأصبحُوا في دارهم جاثمين »(٥٠) .

«أَفَأُمِنَ أَهُلُ القرى أَنْ يَاتِيهِم بِأَسُنا بِياتًا وهم نائمُون ٣٤١).

فلا أمن لمن عصى أمر ربه ، ولا أمان لمن كابر وكذب بالحق ، فالله قادر على أخذه من مامنه .

ومن بعد ثمود ، استخلف الله قوم موسى ، وأرسله إلى فرعون هاديا ومبشرا ونذيرا ، وجاءه من آيات الله المبينات ومعجزاته ما تخر له الجبال ، ولكن فرعون وبعضا من ملثه كذبوا ولم يؤمنوا ، فاستحقوا لعنة الله وغضبه ، وعذبهم العزيز القدير عذابا مهينا .

« فأرسلنا عليهم الطُّوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضفادِعَ والدَّمَ آياتِ مفصلاتٍ فاستَكْبَروا وكانوا قوماً مجرمينَ »(٤٧) .

« فانْتَقَمْنَا منهم فأغْرِقْنَاهُمْ في اليِّمَّ بِأُنَّهم كذَّبوا بآياتِنا وكانوا عنها غافِلينَ » (44)

ولما ذهبت ريح فرعون ، ومن تبعه في الكفر والاستكبار ، نَجيَّ الله نبيه موسى ومن معه من المؤمنين والمستضعفين من بني إسرائيل ، وأورثهم الأرض :

« وأَوْرثْنا القومَ الذين كانوا يُسْتَضْعَفونَ مَشَارِقَ الأرضِ ومغارِبَها التي باركنا فيها وتمت كلمةُ ربِّكَ الحُسْنَى على بني إسرائيلَ بما صَبَروا ودمَّرناً ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُه وما كانوا يَعْرِشُونَ «٤٩٠) .

ولكن بنى إسرائيل الذين أنكروا الحق بعد أن تبين ، بعد أن نصرهم الله بعد ضعف وهوان ، ما أن آتاهم الله القوة والعزة استجابة منه لذكرهم ودعائهم له ما لبثوا ، وقد زال عنهم الحوف ، أن كفروا بربهم وزادوا غرورا واستعلاء وعدوانا على أنبياء الله ورسله ، وحاجّوهم وكذّبوهم وقتلوهم وأنكروا وجود الخالق المبدع الذى يُبصر ولا يُبصر واتخذوا من دون الله عجلا أعجم يعبدونه ، فباءوا من الله بغضب

أبدى ، إذ كتب عليهم التشتت والتيه بلا أرض يستقرون فيها ولا وطن يلم شتاتهم كما ضرب عليهم الذلة والمسكنة والاحتقار من الخلق أجمعين .

« والذين كَذَّبوا بآياتِنَا ولِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعَمَالُمٌ هَلَ يُجِزَوْنَ إِلَا مَا كَانَـوا يَعْمَلُونَ »(٥٠)

« واتَّخَذَ قَوْمُ موسَى مِنْ بَعْدِهِ من حُلِيِّهم عِجْلا جَسَدا له خُوارٌ أَلَم يَرَوْا أَنه لا يكلمُهُم ولا يَهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين »(٥١) .

« إِنَّ الذين اَتَخُذُوا العِجْل سينالهُمْ غضبٌ مِنْ رَبِّهِم وذِلَّةٌ في الحياة الدُّنيا وكذلك نَجْزِى المفترينَ »(٥٢) .

« فلما نسُوا ما ذُكِّروا به أنجَيْنا الذين يَنْهَوْن عن السَّوءِ وأَخَذْنا الذين ظَلَموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسُقُونَ «٣٥٠) .

« فلما عَتُوا عما نُهُوا عنه قلنا لهم كونوا قِرَدَةً خاسئينَ »(*°) .

وهم بنو إسرائيل الذين قطعوا بكفرهم ما وصلهم بالله ، وهم بنو إسرائيل الذين قطعوا بظلمهم ما وصلهم بالناس فضرب عليهم الله الذلة والمسكنة ، وهم بنو إسرائيل الذين قتلوا رسل الله إليهم فاستحقوا لعنته فى الدنيا والآخرة :

« ضُرِبَت عليهِمُ الدُّلَّةُ أينها ثُقِفوا إلا بحبل من اللهِ وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضُرِبَتْ عليهِمُ المَسْكَنةُ ذلك بأنهم كانوا يكفُرُونَ بآياتِ اللهِ ويقتلونَ الأنبياءُ بغير حقَّ ذلك بما عَصَوْا وكانوا يَعْتَدُونَ »(٥٥)

وما أشبه بنى إسرائيل ، فى خداعهم وتدليسهم ، بأهل مدين الذين أكلوا أموال الناس بالباطل ، واحترفوا التجارة ، ولكنهم لم يسيروا فيها بشرف ولم يرعوا فيها ذمة ، بل اتخذوا من التجارة وسيلة لغش الناس وخداعهم وهضم حقوقهم ، واتخذوا فى سبيل تحقيق أغراضهم الدنيئة الإخلال بالميزان والعبث بالكيل ، إذا اشتروا من الناس زادوا فى هذا وذاك ، وإذا باعوا لهم نقصوهما ، ولم يُجُد معهم ما جاء به نبى الله شعيب من الحق والموعظة الحسنة ، فباءوا بلعنة من الله وخسروا دنياهم وآخرتهم .

« وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْبًا قال يا قوم اعبدوا الله مالكمْ مِنْ إلهِ غيرُهُ قد جاءتكم بيّنة من ربكم ، فأوفوا الكيلَ والميزانَ ولاتَبْخَسوا النّاسَ أشياءَهمُ ولا تُفسِدوا فى الأرض بعدَ إصْلاحِها ذَلِكم خيرٌ لكم إن كنتم مؤ مِنينَ »(٥٦) .

وجعل الحق تعالى لمن يسلك مسلك أهل مدين في أكل أموال الناس بالغش والتدليس مثل ما ينالهم من عذاب :

« ويلٌ للمطفّفِين * الذين إذا اكْتالوا على الناس يستَوْفون * وإذا كالُوهُم أو وَزنُوهمْ يُخسِرونَ * ألا يظُنُّ أولئك أنهم مَبْعُوثونَ * لِيَوم عظيم * يومَ يقومُ النَّاسُ لربِّ العالمينَ «(٥٧)»

هذه عبر من لدن الحكيم الخبير ، ومن تاريخ البشرية الواقعى أفرادا وجماعات لم يعتبر بها الناس للآن ، ولا يزال الناس فى تيههم وتخبطهم وضلالهم فى سلوكهم الدنيوى .

وها هى أمتنا الاسلامية منذ جاء محمد ﷺ بدعوة الحق بتاريخها الطويل مثلا حيا تتقلب فيه الأمة بين قوة وضعف وسمو وهبوط وغنى وفقر ما تمسكت بدينها أو نأت عنه .

لنرجع إلى خَلْق الإنسان وقد عرفنا المادة التي صنع منها أبو البشر والمادة التي صنع منها بنو آدم .

هذا الإنسان المتجسد أمام أعيننا ويتحرك على هذه الأرض ، مركب من جسم ظاهر ملموس ، وفى داخل هذا الظاهر المادى قُوَى أخرى غير مرئية تحرك ظاهر الإنسان المادى وتحدد سلوكه مع نفسه ومع غيره ، هذه القوى هى المسئولُ الأولُ عن نوع السلوك الإنسان ، مستقيماً كان هذا السلوك أو مُعْوَجاً .

وإن مايصيب الإنسان من خير أو شر نابع منه ، ومن صنع هذه القوى الخفية الكامنة في داخله ، وكذلك الحال في الأمة ، فها أصابها من خير أو شر كان نابعا من داخلها ، فالأمة مجموع الأفراد ، اذا ما استقام كل فرد استقام أمرها وبقدر نسبة المستقيمين الصالحين في الأمة بقدر ما يكون صلاحها أو فسادها .

فسلوك الإنسان إذن نوعان : سلوك مادى ظاهرى وسلوك معنوى باطني .

والسلوك الظاهرى مجاله جسم الإنسان وأعضاؤه ويظهر لنا هذا السلوك واضحا ملموسا في حركة جسمه أو عضو من أعضائه .

والسلوك الباطني مجاله الغرائز والعقل والضمير وهي عوامل دائمة النشاط والحركة داخل الجسم لايحس بها سوى صاحبها .

وما السلوك الظاهرى إلا انعكاس مادى للسلوك الباطني وبقدر سلامة الثانى وصلاحه .

وكما أن للجسم المادى وأعضائه وظائف حددها الخالق ، كذلك الأمر بالنسبة للعوامل الباطنية فلكل منها هدف حدده له الخالق وهي أهداف أراد بها الله خمير الإنسان وسعادته في دنياه وآخرته إذا ما هداه الله إلى تحقيق هذه الأهداف ولايهدى الله إلا من آمن به واتقاه وسار في حياته الدنيا وفق تعاليمه سبحانه وتعالى :

الغرائز أودعت الجسد (إنسانيا كان أو حيوانيا) لحفظ نوعه من الانقراض وهذا الحفظ منوط بنشاط الغرائز مجتمعة .

ومن هذه الغرائز غريزة حب البقاء وغريزة الجنس وغريزة حب التملك وغريزة السيطرة وغريزة حب البقاء والرغبة في السيطرة وغريزة اثبات الذات وهي كلها متفرعة من غريزة حب البقاء والرغبة في الخلود .

فغريزة حب البقاء تتطلب من الإنسان أن يخلفه من صلبه من يضمن لاسمه الاستمرار ، ولكى يولد له ولد لابد له من أنثى تنجب له هذا الولد ، وطريقه إلى ذلك هو الزواج بجميع طقوسه وضوابطه .

ويقال إن الغرائز عمياء إذا عملت بذاتهادون ضابط أو رابط فالغريزة كامنة في جسم الإنسان ولا يمكن مشاهدتها ولا معرفة مكانها ولكى تنشط لابد لها من مثير تنفعل به ، هذا الانفعال لايزال كامنا لايحس به إلا صاحبه ، فإذا قوى هذا الانفعال انطلق من جسم الإنسان في شكل أعمال وحركات ظاهرة وهذا ما يسمى بالنزوع أو السلوك وهذا ما يحصل من جميع الحيوانات العجماوات .

أما الإنسان الذى صوره الله وأحسن تصويره فقد أكرمه خالقه فزوده بالعقل والضمير ، بالعقل يتدبر طريقة تنفيذ متطلبات الغرائز وبالضمير يوجه هذا النزوع أو السلوك إلى عمل صالح يفيد صاحبه ومجتمعه فائدة حقيقية جديرة بإنسانيته .

٢ - والعقل هو تلك الأداة التى أكرم بها الله بنى آدم ليكون عونهم فى تدبير متطلبات الغرائز وتنفيذها ويقوم هذا التدبير على عدة خطوات متتالية متصل بعضها ببعض وهى ماتعرف بالعمليات العقلية ، وقد تنتهى هذه العمليات إلى التنفيذ الفعلى لمتطلبات الغريزة بما يفيد صاحبها فحسب ولو كان فيها إضرار بمصلحة المجتمع ، لولا تدخل الضمير .

٣ - والضمير هو مايسمى فى القرآن الكريم بالقلب أو الفؤاد أو النية ، وهو الذى يوجه الله سبحانه وتعالى إليه الحكمة والموعظة الحسنة ، فمن كان ضميره حيا ويقظا تعاون مع العقل فى تلبية متطلبات الغرائز بالتى هى أحسن ، والضمير الحى هو الذى يهدى الانسان بنور الهداية الربانية يميز به بين الخير والشر وبين الحق والباطل فيأخذ من هذا وذاك أحسنه ، مما يرضى الخالق والخلق ويصلح به حال صاحب هذا الضمير وحال المجتمع الإنسانى .

والإنسان الكامل من وهبه الله جسم سويا وعقلا سليما وضميرا حيا .

والضمير النقى الصافى هو قمة الكمال الإنسانى ، وهو الحارس الأمين الذى يقف أمام أهواء النفس البشرية ونوازعها ، يردها إلى الحق والصراط المستقيم إذا ما نزغ فيها الشيطان بالغواية والمعصية ، والضمير الحى هو الملهم والمرشد للعقل إلى اختيار أمثل الوسائل للسلوك السليم ، ومن تحكم ضميره فى فكره وقوله وعمله كان مركز إشعاع الخير للبشر أجمعين .

« وَنَفْس وَماسَوَّاهاَ فَأَلَمْمها فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَقْلَحَ مَنْ زَكَّاها * وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » (٨٥٠) .

« يُؤ تِي الْحِكْمَةَ مَنْ يشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثيراً وَما يَذَّكُّرُ إِلاّ أُولُوا الأَلْبَابِ »(٥٩) . ولولا هذا الضمير لزالت عن الإنسان كل الصفات الإنسانية الجديرة به ولظل الإنسان ملكا لغرائزه بدلا من أن يكون هو مالكها والغرائز هي أضعف نواحي النفس البشرية وأسرعها استسلاما لغواية الشيطان ، ورغم محاولات العقل كبح جماح هذه الغرائز وتوجيهها وجهة الخير لصاحبه وللمجتمع ، فإنه قد ينجح حينا ولكنه يفشل أحيانا بل قد يبلغ بالعقل القصور والضعف أمام إلحاح الغرائز لدرجة أنها قد تكون هي المنشطة والموجهة له فيساعدها على تحريك الجسم لإحداث ردود أفعالها حيال مثيراتها ويصبح العقل أداة الغرائز لا الموجه لها فيضل طريقه ويسلك أفعالها حيال مثيراتها ويصبح العقل أداة الغرائز لا الموجه لها فيضل طريقه ويسلك بصاحبه سلوكا شاذا لايرضاه الله ولايرضاه المجتمع وهنا مجال الحرب بين الشيطان وبين ضمير الإنسان ، وبقدر صفاء هذا الضمير ونقائه واستجابته لأوامر ربه بقدر ما تكون له الغلبة بإذن الله وبإرادته .

« وقُلْ لعبَادِى يَقُولُوا التي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ للإُنْسانِ عَدُوًّا مُبِينًا »(٦٠) .

فها أضعف هذا الإنسان الذي يعجز عن كبح جماح أهواء نفسه الأمارة بالسوء ! وما أكفره إذْ يعرض عن ذكر ربه فلا يشكر له نعمه !

وما أشد ضلاله إذْ ينأى عن الاستجابة لدعوة الحق والإيمان بالله وحده وتقواه! وما أتعسه إذ يظل كالريشة في مهب ريحي الخير والشر!

إلا من أتى ربه بقلب سليم ، فيذكر نعمته عليه ويلهج لسانه بالحمد والشكر لم ، لابالقول فحسب بل بالعمل الصالح ، وأن يكون مع خالقه فى حربه للشيطان ، مهتديا فى سلوكه بما أنزل الله من محكم آياته .

" إِنَّ الإِنسانَ خُلقَ هَلُوعاً * إذا مسه الشُّرُ جَزُوعاً ، وإَذَا مسه الخيرُ مَنوُعاً * إلا المصلَّين * المصلَّين * المنين هم على صَلاَتِهِم دائمون * والمنين في أموالهم حقٌ معلومٌ * للسَّائِل والمحروم "(٢١) .

فلا يزال الإنسان هلوعا قلقا ، مرتعبا بين توقع الخير وتوقع الشر ، مترددا بين فعل الخير وفعل الشر لأن نفسه منزع النقيضين ، ولايزال الإنسان يائسا قانطا إذا ما

حل به سوء وهو لايدرى ولايريد أن يدرى ، أن ما لحقه من سوءٍ إنما بفعله وسلوكه هو وحده ، وأنه قد كسب بما قدمت يداه :

« فأصابهم سَيَّئَاتُ ما كَسَبُوا والَّذينَ ظَلَمُوا مِن هَوُّلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيَّئاتُ ما كَسَبُوا وما هُم بُعْجِزينَ »(٦٢) .

ومن الناس من ضعفت تقواه وخبا إيمانه فكفر بنعمة ربه وفضله حيث يجب شكره وحمده ، فلا يلجأ إليه ولا يذكره إلا عندما تحل به مصيبة وعندئذ يجأر بدعاء ربه ، ملتمساً منه العون والغوث :

« وإذا أنعمناً على الإنسانِ أعْرَضَ وناى بجانبِه واذا مسهُ الشَّرُ فذو دعاءٍ عَرِيضٍ ١٣٥٠) .

« واذا أنعَمْنا على الإنسانِ أعرضَ ونأى بجانبِه وإذا مسَّه الشَّرُ كان يَّتُوساً »(٦٤) .

بل إن ضعف النفس البشرية قد يذهب بصاحبها إلى أبعد صور الغرور والمحدود والكفر اذا ما آتاه الرحمن فضلا أو نعمة ، فيصور له خياله السقيم وضميره المريض أن ما به من نعم وسعة ورزق إنما هو من صنع يديه وبتدبير منه ، ولا فضل لأحد عليه ، فتأخذه العزة بالإثم ، ويزداد بنفسه غرورا وعلى الناس استعلاء وفي النا أنساداً:

مس الإنسانَ ضُرُّ دعانا ثم إذا خوّلناه نعمةً مناً قال إنما أوتيتُهُ على عِلم بل ان أكثَرَهُم لايعلمُونَ «(٦٥) .

« لاتَحْسَبَنَّ الذين يفرحونَ بما أَتُوا ويجبون أن يُحمَدوا بما لم يَفعلوا فلا تحسَبَنهم بعازةٍ من العذاب ولهم عذابٌ أليمٌ »(٢٦) .

« قُتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَهُ » (٦٧).

ومن الغرائز المركبة فى النفس البشرية ، غريزة حب السيطرة ، تلك الغريزة التى أودعها الله فى الإنسان لحكمة إلهية هى أن يوجهها الإنسان إلى السيطرة على موارد الأرض الطبيعية ليستخدمها كأدوات ومواد لتعمير الأرض التي أراد الله لها

العمران لمصلحة البشر أجمعين ، لا لفرد واحد ولا لأمة بعينها ، لذا أمد الله الإنسان بالعقل المدبر وأنزل إليه آيات مبينات لطرق هذا الاستغلال وأهدافه النبيلة ، ثم حذره من الإفساد في الأرض باتخاذ خيراتها وسيلة للتسلط والاستبداد والتعالى والإفساد فليس الهدف من السيطرة على موارد الطبيعة هو التعمير والاستمتاع في الحياة الدنيا فحسب بل العمل والتمهيد أيضا لحياة أفضل وأبقى ، وهي الحياة الاخرة وما فيها من نعم أعدها العلى القدير لعباده الصالحين .

« وما هذه الحياةُ الدنيا إلاّ لهوَّ ولعبُّ وإن الدارَ الآخِرَةَ لهى الحيوانُ لو كانوا يُعلمونَ »(٦٨) .

« زُيَّنَ للناس حَبُّ الشهوات من النساءِ والبنينَ والقناطير المقنطرةِ من الذهب والفضةِ والخَيْلِ المُسَوَّمةِ والأنعامِ والحرثِ ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حُسْنُ المَّابِ هِ (٢٩) .

« وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكَلاً لمَّا * وَتَحْبُونَ المَّالَ حَباً جَمَّا * (**) « كَلاً إِنَّ الإنسانَ لَيَطْغَى * أَن رآه استغْنَى * (**) .

ومن الناس من تنحرف به غريزة حب السيطرة فتأخذه العزة بالاثم ، ويتناسى ضعفه أمام القوى القهار ويزداد بنفسه غرورا ، فيفسد فى الأرض حيث ظن سوءاً أنه من المصلحين :

« وإذا قيلَ لهم لا تُفْسدوا في الأرض قالوا إنَّما نحن مُصلحون * ألاّ إنهم هُم المفسدونَ ولكن لاّيَشعُرون »(٧٢) .

ومن الناس من يمدهم الله بما يشتهون من متاع الدنيا ، ليفتتن بها ضعاف الإيمان افتتانا قد يصرفهم عن ذكر ربهم وتقواه ، ويزيدهم غرورا وعتوا وفسادا وإمعانا في الضلال ، حتى يأخذهم القرى الجبار بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر ، ويا له من عذاب :

« واعْلموا أنما أموالُكُم وأولادُكُم فِتنةٌ وأنَّ الله عندهُ أجرُ عظيمٌ »(٣٣)

« ولا يحْسَبَنَّ الذين كفروا أَغَا نُملي لهم خيرٌ لأنفُسِهِمْ إنما نُملي لهم ليزدادوا إثْماً ولهم عذاتُ مُهينُ »(٧٤) .

« نُمَتُّعُهُم قليلاً ثم نضطرُهمْ إلى عذابِ غليظٍ »(٧٥).

« مَن يُضْلِل اللهُ فلا هادى لهُ ويذَرُّهُمْ في طُغْيانِهم يعْمَهُون »(٧٦) .

« قُل اللَّهُمَّ مالكَ المُلك تُوْق المُلْكَ من تشاءُ وتنزعُ المُلْكَ بمن تشاءُ وتُعزُّ مَن تشاءُ وتنزعُ المُلكَ على الله على كل شيءٍ قديَّر »(٧٧) .

ومن أحسن عملا بمن إذا آتاه ربه الجاه والسلطان ازداد تـواضعا مـع الناس وخشرعا لربه وتقواه بالصلاة والعمل الصالح ، وهؤلاء هم :

« الذين إنْ مكَّنَاهُمْ فى الأرض أقاموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ وأمروا بالمعروفِ ونَهَوْا عن المُنكر ولله عاقبةُ الأمور »(٧٨) .

ومن مظاهر حب السيطرة تلك الرغبة الجامحة التي تتسلط على ضعيف النفس قليل الإيمان فتدفعه إلى الرغبة في إثبات ذاته ووجوده بمظاهر مصطنعة كاذبة ، يتظاهر بها أمام الناس ظنا منه أنه بهذا السلوك إنما يبرز شخصيته ويضخمها أمام الغير ، وكأنه باصطناع هذا السلوك يشعر في قرارة نفسه بتفاهته وقلة حيلته وقصور تفكيره ، وغير ذلك من نواحي شعوره بما فيه من نقص خِلْقِي أو خُلُقي ، أو لمجرد استجابة لا واعية لما يلبسه شيطانه من غرور أجوف بأهميته وهو بهذا السلوك الأعوج لايعرف ولا يويد أن يعرف أن من البشر من هم أهم منه وأعظم شأنا وإلى ربهم أحب وأقرب ، يريد أن يعرف أن من البشر من هم أهم منه وأعظم شأنا وإلى ربهم أحب وأقرب ، فيتخبط في سلوكه ويبدى من الأقوال والأفعال مالا يقصد به وجه الله ولا خير الناس ، وقد يجد مثل هذا المغرور من المنافقين والوصوليين من يتظاهر له بالإعجاب أو التعظيم طلبا لمنفعة أو مصلحة يتقاضونها منه أو خوفا منه ودفعا لأذاه ، وهذا وذاك أو التعظيم طلبا لمنفعة أو مصلحة يتقاضونها منه أو خوفا منه ودفعا لأذاه ، وهذا وذاك بهوان شأنه أمام الله وأمام الناس :

١ - فمن هذا اللون من الناس من يلبس ثوبا فضفاضا من الكبرياء المزيفة فى سيره أمام الناس . . فيتمايل مختالا فى مشيته ذات اليمين وذات الشمال ويدب على الأرض بقدميه عامداً ليلفت الأنظار إليه ، ويميل برأسه جانباً إذا ما تحدث إلى أحد ،

إمعانا منه فى التعالى على الغير ولا يدرى هدا المغرور أنه بسلوكه هذا إنما يثير كراهية الناس ويفقد حب الله له ، وينهى العلى المتعالى عن مثل هذا السلوك :

« ولا تصعّر خدَّكَ للناس ولا تمش ِ في الأرض ِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يحبُّ كلَّ مُحتال ٍ فَخورٍ ﴾ (٧٩) .

« ولا تمش في الأرض مَـرَحاً إنـك لن تَخْرِقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبالَ طولاً »(٨٠) .

٢ - ومنهم من إذا تحدث جأر بصوته وزعق ، حيث لا موضع ولا مناسبة للزعق ، إنما هو حب السيطرة وإثبات الذات ، أوحيا إليه ودفعاه إلى هذا المسلك الشاذ ليلفت به الأنظار إلى شخصه التافه ويشد آذان الناس للاستماع إلى صوته المنكر ، ويأخذ القرآن الكريم بأذن هذا الدعى ليلقى إليه النصح بأسلوبه اللاذع المبين :

« واقصِدْ في مَشيِك واغْضُضْ من صِوتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْخَمرِ (٨١) .

٣ - ومنهم من يحاول إثبات ذاته بغير حق وتأكيد وجوده في غير موضعه فيتخذ دوراً إيجابياً في المجتمع ، لا ليعمل صالحاً ، بل بالعدوان أو بالتطاول على من هر أكبر منه سناً أو أعلى مقاماً أو أكثر علماً ، فيحاول هذا المغرور تصدُّر المجالس وإقحام نفسه على رأس زمرة من الناس ، قد يكون هو أقلهم شأناً ومقاماً ، وكأنه يريد بهذا السلوك المضحك أن يثبت أنه أعلاهم مقاماً وأكثرهم علماً ، ليلفت إليه الأنظار ولينتزع من الناس على غير رغبة منهم ، اعترافاً بوجوده ، بينها الجمع لا ينظر إليه ولا يحس به ، فيفسد بهذا التصرف الصبياني نظام هذا الجمع ، ويبث فيه الموضى والهرج . ورحم الله امراً عرف قدر نفسه ، فوضعها حيث يجب أن تكون : فها أجدر الكثير من هؤلاء الأدعياء بالتمعن في هذه الآية الكريمة والامتثال لحكمتها :

" ياأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تَفَسَّحُوا فى المجالس فافسَحوا يفسَح اللهُ لكم ، وإذا قيل انْشزُوا فانشُزُوا يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجاتٍ والله بما تعملون خبيرٌ ه(٨٢) .

٤ - أما هذا الذي يناقش غيره واضعاً في تفكيره وفي ضميره ، باديء ذي بدء ، أن يفرض رأيه على غيره فرضاً وبغير حق ، فأمره أعجب ومسلكه أضل ، فهو يرفض أي رأى مهم كان حقاً بيّنا ، فهو لا يقصد بمناقشته الوصول إلى الحق أو تبين الصواب للوصول بهما إلى حل سليم ، ورغم علم هذا المتطفل المغرور ويقينه بتفاهة رأيه وسقم تفكيره ، فإنه يغمض عينيه ويصم أذنيه ويغلق عقله ، عامداً متعمداً ، عن الحق البين والقول الفصل في موضوع المناقشة ، إنما هي الكبرياء الجوفاء وحب الظهور الذي يملى على صاحبه الوقوف موقف العناد الصبياني ، فلا يعترف بالحق رغم وضوحه ورغم اقتناعه به في قرارة نفسه ، ولا يدرى هذا المسكين أنه بغروره هذا وبإنكاره للحق البين ، إنما يضيع الحقيقة ويميعها ، ويخمد الرأى الصائب في موضوع معين قد يتوقف عليه مصيره ومصير مجتمعه فيصيبهم ابالدمار، وفي مجتمعنا المعاصر الكثير من هذه المشاهد المؤسفة ، فكم من رأى صائب قد أخد وكم من حق بين قد أهدر ، لا لسبب إلا لأن صاحب هذا الرأى موظف صغيرياً لي رئيسه الأخذ برأيه رغم وضوحه ، وكيف يأخذ برأى مرءوسه رغم صدقه ووضوحه ؟ كيف يأخذ برأى من هو أقل منه مركزاً ، وهو الذي يظن ، تعالياً وغروراً بمركزه ، أن كلمته هي الكلمة الفاصلة بين الحق والباطل ، وأن رأيه هو الحل الذهبي لأية مشكلة ، فيضيع على هذا المكابر المتعالى وعلى مجتمعه الكثير من الخير والنفع ويصيبها بالـدمار والضياع:

« يجادلونك في الحق بعد ما تبينَ كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرونَ »(٨٣) .

« ولا تَلْبِسُوا الحقُّ بالباطِل وتكتُمُوا الحِقُّ وأنتم تعلمونَ »(٨٤) .

« وإنْ تَـدْعُوهُم إلى الهـنكى لا يتبعوكُم ، سـواءً عليكم أدَعَـوْتُمـوهم أمْ أنتم صامتون (٨٥٠) .

٥ - ومنهم من مات ضميره وخبا إيمانه بربه ، وانحطت ذاته في دخيلة نفسه ، وهو على الله والناس أهون ، فيحاول بالباطل وبالسّفة ، إعلاء شأنه بغير حق أمام غيره أن فيدفعه تفكيره السقيم وخبث طويته إلى سلوك أعوج ، إذ يعمد إلى الحطّ من شأن غيرة بالسخرية منه وبالتعريض به بنابي الألفاظ والألقاب بل قد يذهب به كفره وغواية شيطانه إلى نهش أعراض الناس كذباً وافتراء ، وكشف ما أمر الله بستره ،

ظناً منه أنه بقدر ما يحط من شأن الغير ، بقدر ما يعلى من شأن نفسه فى أعين الناس ، فياله من ضلال ما بعده ضلال ! وياله من فساد ما بعده فساد ! وعلى شخص هذا خلقه وسلوكه تدور دائرة السوء ، فيبوء باستهجان الناس له ، وبغصب الله عليه

« ياأيها الذين آمنوا لا يسْخُر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكنَّ خيراً منهنَّ ولا تَلْمِزُوا أنفسَكم ولا تَنَابَزُوا بالألقاب بئس الاسمُ الفُسوقُ بعدَ الإيمانِ ، ومن لم يتبْ فأولئك همُ الظالمون »(٨٦).

« إن الذين يرمون المحُصَنَاتِ الغافلاتِ المؤمناتِ لُعِنوا فى الدنيا والآخرِة ولهم عذاتُ عظيمٌ «(٨٧) .

7 - ومن محبى السيطرة وعشاق الظهور في المجتمع من يلجأ إلى وسائل الإعلان عن نفسه بما أعطى للناس بما أعطاه الله : ويتخذ بما أحسن به إلى الناس وسيلة لهذا الإعلان ولهذه الشهرة ، ويرمى بذلك إلى اكتساب شهرة دنيوية عاجلة تظهره أمام الملأ بمظهر الرجل السخى النافع ، بل انه قد يتعمد العطاء أمام أكبر عدد مكن من الناس . إمعانا في توسيع دائرة ظهوره وشهرته ، لا ابتغاء مرضاة الله فحسب ، ولا يدرى هذا المسكين أنه بهذا النوع من العطاء قد أذل من ظن أنه قد أحسن إليه . وقد يدفع حب الشهرة بصاحبها إلى الإعلان عن كرمه واحسانه بالكلمة والصورة على صفحات الصحف والمجلات ، إن مثل هذا الإحسان لايقبله بالكلمة والصورة على صفحات الصحف والمجلات ، إن مثل هذا الإحسان لايقبله جزاءً ما ناله من شهرة دنيوية موهومة :

« والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤ منون بالله ولا باليوم الأحر ومن يكن الشيطانُ له قرينا فساء قريناً «^^^ .

٧ - ومنهم من يغادع الناس بالقول دون العمل ، ويحاول النظهور عليهم بالتباهى بعلمه ، وحكمته فبلقى إليهم بالنصائح والمواعظ ذات اليمين وذات اليسار وينسى أن ببدأ بنفسه ليعطها بالعمل بالتي هي أحسن وأقوم ، أو قد ينسب لنفسه عملاً عظيها نافعاً ، وهو لم يمارسه ولم ينجزه ، إنما هو يريد بكل هذا أن يظهر على المجتمع ويثبت وجوده وهو القليل الحيلة ، كل بضاعته في الدنيا كلام مزوق هو أبعد الناس عن الأخذ به ، فلا يكسب من سلوكه هذا إلا غضباً من الله ومقتاً .

« ياأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلونَ * كَبُر مَفْتاً عند اللهِ أن تقولوا مالا تفعلونَ »(٨٩) .

وبعد ، فتلك مقدمة لابد منها لكشف جوهر الكائن الإنساني ودوافع سلوكه يقف منها القارىء على حقيقة الإنسان عارية لا لبس فيها ولا غموض ، ويتبصر فيها ويتأمل خلقه ونشأته إذ لم يكن شيئاً مذكوراً ، وليكون على بينة وبصيرة . . . بخفايا نفسه ونزعاتها ، وليدرك منها الحكمة الإلهية من خلقه واستخلافه على هذه الأرض ، ويهتدى بها إلى كوامن نفسه وأهوائها ونزعاتها ، ويدرك منها دوافع سلوكه وأهدافه فيختار من هذه الأهداف أحسنها وأصلحها ويتجنب من المسالك ما يؤدى به إلى التلف والفساد ، وليدرك منها أقوم السبل لتهذيب هذا السلوك ليرتقى به إلى المستوى الذى حددته تعاليم الخالق الحكيم فيها نزل على خاتم رسله في خاتم كُتبه سبحانه وتعالى ، هذا القرآن الكريم الذى جاء مصدقاً لما سبق من كتب الله المنزلة ، هدى وتبصرة لقوم يتفكرون ويؤ منون ، حتى لايكون للناس على الله حجة بعد كتبه ورسله ، يوم يقف الإنسان بين يدى خالقه سافراً عارياً ، لاحول له ولا قوة ، يحاسبه ربه حساباً عسيراً على ما قدمت يداه في حياته الدنيا ، ومَنْ أحسَنَ عملا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

تلك مقدمة لابد منها لما يلى من فصُول هذا البحث ، كى يقف منها موقفاً واعياً من آمن بالله وباليوم الآخر ، فيتجه إلى الخالق جل وعلا بقلب خالص ذاكراً متذكراً ، ملتمساً منه الهداية إلى أقوم المسالك فى رحلته القصيرة فى حياته الدنيا وليتزود منها ويتجهز فيها لآخرته حتى يقف أمام ربه راضياً مرضياً فى هذه الحياة الدنيا وفى يوم البعث والحساب المحتوم .

وليس هناك أصدق من آيات الله البينات في قرآنه الكريم مرجعا ، يرجع إليه المؤمن في حركته وسكونه يتلمس في نصوصها ومعانيها وتوجيهاتها صراط ربه المستقيم ، ويهتدى بها في حياته الدنيا فكراً وقولاً وعملاً ، فينظم علاقته بربه وبنفسه ومجتمعه على أسس سليمة من الحق والعدل ، فيكون بذلك قد أدى الأمانة التي من أجلها خلقه الخالق وسواه ثم استخلفه على هذه الأرض .

وأى مرشد إلى الحق والعدل خير من آيات الفرقان لمن خلص قلبه وَصَفَا ضميره ؟ وأى هاد إلى الصواب والرشاد خير من آيات القرآن لمن شرح الله صدره للإيمان بخالقه الأحد وبكتبه وبرسله وباليوم الأخر ؟ تلك هي الآيات القرآنية التي وجهها العزيز الحكيم للناس كافة ، في كل زمان ومكان .

هوامسش البساب الأول

- (١) الأعراف ٢٠٤.
 - (٢) الإسراء ٩ .
- (٣) الأنعام ١٥٣ .
- (٤) آل عمران ٣.
- (٥) الشوري ١٣.
- (٦) السجدة ١٥ .
- (٧) السجدة ١٦ .
 - (٨) الأنفال ٢ .
 - (٩) الزمر ٢٣ .
- (١٠) الإسراء 14.
- (١١) الإسراء ٩٥.
- (١٢) آلَ عمران ١٠٤ .
- (١٣) من سورة القلم ١-١٣ .
 - (١٤) النحل ٤ .
 - (١٥) الإنسان ٣.
 - (١٦) مريم ٩ .
 - (١٧) آل عمران ٥٩ .
 - (١٨) السجدة ٧ .
 - (١٩) الصافات ١١. (۲۰) الجنجر ۲۲.
 - (٢١) الرحمن ١٤.
 - (٢٢) الأعراف ١٢.
 - (۲۳) المرسلات ۲۰.
 - (٢٤) القيامة ٣٧. (٢٥) العَلَق ٢ .
 - (٢٦) المؤمنون ١٢-١٤ .
 - (۲۷) فصّلت ٤٦ .
 - (۲۸) فاطر ۳۹.
 - (٢٩) البقرة ٣٠.
 - (٣٠) الأنعام ١٦٥.
 - (٣١) القصص ٧١.
 - (٣٢) القصص ٧٧.
 - (٣٣) القصص ٧٨ .

- (٣٤) القصص ٨١.
 - (٣٥) الإسراء ١٦ .
 - (٣٦) النَّمل ٣٤.
 - (۳۷) يونس ۷۳ .
 - (٣٨) الأعراف ٦٩ .
 - (٣٩) القمر ١٨.
 - (٤٠) القمر ١٩ .
 - (13) القمر ٢٠.
 - (٤٢) الأعراف ٧٣.
 - (٤٣) الأعراف ٧٤ .
 - (٤٤) الأعراف ٧٧.
 - (٤٥) الأعراف ٧٨.
 - (٤٦) الأعراف ٩٧.
- (٤٧) الأعراف ١٣٣.
- (٨٤) الأعراف ١٣٦.
- (٤٩) الأعراف ١٣٧.
- (٥٠) الأعراف ١٤٧.
- (٥١) الأعراف ١٤٨.
- (٥٢) الأعراف ١٥٢.
- (٥٣) الأعراف ١٦٥.
- (٥٤) الأعراف ١٦٦.
- (٥٥) آل عمران ١١٢.
 - (٥٦) الأعراف ٨٥.
- (٥٧) الطففين ١-٠٢ .
- (٥٨) الشمس ٧-١٠ .
 - (٥٩) البقرة ٢٦٩ .
 - (٦٠) الإسراء ٥٣ .
- (٦١) المعارج ١٩-٧٥. (۹۲) الزمر ۵۱ .

 - (۹۳) فصلت ۵۱ . (٦٤) الإسراء ٨٣.
 - (٦٥) الزَّمر ٤٩ .
- (٦٦) آل عمران ١٨٨.
 - (٦٧) عبس ١٧ .
- (٦٨) العنكبوت ٦٤ .
- (٦٩) آل عمران ١٤.
- (٧٠) الفجر ١٩، ٢٠ .
 - (٧١) العلق ٢ ، ٧ .
- (٧٢) البقرة ١١، ١٢.
 - (٧٣) الأنفال ٢٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- (٧٤) ال عمران ١٧٨.
 - (٧٥) لقمان ٢٤.
- (٧٦) الأعراف ١٨٦.
- (۷۷) آل عمران ۲۹ .
 - (٧٨) الحج ٤١ .
 - (٧٩) لقمآن ١٨.
 - (۸۰) الإسراء ۳۷ .
- (٨١) لقّمان ١٩ .
- (٨٢) المجادلة ١١ .
- (۸۳) الأنفال ٦
- (٨٤) البقرة ٢٤ .
- (٨٥) الأعراف ١٩٣.
- (۸۹) الحجرات ۱۱ .
 - (۸۷) النور ۲۳ .
 - (۸۸) النساء ۳۸.
- (٨٩) الصف ٢، ٣.

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





معنى الإيمان:

الإيمان لغوياً من أمن بمعنى لم يخف ولم يتردد ، بل اطمأن وهدأ باله واستقرت نفسه ، لأنه أمن من أن يلحقه شيء يؤذي ضميره أو فكره أو جسده ، هو ومن يحب .

والشخص الأُمُن هو المطمئن ، ومنها الأمين هو من كان موضع الثقة والأمان والاطمئنان على ما يودع عنده من أمانات ، مادية كانت أو معنوية .

وآمن الشخص بشيء أو شخص آخر بمعنى صدق وأذعن لهما عن فهم واقتناع ويقين ، بعيداً عن الوقوع تحت أى ضغط من أى نوع ، ترهيبا كان هذا الضغط أو ترغيبا .

واسم فاعلها مؤمن وهو المذعن المصدق بلا حدود وبدون أى قيد أو شرط ومصدرها إيمان .

والإيمان بالمعنى الديني هو التصديق والإذعان والخضوع المطلق لإله واحد ، والاستسلام لمشيئته عن اقتناع تام وبغير تحفظ أو تحت أى ضغط من أى نوع كان .

والإيمان الراسخ بالله هو عهد وميثاق يقطعه العبد طواعية لربه ، ويهدى صاحبه دائماً إلى الصواب في سكونه وحركته ، ويلهمه الحق في كل ما يحس به أو يفكر أو ينطق أو يعمل ، وبقدر ما يكون المؤمن من قوة يقين بربه ، وبقدر ما يكون على علم به من صفات نفسه ونزعاتها ، وبقدر ما يتأمل في آيات الله البينات فيها يقع عليه بصره أو حسه من أسرار هذا الكون ، وبقدر بعده عن هوى النفس وغرورها بمظاهر الدنيا البراقة ، وبقدر عدم المغالاة في حب هذه المظاهر والاستمتاع بها بما فيها من مال وجاه وزخرف . بقدر هذا كله أو بعضه ، بقدر ما يكون قرب المؤمن أو بعده عن ربه ، وقوة إيمانه أو ضعفه .

والمؤمن المسلم هومن سار على هذا المعنى فكراً وقولاً وعملاً ، ففى الإسلام لله العزيز الحكيم ، والإيمان بكتابه الكريم ، وأداء فرائض دينه القويم فى العبادات والمعاملات ، فى كل هذا الخير كل الخير للمسلم وللمجتمع الإسلامى وتسديد خطاهما واطمئنانها وسلامة بناء المجتمع الإسلامى كله وترابطه ، لتكون من هذا المجتمع بحق ، خير أمة أخرجت للناس ، أمة تدعو إلى الحق وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

والمؤمن المسلم هو من آمن بالله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ، والمؤمن المسلم هو من أسلم وجهه وأمره لربه وخالقه ومنشئه ومسيره ورازقه وهاديه ، والمؤمن المسلم هو من آمن بما أنزل الله من كتب وخاتمها قرآنه الكريم واتخذ منه دستوره في حياته الدنيا ليكون في آخرته من الصالحين ، والمؤمن المسلم هو من آمن برُسُل ربه الذين اصطفاهم من بين خلقه ليبلغوا الرسالة وخاتمهم الرسول الأمي الأمين محمد بن عبد الله على الذي لاينطق عن الهوى بل يبلغ ما أوحى إليه من ربه . والمؤمن المسلم هو من آمن باليوم الآخر ، يوم حساب الخالق لخلقه على ما قدموا في حياتهم الدنيا ويجزى كل إنسان بما كسب .

الفصل الأول

موضع الإسلام من الأديان السماوية

إن كلمة الإسلام تعنى لغوياً التسليم والاستسلام وتعنى بالمعنى الدينى إسلام الانسان نفسه ، جسدا وفكرا وقولا وعملا وكل كيانه لله عز وجل ، وصفته مسلم ، وهو من يعمل بتعاليم الله الواحد الأحد وأوامره الواردة في خاتم كتبه ، القرآن الكريم وكلها أوامر وتعاليم وشرائع لصالح الإنسان في دنياه ، وزاد له في آخرته . . وهي تعاليم وشرائع وأوامر أنزلها الله ، سبحانه وتعالى في كل كتبه على كل رسله .

ومتى أسلم الإنسان لرب العالمين ، حصن نفسه من غوايـة الشيطان الـذى يوسوس له بفعل الشر الذى يقوده هو ومجتمعه إلى التعاسة والبوار فى حياته الدنيا ، وسوء المصير فى الحياة الآخرة .

إن الأديان السماوية جميعها تهدف لخير الانسان وتطهيره من وسوسة الشيطان الذي تربص لابن آدم بالغواية والسوء حقدا وحسدا منه على هذا المخلوق الذي انحدر ممن خلِق من طين الذي أبي إبليس أن يسجد له كها أمره الخالق. فباء هذا العاصى المارق ومن تبعه بلعنة الله وغضبه:

« قَالَ لَمُ أَكُن لأسعَجُدَ لَبُشَرٍ خَلَقَتُهُ مِن صَلْصَالُ مِن حَمْمٍ مُسنُونَ » (١)

فرجره الله ولعنه ، إذْ :

« قال فاخرجْ منها فإنك رَجيم » * « وإنَّ عليك اللعنةَ إلى يوم ِ الدينِ » (٢) ويتمادى إبليس اللعين في عصيانه وضلاله ، إذْ :

« قال ربِّ بما أَغوَيْتَنِي لأزَيِّننَّ لهم في الأرض ولأغوِينهم أجمعين »(٣)

ومن ثم رعى الله القوى القدير بنى آدم الذين استخلفهم فى الأرض وأمدهم بأوامر ونواهٍ ربانية ، وقاية لهم من كيد إبليس وغوايته لهم ، فأنزل كتبه على رسل منهم وحمّلهم أمانة تبليغها للناس كافة هَدْيا لهم إلى صراطه المستقيم ، مبشرين ومنذرين :

منذرين بعذاب مهين من خالف أمر ربه واتبع خطوات الشيطان ، ومبشرين بالخير العميم في الدنيا والآخرة من خضع وأسلم لله .

فمصدر الكتب السماوية كلها واحد ، هو لوح الله المحفوظ لدن العليم الخبير ، الواحد الأحد الذى لا إله غيره ، يُعبد ويُتقى ، وليس من سواه يُؤمَن به وبكتبه ، وهو الله الأزلى المطلق الذى لا يحده مكان ، ولا يشتمل عليه زمان ، وهو سبحانه القوى المعز ، وبذاته من لم يلد ولم يولد ، ولا شريك له ولا شيء مثله يعبد . فالخالق واحد والمبدىء واحد والمدبر واحد ، والذى خلق وقدر الحياة والموت والبعث والحساب هو الله وحده ، وهو وحده المحيط علما بكل خلقه فى كونه الواسع الذى لا يعلم حدوده إلا هو ، وهو الأول وهو الآخر وهو وحده الذى له الملك وإليه المصير ، هو وحده له الذكر وله الحمد والشكر فى كل زمان وفى كل مكان وفى جميع الأحوال . . . هو وحده القادر على أن يقول لما يريد كن فيكون .

هو الذي أنزل على البشر كتبه بالدعوة إلى المعروف وبالنهى عن المنكر ، ومن سار على هدى كتبه المنزلة اهتدى للحق ، ومن نأى عنها وكابر ضل فاستحق الحساب والمساءلة يوم البعث العصيب . وما صرف بعض أهل الكتاب عن الإيمان بخاتم كتب الله وبخاتم رسله إلا الغرور بما آتاهم الله من عز وسلطان وإلا الحسد لمن أنزل لهم خاتم رسل إليهم خاتم رسله .

ولقد كان بعض أهل الكتاب قبل الرسالة المحمدية فى شقاق فيها بينهم ، كل منهم يدعى أنه شعب الله المختار وأن كتابه هو خاتم كتب الله وأن دينه هو الأحق بأن يتبع . وكأن كلا منهم قد أحاط علما بحكمة الله وحُكمِه وقَدَرِه :

« وقالتِ اليهودُ ليستِ النَّصارَى على شيءٍ وقالت النصارى ليستِ اليهودُ على شيء وهم يتُلون الكتابَ كذلك قال الذينَ لا يعْلمُون مِثلَ قولِمِم ، فاللهُ يحكمُ بينهمُ يوم القيامةِ فيها كانوا فيه يختلفون » (٤)

فلما جاء القرآن مصدقا لما بين أيديهم من كتب الله ، اتحد عليه المتخاصمان وكذباه :

« وقالوا لن يدخلَ الجنة إلاّ مَنْ كان هُوداً أو نَصَارَى تلك أمانيُّهم ، قل هاتوا برهانَكم إنْ كنتم صادقين »(°).

ويؤكد العليم الخبير دعوة الحق ، فيقول : -

« بَلَى مَن أَسَلَمَ وَجَهَهُ للهُ وَهُو تُحْسِنُ فَلَهُ أَجَرُهُ عِنْدَ رَبِهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُم يُحْزِنُونَ ﴾(٦) .

ويحذر الله رسوله الأمين من كيد بعض أهل الكتاب الذين كانوا له أشد عداء من المشركين ، فيقول : -

« ولنْ ترضَى عنك اليهودُ ولا النَّصَارَى حتى تَتَّبِعَ مِلْتَهُمْ قل إن هُدَى الله هو الهُّدَى ولئن اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُم بعد الذي جاءَكَ من العِلْم ِ مَالَكَ مِنَ الله من وليٍّ ولا نَصيرٍ »(٧)».

وما نُزُّل الله قرآنه الكريم إلا ليسلك بمن انحرف من أهل الكتاب وضل عن أمر الله ، إلى صراطه المستقيم الذى بينه فى كل كتبه . . وقد رأى العليم الخبير بنفوس البشر وأهوائهم مدى انحراف بعض أهل الكتاب عها نزّل الله ، فكان ، سبحانه وتعالى ، ينزل من لدنه الكتاب تلو الكتاب ليعيدهم إلى صراطه المستقيم ، وكلها قصدها واحد ومبدؤ ها واحد ، وهو بث الخير والحق فى نفوس البشر وانتشالهم مما كانوا فيه من ضلال ، حتى كان آخر كتبه المنزلة هذا الكتاب القيم الذى لايأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومؤكدا به مانزل من كتب ومصدقا به ما أوحى من آيات ومفصلا فيه ما أجمل ، وموضحا ماغمض ، ومصححا مازيف في هذه الكتب وما كذف منها .

ومن ذا الذي يكذب خاتم رسل الله ، وقد بشر به رسول من قبل ؟

« وإذْ قال عيسى أبْنُ مَرْيَمَ ، يابنى إسْرائيلَ إنَّ رسولُ الله إليكم مُصدِّقا لما بين يَدَى من التوراة ومُبشَّراً برسول يأتى مِنْ بَعْدى اسْمُهُ أحمدُ فلها جاءَهُم بالبيِّنات قالوا هذا سحرٌ مبينٌ »(٨)

وقد أنزل الحكيم الخبير كل كتاب بلغة القوم الذين أنـزل إليهم ، ليفهموه ويعقلوه ومن ثم يسيرون على هداه عن بيِّنة وإيمان ، وحتى لا يكون للناس بعد ذلك حجة :

« وماأرْسَلْنا مِنْ رسول إلا بِلسانِ قومِهِ ليبينَّ لهم فَيُضِلُ اللهُ من يشاءُ ويَهْدى مَن يشاءُ ويَهْدى مَن يشاءُ وهو العزيزُ الحكيمُ »(٩) .

ولاتبديل ولاتغيير لكلمات أنزلت من عند الله ، فأصلها واجد وهدفها واحد ، إنما جاء التبديل والتغيير بمن ضل من البشر ، بمن أغواهم شيطانهم بتحريف ما أنزل الله وبتغييره بالحذف والإضافة في النص ، وبالالتواء في شرح المعاني عما أراد العزيز الحكيم . ومن ثم تتابعت كتب الله المنزلة على البشر ، لا لتأتى بجديد بل للتذكرة لمن نسى والتصويب لمن غير وبدًّل وهو على علم :

« ولقد بَعَثْنا في كل أمةٍ رسولاً أنِ اعبدُوا اللهَ واجتنبوا الطَّاغوتُ فمنهم مَنْ هَدَى اللهُ ومنهم مَنْ حَقَّت عليه الضَّلالةُ فسيروا في الأرضِ فانظروا كيف كان عاقبـةُ المُكذِّبينَ »(١٠) .

وقد أنزل الله قرآنه الكريم مصدقا لما سبق أن أنزله من كتب ، ومؤكدا فيه ما سبق أن شرعه من شرائعه ودينه :

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينَ ماوصَّى به نوحاً والذي أَوْحَيْنا إليكَ وما وصَّيْنا به إبراهيمَ وموسَى وعيسَى أَنْ أقيموا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فيه كَبُرَ على المشركينَ ماتدعوهم إليه الله م يَجْتَبِى إليه من يشاءُ ويهْدى إليه من يُنيبُ ١١١٪ « وإذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ القواعدَ مِن البيتِ وإسماعيـلُ ربنا تقبَّـل منا إنَّـك أنت السميعُ العليمُ »(١٢)

« ربَّنا واجْعلنا مُسلمَين لك ومن ذُرِّيَتِنا أُمةً مسلمةً لك وأرِنا مناسِكنا وتُبْ علينا إنك أنتَ التوابُ الرَّحيمُ »(١٣)

« ومَن يرغبُ عن مِلَّة إبراهيمَ إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَد اصْطَفَيْنَاهُ في الدَّنْيَا وإنّه في الآخِرةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَه رَبُّه أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ * وَوَصَّى بَهَا إِبْراهِيمٌ بَنِيهِ وَيَغْقُوبُ يَا بَنِيَ إِن الله اصْطَفَى لَكُمُ اللَّينَ فَلاَ تَمُّوتُنَّ إِلا وَأَنتُم مُسْلَمُونَ * (١٤) .

ومن بعد إبراهيم نزل الله التوراة على بني إسرائيل ، يهديهم فيها إلى ما سبق أن هدى الله فيه إبراهيم :

« إِنَّا أَنزَلْنَا التَّورَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانَيُّونَ وَالأَحْبَارُ بَمَا اسْتُحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللهَ وَكَانُوا عَلَيْه شهداءَ فَلاَ تَخْشُوا النَّاسَ وَاحْشُـوْنِ وَلاَتَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنَا قليلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بَمَا أَنْـزَلَ اللهُ فَـأُولِتِكَ هُمُ الكَافِرُونَ "(١٥)

ثم أرسل الله إلى بني إسرائيل رسوله عيسى بن مريم وآتاه الإنجيل مصدقا للتوراة :

﴿ وقفَّبْنا على آثارهم بعيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدّقًا لِلَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التّواراةِ وآتيناهُ الإنْجيل فيه هُلدًى وبُورٌ وَمُصدّقاً لِلَا بَيْنَ يندَيْنه مِنَ التّورَاةِ وَهُلدًى ومَوْعِظَةً لِلمُتّقين التّورَاةِ وَهُلدًى ومَوْعِظَةً لِلمُتّقين التّورَاةِ وَهُلدًى ومَوْعِظَةً

وإذا ذكر القرآن الإنجيل فى كثير من آياته الكريمة ، فإنما يقصد به ذلك الكتاب المدس الذي أنزله الله على رسوله عيسى ابن مريم ، وهو ذلك الكتاب الذي بشّر به المسح . . ما ه السلام مد الماس هَديًا لهم وإصلاحا وتذكيرًا لهم بوجود إله واحد لا إن عدره ، إنه موسى وعسى ومحمد .

فإذا قال بعص ما يسب إلى المسبحية من زيف فيإن المسبحية لا تعشرف به

ولا تختلف المسيحية عن الإسلام في صفة مريم ، فهي في نظر الدينين عبد من عباد الله ، بل إن مريم نفسها تقول في الإنجيل إنها « أَمَة الرب » .

وكما ينفى القرآن وجود صاحبة لله الواحد الأحد ، كذلك المسيحية تنزه الخالق جل وعلا عن أن تكون له صاحبة .

وكما ينفى الإسلام تعدد الآلهة ووجود التثليث ، كذلك تقول المسيحية إنها تنكر التعدد والشرك ، كما تنكر أن يكون لله ولد من صاحبة بتناسل جسدى .

وما أكثر آيات الإنجيل الذي نزله الله على رسوله عيسى عليه السلام ، التي تؤكد هذه الحقيقة الأبدية ، حقيقة وحدانية الله الخالق لكل شيء :

ففى إنجيل متى ٤ : ١٠ (حينئذ قال يسوع ، اذهب ياشيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد ، وإياه وحده تعبد) .

وفى إنجيل يوحنا ١٧ : ٣٠ (وهذه هي الحياة الأبدية ، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته) .

وفى إنجيل يوحنا ٥ : ٤٤ (كيف تقدرون أن تؤمنوا ، وأنتم تقبلون مجدا بعضكم من بعض ، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبون) .

وفي إنجيل يوحنا ٦ : ٣٨ (وأنا إنسان كلمكم بالحق الذي سمعه من الله) .

وكها أن لب الدين المسيحى هو الإقرار بوجود إله واحد لا شريك له وأن المسيح عيسى بن مريم إنسان أرسله الله للتبشير بهذا الدين ، كذلك اليهودية تقر بوحدانية الخالق جل وعلا :

ففى سفر التثنية ١ : ٥ (ابتدأ موسى يشرح هذه الشريعة قائلا ، الرب إلهنا ، كلمنا في حوريب قائلا : كفاكم قعودا في هذا الجبل) .

وفى سفر الأمثال ١٩ : ١٧ (من يـرحم الفقير يقـرض الرب وعن معـروفه يجازيه) .

وفى سفر الخروج ١٩ : ٢١ (فقال الرب لموسى ، انحدر حذر الشعب لئلا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون ، وليتقدس أيضا الكهنة الذين يقتربون إلى الرب لئلا يبطش بهم الرب) .

ثم أنزل خاتم كتبه على رسوله النبى الأمى ، خاتم رسله و مصدقا لكتب الله ومهيمنا ، وقد لخص الحكيم الخبير فى خاتم كتبه جوهر الإيمان والدين الذى ارتضاه لعباده المؤمنين :

« نَزَّلَ عليك الكتابَ بالحقِّ مصدَّقا لِما بين يَدَيْه وأَنْزَلَ التَّوراةَ والإِنجيلَ * مِن قَبْل هدًى للناس وأنزل الفُرقَّانَ إِن الذَّين كفروا بآياتِ الله لهمْ عذابٌ شديدٌ ، والله عزيزٌ ذو انتقام »(١٧٠) .

« آمَنَ الرسولُ بما أُنْزِلَ إليهِ من ربِّهِ والمؤمنون كُلَّ آمنَ بالله وملائكتِهِ وكُتُبِهِ وُكُتُبِهِ وُرُسِلهِ لانفرَّقُ بين أحدٍ من رسلهِ وقالـوا سمعنا وأطعنـا غُفرانَـك ربَّنَا وإليـكَ المصيرُ »(١٨) .

ويكشف لنا العليم الخبير المحيط بكل شيء علما ، انحراف بعض أهل الكتاب عن الأخذ بما جاء فيه من الحق ، إما عن سوء فهم للمتشابه من آيات القرآن الكريم فيسيئون تأويله ، وإما عن التواء مقصود بمحكمها ، يشوهون قصده ويحرفون كلام الله ويحولون ماجاء به من الحق طلبا لمنفعة دنيوية عاجلة ، وهم جميعاً لو أتوا القرآن بقلب مفتوح ونية خالصة ، لهداهم الله إلى المعنى الحق للمحكم من آياته ولأرجع المتشككين بما اشتبه عليهم إلى المحكم ولكنهم أصروا على العصيان واستكبروا استكباراً :

« مِنَ الذينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلمَ عن مواضعه ويقولون سمعنا وعَصَيْنا واسمَعْ غيرَ مُسْمَع ورَاعنَا ، ليَّا بالسِنَتِهِمْ وطَعْنَا في الدِّينِ ولو أنهمْ قالوا سَمِعْنا وأطعْنا واسْمَعْ وانظُرنا لكان خيراً لهم وأقْوَمَ ولكِن لَّعنهم اللهُ بكُفْرِهمْ فلا يؤمنون إلاَّ قليلاً »(١٩) .

« وإنَّ منهم لفَريقًا يَلُوُون أَلسَنتُهُم بِالكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ وِمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكَتَابِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهُ الكَذِبَ وَهُمُ الْكَابِ وَيُقُولُونَ عَلَى اللهُ الكَذِبَ وَهُمُ يَعْلَمُونَ »(٢٠) .

« فبها نَقْضِهِم ميثاقَهُمْ وكُفْرهمْ بآيات الله وقَتْلِهِم الأنبياءَ بغير حقَّ وقَوْلهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بل طَبَعَ اللهُ عليها بكفرِهم فلا يُؤمنون إلاّ قليلاً (٢١) * وبكُفْرهمْ وقَوْلهِمْ على مَرْيَمَ بَهْتَاناً عظيماً (٢٢) * وقَوْلهم إنَّا قتلنا المسيح عيسَى ابنِ مرْيمَ رَسُولَ اللهِ وما قتلوه وما صَلَبوه ولكن شُبَّه لهم وإنَّ الذين اختلفوا فيه لَفِي شكَّ مِنْهُ مَالَهُم بِهِ مِنْ عِلم إلا اتَّباعَ الظَّنِّ وما قتلوهُ يَقيِنا » (٣٢)

« هو الذي أنـزلَ عليكَ الكتـابَ منه آيـاتُ محكماتُ هُنّ أَمُّ الكتـابِ وأُخَرُ مُتشابِهاتٌ فأما الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتَّبعونَ ما تشابَهَ منه ابتِغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله وما يعلم تأويلَه إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنًا به كلَّ من عندِ ربِنا وما يذّكُرُ إلا أولوا الألبابِ »(٣٤٤)

ويتناول القرآن الكريم بالتصحيح والتصويب ما أنزل الله من القول الحق فيها اختلف فيه بعض أهل الكتاب وفيها غيروا في كتابه بما لم ينزل :

« مَا المَسيحُ ابنُ مريمُ إلاَّ رسولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُلُ وأُمهُ صِدَّيقهٌ كَانَا يأكلان الطعام انظُر كيف نُبيِّنُ لهمُ الآياتِ ثم انظرْ أنَّ يُؤْ فَكُونَ "(٢٥).

« ياأهلَ الكتابِ لاتغلوا في دِينكُم ولا تقولوا على الله إلاَّ الحقَّ إثما المسيحُ عيسى ابن مريمَ رسولُ اللهِ وكلمتُهُ القاها إلى مريمَ ورُوحٌ مِنْهُ فآمِنوا باللهِ ورُسُلِهِ ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنمَّا اللهُ إلَهُ واحدٌ سُبحانَهُ أن يكونَ له وَلدٌ له ما في السمواتِ وما في الأرضِ وكَفَى باللهِ وكيلاً (٢٦) * لن يَسْتنكِفَ المسيحُ أَنْ يكونَ عبدًا للهِ ولا الملائكةُ المقرَّبُونُ ومَنْ يستْنكِفْ عنْ عبادتِه ويستكْبِرْ فسيحْشُرُهُمْ إليهِ جميعاً »(٢٧).

« وَلْيَحْكُمْ أَهلُ الإِنجيلِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فيهِ ومَنْ لم يحكمْ بَمَا أَنزَلَ اللهُ فأُولئِكَ هُمُ الفاسقون «٢٨) .

ويحذر الله أهل الكتاب من عاقبة تكذيبهم بما أنزل الله من آيات ، وينصحهم بالا يتخذوا من العبث بكتب الله سلعة يتاجرون بها ، ويخدعون بها البسطاء ممن أولوهم كل ثقتهم ، وألا يحمّلوا أنفسهم مالا يطيقون من أوزار يحاسبهم الله عليها يوم الحشر الأكيد :

« إِنَّ الذين يكْتُمونَ ما أَنْزلَ اللهُ من الكتابِ ويَشتَرونَ به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بُطُونِهم إلاً النَّارَ ولا يكَلِّمُهُمُ اللهُ يومَ القيامَةِ ولا يـزكِّيهم ولهم عذابٌ اليمُ »(٢٩) .

« وَلَوْ أَنَّهِم أَقَامُوا التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَمَا أُنْزِلَ إليهِم مِنْ رَبِّهِم لأَكْلُوا مِنْ فُوقِهِم ومِنْ تحتِ أُرجُلِهِم منهم أُمَّةٌ مقتصِدةٌ وكثيرٌ مِنهم ساءً مَا يَعْمَلُونَ (٣٠)» .

« قُلْ يا أهلَ الكتابِ لستم على شيءٍ حتى تُقيمُوا التَّوراةَ والإِنْجِيلَ وما أُنْزِلَ إليكم من ربِّكَ طُغْيَاناً وكُفْراً فلا تأسَ على القوِم الكافرين »(٣١)

ثم يذكّر العليم الخبير أهل الكتاب بخلاصة مختصرة وبليغة بمعنى إقامة كتب الله كما أراد الله :

« إِنَّ الذين آمنوا والذين هادُوا والصَّابِئون والنَّصارى مَنْ آمَنَ باللَّهِ واليوِم الآخرِ وَعَمِلَ صالحًا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنُونَ »(٣٢) .

ثم يشبه الله أهل الكتاب الذين لا يعملون بما جاء فيه ، بما يأبي كل إنسان عاقل أن يكون به شبيها :

« مَثَلُ الَّذِينَ مُمَّلُوا التَّوراةَ ثُم لَمْ يَحملُوها كمَثَل الحِمارِ يَحْمِلُ أسفارًا بِشْسَ مَثَلُ القَوْمِ الظَّالَمِينَ ﴿ اللَّهُ اللَّهُ لا يَهْدِى القَوْمِ الظَّالَمِينَ ﴾ (٣٣) .

ويمثل الله من اختلفوا فى تأويل آيات الله البينات وكلامه الحق ، بطائفة أعماها الله عن الحق فتنازعت فيها بينها وأصبحوا فيها بينهم أعداء يكنّ البعض منهم البغض والكراهية للبعض الآخر ، وما هى إلا فتنة يرمى بها الله من كذّب بآياته :

« ومِنَ الذين قالوا إنّا نَصارَى أَخَذْنا مَيثاقَهمُ فَنَسُوا حظًّا تما ذُكرِّوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بِينَهُمُ اللهَ بَاكانوا يَصْنَعونَ ﴿ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللّهُ اللهُولِ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّه

ثم ينزل الله خاتم كتبه ، قرآنه الكريم ، يكشف به ما أخفى أهل الكتاب ما أنزل اليهم وليوضح ما التبس عليهم وما اختلفوا في تأويله :

« يا أهلَ الكتابِ قد جاءكم رسُولُنا يُبَينُّ لكم كثيراً مما كنتم تُحفونَ مِنَ الكتابِ ، ويعفُو عن كثيرٍ ، قد جاءكمْ مِن اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ »(٣٥) .

« وما أنزلَنا عليكَ الكتاب إلاَّ لِتُبينَ لهم الذي اختلفوا فيهِ وَهُدًى ورحمةً لِقوم يؤ منونَ »(٣٦) .

ومن نعم الرحمن على أهل القرآن المبين ، أن بقى هذا الكتاب كما هو لم يتبدل فيه حرف أو كلمة ، ولم تتقدم آية عن آية أخرى أنزلها الله قبلها بل بقى القرآن بآياته كما نزّلها الله نصا ومعنى وترتيبا لأن الله قد صدق وعده بحفظه ، وهو خير الحافظين ، من أى عبث وأبعده عن أى هوى ، لأنه خاتم كتبه إلى يوم الدين ، أنزله على صفيه ونبيه الأمين سيدنا محمد على المبين ما أسىء فهمه مما سبقه من كتب سماوية ، وليصحح ما حُرَّف من كلام الله سبحانه وتعالى :

« إِنَّا نحنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإِنَّا له خَافِظون» (٣٧).

« بَلْ هو قرآنٌ نَجِيدٌ فى لَوْح ِ محفوظٍ ، (٣٨) .

« تَبَارَكَ الذي نَزُّلَ الفُرْقانَ على عبدهِ لِيكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » (٣٩) .

ولا يزال القرآن الكريم على ما أنزله العزيز الحكيم لم يتغير ولم يتبدل ، ولا يزال على إعجازه وسموه فوق أى عبث ، فلا يأتيه الباطل من أى جهة ولا يقدر على أخذه بالتحريف أى مخلوق مهما أوق من علم أو مكر أو خبث :

« فَلْيَأْتُوا بحديثٍ مَثله إنْ كانوا صادِقِينَ »(٤٠)

« قُلْ لَئنِ اجتمعت الإنسُ والجِنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتونَ بِمِثْلِهِ ولو كان بعضُهُمْ لبعض ظَهِيرا »(٤١) .

هذا هو القرآن الكريم خاتم كتب الله ، أنزل للبشر كافة بدين الحق وهو دنيا ودين ، لا يحرّم على الناس من متاع الدنيا الا ما خالفوا به الحق ، وشرع الله فيه للناس كافة ما هو أحسن في علاقة الفرد بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بغيره من الناس .

بل هو دستور البشرية الأزلى وسيظل بصدقه وبإحاطته وشموله ، خير ما يلجأ إليه البشر في حل مشكلاتهم للأخذ بالتي هي أقوم ، فيظل بالسلام الأرض ويبث في الناس المحبة والوئام .

لا وأن هذا صِراطِى مستقيمًا فاتبعوهُ ولاتتبعوا السُّبُلَ فَتَفَرُّقَ بِكُم عن سبيلِه ذَلِكم وصًاكم بِهِ لعلكم تَتَقُونَ (٤٢) .

ألا يحق لنا بعد هذا أن ننادى بخاتم كتب الله دستورا لمن آمن بالله واليوم الأخر في العالم أجمع ، فيدين البشر بدين الحق الذي شرعه الله للناس كافة في قرآنه الكريم ؟ أما آن الوقت لندعو لدين الله القيّم ، بالحق وبالحوار الهادىء والإقناع بالنص والتفسير والمنطق السليم حتى تكون هذه الأمة ، بحق ، خير أمة أخرجت للناس منذ أن كان الناس ، أمة تدعو للمعروف وتنهى عن المنكر ؟ وهلا بدأنا بأنفسنا نحن والتزمنا بهذا القرآن الكريم ؟ فنعمل بهذا الدستور السماوى ، نصا وروحا ؟ .

ألاً إنّ هذا هو أمل كل من آمن بالله واتقاه حق تقواه ، إيمانــه برسله وكتبــه وبالآخرة ويوم الحساب ، ولينصرن الله من نصره ونصر دينه :

الدَّينَ عندَ اللهِ الإسلامُ وما اختلف الذين أوتوا الكتابَ إلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءهم العِلمُ بغياً بينهم ومَنْ يكفُرْ بآياتِ اللهِ فإنَّ الله سريعُ الحِسَابِ » (٤٣) .

« فإن حاجّوك فَقُل أسلَمْتُ وجهِى لِلّهِ ومَنِ اتّبَعَنِ وقل لِلّذِينَ أُوتوا الكتابِ والأمّبِّنَ اأسْلَمْتُمْ فإنْ أسلَموا فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعِبَادِ » (٤٤٠) .

" ومن يُبْتَغ غيرَ الإسلام دِينًا فلن يُقبَلَ منهُ وهو في الآخِرَةِ مِن الحاسرينَ "(١٤٠)"

« كيف يَهدى اللهُ قوماً كفروا بعدَ إيمانِهمْ وشَهِدُوا أنّ الرسولَ حتَّ وجاءَهُمُ
البيّناتُ ، والله لاَ يَهْدِى القومَ الظالمينَ "(٢٤) .

« وإِنَّ مَنْ أَهْلِ الكْتَابِ لَمْنْ يَؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهُمْ خَاشِعِينَ لله لا يشترون بِآياتِ الله ثمناً قليـلاً أولئك لَمُمْ أَجـرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ الله سَــرِيعُ الجِسَابِ»(٤٧) .

الفصل الثانيي

الإيمان وشعائر الاسسلام

المؤمن المسلم هو من أسلم وجهه وأمره لله تعالى ورضى بقضائه وقدره والمؤمن المسلم من اتقى ربه وصدق فكره وقوله وعمله ، فلا يعمل إلا صالحا ولا يقول إلا حقاً .

والمؤمن المسلم من سَلِم الناس من يده ولسانه ، وعامل الناس بما يُحبُّ أن يعاملوه به .

والمؤمن المسلم من سعى إلى طلب الرزق بعد توكله على الله وحده .

والمؤمن المسلم من جاهد بنفسه وبماله في سبيل نصرة عقيدته والدفاع عن الحق ومحق الظلم والعدوان .

والمؤمن المسلم من صبر فى السراء والضراء ، فلا يغره بنفسه مال أو سلطان ولا يجزع ولا يهتز أمام النوازل والأحداث .

وليس مؤمناً ذلك القاعد المتخاذل الجزوع الهلوع ولا المتردد المتعالى المغرور . والمؤمن المسلم هـو قبل كـل هذا من آمن بـالله وحده ، وبكتبـه وخاتمهـا القرآن

الكريم ، وبرسله وخاتمهم سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد ﷺ ثم أقام إيمانه على أركان الإسلام الخمسة وهي :

- ١ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .
- ٢ إقام الصلاة لله تعالى وحده ، وبأركانها التي حددت في القرآن والسنة .
 - ٣ إيتاء الزكاة .
 - ٤ صوم شهر رمضان .
 - حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

وذلك عملا بالحديث الشريف.

(بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا) . صدق رسول الله .

وقد شرع الحكيم الخبير هذه الفرائض لدينه الذى ارتضاه للناس كافة فى قوله : «إن الدين عند الله الإسلام» لما فى هذا الدين وشرائعه من خير وصلاح للبشر أجمعين ، وهو سبحانه وتعالى الغنى بذاته عن العالمين .

هذه الشعائر الإسلامية الخمس التي يقوم عليها دين الحق وخاتم الأديان السماوية ، هي عبادة لله وتذكرة للمؤمن بخالقه إذا ما أقيمت على الإخلاص والتقوى . وهي في جوهرها تربية للإنسان على صفات وأخلاق تنعكس على سلوكه أمام الله ومع نفسه ومع الناس ، فيخشع لخالقه ويصدق مع نفسه ومع غيره من الناس .

ومن ثم رأينا لزاما علينا أن نبين في كتابنا هذا شروط كل فريضة من هذه . . الفرائض وحكمة الخالق في فرضها . . حتى يؤديها المؤمن المسلم على وجهها الصحيح فيفيد ويستفيد ، يفيد الناس بالعمل الصالح والقدوة الحسنة ويستفيد رضوان ربه في الدنيا والآخرة .

أولا - شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله :

وهى البداية التى لابد منها لكل من شرح الله صدره للإسلام ، يقولها عن إيمان صادق ونية خالصة وبقلبه قبل لسانه ، يقولها طواعية وعن اقتناع تام ، لا تحت تأثير أى ضغط ، ترهيباً كان هذا الضغط أو ترغيباً .

فليس من الإيمان إعلان الشهادتين باللسان طمعاً في منفعة دنيوية عاجلة أو دفعاً لخطر متوقع ، وإلا كان مثله كمثل الكثير من المنافقين أيام الرسول على ، وهم الذين جاء فيهم قول الحق سبحانه وتعالى :

«ومِنَ النَّاسِ مَن يقولُ آمناً باللهِ وباليوم الآخِرِ ، وما هُم بِمُؤ مِنين * يُخادِعوُن اللهَ والذين آمنوا وَما يَخْدَعونَ إلاَّ أَنفُسَهُمْ وما يشعُرُون (٢) * «في قُلوبِهِمْ مَّرَضٌ فَرَادهُم الله مَرَضاً ولهمْ عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكْذِبونَ "(٣)

«وإذا لَقُوا الذَّينَ آمنوا قالوا آمَنَّا وإِذَا خَلَوْا إِلَى شياطينِهِمْ قالوا إنَّا معكم إِثَمَا نحن مُسْتَهْزِءُونَ»(٤) .

إن مثل هذا الإيمان الذي جرى به اللسان ولا أثر له فى قلب صاحبه ، ليس إيماناً ولا إعلانا للشهادة كما أرادها المولى جل وعلا ، ولا أثر له ولا تأثير فيما يصدر من صاحبه من أقوال أو أفعال .

أما الشهادة بوحدانية الخالق وبصدق الرسالة وأمانة الرسول ، فهى جوهر وليست مظهراً ، هى شهادة وعهد صادق بين العبد وربه ، تصدر من القلب قبل أن يجرى بها اللسان ، هى عهد بين العبد وربه على الإيمان الراسخ بأن خالق الكون ومدبره هو إله واحد لا إله إلا هو . هى عهد من المؤمن بإسلام أمره لله وحده والتوجه إليه بالعمل الصالح كسباً لرضوانه واتقاء لغضبه ، واللجوء إليه وحده طلباً للعون والتوفيق ، والرضا بقضائه وقدره ، وشكره وحده فى السراء والضراء ، فهو سبحانه وحده خالق الكون والقائم عليه ومدبره ومسيره بالحكمة والعدل والعلم :

«شَهِدَ الله أنهُ لا إلهَ إلا هوَ والملائكةُ وأولوا العِلْم ِ قائباً بالقِسْطِ لا إله إلا هو العزيزُ الحكيمُ(٥)» .

«وإلمَّكُم إلهٌ واحدٌ لا إله إلا هو الرَّحمنُ الرَّحيمُ (٦)».

هذه أولى الشهادتين ، شهادة وإقرار وعهد وميثاق .

أما ثانية الشهادتين فهى الشهادة بأن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله ، وهى إقرار من المؤمن وعهده لمحمد الصادق الأمين بصدق ما يقول من وحى ربه وشهادة بتصديقه والعمل بما جاء به من عند الله .

«قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولُ اللهِ إِلَيكُمْ جَمِيعاً الذَّى لَهُ مُلْكُ السَّمَواتِ والأَرْضِ لَا إِلَهَ الاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنوا بِاللهِ ورسولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الذَّى يؤمِنُ بِاللهِ وكلِماتِهِ واتَّبِعُوهُ لعلَّكم تَمُّتُدُونَ (٧)» .

«فَآمِنُوا بَاللهِ وَرَسُولُهِ وَالنَّورِ الذِّي أَنْزَلْنَا ، وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (^)»

«كيفَ يهدِى الله قوماً كفروا بعدَ إيمانهم وشَهدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقَّ وجَاءَهُمُ البِّينَاتُ واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالمينَ»(٩) .

«والَّذِين آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ وآمنوا بما نُزَّلَ على مُحمدٍ وهو الحق من ربَّهم كفَّرَ عنهم سَيِّئَاتِهم وأَصْلَحَ بَالْهُم (١٠)» .

الحكمة الآلهية في فرض الشهادتين:

1 - في شهادة أن لا اله إلا الله شهادة بالتوحيد ، وحدانية الخالق المبدع ، الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ، وهي شهادة بوحدة الكون الذي خلقه الله وحده ، والإيمان بوحدة الكون ووحدة الخالق إيمان بعظمة الخالق ومحكم تدبيره ورعايته لما خلق ، إيمان برحمة الخالق بخلقه وعونه ورعايته لهم بما ذلل لهم ما في الأرض وما فوقها من نعم كلها خير ومنفعة للإنسان ، وفي ذلك إيماء للإنسان بعمل الخير والإحسان لغيره لأن الخالق خير ولا يصدر منه إلا كل خير للناس ما ساروا على صراطه المستقيم في فكرهم وقولهم وعملهم ، والإيمان بأن الله خير إيماء للمخلوق بأن ما يجيئه من خير إنما هو من عند خالقه ، فيتوجه إليه وحده بالحمد والشكر ، وأن ما يلحق المخلوق من شر إنما هو نابع من نفسه فيعود عليها باللوم وبالموعظة والضبط ، ويتجه قبل هذا إلى ربه يستغفره ويتوب إليه ، وفي هذا وذلك حث للمؤمن على فعل الخير وتجنب الشر وقاية لنفسه ووقاية لمجتمعه .

وفى شهادة أن لا إله إلا الله هداية للمشركين بالله بما ابتدعوا من آلهة لا تنفع ولا تضر ، إنما اختلقوها بفكرهم السقيم الذى ذهب بنفوسهم شعاعاً فى مهاوى الضلال والرذيلة والفساد ، إلى أن هداهم الله وأرسل إليهم رسولا منهم يحدثهم بلغتهم ويدعو إلى الإيمان بوحدانية الخالق ، فاطمأنت قلوبهم وهدأت نفوسهم واستقرت أفكارهم واتحدت كلمتهم فى وحدانية الوجود فى إله واحد هو الخالق المبدع لأول الخلق وإليه مرجعهم . وبإحساسهم بحكمة الخالق فيها خلق وإحاطته بخلقه وهم ليسوا له بمصرين ، إيحاء للناس بالخشوع لتلك القوة القادرة الخفية وتقواها ورهبتها وإسلام الأمر كله لله وحده ، فيطيعوا أوامره بالمعروف ونواهيه عن المنكر ويتقوا الله فى سرهم وعلانيتهم فتصفوا نفوسهم وتنقى ضمائرهم ، ولا يصدر عنهم إلا كل طيب كريم .

٢ - وفى شهادة المؤمنين بأن محمداً رسول الله ، شهادة منهم بتصديق النبى المصطفى فى كل ما يبلغهم من وحى ربه مما نزل به عليه جبريل عليه السلام ، وأنه الرسول الذى اختاره الله واصطفاه لتبليغ الحق للناس كافة ، لا ينطق عن الهوى وأنه الرسول الأمين الذى يبلغهم بكلام الله بلا تحريف أو سهو ، وهو عليه الصلاة والسلام الذى وصفه الله بالهداية والاستقامة والصدق .

«والنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَاضَلَّ صَاحِبُكُم وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ ﴿ هُوَ إِلاًّ وَحْمُ يُوحَى ، عَلَمْهُ شَدِيدُ القُوَى ﴾ (١١) .

فلا مشاقة مع رسول الله الأمين ، ولا تكذيب لمحكم التنزيل ، ولا جدال ولا مجادلة مع هذا النبى الأمى فيها يتلو من تلك الآيات البينات ، وبذلك الأسلوب القرآنى المعجز المحيط بكل مافى الكون ، ما دق فيه وما كبر ، وما ظهر وما بطن ، أنزله الخالق جل وعلا وبين فيه ما عرفوا ومالم يعرفوا من قبل وما يكشف الخالق للخلق عنه ما شاء لهم معرفته من أسرار كونه اللانهائى ، وفى شهادة المؤمن بأن محمداً رسولُ الله ، ميثاق معه على الإيمان بما آتاهم من الحق وعهد له بالتعاون لإعلاء كلمة الحق وشد أزره فى الدفاع عن دين الحق .

ثانيا: الصلاة:

بعد أن يسلم المؤمن لله تعالى ويعلن الشهادتين يكون قد التزم بعهد الله على أن يؤدى حقه عليه بإقامة شعائر الإسلام ، والمظاهر العملية لهذا العهد هو أداء العبادات التي فرضها الخالق جل وعلا ، هذه الشعائر هي الصلاة ، والصوم والزكاة ، والحج إلى بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا .

وتأتى الصلاة في المرتبة الأولى بين هذه العبادات .

ولأهمية هذه الشعيرة عند الله ، لم يعف منها مسلم ولا مسلمة مهها كانت ظروفهها ، فلا يحول دون أدائها فقر ولا ضعف ولا مرض ولا سفر ، بل لم يعف منها المسلم وقت الحرب ، كما سنبين فيها بعد ، ولهذا فقد يسر الرحمن للمسلم أداءها بما يستطيع من قدرة ووسائل ، وهذا دليل قاطع على منزلة الصلاة عند الله ، لما فيها من عبر وفوائد تعود على مؤديها بالخير والصلاح في دنياه وآخرته .

الصلاة والعبادة لله وحده ، خالق الكون ومدبره ومسيره ، المنعم على خلقه وراعيهم وهاديهم إلى صراطه المستقيم ، تذكرة ما بعدها تذكرة للعبد بربه ، وهو إذْ لا يرى من يصلى له إنما يشعر ويحس بوجوده في كيان نفسه وفي كل شيء في الوجود ، وهو سبحانه الذي يُبصِر ولا يُبصر ، وفي أداء هذه الشَّعِيرة في أوقاتها المعلومة كل يوم يقف أثناءها المخلوق أمام الخالق طائعاً مختاراً مسلماً له ، إذْ يركع خالِقِه ويسجد ويضرع متزلفا متطهراً خاشعاً ، في كل هذا تأكيد لإيمان المؤمن بربوبية خالقه وعظمته وقوته وتسبيح بحمده وشكره على أنعمه ، وهو سبحانه وتعالى بربوبية خالقه وعظمته وقوته وتسبيح بحمده وشكره على أنعمه ، وهو سبحانه وتعالى غنى عن كل هذا ، إذْ يسبح له كل شيء في السموات والأرض ، إنما هي وسيلة فرضها الله على المؤمنين لتطهرهم روحاً وجسداً وتربيهم التربية الإسلامية التي أرادها الله للمسلم .

تلك التربية التي لا تهدف لصلاح المسلم روحيا ووجدانيا فحسب بل لإصلاح بدنه أيضا:

(أ) ففوائد الصلاة لصحة البدن فسيولوجيا تكمن فى تلك الحركات البدنية التى يمارسها المصلى فى ركوعه وسجوده ثم وقوفه عدة مرات متتالية تقوية لعضلاته وزيادة احتراق المواد الغذائية فتمنع تراكم الدهنيات التى تؤدى إلى تصلب الشرايين وضيقها وخاصة شرايين القلب التاجية وشرايين المخ ، وبذلك تكون الصلاة سبيلا إلى القوة الحقة لروح الإنسان وجسده .

(ب) والوضوء وهو ملازم للصلاة تطهير للبدن ووقايته من الأمراض ، بل إن لفظة
 الوضوء نفسها مشتقة من الوضاءة أى النظافة والحسن .

فيبدأ المتوضىء بغسل اليدين ومابين أصابعها فيزيل ماقد يكون قد علق بها من أتربة وميكروبات ويهيئهما لتنظيف بقية أجزاء الجسم ، ثم يغسل الفم لإزالة ماقد يكون قد علق به أو تراكم فيه من الميكروبات والتخمرات التى قد تتسرب من الفم إلى داخل البدن ، ثم يغسل الأنف ليزيل ماعلق به من غبار وقاذورات أثناء عملية التنفس كما يزيل إفرازاته فى حالات الزكام والجيوب الأنفية ، ثم يأق بعد ذلك غسل الوجه والعينين فيقيهما من أمراض العيون وبعض الأمراض الجلدية ، وبغسل الأذنين يمنع تراكم المادة الشمعية التى قد تؤدى إلى ضعف السمع واضطراب توازن الجسم ، وبمسح الرأس بالماء يه يلى ماقد يعلق به أو يتخلل شعره من أتربة وميكروبات . وأخيرا تغسل القدمان وأصابعهما وهما من أكثر أجزاء الجسم تعرضا لتكاثر الجراثيم التى تحتمى وتنشط بين الأصابع وتحت مايلبسه الإنسان من أحذية وجوارب .

أما الهدف الروحى لفرض الوضوء فهو تطهير وتحصين لأدوات الحركة والحس في الإنسان وتجنيبها ماقد يمس تقوى الإنسان والبعد بها عن الزلل في مهاوى الخطأ فغسل اليدين إيحاء بأن تظلا طاهرتين في العمل والأخذ والعطاء فلا يدنسها بإيذاء الغير بالعدوان بغير حق أو اغتصاب حقوق الناس عن طريق السرقة أو الرشوة بل تكونان أداتين للعطاء وعونا للغير ، وغسل الوجه تصفية له من شوائب الغضب والانفعال فيظل هادئا وضيئا ، وغسل العينين تطهير لها من نظرات الحقد والحسد والفجور ، وغسل الأذنين وتطهيرهما إيحاء بعدم إصغائها إلى اللغو الفارغ أو الاستماع إلى قول السوء والنفاق ، وغسل الفم تطهير له من الكذب والغيبة والتفاخر والسب والصياح الأهوج .

وغسل القدمين تطهير لأداة حركة وانتقال الإنسان من مكان إلى آخر فلا يسعى بهما إلا من أجل العمل الصالح له ولأفراد مجتمعه .

وما أبلغ كتاب الله في بيانه لكل فضائل الوضوء في تلك الآية المحكمة :

« ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وَجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَامسَحُوا بِروَّوسِكُمْ وَأَرجُلَكُم إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنبًا فَاطَّهْرُوا وَإِن كَنتُم مَرضَى أَو على سَفَّر أَو جَاء أَحَدُ مِنكُم مِن الغَائطِ أَو لاَمَسْتُمُ النَّسَاءَ فَلَمِ تَجْدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامسَحُوا بِوُجُوهِكُم وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَايُريدُ اللهُ ليَجعل عليكُم مِن حَرَّجٍ وَلِكِنْ يريدُ ليُطَهِّرَكُمْ وَلِيتِمَّ فِعْمَتُهُ عَلَيكُمْ لِعلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) (المائدة ٦)

٢ – وفى توجه المسلمين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها ، وعلى اختلاف أوطانهم نحو قبلة واحدة يتجهون إليها فى صلاتهم ، وهى الكعبة المشرفة ، تكريم لهذا المكان الطاهر الذى أقيم فيه أول بيت يعبد فيه الله وحده ، بأمر من الله إلى نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام ، وتوحيد لقصد المسلمين وهدفهم :

« إِنَّ أُوَّلَ بَيتٍ وُضِعَ للِنَّاسِ لَلذي بِبكَّةَ مباركاً وهُدًى للعالمينَ »(١٣)

وهو ذلك المكان الذى أمر الله نبيه الكريم ومن آمنوا برسالتـه بالتـوجه إليـه واستقباله فى صلاتهم ، بعد أن كانوا يتوجهون فى صلاتهم وجهة بيت المقدس ، ولكى يرضى رسوله ويخرجه من حيرته :

« قَدْ نَرَى تَقَلَّبَ وجْهِكَ فى السّماءِ فلْنُولِّيَنَّكَ قِبْلةً تَرضاها فَوَلَّ وجهـكَ شَطْرَ السبجِدِ الحَرَامِ وحيثُما كُنتم فَوَلُّوا وجُوهَكُم شَطْرَهُ وإنَّ الَّذين أُوتُوا الكتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنه الحَقُّ مِنْ رَبِّم ومَا الله بِغَافلِ عَمَّا يعمَلُونَ »(١٤)

وتغيير قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بمكة يتضمن كثيرا من المعانى . منها : اختبار مدى إيمان المؤمنين وتقواهم وطاعتهم لله ولرسوله ، وكشف مايصنع ضعاف الإيمان وترددهم :

« وما جَعَلْنَا القِبْلَةَ التي كُنْتَ عليها إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسولَ مِمَّن يَنقلبُ على عَقبَيْهِ »(١٥٠) .

ومنها إفحام أهل الكتاب من يهود ونصارى اللذين تباهوا على المسلمين وتفاخروا ، إذْ هم يخالفون دينهم ولكنهم يتخذون من أماكنهم المقدسة قبلة لهم :

« سَيَقُولُ السَّفَهاءُ مِنَ النّاسِ ما ولاّهم عن قِبْلَتِهِم التي كانوا عليها قُلْ الله المَشْرِقُ والمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يشاءُ إلى صِراطٍ مستقيم ٍ ١٦٠٠

٣ - تذكير المؤمن بربه في جميع ظروف حياته ، وترسيخا لهذا الإيمان وتأكيده في قلب المؤمن مهما صادفه من متاعب الحياة وقسوتها ، ومهما حل به من مصائب قد تهز ضعاف الإيمان هزا عنيفا فتصرفهم عن ذكر الله والرجوع إليه والتماس عونه والاستسلام لقدره ، ففي جميع الأحوال يجب على المؤمن ان يتجمل بالصبر الذي هو قمة الإيمان بالله وإسلام الأمر لمشيئته إيمانا من المؤمن بحكمة ربه وعدله ورحمته ، هذا الصبر الذي أمر الله عباده المؤمنين بأخذ أنفسهم به ليزدادوا به قوة وصمودا أمام أحداث الدنيا ، حلوها ومرها :

« يَابُنَى الْقِمِ الصَّلاةَ وَأُمُّرْ بِالمُعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنكَرِ وَاصِبِرْ عَلَى مَأْصَابِكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾(١٧) .

« والذينَ صَبَروا ابْتغاءَ وجهِ ربِّهم وأقاموا الصَّلاةَ و أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقناهُم سِرًّا وَعَلاَنِيَةً ، ويَدْرَءُونَ بِالحَسَنةِ السَّيِّئَةَ أَوَلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَىَ الدَّارِ »(١٨) .

٤ - الصلاة تنأى بالمؤمن عن الغرور بمتاع الدنيا والاستعلاء على غيره من خلق الله وظلمهم والطغيان فيهم ، حين يقف بين يدى الواحد الديان ، خاشعا مكبرا متزلفا ، ومتجردا ومنصرفا عن كل متاع الدنيا وزخرفها ، إيمانا منه بعظمة الله وجلاله وقدرته وفضله على العالمين ، وإيمانا بأنَّ العزة كلها لله وهو سبحانه الغنى .

« يَا أَيُّهَا الذِّينَ آمَنوا لاتُلهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ ولا أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فأولئك هُمُ الخاسِرونَ »(١٩٠) .

« قد أَفْلَحَ الْمُؤ مِنُونَ * الَّذينَ هُمْ في صَلاتِهم خاشِعون »(٢٠)

« الَّذين إنْ مكَّنَاهُم فى الأرض أقاموا الصَّلاةَ وآتُوا الزكاةَ وأمروا بالمعـروفِ ونَهَوْا عنِ الْمُنكرِ وللهِ عاقبةُ الأمور »(٢١) .

« الَّذين يُقيمونَ الصَّلاةَ وعَّا رزقناهم يُنْفِقونَ »(*) « أُولئك هُمُ المؤمنونَ حقًّا اللهُ مَا المؤمنونَ حقًّا اللهُ مَا اللهُ مَا اللهُ اللهُ مَا اللهُ اللهُ مَا اللهُ اللهُ اللهُ مَا اللهُ مَا اللهُ مَا اللهُ ال

• - الصلاة إذا ما أديت بصدق وابتغاء مرضاة الله وحده وتقواه ، تطهير للنفس وتحصين لها من وسوسة الشيطان ، وحين يقف المرء في صلاته ، خمس مرات كل يوم ، بين يدى خالقه خاشعا مستسلما ومتوجها إليه بالذكر والعبادة إنما يجنب نفسه ماحرّم الله من فواحش ومنكرات :

« اتْلُ ما أُوحِيَ إِليكَ مِنَ الكِتابِ وَأَقمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَٱلْمَنكَرِ وَلَذِكْرِ اللهِ أَكْبَرُ واللهُ يعلمُ ماتَصْنعُونَ»(٢٣٠) .

٦ - الصلاة ليست مجرد حركات ظاهرية تؤدّى فيصبح المصلى مؤمنا ومسلما
 لله حقا أو حائزا لرضائه وغفرانه ، وهو سبحانه فى غنى عن العالمين .

إنما الصلاة جوهر ، هى تذكرة لمن يذكر للقيام بصالح الأعمال والبر بالناس والبعد عانهى الله ، لذلك نجد من محكم التنزيل ، أن أمر الله للمؤمنين بالصلاة يأتى دائما مقرونا بالأمر بصالح الأعمال ، فرضا الخالق على المؤمن لايتأتى بمجرد العبادات الحركية ، بل أوجب الله على المؤمن الصلاح في سلوكه مع الناس وهذا ما يأخذ به الله المصلين الذين يخشعون في صلاتهم ويتقون ربهم ويتجردون من هوى النفس ومن يذكر ربه بالصلاة في أوقاتها كل يوم لابد أن يذكره في تعامله مع الغير في حياته اليومية وينفذ ما أمر ربه به وينتهى عما نهى عنه ، وإلا كانت الصلاة تظاهرا بالتقوى والصلاح فحسب ، يخدع بها صاحبها الناس وهو خادع نفسه والله بصير بما يعمل الناس .

« إنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كتابَ اللهِ وأقاموا الصَّلاةَ وأَنْفقُوا بِمَّا رزقناهم سِرًّا وعَلانيةً يَرْجُونَ تجارةً لنْ تَبُورَ »(٢٤) . « ليسَ البِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ولكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ والنَّيْنُ وَآقَ الْمَالُ على حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَ والْبَتَامَى والنَّرْمِ الآخِر والملائِكَةِ والكتابِ والنَّبيِّنَ وآقَ الْمَالُ على حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَ والْبَتَامَى والمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائِلينَ وفي الرِّقابِ وأقامَ الصّلاةَ وآقَ الزَّكاةَ والمُوفُونَ بِعَهْدِهِم إذا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ في البَّاسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ البَّاسِ أولئِكَ الَّذِين صُدَقُوا وأولئِكَ هُمُ المُتَقُونَ (٢٥) .

«بسم الله الرحمن الرحيم»

« أَرَأَيْتَ الذي يُكذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلكَ الَّذي يَدُعُ اليَتِيمَ * ولا يَحُشُّ على طَعَامِ السِّكِينِ * فَويْلُ لِّلمُصَلِّينَ * الَّذينَ هُمْ عن صَلاتِهم سَاهونَ * الَّذِينَ هُمْ يُراعُونَ * الْمُصَلِّينَ * الله العظيم) ويمنعونَ الماعُونَ (٢٦) .

٧ - فى صلاة الجمعة وفى صلاة الجماعة ، حيث يقف المسلمون فى صلاتهم صفوفا منتظمة متراصة وفى خشوع واستسلام وعلى قدم المساواة أمام خالقهم تدعيم لقوة المسلمين وتوثيق لترابطهم ومساواة بين أفراد الأمة الإسلامية حيث لا مقام لطبقة ولا تعال وبغير تفضيل لأحد منهم على غيره إلا بالتقوى والصلاح .

وفى اجتماع المسلمين فى موعد محدد كل أسبوع هو ظُهْر يوم الجمعة مايشبه اجتماعا بين الإخوة على المحبة والتآخى والتشاور فيها يعود عليهم جميعا بالنفع ، وفى خطبة الجمعة مجال طيب للوعظ والإرشاد وتناول مشاكل الساعة بالشرح والتعليق بما يبصّر المسلمين بشئونهم وشئون من حولهم .

« والَّذين استجابوا لربِّهِم وأقاموا الصَّلاةَ وأمْرُهُم شورى بَيْنَهم وممِّا رَزَفْناهم يُنْفقونَ »(۲۷) .

« ياأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودَى للصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُّعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ الله وذَرُوا اللهِ وَذَرُوا اللهِ عَلْمُونَ »(٢٨) .

« فإذا قُضِيَتِ الصّلاةُ فانْتَشِروا في الأرضِ وابتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ واذْكُرُوا اللهِ كثيراً لعلّكم تُفْلِحونَ »(٢٩) .

ثالثا: الصوم:

الصوم فى اللغة هو الإمساك أى الامتناع عن عمل شىء ، ومنها الصوم عن الكلام : « فَكُلى واشْرَبى وقرِّى عَيْناً فإمَّا تَريِنَّ مِنَ البَشَـرِ أَحَداً فقولى إنَّ نَذَرْتُ للرِّحْمَن صَوْماً فَلَنْ أكلِّم اليوم إنْسِيًّا »(٣٠) .

والصوم كفريضة دينية إسلامية ، فرضها الله ، على كل مسلم ومسلمة يزاولانها في شهر معلوم هو شهر رمضان من كل عام وحدد فيه الصيام من فجر كل يوم من أيام هذا الشهر إلى غروب شمسه ، يمسك فيه الصائم نفسه أى يمتنع عن كل مايدخل جوفه من طعام أو شراب والامتناع عن الرفث إلى النساء .

والصيام بهذا المعنى الدينى لم يؤمر به المسلمون وحدهم ، بل أمر الله به أنمأ أخرى من أهل الكتاب .

« يا أَيُّهَا اللَّذِينَ آمنوا كُتب عليْكُمُ الصَّيامُ كَمَا كُتِبَ على الَّذِينَ من قبلِكُمْ لعلَّكُمْ تَتَقُونَ »(٣١) .

بل إن الصيام قد زاوله غير أهل الكتاب إذ زاوله بعض قدماء المصريين واليونان والمنود ، ولكنه كان في نظامه وطقوسه وأهدافه غير همذا الصوم الذي فرضه الله على المسلمين ، بل كان نوعا من الرياضة النفسية والروحية التي نادى بها قدماء الفلاسفة والزهاد .

إن الصوم في الإسلام يختلف عن صوم السابقين من أهل الكتاب وغيرهم من حيث مواقيته ومدته ونظامه وموانعه ومبطلاته ومبيحات الإعفاء منه .

فقد حدد الله لصوم المسلمين شهر رمضان من كل عام هجرى لأنه الشهر الذى باركه الله بإنزال قرآنه الكريم فيه على نبيه محمد ﷺ نورا للناس وهداية ، فهو بذلك شهر النور وأكرم شهور السنة ، وفي صيامه تذكرة للمؤمنين بربهم وتَقَرُّبُ إليه بالعمل الصالح والتقوى .

وكان فرض صوم رمضان في العام الثاني من الهجرة النبوية .

« شَهْرُ رَمضان الّذي أُنْزِلَ فيه القُرآنُ هُدًى للنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى والفُرْقَانِ فَمُن شَهِدَ منكم الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كان مَريضا أَوْعَلَى سَفَرِ فَعِلَّةٌ مَنْ أَيَّامِ أَخَرَ يُريدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُريدُ بِكُمُ العُسْرَ ولتُكْمِلُوا العدَّةَ ولتُكَبِّرُوا الله على ما هداكم ، ولَعلَّكم تَشْكُرون »(٣٧) . وهوليس صياما طول اليوم بل فى وقت منه معلوم ، حدده الله فى محكم تنزيله بما لايدع عجالاً لأى تأويل أو تفسير ، وفيها عدا هذه المدة المحددة فى كل يوم من شهر رمضان ، أباح الله للصائم مزاولة حياته العادية من طعام وشراب ، ورفث ، من غروب شمس هذا اليوم إلى مطلع فجر اليوم التالى .

« أُحِلَّ لَكُم لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نسائِكُم هُنَّ لباسٌ لكم وأنتُم لباسٍ لَمُنَّ عَلِمَ اللهُ النَّكُم كُنتُم تُخْتَانُونَ أَنْفُسَكُم فَتَابَ عَلَيْكُم وعَفَا عَنْكُم فَالآن باشروهُنَّ وابْتَغُوا ما كتب اللهُ لكُم وكُلُوا واشربوا حتى يتبين لكم الخَيْطُ الأبيضُ منَ الخَيْطِ الأسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ثُمَّ أَيَّمُوا الصَّيامَ إلى الليل ولا تُباشرُوهُنَّ وأنتم عاكفون في المساجد تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فلاتَقْرَبُوها كذَلِكَ يبين الله آياتُه للناس لعلَّهُم يَتَقُونُ هُ (٣٣) .

والدين الإسلامى دين يسر لاعسر ، فرضه الله سبحانه وتعالى لنفع الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، ومن ثم ترفق الرحمن بعباده المؤمنين ، فأعفى من الصيام المريض والمسافر إعفاء موقوتا بوقت العجز عن تحمل مشاق الصيام مع مشاق المرض ومشاق السفر ، مع بقاء الصيام دينا يوفيه المفطر لربه في أى وقت آخر من أوقات السنة ، بل زاد الرحمن بعباده رحمة وتيسيرا فأعفى منه إعفاء دائها من قدر على الصيام ولكن في صيامه خطر على حياته مع التكفير عن الإفطار بإطعام المسكين المحتاج ، ومن لم يستطع لهذا التكفير سبيلا بسبب شدة فقره وعوزه فإن الله غفور رحيم .

﴿ أَيَاماً مِعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنكُم مِريضاً أو علي سَفَر فَعِلَةً مَنْ أيّام أُخَرَ وعلى اللّذين يطيقونه فِدْيةٌ تُطعامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّع خَيْراً فهو خَيْر له ، وأن تصوموا خيرٌ لكم إنْ كنتم تَعْلَمونَ ٩٤٥٪ .

حكمة الصـــوم :

١- الصوم كغيره من أنواع العبادات التى فرضها الله على المسلمين ، يؤدى به الصائم حق العبودية لله والخضوع لأوامره والانتهاء عن نواهيه . ولذلك فإن الصوم يربى فى الصائم إرادته ويقويها ويشحذها . وله أثره فى نفس الصائم ، فهو يصفيها ويوجهها إلى الخير يبذله الصائم إلى إخوانه فى الدين اعترافا بفضل ربه وابتغاء رضوانه ، لا انتظارا لجزاء مادى ولا طلبا لشكر ، وبذلك تتآلف قلوب المسلمين وتصفو نفوسهم ، والصائم فى شهر رمضان إذ يتعبد لربه ويتقرب إليه وينفذ مشيئته بالصوم ، عليه أن يكثر من تلاوة ماتيسر من آيات القرآن الناء الصيام والزهد فى ملاذ الدنيا وصفاء الفرآن الكريم تذكرة وعظة ، فقراءة القرآن أثناء الصيام والزهد فى ملاذ الدنيا وصفاء النفس أنفذ إلى قلب قارئه وعقله ، تملأ قلبه بالإيمان وتضىء عقله بفهم آيات الله البينات واستجلاء مقاصدها وتذوق حلاوتها ، ومن ثم يسير على هديها فى حياته العامة والخاصة .

٧- الصوم امتحان لتقوى المؤمن ومدى إخلاصه لربه ودينه لأنه من العبادات التى ، لا يعلم حقيقتها إلا الله ، وهو عبادة غير ظاهرة ، فالصائم ينوى الصيام ويمتثل لأحكامه وينفذ ما أمر الله به بعيدا عن أعين الناس ، ولا رقيب عليه سوى ربه وضميره ، فصيام الصائم طواعية وبإرادة نابعة من نفسه ، وفي ذلك تنقية للضمير وصفاء للنفس وهما من أهم مقومات الإيمان .

٣- والمصوم مظاهر خارجية تلازمه في علاقة الصائم بغيره من الناس يجب على الصائم مراعاتها وأخذ نفسه بها في علاقاته الاجتماعية ، حتى يكون صيامه كاملا ومقبولا من الله عز وجل .

ويصور رسول الله ﷺ ما يجب أن تكون عليه علاقة الصائم بالناس في قوله :

(إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابة أحد فليقل إنى صائم ، إنى صائم)

(من صام رمضان إيمانا واحتسابا ، غُفر له ما تقدم من ذنبه) .

فعلى الصائم تجنب الغضب والصياح وفحش القول ، وعليه كبح جماح غضبه على من يعتدى عليه بالرجوع إلى نفسه وتذكر صيامه ، فلا يدنسه ولايبطله بمقابلة السوء بالسوء . أما إيجان الصائم واحتسابه فهو أن يصوم الإنسان موقنا بحكمة الله تعالى من فرضه ، وأن يستقبل شهر الصيام مستبشرا متهللا مغتبطا . فيتجنب من الأقوال والأفعال ما يتنافى مع هذا الرضا والاستبشار فيتجنب اللغو في القول والسب وضيق الصدر ، كما يتجنب الإهمال والكسل متعللا بالصيام وأن ينأى بنفسه عن عمل ما يغضب الله – كالغيبة والعدوان والظلم ، يل عليه تزكية صيامه وتطهير نفسه بالكلمة الطيبة وحسن العشرة والإنفاق والبذل عارزقه الله لإغاثة الملهوف والمحتاج والإقبال على العمل المنوط به بتفاؤ ل ونشاط وإنقان .

٤- وفى الصوم فوائد مباشرة تعود على صاحبه بالنفع والخير ، فيربى نفسه على الدقة فى المواعيد وتنظيم أوقات طعامه وشرابه مع الاعتدال فيما يأكمل ويشرب ولايسرف فيهما لتعويض ما لاقاه أثناء صيامه من جوع وحرمان ومن ثم لاتتخم معدته ولاتعتل صحته بفعله هو وليس للصيام دخل فى هذا ولاذاك .

رابعا - الزّكساة:

الزكاة ، لغة النهاء من زكيَّ أى طهر وأصلح ، والزكاة تطهير وإصلاح ، والشخص الزكيّ هو الشخص الطاهر الصالح .

والزكاة من الناحية الدينية الإسلامية إصلاح لنفس المسلم وتطهير لماله (عينا كان هذا المال أو نقدا) .

والطريق العملي لأداء هذه الفريضة الإسلامية هو إخراج جزء مما يملك ليعطيه طواعية ، لأخيه المسلم الذي لايملك .

والزكاة كفريضة إسلامية تأتى في المرتبة الثانية بعد فريضة الصلاة أمر بها الله سبحانه المسلمين ، وقرنها بالصلاة وجعلها مثلها دين القيامة يحاسب بها الناس .

« وما أُمِرُوا إِلاَّ ليَعْبُدوا الله مخلصينَ له الدِّينَ حُنفَاءَ ويُقِيمو الصَّلاةَ ويؤْتُوا الزَّكاةَ وَذَلِكَ دينُ القَيِّمَةِ »(٣٥) .

وقد ورد ذكر الزكاة مقرونة بالصلاة فى كثير من الآيات القرآنية ، منها الآيات : ١٣ ، ١١٠ ، ٢٧٧ من سورة البقرة ، ٥٥ من سورة المائدة ، ٦ ، ١٨ ، ٧٠ من سورة التوبة ، ٤١ من سورة الحج ، ٣ من سورة النمل ، ٤ من سورة لقمان ، ١٩ من سورة الداريات .

فالزكاة إذَنْ فريضة حتمية على كل مسلم ، شأنها كشأن الصلاة لايعفى من إيتائها عائق جسمان أو قلة في المال . فعلى المسلم إخراج الزكاة مما فاض عنده عن قوت يومه وقوت عياله ، عملا بقول الرسول على :

(الزكاة واجبة على من يملك قموت يومه له ولعيماله ، لمن لايملك قموت يومه له ولعياله) .

الزكاة فريضة محددة بالقرآن الكريم والسّنّة الصحيحة وإجماع المسلمين على شروطها ومقاديرها ومصارفها ، وهي مبسوطة في كتب الفقه واضحة محدودة بأنواعها وفروعها .

والهدف الإلهى من هذه وتلك تأكيد لمعنى التكافل والأخوة والمحبة والتعاطف فى المجتمع الإسلامي ، والطريقة العملية للتعاون بين أفراده .

ولأهمية الزكاة ، سخا العليم الكريم في ثواب مؤتيها :

«إِنَّ الَّذِينِ آمِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ لَمُمْ أَجْرُهُم عِنْدَ رَبِّهُمَ وَلاَ خَوْفُ عَلَيْهِم وَلا هُمْ يَحَزْنُونَ»(٣٦) .

ثم توعّد العلى القدير ما نعى الزكاة مع قدرتهم على إيتائها بأشد أنواع العقاب .

لا ولا يُحْسَبَنُ الَّذينَ يَبْخُلُونَ بَمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلُهِ هو خَيْراً لهم بل هو شَر لهم ،
 سَيُطُوتُونَ مَا بَخُلُوا بهِ يَومَ القيامةِ ولله ميراتُ السَّموات والأرْضِ والله بما تَعْمَلُون خَيرٌ (٣٧) .

« والذين يكْنِزونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقونَها في سَبيل الله فَبَشُّرْهُم بِعذابِ أليم * ، يَوْمَ يُحْمَى عليها في نارِ جَهَنَم فتُكْوَى بها جَبَاهُهُم وَجُنُوبُهُم وظهُورُهم هذا ما كَنَزْتُم لأنْفُسِكُمْ فَذُوقوا ما كنتم تَكْنِزُونَ »(٣٨) . « وَمِنْهِم تَمَنْ عاهدَ الله لَئِنْ آتانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ولَنكونَنَّ من الصالحينَ * فلها آتاهُم
 و ن فَضْلِه بَخلوا به وتولَّوْا وهُم مُعْرضونَ » .

﴿ فَأَعْفَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ لِلْقَاقِنَةُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهُ مَاوَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذَبُونَ (٣٩) .

حكمة الزكاة: فرض الحكيم الخبير على كل مؤمن مسلم أنواع الفرائض والعبادات لتأكيد طاعته لربه وتزكية لنفسه وتقربا لله الغنى الحميد بالشكر والحمد على نعمائه، وتؤدّى كل عبادة بوسيلة معينة تزكية وتطهيرا لهذه الوسيلة، فالعبادات البدنية كالصلاة والصوم والحبح تزكية للبدن والروس بالتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بأفعال وحركات بدنية تعود على المبدن بنعمة الصحة والعافية، كيا يتلو المتعبد أقوالا تعود على روحه بنعمة الصفاء أما الزكاة فهى عبادة مالية قوامها الضمير والشكر لله والتقرب منه كسبا لرضاه على نعمة المال فيبارك الله فيه، فمن الحكم الربانية في فرض الزكاة:

١- أن المال مطلب كل إنسان رمعشوقه فى كل زمان ومكان ، ولا حدود يقف عندها الإنسان فى طلبه ، سواء كان هذا المال نقديا أو عينيا ، وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى :
 « وتَأْكُلُونَ التَّراثَ أَكْلاً للَّا * وتُحِبُّونَ المَال حُبَّا جَمَا» (٤٠) .

ويقول رسول الله ﷺ :

(منهومان لايشبعان ، طالب علم وطالب مال) .

لذلك أراد العليم الخبير أن يختبر مدى عمق إيمان عباده به باختبار مدى طاعتهم له وامتثالهم لأوامره وطلبهم للآخرة قبل طلبهم للدنيا ، وليرى هل المال أحب إلى قلوبهم من الله أم هم يؤثرون طاعته ومحبته ورضوانه ، ليجزى كل نفس بما آمنت وما كسبت :

« قُــلْ إِن كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فــاتَبِعُونِي ، يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِـرْ لَكم ذُنُــويَكُمْ واللهُ عَفــوژُّ رِّحِيمٌ ﴿(١٤) .

« ومَنْ يُطِع ِ اللَّهُ ورسولَه فقَدْ فاَزْ فَوْزاً عظيبًا ﴾(٤٢) .

٢- الزكاة علاج يشفى النفس ويطهرها من مرض البخل والشح والأثرة ويخلصها من الإسراف فى جمع المال واكتنازه حبا فيه . كما تشفى من مضاعفات هذا المرض وآثاره الوخيمة كأكل مال الغير واغتصابه بغير وجه حق ، وإثارة الحقد والضغائن فى أمة تدعو للخير والسلام والمحبة وتعاطف الغنى مع الفقير المحروم . لذلك كان البخل والشح فى بذل المال فى سبيل الله ولخير الناس من أبغض الكبائر التى حذر منها الله ورسوله .

و والذينَ تبوءوا الدَّارَ والإيمانَ من قبلهم يحبُّونَ من هَاجَرَ إليْهِم ولايجدُونَ في صدُورِهِم عاجةً مِما أُوتُوا ويُؤْثِرونَ على أَنْفُسِهِمْ ولوكانَ بِهِمْ خصَاصَةٌ ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فاولئِكَ هُمُ
 المُفلِحُونَ ١⁽²⁸⁾.

(إياكم والشح ، فإنه أهلك من كان قبلكم) صدق رسول الله .

٣ - الزكاة تربية للمسلم على السخاء والكرم وحب الخير واصطناع المعروف ، وكلها صفات المؤمن بالله وباليوم الآخر ، وتدريب للمؤمن على أخذ هذه الحياة الدنيا متاعا لاخرته فينجو بنفسه من غرور الدنيا والافتتان بـزخرفهـا عن ذكر الله ، ويسعى مخلصـا لكسب رضا ربه وتطهير نفسه ، وذلك عملا بقول الرسول الصادق .

(إن السخى قريب من الله تعالى قريب من الناس قريب من الجنة ، وإن البخيل بعيد عن الله بعيد عن الله عن الله من النار ، وجاهل سخى أحب إلى الله من عالم بخيل) صدق رسول الله .

٤- الزكاة تدريب للإنسان على قهر نفسه وقمع شهواتها ، إذْ يخرج المزكى كل عام مال الزكاة طائعا مختارا وراضيا مرضيا ومنفقا في سبيل الله من ماله ، على حبه ليغيث محروما أو ملهوفا من إخوانه المؤمنين ويفرج كربهم ويفرح قلوبهم ابتغاء وجه الله وإعلانا لطاعته وطمعا في بركته .

« ويُطْعِمونَ الطُّعامَ على حُبِّهِ مِسْكيناً ويتيهاً وأسيراً "(٤٤) .

« إِنَّا نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللهِ لانُريد منكُم جَزَاءً ولا شُكُوراً »(°ٌ،) .

٥- فى الزكاة تأليف بين قلوب المسلمين ، ومنع للحقد والحسد فالمزكى بزكاته لايطهر ماله ويزكيه فحسب ، إنما هو أيضا يطهر قلوب المحتاجين من فقراء المسلمين من الحسد وشروره ، ويقارب بين قلوب المؤمنين فيحل التحاب محل البغضاء والشكر محل الحسد ، والتعاون محل التنافر والتناحر ، وفى المزكاة تحقيق للتكافل والتضامن بين أبناء الأمة الإسلامية ، فتصبح مجتمعا سليا متماسكا قويا .

«والمؤمِنونَ والمؤمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضِ يأْمرونَ بالمعروفِ ويَنْبَوْنَ عَنِ الْمُنكَـرِ ويُقميونَ الصلاة ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ويطُيعُونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ أُولئكَ سَيْرَحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ الله عزيــزَّ حَكيمٌ ه(٤٦) .

٦- الزكاة تزكية المال أى تطهيره فى حالة جمعه وفى حالة إنفاقه ، ففى أمر الله المسلم بزكاة ماله إيماء له بتحرى السبل الشريفة فى جمعه وتحصيله ، ثم إنفاقه بما يرضى الله والناس عن طريق الزكاة ومن تحرى الحلال فى جمع ماله واتقى الله فى بذله ، زاد الله فى ماله وزكاه ، فيربيه من فضله أضعافا مضاعفة من حيث لا يحتسب صاحبه .

«يَمْحَقُ اللَّهُ الربا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ واللَّهُ لا يُحِبُّ كُلِّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ، (٧٠)

الزكاة نوعان : زكاة مال ، وزكاة فطر .

- فزكاة المال على المال نفسه ، إذا بلغ النصاب وحل عليه الحول .

- أما زكاة الفطر فهي تزكية للبدن وتطهير له .

على من فرضت الزكاة ؟ الزكاة فريضة إلمية على كل مسلم حر قادر ، يخرجها عن نفسه وعمن يعول شرعا كأولاده وخدمه وأقاربه ، وعن زوجته أيضا في بعض المذاهب .

لمن فرضت الزكاة ؟ تعطى الزكاة وقت حلول موعدها لصاحب الحق فيها ، وهو المعدم المحتاج اليها من المسلمين ، كالفقراء والمساكين وابن السبيل والمسلم المحارب في سبيل الله وللعاملين في جمعها ، وغيرهم بمن حددهم الحكيم الخبير في محكم تنزيله :

«وفى أَمْوالِهِم حَتَّ للسَّائِلِ واَلمُحْرُومِ (٤٨٠)،

«إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَرَاءِ والمَسَاكِينِ والعامِلينَ عليها واللَّوْلُفةِ قُلُوبُهُم وفي الرَّقابِ والغارِمِينَ وفي سبيلِ اللهِ واَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضةً مِنَ اللهِ ، واللهُ عليمٌ حَكيمٌ (٤٩).

والمقصود بالعاملين على الزكاة أولئك الذين كانوا يجمعون الزكاة ويأخذون العشور من المارة في الطرق العامة لإ يداعها بيت المال في صدر الإسلام .

والصدقة في الرقاب تعطى عن الرقيق الذي كاتبه سيده على عتقه إذا ما دفع مبلغا معينا من المال .

والمؤلفة قلوبهم هم الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام .

وابن السبيل هو المسافر الذي فقد ماله أثناء سفره ، واحتاج لمعونة يستعين بها على مواصلته .

وفى سبيل الله ، أى للمسلمين المحاربين فى سبيل الله وإعلاء كلمته والدفاع عن دين الله صُد كل معتدٍ ، وكذلك المجاهدون الذين عجزوا عن تجهيز أنفسهم واللحاق بجيوش المسلمين ، لشدّةِ فقرهم .

- آداب الزكاة: لا يكفى المزكى إيتاءُ الزكاة المفروضة عليه للفقير والمحتاج، رغم ما فى هذا السلوك من مظاهر التعاطف والتعاون بين المسلمين، بل لقد بين لنا القرآن أيضا الأسلوب الذى يتم فيه العطاء لبخون أقوم وأكثر قبولا عند الله، وفى آياته البينات توضيح وتبصير للمزكى بالآداب أنتى يجب التحلى بها عند العطاء، ومن هذه الأساليب:

1 - الاستخفاء في العطاء وعدم الجهربه ، فلا يعطى المزكى ما له للفقير أمام الملأ من الناس حفاظا على كرامة هذا المحتاج وإنسانيته وماء وجهه ، فليس آلم على النفس الكريمة من مد اليد للناس طلبا للإحسان والظهور أمام الناس بمظهر المتطفل على الغير ، ويكفى المحسن عناية الله به وكرمه عليه أن جعله هو المعطى لا الآخذ . ومظهر الشكر لله على نعمه أن يكون المعطى في عطائه ملتمسا رضا ربه وحده وليس طالبا إعجاب الناس ، ويكفى المعطى راحة ضميره ورضا نفسه أن يحفظ للفقيرماء وجهه ولا يكشف ستره أمام الناس ، وما أحكم الآية :

«إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِيًّا هِيَ وإِنْ ثُخْفُوها وتُؤْتُوها الفُقراءَ فهو خيرٌ لكم وَيُكَفِّر عَنْكُمْ مِّن سَيِّئاتِكُم ، والله بما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ، (°°) .

وإذا علمنا أنّ من بين الفقراء المحتاجين من يمنعه تعفّفه واعتزازه بإنسانيته سؤال صدقة أو مد يده للغير طلبا لمعونة هو في مسيس الحاجة اليها ، لزاد تعاطفنا معه واحترامنا له ، فلا أقل من أن نحفظ له هذا الشعور الإنساني بل ونعمقه ، وعلى المعطى في هذه الحالة ألا ينتظر منه سؤالا أو مد يده طلبا لصدقة بل عليه أن يسارع بالعطاء قبل السؤال ، وهنا يكون جزاء المعطى مضاعفا عند ربه فيجزيه عن عطائه ويجزيه عن جبر خاطر المحروم وحفظ كرامته وسترعيبه .

«لِلْفُقَرَاءِ الَّذَيِنِ أُحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُم الجَاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ، وما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ الله بِهِ عَلِيمٌ» (٥٠) .

ألا ما أنبله وأعظمه أجرا عند الله ، ذلك المحسن المزكى الذي ينفق من ماله ابتغاء وجه الله وحده ، إذا ما سعى بنفسه بحثا عن هؤ لاء المحتاجين المتعففين الذين

يمنعهم من السؤال حياؤهم وعزة أنفُسِهِم فيعطيهم حقهم مما رزقه الله من مال ، بعيدا عن أعين الناس وزهدا في الشهرة وحب الظهور .

وما أحرانا نحن العرب ، وقد أُخرج إخوة لنا من ديارهم ظلما ، ونهبت أموالهم ، وأبدلهم عدو غاصِب ذلاً وعَوزاً من بعد عز ورفاهية . ما أحرانا بالتأدب بهذا الأدب القرآنى بمد يد العون لهم وتسليمهم حقهم فى أموالنا ، ما أحرانا بالسعى إليهم أينها كانوا لإعطائهم حقاً لهم فرضه الله علينا ، ولا فضل لنا ولا من عليهم فى رد حقهم اليهم .

Y - صدق النية ونبل الهدف في العطاء ، ابتغاء مرضاة الله وحده وانصياعا منا لأوامره ، لا سعيا وراء كسب مادى أو معنوى نطلبه من المحتاج مقابل هذا العطاء . فلا يجوز شرعا ولا أدبا أن يتصدق مؤ من مقابل شهرة أو حبا في الظهور أمام الناس بمظهر السخى الكريم ليشار إليه بالبنان ، ولا يجوز الإعلان في الصحف عن اسم المعطى ومقدار ما تصدق به من مال لإخوة له في الدين والإنسانية ، ولا يجوز للمعطى أن يطلب من صاحب الحاجة خدمة أو عملا مقابل ما تصدق به عليه من مال ، ومن يفعل ذلك فإنما يتخذ من هذه الفريضة الواجبة على كل مؤمن سلعة وتجارة ينفقها مؤتبها في سبيل منفعة دنيوية عاجلة ، لا ابتغاء مرضاة ربه وحسن الجزاء في الآخرة .

ومناط صمحة الزكاة وقبولها لدى الله قبولا حسنا هو خلوص نية معطيها فى العطاء من حيث نوع العطاء وطريقته ، فلا ننتقى من أموالنا أخبثه فنعطى منه ، فهذا ما حرمه الله :

«ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ماكَسَبْتُم وَمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ ولا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيه إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ واعْلَموا أَنَّ الله غَنِيِّ جَيدٌ(٢٠)» .

ويحدد العليم اللطيف السلوك القويم فى إيتاء الزكاة وفى الإنفاق بـأن يكون القصد هو خدمة الدين وتعاليمه ومرضاة الله طمعا فى ثوابه ، فلا تباهى ولا منّـا ولا استعلاء .

«مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالهُم في سَبِيلِ الله كَمَثَل حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةً حَبَّةٍ ، والله يُضاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسعٌ عَليم (٢٠٥) .

«ومثلُ الذين ينفقون أَموالهم ابتغاء مرضاةِ الله وتثبيتا من أنفسِهم كمثلِ جنة بربوةٍ أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابـل فطل والله بمـا تعمّلون بصير⁽⁰¹⁾» .

«الَّذين يُنْفِقُونَ أَمُوالَهُمْ في سَبِيلِ الله ثُمَّ لايُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقـوا مَناً وَلا أَذًى لَهُمْ أَجُرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهُمْ ولا خَوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون(٥٥٠)» .

فمن ابتغی من وراء زکاته غیر رضا الله ووجهه ، لا یقبل الله زکاته ولا خیر یرتجی من وراثها :

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطُلِوا صدقاتِكم بالمَنِّ والأَذَى كالَّذَى يُنْفِقُ مـاَلَهُ رِشـاَءَ النَّاسِ ولاَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَمَثْلَهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ علَيْهِ تُراَبٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتُرَكَّهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ عَا كَسَبُوا واللهُ لا يَهدِى الْقَوْمُ الكافِرِينَ» (٥٦) .

وخير من اتخاذ الزكاة وسيلة للمن على الفقير المحتاج وإيذائه ، وإذلاله ، كلمة طيبة وقول حسن يجبر بهما خاطره ويزيل كربه :

«قَوْلُ مَعْرُوفُ وَمَعْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى واللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ» (٥٧).

أنواع الزكاة : الزكاة نوعان – زكاة المال ، وزكاة الفطر .

(١) زكاة المال: والمقصود هنا بالمال ما يملك الشخص وله حرية التصرف فيه ، سواء أكان هذا المال نقدا أم عينا ، ومن ثم تتناول زكاة المال ، إخراج نسبة مما يمتلك الشخص من ذهب وفضة أو زرع وثمار أو حيوانات سائمة ، أو بضاعة يتاجر فيها أو ركاز مما في الأرض من معادن :

١ - زكاة النقدين أى الذهب والفضة سواء خامة أو مصنعة ، إذْ لا زكاة فيها عداهما من الجواهر كالماس واللؤلؤ وغيرها من الأحجار الكريمة ، ولعل عدم فرض الزكاة على الأحجار الكريمة أن الإنقاص منها بالاستقطاع يقلل من قيمتها بنسبة أكبر من نسبة الزكاة التى فرضت على النقدين ، هذا فضلا عن أن الأحجار الكريمة لا

تكتنز لذاتها وبحالتها الطبيعية ولا تستثمر بل تتخذ كمادة تصنع منها الحلى للزينة التي احلها الله للمؤمن والمؤمنة .

والقرآن الكريم صريح فى بيان النقدين ووجوب الزكاة فيهما ، فبيّنها فى الآية ٣٥ من سورة التوبة .

وقد بينّ الرسول نصاب الزكاة في الذهب والفضة في قوله ﷺ :

(ليس فى أقل من عشرين دينارا شىء ، وفى عشرين نصف دينار) أى ربع العشر مما يملك الشخص من ذهب أو فضة أو ما يقوم مقامها مقدّرًا بالنقد المتداول فى بلد المزكى .

وزكاة الذهب والفضة فريضة أيضا على ودائع المسلم لدى شخص أو هيئة (البنوك مثلا) ما دام قد مضى عليها الحول ، وكذلك على ما يمتلك المسلم من قيمة الأسهم والسندات يستثمرها المسلم في مشروعات انتاجية كالمؤسسات الصناعية او الزراعية او التجارية .

٢ - زكاة الدَّيْن : والدَّيْن هُو ما لشخص لدى شخص آخر بصفة دين يعود إلى صاحبه فى موعد يتفق عليه الدائن والمدين ، هذا النوع من المال لا تفرض عليه الزكاة من الدائن ، لأنه ليس فى حوزته ، وبالتالى لا يستطيع أن يخرج منه زكاة . بل إن الزكاة فى هذه الحالة فرض على المدين الذى تسلم هذا المال ولو كان مفلسا وعليه أن يخرج عنه الزكاة اذا مضى عليه الحول عند استلامه له ، بشرط أن يبلغ هذا الدين المقبوض نصابا أو بضمه إلى ما عند المدين من مال أصلى . ولا زكاة فى الديون إذا لم تكن ثابتة فى ذمة المدين .

 Ψ - زكاة النبات : وتسمى زكاة الزرع والثمار :

قال تعالى : «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ والنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أَكُلُهُ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وغير مُتشابِهٍ كُلُوا منْ ثَمَرِه إِذَا أَثَّمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ولا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِينِ»(٥٠) .

أى أن الزكاة فى الزرع والثمار فريضة على كل مسلم لديه أرض زرعها وأثمرت ثمرا ، فللمسلم أن يأكل من ثمار أرضه دون إسراف ، حتى لا يحرم الفقير حقه فى ثمار الأرض .

وقدر الرسول ﷺ نصاب الزكاة في الثمار ، بقوله :

(ليس فيها دون خمسة أوساق من تمر ولا حب ، صدقة)

والوَسَقُ مقداره ستون صاعا ، والصائع مقداره قدح وثلث بالكيل المصرى .

أى أن النصاب خمسون كيلة إذا حصل عليها صاحب الأرض من ثمار أرضه وجبت فيها الزكاة . وفرَّق رسول الله ﷺ في مقدار زكاة الزروع بين ثمار الأرض التي تروى بالآلات .

(فيها سقت الماء والعيون أو كان عشريا العُشْـرُ ، وفيها سقى بـالنضح نصف العشر) .

والعثرى هو النبات الذى تصل جذوره إلى مستوى المياه التي فى باطن الأرض فتمتصه ومعنى ذلك ان مقدار الزكاة فى النصاب ، ٥ كيلات فى الحالة الأولى ، ٥,٥ كيلة فى الحالة الثانية .

وضرائب الأطيان التي يدفعها زارع الأرض للحكومة لا تعفيه من إخراج زكاة النزروع لأن ضريبة الحكومة تفرض على الأرض أما المزكاة ففرض على المزرع والثمر.

٤ - زكاة الحيوان : وتعرف بزكاة النّيختم أو السوائم أى الحيوانات ، ويطلق العرب كلمة الأنعام على الإبل والبقر والغنم .

قال تعالى : «وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُم فِيهَا دِفْءٌ ومَنَافِعُ وَمِنْها تَـأْكُلُونَ» (٥٠٠ ، «وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْجَمِيرَ لِتَرْكُبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» (٥٠٠ .

ففرق إِذَنْ بَيْنَ الأنعام وبين الخيل والبغال والحمير .

والزكاة واجبة على الأنعام فحسب ، وهي المقصودة بزكاة الحيوان ، ويشترط في زكاة الحيوان :

۱ - أن تكون سائمة ، وتعتمد فى غذائها كله أو معظمه على المراعى الطبيعية المباحة ولا تخص أحدا ولا يدفع مقابلها ثمن ، بخلاف ما يعيش على العلف الذى يشترى فهو لا زكاة فيه .

٢ - أن تكون مُعَلَّفةً للنسل والإنتاج فحسب ، فإذا خصصت للركوب أو الحمل أو الأعمال الزراعية أو الصناعية (كالمعاصر والطواحين) فلا زكاة فيها .

٣ - أن تبلغ نصاب الزكاة ، وهوفى الإبل خمسة رءوس ، وفى البقر ثلاثون وفى الغنم أربعون .

أن يمر عام كامل على ملكية النصاب .

وفى الحاصلات (أى المنتجات) الحيوانية كاللبن والصوف والجلود ، إن كانت للاستهلاك الشخصى فلا زكاة فيها ، أما إذا كانت للتجارة أو الصناعة جرت فيها الزكاة مجرى زكاة التجارة والصناعة .

و - زكاة التجارة ، وهي ما تُخرَجُ عن البضاعة موضوع التجارة .

وكان النبي ﷺ يأمر بأن تُحرَج صدقةٌ عن كل ما هو معد للبيع وفي ذلك قال :

(فى الإبل صدقة وفى الغنم صدقة ، وفى البَزِّ صدقة) والبز هو الثياب فالزكاة إذن واجبة فى كل ما يعرض للبيع ، ولوكان من الأنواع التى لا تجب فيها الزكاة بذاتها كالحيول التى يستخدمها صاحبها لركوبه والألبان والبز التى هى أصلا للاستهلاك والاستعمال الشخصى ، بشرط مرور الحول ووجود النصاب قبل بيعها .

ونظامها : حصر أموال التجارة في آخر الحول ، وتقويمها بحيث يكون التقويم بالسعر الحاضر لا بسعر الشراء ، فإذا بلغت النصاب وقدره ٢٩ قرشا وثلثا القرش ، ومر عليها الحول ، أخرجت فيها الزكاة .

ومقدار زكاة هذه الأثمان هو ربع العشر أى جزء من أربعين ، وتخرج زكاتها نقداً لا من نفس ما يتجر فيه ، مع ملاحظة ما قد يكون للتاجر من ديون لدى الغير ، وله أن يؤخر إخراج الزكاة الخاصة بالديون حتى يقبضها بشرط مرور الحول على هذا الذّين قبل استرداده .

وإذا امتلك شخص شيئا بغير نية التجارة ، كأن يكون قد اشتراه للاقتناء أو ورثه أو وهب له ، ثم رأى الاتجار فيه فيبتدىء حوله من وقت نية التجارة لا من وقت حيازته . ويلاحظ أن الربح المستفاد في أثناء السنة يجب اضافته لأصل رأس المال . ويزكى عن الجميع في آخر الحول ، لأنه صار تابعا للأصول في الحول .

٦ - زكاة المعدن أو الرّكاز: المعدن هو ما أودعه الله فى باطن الأرض من ذهب أو فضة أو ماس أو نحاس أو كبريت أو بترول وغيرها مما يستخرج من باطن الأرض وكما هو موجود خاما فى مناجمه.

أما الركاز فهو ما يوجد مركوزاً فى الأرض مما دفنه أهل الجاهلية لإخفائه عن أعين الناس .

ومقدار زكاة المعدن ربع العُشْر لأن استخراجه من مناجمه يحتاج إلى جهد ونفقات . أما الركاز فيجب في زكاته الخُمْس لأنه عثر عليه بدون مجهود أو مشقة . ولا يشترط في المعدن أو الركاز مرور الحول بل تجب فيهما الزكاة بمجرد العثور عليهما لأنهما أصبحا في حوزة واجدهما .

والرّكاز يكون لمالك الأرض إذا كانت مملوكة ، فإن كان في أرض عامة أو غير مملوكة لشخص معين ، كالصحراء مثلا أو قاع البحار كانت من حق واجدها .

وإذا عثر على كنز من دفائن المسلمين تحت الأرض ، فهو لصاحبه إن عُرف وإلا اعتبر (لقطة) كالذى يوجد على وجه الأرض ، ووجب على واجده أن يعلن عنه إعلانا عاما للتعرف عليه ، ثم يكون لواجده إذا لم يظهر صاحبه الأصلى ، وحكم الزكاة فيها كالركاز هي الخمس إذا بلغت النصاب .

(ب) زكاة الفطر : وتسمى زكاة الأبدان ، لأنها تطهر البدن وتصلحه ، أو صدقة الرءوس لأنها تخرج عن الشخص ومن يعولهم شرعا ، أو زكاة الصوم لأنها شكر لله على ما وهبه للصائم من القدرة على أداء فريضة الصوم وتطهير لهذا الصوم فيتقبله الله قبولا حسنا . أو زكاة رمضان لأنها تزكية لشهر القرآن أو زكاة الفطر لوجوبها بالفطر بعد إتمام صيام شهر رمضان .

وقد فرضت زكاة الفطر طهرة للصائم مما قد يكون قد جـرى منه من اللغـو والرفث ، وطعمة للمساكين .

موعدها: من أداها قبل صلاة عيد الفطر فهى زكاة مقبولة ، ومن أداها بعد هذه الصلاة فهى صدقة من الصدقات . ويمكن التعجيل بإخراجها قبل وقت صلاة عيد الفطر بيوم أو يومين ليقضى بها الفقير لوازم العيد له ولعياله .

على من تفرض زكاة الفطر ؟ فرضت على القادر على قوت يومه له ولعياله ومن يعول شرعا وما فاض بعد ذلك يزكي عنه .

لمن تجب زكاة الفطر ؟

تجب لمن لا يملك قوت يومه له ولعياله .

مقدارها : ربع كيلة قمح (أو قيمتها نقدا) بسعرها الحاضر ، عن كل شخص تخرج عنه الزكاة .

شروط صحتها : صدق النية وخلوصها لوجه الله ولا تعطى مقابل منفعة مادية أو معنوية .

خامسا: الحج:

الحج فى الإسلام فريضة على كل مسلم قادر يقوم بمقتضاها بـزيارة بيت الله الحرام فى مكة المكرمة حيث توجد الكعبة المشرفة ، وإقامة مناسكه عندها وفيها حولها من مقدسًات إسلامية .

والبيت الحرام هو ذلك البيت الذي أمر الله خليله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ببنائه ليعبد فيه الله وحده ويذكر فيه اسمه وحده . وهو بذلك أول مسجد بني على سطح الأرض لعبادة الخالق سبحانه وتعالى . وقد أحاط الله بيته الحرام بكل ما يليق به من بركة وطهارة وحرمة وتقديس فجعله ، سبحانه وتعالى ، مكانا مباركا .

﴿إِنَّ أُوُّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلعَالِينَ (١٦)،

وجعله دار أمن وسلام ، ومن دخله كان آمنا على نفسه وما له ولا يجوز عنده قتال إلا دفاعا عن النفس :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا النِّيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا واتَّخِذُوا مِن مُقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتَى لِلطَّائِفِينَ والْعَاكِفِينَ والرَّكُّع السُّجُودِ» (٦٧)

كما بين رب البيت الحرام مناسك الحج إلى هذا المكان الطاهر ، استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام ، وفيه يقبل الله توبة التائب . وقد حفظ الله لبيته قدسيته وطهارته من دنس الشرك به فى هذا البيت المقدس : «وإذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانِ البَيْتِ ، أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئًا وَطهً رْ بَيْتِيَ لِلطَّاثِفِينَ والقَائِمِينَ والرُّكَعِ السُّجُودِ» (٦٤).

لكل هذا جعل الله سبحانه وتعالى الحج إلى بيته الحرام فريضة على كل مسلم قادر ماليا وبدنيا .

«فَيهِ آيَاتُ بَيّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْراهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنيٌّ عَنِ العَلَلِينَ» (٢٥٠).

وقد فرضت هذه العبادة في السنة التاسعة من الهجرة .

والحج فريضة على كل مسلم قادر يؤديها مرة على الأقل طول حياته ، ولذا فهو فرض على التراخى ، أى تؤدى فى أية سنة من سنى حياة المسلم بعد بلوغه سن الرشد ويحسن أن يؤديها متى بلغ سن البلوغ حتى لا يتعذر عليه عندما تتقدم به السن ويعجز عن تحمل مشاقه ونفقاته . وقد جاء فى الحديث النبوى الشريف :

(حجوا قبل ألأتحجوا ، فقد يمرض المريض وتعرض الحاجة) .

حكمة الحج: فرض الله الحج، كما فرض بقية الفرائض الإسلامية على كل مسلم لأهداف فيها الخير كل الخير لمن آمن بالله وباليوم الآخر من حيث تصفية روحه وتعلية سلوكه بما يناسب الفريضة حتى ينعكس هذا السلوك فيها بعد على تصرفات من يقيم شعائر الدين ويؤدى عباداته نحو خالقه، وهو سبحانه وتعالى غنى عن العالمين، ومن آثار تأدية فريضة الحج اكتساب مؤديها لقيم جديدة تنفعه في حياته الدنيا ولها ثوابها في الحياة الآخرة، ومن هذه القيم:

۱ - القيم الروحية: تتجلى فى تلبية المؤمن نداء ربه وتنفيذ أوامره طواعية ، وبنفس راضية مما يعمق إيمانه ويدعم تقواه ، ورؤية الحاج لتلك البقاع المقدسة التى باركها الله وما حولها والتى تتجه إليها قلوب ملايين المسلمين ووجوههم أثناء الصلاة وذكر الله والدعاء إليه ، تهز الحاج هزاً عنيفا وتكسبه شعورا جديدا بالصفاء الروحى والهدوء النفسى ، ومشاهدة الحاج لأول بيت أقيم لعبادة الله الواحد الأحد ولما حوله

من أماكن مقدسة حيث نزل الوحى وحيث جاهد الرسول ورعيله الأول الذى آمن بالله ورسوله وأوذى وصمد فى سبيل تبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، كل هذا زاد ما بعده زاد يتزود به الحاج بنور الهداية الربانية وينسى معها ما قد يكون قد صادفه من مشاق فى سبيل تحقيق هذه الفريضة ، ومن ثم يكون الحج عبادة يطهر بها الحاج نفسه ويصفى روحه حين يترك داره وأهله ومتاعه فى سبيل التزود من منابع هذا النور الإلمى الذى يستضىء به فى حياته الدنيا ويبصر به أقوم المسالك التى يصل من خلالها إلى رضا الله وغفرانه وثوابه فى حياته الآخرة ، والحاج إذْ يتجرد من كل مشاغل الدنيا ومتاعها ويتجه إلى ربه ملتمساً مرضاته إنما يتطهر من ذنوبه ويغفر له ربه .

وفي الحديث الشريف عن ثواب الحج :

«مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجع مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْم وَلَدَّتُهُ أُمَّهُ » . «حجو فإن الحج يغسل الذنوب كها يغسل الماء البدن» .

والحاج إذْ طهرت نفسه وصفيت روحه وأحبه ربه ، يتقبل الله منه التوبة كها يتقبل شفاعته في أهله ، وفي ذلك يقول النبي ﷺ .

«يشفع الحاج في أربعمائة من أهل بيته ، ويخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» . (٢) القيم الأخلاقية :

يكتسب الحاج عدة صفات أخلاقية حميدة وأنواعا من السلوك القويم من خلال أداء هذه الفريضة ، منذ أن ينوى ويسافر إلى هذه الأماكن المقدسة حتى عودته إلى أهله ، واستفراره في بيته حيث يحس بأنه قد خُلِق شخصاً جديداً روحياً وأخلاقياً كله صلاح وتقوى ، فالنية الخالصة على أداء فريضة الحج دليل صدقه مع نفسه وقوة إيمانه بربه وبما أمر به ، ومن ثم يصبح الوفاء بالعهد خُلفاً حميداً اكتسبه الحاج بادىء ذي بدء . والحاج إذ يعد عدته لأداء فريضة الله عليه ، وهو إذ يدبر ما يلزم لهذا العمل من نفقات ولوازم ذاكراً ربه ، يتحرى طهر ماله من أي دنس ويتحرى الخير والتقوى في عمله حتى يقبل الله منه حجه . وفي مشاق السفر إلى الأراضي المقدسة والمابأ وإياباً وأداء مناسك الحج يكتسب الحاج صلابة في الحق وصبراً على المشاق مع سمو القصد . والحج كفريضة يؤديها الحاج نحوربه وخالقه ، يسنوجب أداءه في جو

من طهر النفس وصلاح فى القول والعمل ، فيلا لغو ولا قول فاحش ولا حقد ولا غضب ، بل لا يصدر من الحاج الا الاستغفار وذكر الله وتقواه يتقرب بها إلى ربه ومن ثم يتحلى بالتقوى التى تنير له الطريق القويم فى الفكر والقول والعمل ، وذلك عملا بقوله سبحانه وتعالى :

« الْحَجُّ أَشَهُرٌ مَّعْلُوماتٌ فَمَن فَرَضَ فيهن الحَجَّ فَلاَ رَفَتَ ولا فُسُوقَ ولاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ ومَا تَفْعلوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فإن خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى واتَّقُونِ يا أُولَى الْأَلْبَابِ» (٦٦).

(٣) القيم الاجتماعية:

إن في اجتماع ألوف الحجيج في مكان واحد وهو الأرض المقدسة وفي وقت واحد هو شهر ذي الحجة يحدوهم هدف واحد وإحساس واحد هو التماس الغفران من الله سبحانه وتعالى والتوبة إليه والتطهر من الذنوب ، والتعاون وعطف الغني على الفقير ومساعدة القوى للضعيف . وفي تجرَّد الحاج من زحرف الملبس والزينة واكتفائه بالبسيط من الملبس ، إشعار له بالمساواة بين أبناء الدين الواحدوتطهيرا له من نقائص التعالى والزهو على حساب كرامة أحيه في العقيدة ، وبدلك يكتسب الحاج سلوكاً اجتماعياً قويماً أساسه التواضع وتحرى العدل والصدق مع الغير .

إن في اجتماع الحجيج المسلمين على اختلاف أوطانهم وأجناسهم ولغاتهم ، هما لأمة الإسلام في صعيد واحد وعلى نية واحدة ، هي تلبية أمر ربهم وتأكيد لعقيدتهم ، فمثل هذا الجمع الصالح في ذلك المكان الطاهر ما هو إلا مؤتمر دولي إسلامي يتعارف فيه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها ويتدارسون أحوالهم ويتعرفون على مشاكلهم ويتعاونون على حلها بالحق والعدل ، وفي ذلك تقريب بين الشعوب الإسلامية والتحام يجعل منهم صفاً واحداً وبنيانا قوياً راسخاً أمام أي عدو لدينهم أو عدوان حاقد عليهم ، وفي هذا التقارب والتعاون إزالة للخلافات التي كثيراً ما تنشب بين أخوة في أسرة واحدة هي أخوة العقيدة وأسرة الإسلام ، حتى تكون هذه الأمة بحق خير أمة أخرجت للناس ، أمة تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ، أمة تنادي بالسلام وتقاوم العدوان على الحق

شروط الحج :

الحج فريضة فرضها الله على كل مسلم قادر ، وهى مثل بقية الفرائض ، لم يفرضها الله ثم ترك المسلمين كل منهم يؤديها ويزاولها وفق هواه وتفسيره ، بل شرع لها من النظم والضوابط ما يجعلها مقبولة عند الله ولكى تتحقق الحكمة من فرضها ؟ وشروط صحة الحج هى :

(١) الإسلام: إن الحج فريضة إسلامية فرضها الله مع بقية الفرائض التي يجب أن يأخذ بها كل مسلم ليصح إسلامه، ولذا فهي لا تقبل من كافر، أو من أحد من أهل الكتاب من غير المسلمين، إذ لا يعقل أن يقوم فرد بفريضة واحدة من فرائض الإسلام لكي يصبح مسلماً، فالفرائض الإسلامية كلَّ لا يتجزأ، وهي متكاملة إذ لكل فريضة حكمة تكملها وتعززها حِكم بقية الفرائض، وهي مع فرضها وإلزام كل مسلم بإتيانها، ليس فيها ما يُعجز عن الامتثال لها والأخذ بها، وقد سبق أن بينا كافة التيسيرات التي منَّ الله بها على المسلمين في أداء فرائض الإسلام، فلا عذر بعد ذلك ولا حرية لأن يختار الفرد فرضاً من هذه الفرائض دون غيره، ويأخذ به نفسه، وإلا كان إسلامه ناقصاً أو بالأحرى لا يمكن أن يكون مسلماً.

(٢) سلامة العقل: فلا يصح لمجنون أداء هذه الفريضة رغم أنه يدين أصلا بالإسلام، إذْ لا يصح لمجنون إنفاق، ولا يطالب من لا يملك زمام نفسه أو عقله أن يقوم بتكاليف الحج من نية صادقة صادرة عن وعى ووزن للأمور، ولا يؤمّنُ سفره أو إقامته أو مناسكه، وحكمه حكم غير القادر.

(٣) البلوغ ، لأن الحج فريضة على كل مسلم راشد ، فالحج ليس فرضاً على صبى لم يبلغ سن الحلم ولو كان قادراً عليه صحياً ومالياً .

(٤) الاستطاعة : أى قدرة من نوى الحج على حيازة ما يلزمه من زاد وراحلة ، أى القدرة على التزود بما يكفل تكاليف معاشه وإقامته وسفره وعودته ، ويشترط للقدرة على الزاد ، أن يكون لدى الحاج ما يكفيه أثناء حجه وما يكفى من يعولهم حتى يرجع ، ومن الاستطاعة أيضاً ألا يكون به مرض يعجزه عن الحج أو ذا

شيخوخة موهنة أو ذا عاهة مانعة من السير والرؤية ، كما يمنع المرأة من الحج عدم انتهاء عدتها أو عدم وجود زوج أو محرم معها أثناء الحج ، كما يحول دون الحج عدم توفر الأمن في الطريق إلى مكة .

(٥) أعمال الحج الضرورية هي :

١ - الوقوف بعرفة (ووقته من ظهر اليوم التاسع من ذي الحجة إلى فجريوم العيد) .

٢ - الطواف بالبيت الحرام : ووقته بعد عرفة .

٣ – ثم السعى ، ووقته بعد الطواف .

(٦) توافر آلحرية لمن ينوى الحج ، فلا يفرض على من كان أمره بيد سواه ممن لا يستطيع السفر بغير اذن منه .

(٧) صدق النية أى أن تكون النية على الحج خالصة لوجه الله وحقيقية للسفر إلى الأراضى المقدسة وتحمل مشاقه من أجل أداء هذه الفريضة دون سواها . فلا يجب أن يشوب هذه النية مقاصد أخرى كالتجارة ، أو كسب شهرة بالظهور أمام الناس بمظهر التقوى والورع .

أركان الحج :

وتشمل الإحرام والوقوف بعرفة وطواف الركن ، والسعى بين الصفا والمروة :

١ - الإحرام أى صدق النية ، ثم النظافة عن طريق قص الأظافر وحلق العانة ونتف شعر الإبط ، ثم الوضوء أو الغسل ، حتى ولو كانت المرأة حائضا أو نفساء لأن الغسل للنظافة وليس للطهارة ، والغسل أفضل من الوضوء والغسل لازم أيضاً عند دخول مكة وعند الوقوف بعرفة ، ويستحب لرمى جمرة العقبة عند النحر .

ومن السُّنة أن يلبس المحرم إزاراً من الموسط ، ويلبس رداء على الكتف ، ويحسن أن يكون الإزار والرداء نظيفين أو جديدين وأن يكونا أبيضين لا مصبوغين ويحسن التطيب .

ومكان الإحرام للحاج بالنسبة لأهل مصر والشام التى لا يجوز لهم مجاوزته بلا إحرام هو الجحّفةُ وهى مكان على ساحل البحر الأحمر الشرقى ، ولا وجود لها الآن ، لذلك صار حجاج مصر والشام يحرمون فى رابغ وهى مدينة صغيرة تقع شمال الجحفة .

ومن السنَّة اتصال التلبية بالإحرام ونصها وارد عن النبي ﷺ ، هو :

(لَبَيْكَ اللهم لَبَيْكَ ، لبيك لا شريك لك لَبَيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبَيْك) .

ويقوم مقام التلبية ما في معناها من التسبيح والتحميد والتهليل .

ويجوز للمحرم شم الرياحين ، وشد الهيمان (الكمر أو الحزام) الذى به نقوده على وسطه ، وأن ينظر فى المرآة عند الضرورة ، ويحرَّم عليه قتل الحيوان إلا الحطر الضار منها مثل الغراب والحدأة والفأر والحيوان السام أو المفترس ولا يجوز للمحرم الجماع ودوافعه ، أو لبس المخيط وإزالة الشعر وتقليم الأظافر والطيب وتغطية الوجه أو الرأس ، وصيد البر ، وقبطع الشجر والنبات فى الحرَم ، ولبس المصبوغ والتخضب ، وقد بين الله تعالى ناقضات الإحرام ، بقوله :

« ولا تَعْلِقوا رءوسَكم حتى يَبْلُغَ الهَدْيُ عَمِلَّهُ » (٦٧) .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا لا تَقْتلوا الصَّيْدَ وأنتم حُرُمٌ (٢٨) .

٢ - الوقوف بعرفة (عرفة هضبة فسيحة في شرقى مكة بعمد المزدلفة ومنى).
 والوقوف بها يتحقق في أي جزء من أجزائها مُحْرِماً ، واقفاً أو راكباً أو مضطجعاً .
 وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، حين سئل وهو واقف بعرفة ، أنه قال :

(الحج عرفة ، فمن جاء قبل صلاة الفجر من ليلة جَمْع ، فقد تم حجه) ، وجَمْع هي المزدلفة .

ومن آداب الوقوف بعرفة: الغُسْل ، وأن يقف الحاج راكباً عند الصخرة مستقبلا القبلة ، رافعاً يديه بالدعاء ، حامداً مهللاً ، مكبِّراً ملبياً ، مصلياً على النبى ، داعياً لأهله ، ويحسن أن يدعو كها دعا النبى على الله .

(لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير ، اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي صدرى نوراً ، وفي سمعى نوراً ، وفي بصرى نوراً ، اللهم اشرح لي صدرى ، ويسر لي أمرى ، أعوذ بك من وساوس الصدر وشتات الأمر وفتنة القبر ، اللهم إني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل ومن شرما يلج في النهار) .

ويستحب أن يخفض الحاج صوته عند الدعاء ، وأن يكون كل دعاء ثلاثاً ، ويكثر من التلبية رافعاً صوته ، ويدعو لوالديه ولمشايخه ، وأقاربه وأصدقائه ولكل من أحسن إليه ، وسائر المسلمين .

٣ - طواف الركن : قال تعالى :

« ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَتَهُمْ ولْيُوفُوا نُذُورَهُم ولْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» (٦٩> .

فالطواف حول الكعبة ركن من أركان الحج ومن واجباته ، ويكون الطواف بالمشى أو بالركوب لعذر ، والصلاة ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام تنفيذاً لأمر الله :

« وإذْ جَعَلْنا البَيْتَ مثَابةً للنَّاسِ وأمْنًا واتَّخِذُوا مِن مَّقام إِبْراهِيمٍ مُصَلَّى وعَهِدْنا إِنْراهِيمَ وإسماعيلَ أَنْ طَهِّرا بَيتى لِلطَّائِفينَ والعَاكِفِينَ والرُّتْعِ السَّجُودِ(٧١)».

وتصح الصلاة حيث يتيسر للحاج في المسجد الحرام بعد كل طواف ويستحب منه الدعاء عقب صلاة الطواف خلف المقام لنفسه ولأهله

ويُسنّ. فى بدء طواف الحاج استقبال الحجر الأسود ، مهللا مكبراً رافعاً يديه كها فى الصلاة ، وينبغى ألا يزاحم غيره عند استلام الحجر الأسود ، وخير من التزاحم الاستقبال والتكبير ، كما يحسن استلام أو استقبال الحجر الأسود من ركنه اليمانى .

هوامسش البساب الثاني

- (١) الحجر ٣٣ .
- (٢) الحجر ٣٤ ، ٣٥ .
 - (٣) الحجر ٣٩.
 - (٤) البقرة ١١٣ .
 - (٥) البقرة ١١١ .
 - (٦) البقرة ١١٢ .
 - (٧) البقرة ١٢٠ .
 - (٨) الصف ٦.
 - (٩) إبراهيم ٤ .
 - (١٠) النحل ٣٦ .
 - (۱۱) الشوري ۱۳.
 - (١٢) البقرة ١٢٧ .
 - (١٣) البقرة ١٢٨ .
- (١٤) البقرة ١٣٠-١٣٢ .
 - (١٥) المائدة ١٤ .
 - (١٦) المائدة ٦٤ .
- (۱۷) آل عمران ۳ ٤.
 - (۱۱) ال حمران ۱ ۱
 - (١٨) البقرة ١٨٥ .
 - (١٩) النساء ٢٦ .
 - (۲۰) آل عمران ۷۸.
 - (٢١) النساء ١٥٥.
 - (٢٢) النساء ١٥٦.
 - (۲۳) النساء ۱۵۷. (۲٤) آل عمران ۷.
 - (۲۰) المائدة ۲۰
 - رد) النساء ۱۷۱ . (۲۲) النساء ۱۷۱ .
 - (۲۷) النساء ۱۷۲.
 - (۲۸) المائدة ٤٧ .
 - (٢٩) البقرة ١٧٤ .
 - (۳۰) المائدة ٦٦ .
 - (۲۱) المائدة ۲۸.
 - (٣٢) المائدة ٢٩ .
 - (٣٣) الجمعة ٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

```
( ۱۹۳ م المارة ۱۵ مروم المارة ۱۵ مروم المارة ۱۵ مروم ۱۹ مروم
```

الفصل الثالث

مقومات الإيمان

للإيمان أسس وأصول يجب توافرها حتى يكون إيمانا كها أراده الله فيكون إيمانا مقبولا فلا تكفى الشهادتان ولا يكفى أداء شعائر الإسلام وفرائضه ، مالم يقم هذا الإيمان على دعامتين قويتين راسختين من التقوى والبر :

(أولا) التقسوي :

والتقوى من الوقاية ، وفعلها وقى بمعنى حمى الشىء ودفع عنه ما يلحق به من ضرر ، ويكون ذلك إما بدفع هذا الضرر عند اقترابه أو باتخاذ الوسائل الكفيلة بإبعاده وإبعاد آثاره عنه ، فيكون الإنسان بتقواه أى بحماية نفسه فى مأمن من حدوث الضرر ، والمتقى هو المحصن الآمن من وقوع الضرر عليه ، بما أعد لنفسه من حصانة ووسائل للدفاع والحماية من أى أذى يلحق به ، ومصدرها التقوى أى الأمن من الضرر .

والمؤمن التقى هومن أعد نفسه وقوّاها وحصنها من أى ضرر أو أذى فيصبح آمنا وفى مأمن منه ، والتقوى انما تكون وقاية النفس من ضرر قد يقع عليها ممن للمتقى بهم صلة :

وأوْلى ما فى الوجود بخشية المؤمن واتقاء غضبه وعـذابه هـو القوى القادر المطلع ، هو الله سبحانه وتعالى ، وذلك باتخاذ الوسائل لنيل رضاه واتقاء غضبه .

وقد لخص الحكيم الخبير وسيلة تقواه ونيل رضوانه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أى يأخذ التقى نفسه بعمل المعروف وينصح غيره بعمله ، وأن ينتهى عن المنكر وينهى غيره عن إتيانه .

وبعد تقوى المؤ من ربه يجب عليه تقوى نفسه أى اتقاء جموح هواها ويكون ذلك بكبح جماح أهوائها والاستعاذة بالله مما تأمر به من سوء .

وعلى المؤمن أن يتقى الناس ، أى وقاية نفسه ممن يحاولون إلحاق ضرر به ، فالمؤمن التقى هو من اتقى ربه واتقى نفسه واتقى عدّوان الناس عليه .

وسلاح تقوى المؤمن فى جميع هذه الحالات هو الصلاح والإصلاح . صلاح النفس بتطهيرها من وسوسة الشيطان الرجيم ، وتزكيتها بذكر الله . وإصلاح الناس بالعمل الصالح والموعظة الحسنة .

والله سبحانه وتعالى ، إذْ خلق الإنسان ضعيفا بنزعات نفسه ، قد زوده بأداق الصلاح والإصلاح وهما ركنا التقوى ، وهاتان الأداتان هما العقل والإيمان .

العقل الذى به يعقل الأشياء ويتدبر أمرها ، والإيمان الذى يذكره بربه فيهديه إلى تقواه فيها يفكر وفيها يعمل ، هيأ العزيز الحكيم للإنسان ميدان التعقل والتدبير وهى تلك الأرض التي يعيش عليها إذ هيأ له فيها سبل العمل بالحق ومكنه من وسائل الكمال ، والعمل بالسعى في طلب الرزق الحلال والإيمان بقدرة الله وحكمته .

وهو سبحانه وتعالى ، إذ وهب الإنسان العقل ليميزه عن سائر حيوان الأرض وليتدبر به أمره ومعاشه ، لم يتركه وشأنه ، بل والاه بالنظر والرعاية ووجهه أسلم توجيه برسالاته السماوية التي بعث بها أنبياءه الأمناء وأنزل بها كتبه البينات ، كل ذلك ليبلغ الإنسان ، خليفته في الأرض ، بعقله وإيمانه ذلك الكمال الذي أراده له خالقه ، ذلك الكمال البشري الذي يلائم حياة بشرية صالحة وليس ذلك الكمال المطلق الذي هو من صفات الله وحده ، جل وعلا .

وهو سبحانه وتعالى الذي أنزل الفرقان بالحق ، هداية للبشر ودستور عملهم في الطريق المستقيم الذي حدده العليم الخبير ، ومن سار على صراط ربه المستقيم في

إخلاص وصدق وإيمان ، اتسم بالعلم الصحيح والعمل النافع والسلوك القويم والمقوّة والمنعة بإذن الله .

وهو سبحانه وتعالى أنزل قرآنه الكريم ليعمل البشر بمقتضى آياته البينات أمرا ونهيا ، لما فيه من محكم الهدى الإلهى وتحقيق الكمال البشرى .

وتعنى التقوى التى أرادها الله للمؤمن تقواه سبحانه وتعالى ، وتقوى نفسه ، وتقوى الناس :

(١) تقوى الله :

أول ما يأخذ به المؤمن نفسه فى تقواه تقوى خالقه العزيز رب العالمين ، وطريقها اتباع تعاليمه الإتمية التى أنزلها فى قرآنه الكريم .

وتقوى الله تتمثل في العبادات المفروضة على المؤمن نحوربه تزكية لنفسه وهديها وتهذيبها ، كما تتمثل تقوى المؤمن ربه في البعد عن المعاصى التي نهى عنها محكم تنزيله ، لأنها تدنس روحه وتنعكس على أفعاله وسلوكه ، فعلى المؤمن وقد اتقى ربه والتمس رضوانه أن يتبين المسببات والأسباب التي ترتبط بها ، ثم عليه بعد ذلك اصطناع الأسباب الطيبة لتحصل المسببات الطيبة ، فيكون فعل الإنسان هذا النوع من الأسباب تقوى إذ أنه يأخذ من الأسباب ما يرضى بها ربه ويتقى غضبه ونقمته وليس خيرا من سنن الله ، التي تضمنها قرآنه الكريم ، ما يتخذ المؤمن منها نبراسا يتلمس به خير الأسباب للحصول على خير المسببات ومن ثم يتسم سلوك المؤمن بتقوى ربه فيها يقوم به من أقوال وأفعال أخذاً بهذه السنن الربانية في اتباع المعروف والانتهاء عن المنكر .

ومن ثمرات تقوى الله حصول الفُرْقان ، وهو ما يفرق به المؤمن بين الصواب والخطأ ، ويميز بين الحق والباطل ، ويتبين الخير من الشر ، فالعلم الصحيح والقوة الموجَّهة توجيها سليها والعمل الصالح والخلق الكريم والسلوك القويم ، كلها من آثار التقوى ويجلى الله بعلمه معنى الفرقان بقوله :

« يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا الَّلهَ يَجْعَل لَّكُم فُرْقَاناً ويُكَفِّرْ عَنْكُم سَيِّئاتِكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ »(١) . ولما كان القرآن الكريم قد بين في محكم آياته معنى الحق ومعنى الباطل، وأسباب هذا وذاك، سمى بالفرقان:

« تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْمَالِينَ نَذِيراً »(٢)

وجاء أمر الله المؤمنين بالتقوى فى أكثر من آية وبشتى الأساليب ومختلف المناسبات ، من تذكير بنعمة الخالق على خلقه ، وحق الأخوّة البشرية ، وصلة الرحم التي تربط بين بني آدم جميعا :

« يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذِّى خَلَقَكُم مِّنْ نَفْس واحِدَةٍ وخَلَقَ منها زَوْجَها ، وَبثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثيراً وَنسَاءً واتَّقُوا اللَّهَ الذِّى تَسَاءلُونَ به والأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُم رَقِيباً ٣٣٠ .

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلاَل مِعْيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا واشْرَبُواهَنِيتًا بَمَا كُنْتُم تَعْمَلُون * إِنَّا كَذَلكِ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ »(٤) .

والله الرحمن الرحيم إذ ينصح بالحسنى ويبين للمؤمنين صراطه المستقيم ، قادر أيضا على أخذ العصاة الضالين بسوء العذاب بما قدمت أيديهم ، في يومه المشهود يوم الحساب العسير لكل من ضل وعصى واتخذ الأعوج من السلوك :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ واخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِى وَالِدُّ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودُ هُوَ جَازِ عَن والله شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقَّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحِياةُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِاللَّه الغَرُورُ »(٥)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عظِيمٌ »(٦) * يَوْمَ تَرَوْمَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرضِعَةٍ عَمًّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَات خَمْل حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ شُكَارَى وما هُمْ بِشُكَارَى ولما هُمْ بِشُكَارَى ولمَا هُمْ بِشُكَارَى ولمَا هُمْ بِشُكَارَى ولمَا هُمْ

(٢) وعلى من اتقى الله أن يطيع أيضاً حبيب الله ومصطفاه ورسوله سيدنا محمدا على ، وأن يمارس هذه الطاعة ممارسة عملية بتصديق الرسول الأمين فيها جاء به من وحى إلهى ومن ثم طاعته ، ولهذه الطاعة جانبان :

جانب المبلغ لرسالة ربه المبينة فيها أوحى إليه من آيات الله البينات ، وتتمثل طاعةُ المؤمن رسول الله الأمين في إيمانه بما أنزل الله عليه ، وهو الرسول الأمين في إيمانه بما أنزل الله عليه ، وهو الرسول الأمين في إيمانه بما أنزل الله عليه ،

اختاره العليم الخبير من بين البشر أجمعين وحمَّله أمانة البلاغ المبين ، كما لا يجوز لمن اتقى ربه مناقشة نصوص السُّنة متى صح سندها وثبتت روايتها ، لأنه عَلَيْ الرسول الأمين الذى اتقى ربه حق تقاته ولذلك فهو لا ينطق عن الهوى ، علما بأن التصديق بآيات الله وسنة رسوله والتسليم بهما وعدم مناقشتهما لا يمنع مؤمن تقى من الاجتهاد فى دراستها ، لا عن شك فى النص ، بل من أجل الفهم والتبين والتبصر والاعتبار .

هذا جانب ، والجانب الآخر في طاعة المؤمن للرسول ، هو جانب الإمامة والقيادة العامة الرشيدة للمسلمين في تنظيم شئونهم ، وفي هذا حفظ للنظام العام واتقاء الفوضي بين المسلمين ، وهل هناك ماهو أرشد من إمامة رسول الله الأمين إلى الحلق أجمعين ؟ وهل هناك من البشر من هو أحكم من الرسول في قيادته لهم ، هذا الذي لا يصدر منه فكر أو قول أو عمل عن هوى نفس ؟ إنما ينطق ويعظ الناس بما أوحى الله إليه ، ويبلغه للبشر بأمانة المبتغى مرضاة ربه وتقواه وحب الخير لإخوانه في الدين وفي البشرية .

وما أصدق آيات الله في وصف تقوى رسوله ﷺ :

« قُل إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لله مَثْنَى وفُرَادَى ثُم تَتَفَكَّروا ما بِصَاحِبِكُم مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُو إِلاَّ نَّذِيرٌ لَكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابِ شَدِيدٍ »(^) .

«ما ضَلَّ صاحِبكُم وما غَوَى * وما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُو إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * علَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى » (٩) .

« إِنَّهُ لَقُولُ رسول كِرِيم * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى العَرْشِ مَكَينٍ * مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ * وما صَاحبُكم بَحْنُونٍ »(١٠) .

(٣) وتقوى المؤمن نفسه هي أن يقى ذاته من شهوات نفسه ، والمؤمن التقى هو من اتقى نفسه الأمارة بالسوء فيتقى أهواءها التى قد تزعزع إيمانه وتعبث بضميره إذا ما أوق مالا أو سلطانا ، ويحكم عقله ودينه وإيمانه في كبح جماحها إذا ما أوحت إليه بما يخالف ما أمره الله به ، ويعيدها إلى جانب الرشد ، ويطهرها بالمحافظة على العبادات التى تنهى عن الفحشاء والمنكر فتتطهر نفسه وتصفو ، وتصبح نفسا طيبة صالحة فلا يصدر منها إلا ما كان طيبا وصالحا ، وهذا هو الفوز المبين الذي يؤتيه الله عباده الذين آمنوا واتقوا شهوات النفس وأهواءها الضالة المضللة .

(٤) والمؤمن التقى من اتقى كيد الناس وما قد يلحقونه به من شر وضرر ، وذلك بالوفاق والتعاون والإيثار والتكافل والتعاطف بينه وبين غيره من الناس ، ومناط تحقيق هذه الآمال هى التقوى والعمل على إصلاح ذات البين بين ذوى الأهواء المتعارضة والأغراض المتنافرة ، وأن يكون عنصر سلام ووئام بين أخوته فى الدين وأن يصلح الناس بالعمل الصالح والموعظة الحسنة :

١ - فالوفاق في الحياة الزوجية الذي يقوم على العمل بالتي هي أصلح ، والدفع بالتي هي أصلح ، والدفع بالتي هي أحسن ، هي بعد المؤ من عن سلوك المسالك التي تؤدي إلى أسوأ النتائج ، ويبين رب العالمين خير سبل حل المشكلات الزوجية ، إذا ما استحكمت وتعذر على الزوجين حلها ، إذ عليهم في هذه الحالة التماس وسائل إحلال الوفاق محل الشقاق ، فينادوا من أهل الصلاح والتقوى من يصلح بينها :

« وإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابِعَثُوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِه وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إ إصْلاَحاً يُوفِّق اللَّهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيهاً خَبِيراً »(١١) .

كما أَمَرَ الله سبحانه وتعالى بأن يتقى المؤمنون وقوع شقاق فيها بينهم ، وأن يعملوا ، جاهدين مخلصين على الوفاق بين الطوائف والأحزاب بفض ما قد ينشب بينهما من خلافات ومشاحنات قد تشتد فتفرق بينهم وتذهب ريحهم جميعاً :

« وإنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المؤْمنينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إَحْدَاهُما على الأُخْرَى فَقَاتِلُوا التي تَبْغِي حتى تَفيءَ إلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بِينَهُمْ بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ (١٢) * إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخُويْكُمْ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرَّحُونَ» (١٣) .

ومن ثم يجب أن تكون التقوى هى الجو الذى يسود جماعة المؤمنين إذا ما اجتمعوا وتناجوا أو تحدثوا ، فيجب أن تكون نجواهم وحديثهم على الخير وحل المشكلات والتقارب والتحاب ، وإصلاح حالهم ، وفيها عدا ذلك من نجوى أو حديث عبثٌ لا طائل من ورائه .

« لَا خَيْرَ فَى كَثْيرِ مِّن نَّجْوَاهُمِ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَة أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يفعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُوْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً »(١٤) .

والمؤمن التقى لا يتوانى عن الإصلاح فى أى وقت وفى أى مكان يحل فيه ، ولا يقف من الأحداث موقف المتفرج الصامت ، وهو قادر على العمل ، ولا يقعد عن اتخاذ موقف إيجابى عملى فى الأحداث لاتقاء تفاقم الخلافات والمشاحنات بين أخوته فى الدين قبل أن تستفحل ويستعصى حلها بالتى هى أحسن ، ومن يفعل غير ذلك إنما يرتكب ، من حيث لا يشعر ، إثما كبيراً ، وما الله بغافل عما يعملون ، وهو سبحانه وتعالى الذى يجزى هؤ لاء الغافلين الجزاء الحق لأنهم بسلبيتهم مناعون للخير لأمة الإسلام ، والساكت عن الإثم ، مع قدرته على إزالته إنما هو آثم ، آثم فى حق الله وآثم فى حق أمته ، وما الساكت عن الحق إلا شيطان أخرس .

والأشد إثماً من الغافل الساكت ، هم من يوقدون نار الفتنة والعداوة والبغضاء بين الناس ، بدافع من غل يأكل قلوبهم واستسلاماً لحسد يقض عليهم مضاجعهم .

ومن يظن خيراً آتيه من الوقيعة والدس بين المؤمنين طمعاً في غنم يناله من هذا التباغض والتشاحن ما هو إلا أخ للشيطان وأداته الطيّعة في ارتكاب الأثام وشق عصا الطاعة للخالق الجبار وإفساد في الأرض ، وله من ربه أشد العذاب :

« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبِ وَتَبَّ * ما أَغْنَى عَنْه مَالُهُ وما كَسَبَ * سَيصلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبِ * وامْراتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * في جِيدهَا حَبْلٌ مِن مَّسَدٍ ١٥٥٪ .

ثانياً: السبِرُ:

البر معناه الوصل الطيب أى الإحسان فى العمل والتعامل بين الناس ، والمؤمن حق الإيمان هو كل من كان بارًا فى اتصالاته وفى قوله وفى عمله أى من كانت علاقته بغيره طيبة صالحة ومن كان فى سلوكه محسناً ، وإنما الدين المعاملة .

قال تعالى في معنى البر:

« لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ولَكنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ والنَيْمِ والنَيْمِ والنَيْمِينَ وآتَ المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبِ والنَيْسَامَى والنَيْمامَى والمَسَاكينَ وابنَ السّبيلِ والسَّائِلينَ وَفِي الرِّقابِ وأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ والمُوفُونَ والمَسَاكينَ وابنَ السّبيلِ والسَّائِلينَ وَفِي الرِّقابِ وأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ والمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عاهَدُوا والصَّابِرينَ في البَاْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ البَاسِ أولئكَ الَّذين صَدَقُوا ، وأُولئِكَ هُمُ الْمُتَقُونِ (١٦٠) .

« أَتَأْهُرُ وِنَ النَّاسِ بِالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأَنْتُمْ تَتْلُونَ الِكَتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ »(١٧) فليس من البر أن تطالب الناس بحسن العشرة وطيب التعامل ، ولست أنت على شيء منها .

والإيمان في الإسلام لا يقوم على ظاهر العبادات وصورها وأشكالها ، دون العمل بالقصد الحكيم من فرضها والبر في الإسلام لا يقوم على مجرد أداء فرائض الدين في الشكل دون الجوهر إنما الإيمان الحق هو ما قام على الاسترشاد بما أمر الله المؤمن بعمله وصدق المؤمن في في في في وقوله وعمله فالبر ضمير وإحساس وعمل ، ضمير حى وإحساس مرهف وعمل صالح وهو بذلك شديد الصلة بلب الأمور وحقائقها وبروح التكاليف الإلمية مع ظواهرها .

والبر بهذا المعنى ، وكما جاء فى آيات الله البينات ، يتناول البر مـع الله ومع النفس ومع الناس :

١ - البرفى العقيدة: أى الإيمان بالله وباليوم الآخر وبملائكته ورسله وكتبه إيماناً صادقاً ومطلقاً، إيماناً ينعكس فى السلوك بما أمر الله ، لا مجرد حركات تمارس أو كلمات تقال ، والبر فى العقيدة هو الإيمان الراسخ بوحدانية الخالق جل وعلا ، الرافع الخافض ، المعز المذل ، القابض الباسط ، وهو الله سبحانه وتعالى من لا تعنو الوجوه إلا له ولا تتجه القلوب إلا إليه ، ولا يستعان إلا به .

هذا الإيمان بالله الواحد القهار ، وبعظمته ، وبعدم الإشراك بـه ، وإسلام الأمر كله له ، هو الذي يرفع مكانة المؤمن إلى مكان التكريم والسمو الذي أراده الله للإنسان ليكون جديراً بإنسانيته .

« إِنَّ الَّذِينِ قَالُوا رَبُّنَا اللهَ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا ولا تَحْزَنُوا وأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ»(١٨) .

هذا الإيمان يؤمّن صاحبه من الذل والاستكانة لغير الله ، والله وحده هو القادر على أن يعصم عبده المؤمن من التورط والزلل ، وهو الذي يجعل من نفس المؤمن رقيباً عليه ، هذا الإيمان هو نبراس هداية المؤمن وتسديد خطاه ، به يهتدي إلى الحق في فكره وقوله وعمله وتعامله ، والإيمان بوحدانية الله يستوجب عدم الشرك به ،

والالتزام بأوامره وحده لأنها وصايا العليم الخبير الذى لا يأمر إلا بالحق ولا يشاء للبشر إلا الخير والسعادة ، ومن يشرك بالله إنما يظلم نفسه وعليه وحده يعود شركه ، والله غنى عن العالمين :

« واعْبُدُوا الله ، ولا تُشْرِكُوا بهِ شَيْئًا وبالْوالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى القُرْبَى والْيَتَامَى والْمَسَاكِينِ والجَارِ ذِى القُرْبَى والجَارِ الجُنُبِ والصَّاحِبِ بالجَنبِ وابْنِ السَّبِيل وَما مَلَكَتْ أَيْانُكُم إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَحُوراً »(١٩) .

« يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »(٢٠) .

ومن آمن بالله وحده لا يذل لمخلوق فيحفظ له الله عزة نفسه وكرامتها .

ومن أسلم أمره لخالقه وحده لا يسأل غيره .

ومن أطاع الله ونفذ أوامره ، لا يخضع لمخلوق ولا يطيعه في معصية .

وهذا هو الإيمان الحق الذي أراد به الله للمؤمن حفظ كرامته وإنسانيته وصلاحه وتقواه ، فهو الله وحده وبذاته :

« لا شَرِيكَ لَهُ وبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ »(٢١) .

والشرك بالله سبحانه وتعالى يؤدى بالمشرك إلى الذبذبة وعدم الاستقرار والعجز عن أن يقطع بشىء من شئون حياته فيصبح نهباً لوسوسة الشيطان فيبوء بالكفر والخسران والبوار في حياته الدنيا والعذاب الأليم في حياته الآخرة :

« وَلَقد أُوحِى إِلَيْكَ وإِلِي الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاصِرِينَ »(٢٢) .

« إنَّ الله لا يَعْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَعْفِرُ مادُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ باللهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيماً» (٢٣) .

ولا يقبل الله عذر من يشرك به ولا يشفع له قوله أنه إنما نشأ على دين أبويه : « أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آباؤُنَا مِن قَبْلُ وكُنَّا ذُرِّيَّةً مِن بَعْدِهِم أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَـل الْمُطلهُ نَهِ (٢٤٠) . ولا ينجيهم من غضب الله وعذابه ، قولهم : " لَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكْنَا ولا آباؤ نَا "(٢٥) .

حتقا ان الله لا يهدى من مرض قلبه ومن جعل الشيطان له وليا .

ومن البر في العقيدة ، بعد الإيمان بوحدانية الخالق ، الإيمان باليوم الآخر :

يوم البعث والحساب والجزاء على ما قدم الإنسان فى حياته الدنيا ، ما ظهر منها وما بطن ، والله سبحانه هو وحده المحيط بكل شىء مها كبر هذا. الشىء ومها صغر ، ما ظهر وما بطن ، يوم تجزى كل نفس بما قدمت إما نعيم مقيم وإما عذاب أليم ، يحكم بها أعدل الحاكمين ، والبعث والحساب والجزاء معان تغرس فى نفوس المؤمنين الأبرار حب الخير وبَذْلِهِ للناس ، وكراهة الشر وتجنب الأذى .

وقد عنى القرآن الكريم عناية كبيرة بتقرير واجب الإيمان باليوم الآخر وناقش فيه ، وأقام لحتميته الحجج والبراهين ، وضرب الأمثال ، وسف أحلام منكريه وتوعدهم بعذاب مهين :

«وَقَالُواأَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَيْنًا لَمْعُوثُون خَلْقاً جَدِيداً * قُلْ كُونُوا حِجَارةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِّا يَكُبُرُ فِي صُدُورِكُم فَسَيْقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَينُغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهم وَيَقَولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً * يَـوْمَ مَرَّةٍ فَسَينُغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهم وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَريباً * يَـوْمَ يَدُعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وتَظُنُّونَ إِن لِبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً "٢٦٥) .

والإيمان بوحدانية الخالق مع الإيمان باليوم الآخر هما قمة البر في العقيدة ، فهما إيمان بالمبدأ والمعاد ، والمبداية والنهاية ، وهما من غيب الخالق ، لا يحيط بهما العقل البشرى القاصر أمام تدبير الله وحكمته ، فضلا عن أن الفكر البشرى قلما يخلو من الهوى والشهوة ولذلك كثيراً ما يضل عن الحقيقة لأنه كثيراً ما ينحرف عن تبين الحق . فلابد من هداية هذا العقل المحدود من مصدر مطلق لا يُحد علمه ، ولا ترقى إليه الأهواء والنزعات ، وهو الله المحيط بكل شيء علماً مما نرى ومما لا نرى ، لا يعرب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ، دق هذا الشيء أو ضخم ، وهو سبحانه الذي استوى على عرشه الأعلى ، ومن تحته الكون بسمواته وأرضه .

فها الذى إذن يصل بين الأعلى والأدنى ؟ لابد إذن من واسطة بين المصدر المطلق وبين خلقه أجمعين ، هذه الواسطة هى طريق معرفة الخلق لواجبات الإيمان بالخالق ومستلزماتها وباليوم الآخر ووسائل التجهز له ، وهذه المعرفة تأتى عن طريق ملائكة أطهار خلقهم رب العالمين ونزلهم بكتبه السماوية يوحى بها إلى من اصطفى العليم الخبير من بين خلقه وهم الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله فى قومهم بنفس لغتهم ، حتى لا يكون للناس بعد ذلك حجة على الله ، سبحانه وتعالى ، بعد من أرسل إليهم من رسل .

فلا يمكن إذن الفصل في الإيمان ، بين الإيمان بالله وبين الإيمان بملائكته وبين الإيمان برسله ، فالإيمان بهذا كله هو البر في العقيدة .

فليس من البر فى شىء القول بأن لا إله إلا الله فحسب بل البر هو أيضا فى الإيمان والتصديق بما يقوله الرسل الأمناء مما أوحى إليهم ربهم من كتبه السماوية عن طريق ملائكته الأطهار .

وليس من البر في الإيمان أن ينطق الإنسان بكلمة الإيمان بشفتيه وقلبه خواء منه .

وليس من البر فى الإيمان التظاهر به أمام الناس ابتغاء منفعة دنيوية عاجلة أو خوفاً من أذاهم :

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنًا بالله وبِاليَوْمِ الآخِر ومَا هُمْ بِمُؤْ مِنِينَ * يُخَادِعُونَ الله والذِينَ آمنَوا ومَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ ومَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوَ بِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضًا وَلَمُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ »(٢٧)

وقد يزيد الله قلوبهم مرضا على مرض جزاء وفاقاً لخداعهم والتوائهم ، حى يفقدوا شعورهم بما يفعلون ويتبلد إحساسهم فلا يفقهون ما يعملون ، فيمعنون فى الفساد والإفساد باسم الإيمان ، والإيمان برىء منهم .

« وإذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هم الْمُفْسِدونَ ولِكن لاَّ يَشْعُرُونَ » (٢٨) .

٢ - البر في العمل:

وهو الناحية العملية في بر المؤمن ، ومرآة صادقة لما في قلبه من إيمان بالله وباليوم لأخر وبما أنزل من كتب وبما أرسل من رسل ، وإذ أمر الله بالإيمان بهذا كله إنما يأمر الله بالإيمان بهذا كله إنما يأمر الله بالعمل بما يؤمنون ، وأن يجعلوا من إيمانهم دافعاً قوياً ووسيلة ونبراساً لنعمل الصالح في هذه الحياة الدنيا ، وأن الجدير بالمؤمن حقاً العمل بأوامر ربه التي أوردها في كتابه الكريم ، وأن يصدق ويطيع الرسول فيها أوحى إليه من الله ، فلا يقرن إلا صدقاً ولا يعمل إلا صالحاً ، وفي هذا وذاك – الخير كل الخير للمؤمن ولمجتمعه ، وأن يتزود المؤمن بعمله في الدنيا لأخرته ، فيقابل ربه أبيض الوجه صدفي القلب نقى الضمير ، فيجزيه الله ثواب ما قدم في دنياه .

وأدوات البر فى العمل هى بذل النفس والمال فى سبيل الله ابتغاء مرضاته وإعلاء كلمته .

والعقيدة بغير عمل إنما تكون عقيدة جامدة ، لا نفع فيها ولا غناء ، بل تكون معنى تنظوى عليه جوانب صاحبها دون أن تنعكس فى عمل صالح يشيع الخير والصلاح الذى أراده الله للمؤمنين .

والعمل الصالح هو الثمرة الطيبة للعقيدة الـراسخة ، وهــو الذي يحفــظها ويعمقها وينميها ، وينمّ عنها :

الصلاة ، وهي أول مظهر عملي من مظاهر العقيدة ، وهي المظهر لمناجاة العبد لربه ، تنهى أيضا عن الفحشاء والمنكر وتوحى إليه بصالح الأعمال ، وهي العاصمة للمؤمن من الحوف والفزع ، وهي أداة فلاح المؤمن وصلاحه في دنياه وآخرته .

الأنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشُّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلاَّ الْمُصَلِّنِ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمونَ »(٢٩) .

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنونَ * الَّذينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ »(٣٠) .

فالصلاة الخاشعة هي الفارق بين الإيمان العميق والإيمان السطحي فالمصلي الخاشع في صلاته لله وحده ، إنما يقف بين يدى ربه متجردا من مشاغل المدنيا

ومتجها ببدنه وقلبه ولسانه إلى خالقه مبتدئا «الله أكبر» فتصغر فى نفسه كل مظاهر الدنيا من متاع وزينة فلا تأخذه فتنة هذه الدنيا بالعدوان على الغير أو إهدار حقوق الناس أو التعالى عليهم ، ولا يسعى بينهم إلا بصالح العمل وحب الخير ، وهو فى صلاته الخاشعة تصفو نفسه وتعلو على ما يلاقيه من متاعب فيزاول عمله صابرا مستبشرا .

٢ - ومن أنبل مظاهر العمل الصالح وآثاره ، قتال المؤمن في سبيل الله وبذله نفسه وماله للفداء والاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق ومحاربة أعداء الله وأعداء العقيدة ، هذا العمل الصالح في سبيل الله يتقبله الله أحسن قبول ، وينزل صاحبه عنده منازل الصالحين الأبرار .

٣ - البرُّ في الحُلُق :

وهى تحلى المؤمن بالأخلاق الكريمة والسلوك بما رسمه الله تعالى فى صراطه المستقيم ، ذلك السلوك الذى ينعكس فى صلاح المؤمن ظاهرا وباطنا ، صلاح فكره وقوله وعمله فى علاقته بربه وبنفسه وبمجتمعه ، فيرضى عنه ربه ويرضى عنه الناس ، ويفوز بمحبة الله وحب الناس ، وهذا هو الفوز العظيم فى الدنيا وفى الذار الآخرة :

« والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّتُنَّهُم مِنَ الجَنَّةِ غُرِفاً تَجْدِى مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خَالِدينَ فيها يَعْمَ أجرُ العَامِلِينَ »(٣١) .

« وَالسَّدِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّسالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجُنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »(٣٢) .

« والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ ٣٣٣) .

ومناط البر في الخلق القيام بالواجب والمقاومة :

ووسيلة المؤمن فى قيامه بواجبه الامتثال لأوامر ربه والعمل بما أنزل فى قرآنه الكريم ، وسلاح المقاومة هو الصبر ، الصبر على أهواء النفس وإلحاحها ، والصبر على معاناة مشاغل الحياة وأخطاء الناس .

١ - فالقيام بالواجب يكون عن طريق تنفيذ أوامر الله والبعد عن نواهيه ، سواء و تعامله مع ربه أو تعامله مع نفسه أو تعامله مع الناس ، وأوجب واجبات المؤمن حفطه كلمته ، والوفاء بعهده إذا ما عاهد ، لأن الوفاء بالعهد دعامة من دعائم الجماعة وتماسكها ، وبث الخير وتعميقه وتعميمه ، واستقامة الحياة داخل المجتمع وستمرارها وارتقائها .

وعهد الله إلى المؤمنين هو عهد الخالق إلى المخلوق وتكليف منه سبحانه وتعالى للمؤمنين بطاعته والتوجه إليه وحده وطاعة أوامره وإسلام الأمر كله لمه ، وعلى نئو من الصادق الإيمان أن يفى بعهد الله ، وهو عهد بألا يعمل الإنسان إلا صالحا ، وبأنا يفتفى الإنسان خطوات الشيطان أو يخرج عن طاعة الله ، وأن يفى بعهده ، فيهديه إلى صراطه المستقيم :

﴿ أَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبينٌ "(٣٤)

وقد عهد الله إلى أهل الكتاب بأن يقرُّوا ويصدقوا ويؤمنوا بما أنزل على رسوله ، خاتم رسله ، وأن يعملوا بما جاء فى قرآنه الكريم ، آخــر كتبه للنــاس أجمعين ، وحملهم مسئولية الوفاء بهذا العهد :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُوْ مِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوْا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ»(٣٥)

ويأمر العلى القدير المؤمنين ، الذين عاهدوه على الإيمان بوحدانيته وقدرته ، بتصديق ما جاء به من عند الله رسول الكريم ، وبحف اظهم على هذا العهد ، وألا يجعلوا للشيطان عليهم سلطانا ، فلا يخونوا أمانتهم ولا ينقضوا عهدهم :

ه يُمَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ والرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »(٣٦) .

كما أمر العزيز الحكيم عباده المؤمنين بالمحافظة على العهد ، وأنْ يؤمنوا بقلوبهم

وأن يعملوا بما يقولمون ، وإنّ فى حفظ المؤمن عهده وأمانته ، فلاحه فى المدنيا والآخرة :

« يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ِلَمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ »(٣٧) .

« قَدْ أَفْلَحَ الْلُؤْ مِنُون » ، « والذِّينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ »(٣٨) .

وقد وصف ، سبحانه وتعالى ، الوفاء بالعهد بالتقوى ، أى أن من يوفى بعهد . الله إنما يتقى غضب ربه ويتوب إليه ، وأن من لا يوفى بعهده طمعا فى منفعة عاجلة إنما يخسر كثيرا ، إذْ يخسر عفو ربه ولا ينال منه مغفرة ، ويخسر ثقة الناس به ، ويجلب على نفسه أكبر خسارة من حيث ظن أنه قد كسب .

« بَلَى مَنْ أُوفَى بِعَهْدِهِ واتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحبُّ المُتَّقِينَ »(٣٩) .

« إِنَّ الَّذِينَ يُشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وأَيَّمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ في الاَخِرَةِ ولاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ولاَ يُنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَة وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٤٠) .

فأين هم اليوم أولئك المتعاهدون الموفون بما عاهدوا ؟

أين هذا الذي عاهد ربه على البر والتقوى في تعامله مع الغير ، ثم أوفى بعهده ؟ أين ذلك العهد الوثيق الذي يربط بين المصلحين أو بين العلياء ، إذا ما وهبهم الله ما شاء لهم من خير أو علم أو سلطان ، ثم شكر ربه ووفى بما عاهد أو تعهد ؟

أين ما تعاهدوا عليه من إعلاء كلمة الحق والبر بالنــاس وإصلاح حــالهم ، متعاونين ومؤثرين غيرهم على أنفسهم ؟

أين هؤلاء المصلحون الذين يمهد سابقهم للاحق بهم ، ثم يعترف اللاحقون بحق السابقين فيزيدونهم ويكملون ما بدءوا به ؟

أين منهم من لا يعمل جاهدا على هدم غيره تصغيرا أو تشكيكا بغير حق ، إعلاءً لشأنه بغير حق ، وجاعلا من نفسه نسيجا وحده أو أمة فى نفسه وحزبا برأسه بغير حق ؟ ألا إن منهم من يفسد ظنا منه ظن سوء بأنه يُصلح ، ويخذَّل ويضلَّل بدلا من أن يهدى ويرشد .

أما عهود الناس بعضهم لبعض ، أو دولة لدولة ، فهى تتمثل فيها يحدث بينهم من اتصالات ومعاملات دنيوية كالعقود والالتزامات المالية وغير المالية ، وكلها واجبة الوفاء ما لم تكن فى معصية الله تضيع معها الحقوق وتستتبع أذى وفسادا .

وقد شبه الحكيم الخبير ، ناكثى العهد بالمرأة الخرقاء التى « نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » . كما أمر المؤمنين بأن تكون عهودهم قائمة على الصراحة والوضوح ، وأن تكون فى نصها وروحها صدقا فى الكلمة لا تلاعبا بالألفاظ ، وألا يلبسوا الحق بالباطل متخذين من الإيمان شعارا زائفا .

« وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُم فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »(١٤) .

كما حرم العزيز القادر استغلال قـوى قلةً حيلة ضعيف عاجـز ، سواء عـلى المستوى الفردى أو على المستوى الاجتماعى أو فى المجال الدولى ، وهو ما يعرف فى التعبير الحديث باسم المعاهدات غير المتكافئة :

« وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةً هى أربى من أمةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ الله بِهِ وَلَيْبَيْنَنَّ لَكُم يَوْمَ القِيَامَةِ ما كُنْتُم فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»(٢٤) .

أى أن تكون دولة منهما أكثر عددا وعدة .

٢ - أما مبدأ المقاومة ، فيقصد به قدرة الإنسان على التصدى والصمود والدفع لكل طارىء ضار بضميره أو بفكره أو بجسده ، وسلاح المقاومة الأول لكل طارىء من هذه الطوارىء هو الصبر ، ولذا أمر الله المؤمنين بالصبر في جميع الأحوال بل لقد جعل ، سبحانه وتعالى ، من الصبر على المكاره قوة خارقة تعين صاحبها على التصدى والصمود للشدائد ومقاومتها بعزم وإصرار حتى يخرج منها بالفوز المبين .

فعلى المؤمن أن يكون بارا فى خلقه فيرزوده ويدعمه بسلاح الصبر فى جميع المواقف ، لا تفتنه نعمة ولا تهزه نازلة ، فبالصبر يفسد المؤمن وسوسة الشيطان ، وبه يقاوم هوى النفس ، وعليه بالصبر والتمسك بالإيمان وتقوى الله أمام مغريات الحياة الدنيا فيتعقل ويتبصر قيمة هذه المغريات ومدى فائدتها وكيفية التصرف بالحق فيها آتاه الله من نعمة نحو نفسه ونحو غيره من المؤمنين ، وعليه بالصبر والثبات والاستعانة بالله فى مقاومة الشدائد .

والصبر هو عدة نجاح المؤمن وسلاحه الروحى فى هذه الحياة الدنيا ومفاجآتها ، وهو مصدر جميع الفضائل الإنسانية ، وأداة النفس المؤمنة التقية فى كفاحها الأهواء وإلحاح مطالب الحياة ، وفى رد العدوان وقمع الظلم فى رباطة جأش وثقة بالله فى حسن العاقبة ، ونتيجة كل هذا تعميق هذه الفضائل فى نفس المؤمن وتقوية خُلقه وزيادة صلابته ، ما خشع لربه واستعان به :

« واسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَّةِ وإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلاَّ عَلَى الْحَاشِعِينَ ٥(٢٢)

« والصَّابِرِينَ في البَّاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وحِينَ البَّاسِ »(الجَّابِ)

« وَالْعَصْدِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْدٍ ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ »(°٤٠) .

وقد ذكر الله تعالى في محكم تنزيله قيمة الصبر في امتحان المؤمن الصابر في ثلاث حالات هي البأساء ، والضراء ، والبأس :

فالبأساء هي البؤس وهو شدة الفقر وضغط الفاقة التي قد تستبد بالإنسان لدرجة يعجز معها عن حصوله على خبزيومه ، خاصة إذا ما حلت به نازلة فبدلته من الغني إلى الفقر ، ومن الاستغناء إلى العوز ، وهذه حالات لا يثبت أمامها إلا من وهبه الله نعمة الصبر .

والضرّاء هي ما يضر الإنسان بانتزاع ما يعتز به ، كالمرض أو فقد محبوب من ولد وأهل وصاحب .

والبأس هو معاناة شدة الحرب وقسوتها ، حيث يضع المقاتل رأسه على كفه ، فإما أن يَقتُل أو يُقْتَل . وقد حث الله المؤمنين على الصبر فى هذه الحالات الثلاث ، بل لقد بلغ من أهمية الصبر أن قرنه الله بالصلاة فى كثير من آياته الكريمة ، كنوع من ذكره سبحانه وعبادته عن طريق الصبر والإيمان بقدرة الله وتلمس العون منه وتوكله عليه ، لأن الصبر هو أهم مظاهر تقوى المؤمن وقوة عزيمته ، وثباته على الإيمان بالله وقدرته وعونه على تفريج كربته وإزالة همه وإخراجه من حيرته فى السراء والضراء .

 الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والكَاظِمِينَ الغَيْظَ والعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَالله يُحِبُ المُحْسِنِينَ »(٤٦) .

﴿ لَتُبَلُونًا فِى أَمُوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ولَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتـوًا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
 وَمِنَ الَّـذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيـرًا ، وإنْ تَصْبِـرُوا وتَتَقُـوا فَــإِنَّ ذَلِـكَ مِنْ عَــزْمِ الْأُمُودِ ﴾ (٤٧) .

« والَّذِينَ صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّمْ وأَقَامُوا الصَّلاةَ ، وأَنْفَقُوا بِمَّا رَزَقْنَاهُم سِرَّا وعَلاَنِيَةً ، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ »(٤٨) .

فيما أسمى هذا الصابر وأقواه ، إذ يكبح جماح نفسه ويكظم غيظه وينتصر على نفسه ، إذْ هو يقابل السيئة بالحسنة فيحسن إلى من أساء إليه .

والصابرون حقا ، لا ينبع صبرهم عن جبن أو ضعف أو تخاذل ، إنما هي تقوى الله وابتغاء وجهه والتقرب إليه هي التي تجمله بالصبر الجميل وسيؤتيه الله بما صبر فوزا مبينا .

« يَـا أَيُّهَا الَّــٰذِينَ آمَنُـوا اصْبِــرُوا وصَـابِــرُوا ورَابِطُوا واتَّقُــوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(٤٩) .

هذا هو البر والصلاح والإصلاح والإحسان ، الذى أراده الله تعالى للمؤمنين وأمرهم بالأخذ به : بر فى العقيدة وبر فى الخلق وبر فى العمل ، فالبر فى كل هذا دستور الخلق القويم ، يسمو بالفرد وبالمجتمع إلى أوج العزة والكرامة والمنعة ، وينأى بالأمة إذا ما تمسكت به ، عن الشر والفساد اللذين يحيقان بها ، وهى جماع السعادة والهدوء النفسى والطمأنينة فى هذه الحياة الدنيا ومشاكلها ، ولصاحبها الجزاء الأوفى فى حياة الخلود ، حياة الأخرة الباقية .

هوامش الباب الثالث

- ١) البقرة ٨ .
- (٢) البقرة ٩ .
- (٣) البقرة ١٠.
- (٤) البقرة ١٤ .
- (٥) آل عمران ١٨.
 - (٦) البقرة ١٦٣ .
- (٧) الأعراف ١٥٨.
 - (٨) التغابن ٨ .
- (٩) آل عمران ٨٦ .
 - (۱۰) عبد۲.
- (١١) النجم ١-٥ .
 - (۱۲) المائدة ٦ .
- (١٣) آل عمران ٩٦.
 - (١٤) البقرة ١٤٤ .
 - (١٥) أُلبقرة ١٤٣ .
- (١٦) البقرة ١٤٢ .
 - (۱۷) لقمان ۱۷ .
 - (۱۸) الرعد ۲۲ .
- (١٩) المنافقون ٩ .
- (۲۰) المؤمنون ۱،۲.
 - (٢١) الحج ٤١ .
 - (٢٢) الأنقال ٣ ٤ .
 - (۲۳) العنكبوت ٤٥.
 - (۲٤) فاطر ۲۹ .
 - (٢٥) البقرة ١٧٧.
 - (٢٦) سورة الماعون .
 - (۲۷) الشوري ۳۸.
 - (٢٨) الجمعة ٩ .
 - (٢٩) الجمعة ١٠.
 - (۳۰) مریم ۲۲ .
 - (٣١) البقرة ١٨٣.
 - (٣٢) البقرة ١٨٥.
 - (٣٣) البقرة ١٨٧.

- (٣٤) البقرة ١٨٤ .
 - (٣٥) البينة ه .
- (٣٦) البقرة ٢٧٧ .
- (۳۷) آل عمران ۱۸۰.
- (٣٨) التربة ٣٤ ، ٣٥ .
 - (٣٩) التربة ٧٩ ٧٥ .
- (٤٠) الفجر ١٩ ، ٢٠ .
 - (٤١) آل عمران ٣١ .
 - (٤٢) الأحزاب ٧١ .
 - (٤٣) الحشر ٩ .
 - (22) الإنسان ٨.
 - (٥٤) الْإِنسان ٩ .
 - (٢٦) التربة ٧١ .
 - (٤٧) البقرة ٢٧٦.
 - ز٤٨) الذاريات ١٩.
 - (٤٩) التوبة ٣٠ .
 - (٥٠) البقرة ٢٧١ .
 - (٥١) البقرة ٢٧٣.
 - (٥٣) البقرة ٧٦٧.
 - (۵۱) البقرة ۱۱۷ .
 - (٥٣) البقرة ٢٦١.
 - (٤٥) البقرة ٢٦٥ .
 - (٥٥) البقرة ٢٦٢.
 - (٥٦) البقرة ٢٦٤ .
 - (٥٧) البقرة ٢٦٣ .
 - (٨٥) الأنعام ١٤١.
 - (٥٩) النحل ٥ . (٣٠) النحل ٨ .
 - (٦١) آل عمران ٩٦ .
 - (٦٢) البقرة ١٢٥.
 - (٦٣) البقرة ١٢٨ .
 - (٢٤) الحج ٢٩
 - (٦٠) آل عمران ٩٧ .
 - (٦٦) البقرة . أظ .
 - (٦٧) البقرة ١٩٦.
 - (۱۸) المائدة و ٩٠
 - (٦٩) الحج ٢٩.
 - (٧٠) البقرة ١٢٥.

- (١) الأنفال ٢٩.
- (٢) الفرقان ١ .
- (٣) النساء ١ .
- (٤) المرسلات ٤١-١٤.
 - (٥) لقمان ٣٣.
 - (٦) الحج ١، ٢.
 - (٧) الحج ٢.
 - (٨) سبا ٤٦ .
 - (٩) النجم ٢-٥.
- (١٠) التكوير ١٩–٢٢ .
 - (١١) النساء ٣٥.
 - (١٢) الحجرات ٩.
 - (۱۳) الحجرات ۱۰.
 - . 114 elimil (14)
 - (10) المسد ١-٥.
 - (١٦) البقرة ١٧٧ .
 - (١٧) البقرة ١٤ .
 - (۱۸) فصلت ۳۰
 - (١٩) النساء ١٩٩.
 - (۲۰) لقمان ۱۳ .
 - (٢١) الأنعام ١٦٣.
 - (۲۲) الزمر ٦٥ .
 - . EA . limil (YT)

 - (٢٤) الأعراف ١٧٣.
 - (٢٥) الأنعام ١٤٨.
- (٢٩) الإسرأء ٤٩-٥١ .
 - (۲۷) البقرة ٨ ــ ١٠ .
- (٢٨) البقرة ١١ ١٢.
- (٢٩) المعارج ١٩-٣٣.
 - (٣٠) المؤمنون ١-٢ .
 - (۳۱) العنكبوت ۵۸ .
 - (٣٢) البقرة ٨٧.
 - (٣٣) الأعراف ٤٢.
 - (۴٤) يس ۳۰ .
 - (۳۵) آل عمران ۸۱.
 - (٣٦) الأنفال ٢٧.
 - (٣٧) الصف ٢، ٣.
 - (٣٨) المؤمنون ١ A
 - (٣٩) آل عمران ٧٦.
 - (٤٠) آل عمران ٧٧.

- (٤١) النحل ٩٤.
- (٤٢) النحل ٩٢ .
- (٤٣) البقرة ٥٥.
- (11) البقرة ١٧٧ .
- (40) العصر ١-٣.
- (٤٦) آل عمران ١٣٤
- (٤٧) آل عمران ١٨٦ . (٤٨) الرعد ٢٢
- (٤٩) آل عمران ٢٠٠٠ ب

الفصل الرابع

صفات المؤمن وسماته

بعد أن بينا معانى الإيمان الكامل المقبول عند الله والذى ينال به صاحبه أوفى الجزاء وأعلى درجات التقرب من ربه السميع العليم ، وغير ذلك مما ورد فى القرآن الكريم مبينا وموضحا لهذه المعانى ووسائل تحقيقها ، علينا أن نستبين أحوال صاحب هذا النوع السامى من الإيمان وما يتحلى به من حميد الصفات ، وما ألبسه الله من سمات تجعل منه القدوة الحسنة والمثل الطيب الذى يجب أن يحتذيه كل مسلم آمن بالله ورسوله وكتابه الكريم :

أولا : صفات المؤمن :

يبين الله ، في محكم تنزيله ، تلك الصفات ، سواء ظهرت في العبادات أو المعاملات أو بَطَنت في القلوب التي لا يعلم مكنوناتها سوى علام الغيوب والخفايا :

١ - فالصفة الأولى للمؤمن : وجل القلب .

فمن خصائص المؤمن الذي عمق إيمانه ورسخ ، وَجَلهُ أو خوفه عند ذكر الله جل وعلا ، فالمؤمن بقدرة الله وعزته وجلاله لا يخشى مخلوقا ، إنما يخشى الخالق إيمانا منه بقدرته ، وإحاطته بمخلوقاته من كل جانب بالبسط والقبض وبالمغفرة والحساب العسير ، ولاراد لإرادته سبحانه وتعالى ، وهو ، جلت قدرته ، إنما يقول

للشيء كن فيكون . وهو سبحانه وتعالى الذي يقف المخلوق بين يديه لا حول له ولا قوة أمام عظمته وجلاله ، إيمانا منه بأن الله غنى معطٍ وهو بين يديه فقير محتاج ، وبأنه سبحانه وتعالى قوى قادر يقف أمامه المخلوق عاجزا بلا حول ولا قوة ، ولأنه هو وحده العالم المطلع على خفايا القلوب وأهواء النفوس والمخلوق جاهل بها ولا يحيط بذرة من علمه ، فبذكر المؤمن ربه كشف لما في نفسه من فقر وحاجة وضعف وعجز وجهل أمام صاحب الغنى المطلق والقوة المطلقة والعلم المطلق ، فيتضاءل المؤمن الراسخ الإيمان أمام ربه ويمتلء قلبه بين يديه وجلا ورهبة ويخشع قلبه من هيبته وجلاله وعظمته وجميل صنعه ، سواء أكان في ذكره ربه تذكرة لعصيان يخشى عقابه عليه أو طاعة يلتمس ثوابه عليها .

بهذا الوجل وهذه الرهبة التى تملأ قلب المؤمن الكامل الإيمان يصل إلى حالة الاطمئنان إلى قبول ربه له ورضاه عنه ، ومن نال رضا ربه فقد فاز فى الدارين فوزا عظيها ، ومن ثم فالوجل أمام الله ثم الاطمئنان إلى رحمته ورضاه شعوران متلازمان فى قلب كل مؤمن صدق إيمانه ، وهما من صفات المؤمن الذى يذكر ربه ويتقيه فى سره وعلنه ، وفى ذلك يقول القوى الرحمن :

« الله نَزَّلَ أَحَسَنَ الْخَديثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّنَانِيَ تَقَشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبُّمُ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِل الله فَهَا لَهُ مِنْ هَادِهِ (١) .

« الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمِئِنُ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمِئِنُ القُلُوبُ «٢٠) .

٢ - والصفة الثانية : زيادة الإيمان .

أى تعميق وتثبيت دعائمه في قلب المؤمن .

فالإيمان قد يكون مجرد تصديق فحسب:

« وَقَالَ رَجُل مُّوْ مِن مِّنْ آل ِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ اللهِ

أما الإيمان الكامل ، فهو الذي يجمع في صاحبه جميع عناصر الإيمان من تصديق وإقرار وعمل .

تصديق ما أنزل الله على نبيه من آيات مبينات ، وإقرار بحكمتها ، وعمل على هَدْيها .

والتصديق قد ينقص أو يزيد من ثلاث جهات :

۱ - توفّرُ الأدلة وتأثر نفس المصدق بها ، فكلها تكاثرت الأدلة كان العلم أشد رسوخا في نفسه وأعمق أثرا في قلبه . فلا تزلزله الشبهات ولا تزعزعه العوارض الطارثة فالإيمان يقوى بالبرهان ، ويرتفع بصاحبه إلى درجة الاطمئنان ، وأصدق دليل على هذا قوله تعالى :

« وإذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِ كَيْفَ ثَمْيِي الْمُوتَى قَالَ أَوَلُمْ تُوْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيُطْمِئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَاتِينَكَ سَعْياً واعْلَمْ أَنَّ الله عزيزٌ حَكِيَمٌ »(٤) .

٢ - أما متعلقه ، وهي القضايا المصدَّق بها ، أي ما تناولته الآيات القرآنية من القضايا ، والمسائل التي تناولت هذه القضايا بالتفصيل ، فالإيمان عن طريق الإيمال لا يتناول الجزئيات الإيمال لا يتناول الجزئيات التي تزيد الإجمال عمقا ورسوخا .

ومن ثم تكون قوة الإيمان بمفصَّل القواعد العامة فوق الإيمان بها مجملة .

وطريقنا في تقوية الإيمان وتسليم أمورنا لله تعالى هو قراءة القرآن الكريم قراءة واعية متدبرة .

ومن الآيات التي تعبر عن زيادة الإيمان قوله تعالى .

« الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا الله ونِعْمَ الوَكِيلُ(٥)» .

« وَلَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَّنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَازِادَهُمْ إلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيهاً »(٦) .

فالمؤمن الذي زاده الله إيمانا على إيمان ، هو الذي يعتمـد على القـوى القادر ويخشاه وحده ، ولا توجد قوة في الأرض تهزه أو تزعزع إيمانه مهما عظمت هذه القوة

والمؤمن الذى زاده الله إيمانا يصَدّق ما قاله الله ورسوله ولا يجد فيم يصادف من أحداث إلا برهانا ودليلا حيا لما سبق أن صدق وآمن به .

٣ - أما من جهة أثر التصديق وثمرته أى العمل بما صدق به ، فان عمل المؤمن بما آمن ، ووفق ما صدق من آيات الله البينات ، وتكرار العمل بما آمن وبالفكرة التي صدق بها ، مما يثبّت الفكرة ويزيدها رسوخا في نفسه ، بينها يكون إجمال العمل بما صدق يضعف الفكرة وأثرها في نفسه لدرجة قد تؤدى بالفكرة إلى زعزعتها أو محوها :

وفى الحالة الأولى يصبح السلوك الطيب عادة تلازم المؤمن وخلقا يلتزم به ، أما في الحالة الثانية فيكون السلوك الطيب عارضا وخاضعا للتغير ، فلا يثبت على حال .

٣ - والصفة الثالثة للمؤمن هي توكّله على الله:

والتوكل أعلى مقامات التوحيد والإيمان بأن الله وحده هو المدبر ، والتوكل على الله سبحانه وتعالى في كل ما يحتاج إليه ثما هو وراء تقديره وفوق قوته .

وليس معنى التوكّل على الله هو التواكل أى التكاسل وعدم العمل والتوقف عن السعى ، انتظارا لما قسم الله له . بل يجب على المؤمن حق إيمانه أن يتدبر أمره ويعمل بصدق وأمانة وعزم ، وعلى هدى من أمر ربه ، وعليه أن يعزم على العمل ويعمل ثم يتوكل على الله ويسلم أمره له وحده بعد ذلك ، ويرضى بما قسمه الله له من عواقب سعيه ، إيمانا من المؤمن بأن ما يعطيه ربه هو الخير كل الخير ولو بدا له شراً .

ولا يعقل أن يقف الجندى المؤمن بلا حراك ولا سلاح ، متوكلا على الله ، أمام عدو غادر يهاجمه بالعتاد والسلاح ، ثم يتوقع النصر الذى وعد الله به المؤمنين ، إنما ينصر الله من جاهد وحارب فعلا في سبيل العقيدة ويؤيده بقوة من عنده ، وكم قاتلت أمم في سبيل الدفاع عها اعتقدت به ، والقتال سنّة الحياة البشرية ما اختلف البشر في العقائد والمذاهب والمبادىء

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرهُ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُ وا شَيْئاً وَهُـوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُو شَرٌّ لَّكُمْ والله يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ »(٧) .

وليس من الإيمان ولا من المعقول ، أن يقعد المؤمن في داره متوكلا على الله إستنادا إلى فهمه الخاطيء لمقصود الآية .

« إِنَّ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّرْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادهِ خَبِيراً بَصِيراً »(^> .

ثم ينتظر أنْ يأتيه طعامه وطعام عياله وهو قابع فى بيته بلا حراك ، وإلا قتل نفسه وعياله جوعا ويظلم نفسه ويظلمهم ، والله لا يجب الظالمين . ولو تأمل فى مدلول الآية وعقل هدفها لعلم أن المقصود هو بيان قدرة الخالق سبحانه وتعالى وأنه قادر على البسط والقبض ، يعطى للمؤمن العامل ويقتر على المؤمن القاعد .

فلينظر ذلك القاعد المتواكل إلى ما يفسر مدَّلُولَ الآية وقصدها ، في كثير من آيات الله البينات ، ثم ليعمل بما جاء فيها .

« إِنَّ الَّذِينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً »(٩) .

فهنا قرن الله الإيمان بالعمل ، ثم يجزى من أحسن عمله خير الجزاء ، والعمل الصالح يجزى عنه صاحبه بالأجر الحسن . وما الجزاء إلا من جنس العمل .

« والسلِّين تُمسِّكُونَ بِالكتَّابِ وأقَسامُوا الصَّلاَةَ ، إنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْصَلاَةِ ، إنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْصُلِحِينَ »(١٠) .

فالمؤمن هو من جعل القرآن دستور عمله في حياته الدنيا ، يهتدي بمحكم آياته في عمله وسعيه فلا يعمل إلا صالحا ولا يسعى في هذه الدنيا إلا بالحق .

« وأَمَّا الَّذِينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِخَاتِ فَيُوفِّيهِمْ أُجُسورَهُمْ والله لا يُحِبُّ الظَّالِينَ »(١١)» .

« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنَّ لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامل مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَر أَوْ أَنْثَى بَعْضُكُمْ مِّن بَعْض ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وأُخْرجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ، وَقَاتَلُوا وقُتلوا لأَكفَّرَنَّ عَنَّهُمْ سَيِّئَاتِهِم ولأَ دْخِلَتُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّنْ عِنْدِ الله واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ »(١٢) .

فقمة العمل الصالح والسعى الجاد فى هذه الحياة الدنيا هو العمل والتضحية بالنفس فى سَبيل الدفاع عن العقيدة ، والله ناصر المؤمن الذى تحمل الطرد والحرمان ولم يستكن للظلم بل عمل وجاهد لدفع هذا الظلم وإعلاء كلمة الحق .

فالتوكل على الله إذن ، لم يقصد به القعود ، بل المقصود به أن يستعين المؤمن بربه فى عمله ويتقيه ، فيعمل عملا صالحا يرضى عنه الله فيكتب له الفلاح وبلوغ القصد .

٤ - والصفة الرابعة للمؤمن هي المواظبة على أداء فريضة الصلاة :

وليست الصلاة هي مجرد حركات ظاهرية تؤدَّى دون إدراك المصلى لحكمتها ، وإلا كانت عملا آليا يتم في وقت محدد ثم لا يكون له أثر بعد ذلك في قلب المؤمن ولا في سلوكه .

إنما الصلاة ظاهر وباطن ، فظاهرها القيام والركوع والسجود ، وباطنها الخشوع والبدبر والمراقبة ، وهذه هي الصلاة المقومة الإيمان ظاهراً وباطناً وهي المقبولة عند الله الذي جعل من ثمرتها طهارة المؤمن من الفحشاء والمنكر وغيرهما من نوازع الشر :

اتلُ مَا أُوحِى إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وأقِم الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تُنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والنَّكَر وَلَذِكُرُ اللهُ أَكْبَرُ ، واللهُ يَعْلمُ مَاتَصْنَعُونَ»(١٣) .

والمقصود بالتلاوة هى تلاوة القرآن حق تلاوته أى قراءته وتبصر معانيه وتدبر أهدافه والعمل بهديه ، فتجىء الصلاة بعد ذلك عملا صالحا قائبا على فهم صادق لآيات الله البينات وتذكرة لحكمة الخالق وخشيته وتقواه ، وتجنب إتيان مانهى الله عنه من فواحش ومنكرات ، والله أعلم بمن يؤدى صلاته في ظاهرها فحسب ومن يؤديها مظهرا وجوهرا .

والصفة الخامسة للمؤمن ، إنفاقه عما رزقه الله .

فالمؤمن هو من آمن بأن كل ما يأتيه من خير ورزق هو من عند الله وبرهان على رضاه سبحانه وتعالى عن أسلوب عمله فى تحصيل رزقه . والمؤمن هو من هداه ربه إلى الحكمة الإلمية فى هذا العطاء ، فمن حكمة الله تقسيمه الأرزاق على المؤمنين ، عطاء أو قبضا ، ليختبر مدى عمق إيمانهم وتسليمهم بقضائه وحكمه فى البسط والقبض . فمن المؤمنين من بسط الله لهم الرزق ليرى فيم هل ينفقون ومدى أثر

الغنى فى أنفسهم وإيمانهم ، ومنهم الفقير الذى ابتلاه ربه بشىء من الحرمان والضيق ليرى هل لازال على إيمانه ، وتسليمه بقضاء ربه بنفس راضية مطمئنة ، ثم يأمر الله عباده المؤمنين بما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الغنى والفقير ، فجعل الزكاة فرضا على كل مؤمن قادر ، وجعل الإنفاق فى سبيل الله قربانا له ، وجعل سد حاجة المحتاج زلفى إليه ، وفى ذلك يقول العليم الخبير :

« الَّذِين يُوْ مِنُونَ بِالْغَيبِ وَيُقيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفَقُونَ»(١٤)

« وفى أَمْوالِهِمْ حَقّ لِلسَّائِلِ وَالْمُحْرُومِ ۗ (١٥) .

أى أن عطاء الغنى للفقير فرض واجب عليه ، وهو حق للفقير .

كها جعل الله من أنفق ماله فى محاربة أعداء الدين ، مجاهدا فى سبيل الله وأقرب إلى ربه من المسك ماله :

« لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرٌ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهَ بِأَمْوَاهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَاهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيمًا »(١٦) .

ومن هذا يتضح أن المال لدى المؤمن وسيلة لا غاية ، وسيلة لتحقيق التعاون والتكافل بين المؤمنين تطهيرا لقلوبهم وتقوية لإيمانهم وتصفية نفوسهم من الجشع والحقد والحسد ، كها جعله الله أداة في يد المؤمن يحارب بها أعداء الحق والعقيدة .

وإذْ أمر الله المؤمنين بالإنفاق ، قد بين لهم أيضا أسلوب هذا الإنفاق ، فأمرهم بالتوسط فيه . فلا إسراف يولد الفقر والنـدم لصاحبه ، ولا تقتير يستتبـع حقد الناس ، وفى ذلك يقول :

« إِنَّ الْمُبُدِّرِين كَانُوا إِخْوانَ الشَّياطِين وَكَانَ الشَّيطانُ لرِّبِّهِ كَفُوراً»(١٧) .

فالذي يبذر ماله وينفقه فيها نهى الله عنه هو تابع للشيطان ويسير وفق هواه .

« وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَـةً إِلَى عُنْقِكَ وَلاَ تَبْسُطُهَا كُلُّ البَسْطِ فَتَقْعُـدَ مَلُوماً عُسُوراً »(١٨) .

ثانيا سمات المؤمن:

. عُمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدًاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُم رُكَّعًا سُجَّداً بَيْنَهُمْ وَنَ فَضْلاً مِنْ اللهِ وَرِضُواناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي النَّوْرَاةِ وَمَثْلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ التَّوْرَاةِ وَمَثْلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يَعْجَبُ الزُّرَاةِ لِيغَيْظُ بِهِمُ الكُفَّارَ ، وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنواوَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَّغُوزَةُ وَأَجْرًا عَظِيماً » (13) .

إن المؤمن حق الإيمان ، والتقى حق التقوى مرآة صافية تنعكس تقواه على وجهه فيضى اشراقا وعلى نفسه اطمئنانا وصفاء كها تنعكس تقواه وإيمانه على أسلوبه في الحياة ماظهر منه وما بطن ، وعلى سلوكه في فكره وقوله وعمله . كل هذه الآثار والمظواهر يشهدها في هذا المؤمن كل ذي عينين مبصرتين ويحس بها فيها يرى ويسمع منه أو عندما يتعامل معه .

فمن سمات المؤمن ، الذي صدق إيمانه فزاده الله إيمانا :.

اطمئنان نفسه وهدوؤها : هذا الاطمئنان الذي يرجع إلى اقتناع هذا المؤمن بعمق إيمانه وصدق إحساسه برضا الله تعالى عنه ، واطمئنانه مرجعه إلى سيره في فكره وقوله وعمله على صراط ربه المستقيم .

فترى فى قسمات وجهه وفى عينيه هدوءا وصفاة يبعثان فيمن يراه الاطمئنان إليه والرغبة فى التقرب منه والتحدث معه . إن هذا الاطمئنان وهذا الهدوء يبعثان فى المؤمن ثباتا وثقة فى النفس يعصمانه من حالات القلق والتوتر العصبى ومضاعفاتها كالصخب والجلبة والرياء والغرور . ومن أوتى نعمة اطمئنان القلب وهدوء النفس فقد أوتى خيراً كثيراً ، فهما من أكبر نعم الله على عباده المخلصين ، يعم صفاء النفس وطهارة الروح وصحة الجسد والتوفيق فى العمل . ومن اكتسب صفتى اطمئنان النفس وهدوئها ، اكتسب رضاء ربه فى الدنيا والآخرة :

« يَا أَيُّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً »(٢٠)».

 « هُوَ الذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ في قُلُوبِ المؤْ مِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيماناً مَّعَ إِيمانِهُمْ ولِللهِ جُنُودُ السَّموٰاتِ والأرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢١) .

٢ - ذكر الله واستغفاره والتوبة إليه: فالمؤمن بالله حقا وبأنه سبحانه وتعالى عيط بالخلق والكون من كل جانب يرى ولا يُرى ، وإيمانه بقدرة الخالق والإسلام لقدره ، وبأنه سبحانه وتعالى خير رقيب على حركات الخلق وسكناتهم ، وهو وحده الذى يحاسبهم على سيرتهم وسريرتهم ، هذا المؤمن يذكر ربه بقلبه وشفتيه ويتقيه فى عمله وتعامله مع الغير ، رهبة منه ورجاء ، فيتسم بتقوى وورع ظاهرين لكل ذى عينين ، فيصبح موضع تقدير الناس ويفوز برضا ربه ، وهذا ماينصح به السميع عينين ، فيصبح موضع تقدير الناس ويفوز برضا ربه ، وهذا ماينصح به السميع البصير ، سبحانه وتعالى :

« ادعوا ربكم تضرُّعا وخُفْيَةً إنه لا يحب المعتدين «٢٢) .

« الَّـذِينَ آمنُوا وَتَـطْمَيْنُ قُلُوبَهُم بِذِكْر اللهِ . أَلاَ بِسذِكْرِ اللهِ تَـطْمَيْنُ الْقُلُوبُ » (٢٣)» .

« وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيهاً ﴾(٢٤) .

« واذْكُر رَّبَّكَ في نَفْسِكَ تَضَرَّعاً وخِيفَةً وَدُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلَ بِالغُدُّوِّ والأَصَالِ ِ ولاَ تَكُن منَ الغَافِلينَّ ٣٥٥٠) .

وليس المؤمن من استغفر الله ثم لم يتب ، بل المؤمن هو من يتخير الاستغفار وسيلة للتوبة وأن يعاهد ربه اذا ما ارتكب معصية بألا يعود لمثلها أبدا ، ويتلمس منه أن يتوب عليه ويعاونه على عدم ارتكاب المعاصى ، وشرط قبول هذه التوبة أن يطلبها صاحب المعصية فور إتيانها :

« إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثم يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولِئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيهاً حَكيهاً »(٢٦) .

ولاتقبل توبة التائب الذي يتوب بعد تكرار المعاصى وهو على علم ، ولا تقبل توبته إذا لم يتب إلا من بعد أن تحل به الكوارث والمصائب ، لأنه إنما يطلب من الله أن يتوب عليه ويرضى عنه خوفا ورهبة فحسب ، حتى إذا ما أزال الله كربته عاد إلى ما كان عليه من ارتكاب المعاصى والإمعان فيها وكأنه لم يتب من قبل :

« وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لَّلذينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّاتِ ، حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحدَهُمُ المُوتُ قال إِنَّ تُبْتُ الآنَ . ولا الذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّالٌ ، أُولِئِكَ اعتَدْنَا لَمُمْ عَذَاباً أَلِيهاً »(٢٧) . ٣- ومن سمات المؤمن التعفف والاحتفاظ بالكرامة: فمن الناس من بسط انه لهم من الرزق ما يغنيهم عن ذل سؤال غبرهم مالا أوعونا من أى لون ، ومع ذلك فهم لا يكفون عن طلب المزيد ، ولا يجدون فى ذل سؤالهم الناس والتوجه إليهم بمطالب ، هم فى غنى عنها ، غضاضة على نفوسهم الضعيفة ، ولا يتعففون عن إراقة ماء وجوههم لدى ذوى المال والسلطان بل يلحفون فى السؤال والطلب مع ما فى هذا الإلحاف من مهانة لهم ومضايقة لغيرهم ، ومع ما قد يلقى السائل من إعراض واحتقار من المسئول ، ولكنه الطمع وخور النفس والاستهانة بالكرامة الشخصية وقلة الحياء ، يفعل صاحبها ما شاء ، هذا لون من الناس .

وعلى النقيض من هؤ لاء ، نجد من المؤ منين بالله الغنى الرحيم والمسلمين بقدره من يتردد بل قد يتعفف ويعلو بنفسه فوق معاناة العوز والفاقة ، فلا يسأل الغير ، حفظاً لكرامته وتنزيها لإيمانه وتقواه عن التوجه لغير الله . فيبدو هذا المتعفف للناظر إليه أنه غنى وهو الفقير وأنه القوى وهو الضعيف ، وأنه الشامخ وهو الضئيل ، هذا هو المؤمن حقا الذى أكرمه ربه فأغناه فى فقره وشد من أزره فى ضعفه ورفع من شأنه فى حاجته وعوزه ، وهذا هو الفوز المبين . وصدق فى مثل هذا المؤمن قوله تعالى :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةً وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌولاَ ذِلَّةً أُولَئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٣(٢٨) .

« لِلْفُقْرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا في سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْحَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُم ، لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ، ومَا تُنْفَقُوا مِنْ خَيْرِ فَإِنَّ الله به عَليِمٌ »(٢٩) .

وهنا المصرف الصالح لمن أراد أن ينفق من ماله فى سبيل الله ، فعليه بهؤلاء ، يمد لهم يد العون ويسد حاجتهم ولا ينتظر منهم سؤ الا هم غير سائليه ، وفى ذلك المصرف الخير كل الخير للمؤمن القادر يسد به عوز أخيه فى الدين ويغنى نفسه الكريمة عن ذل السؤال .

٤ - والحياء وغض البصر من السمات التي يتحلى بها كل مؤمن قبل الله إيمانه وقرَّبه منه .

ولقد كان رسول الله على ، وهو سيد الخلق الذى اصطفاه الحكيم العليم مبشراً للناس ونذيراً ، من أشد خلق الله حياء ، حتى إنه كان إذا ما زاره زائر من المسلمين وأطال من زيارته وأثقل عليه ، منعه حياؤه من أن يظهر تضايقه أو تبرمه . وكان عليه الصلاة والسلام ، إذا ما ألم به مرض أو إجهاد يلزمه بالإخلاد إلى الهدوء والراحة يستحى أن يفصح عما به من ألم أو ضيق أمام من زاره في بيته ، وقد لاقى النبى وتحمل من حيائه الكثير من العنت والمعاناة ، ورغم ذلك كان يهش في وجه زائره ويؤ انسه ويظهر له ارتياحه لزيارته واستئناسه به ، وحتى لا يشعر زائره بما هو فيه من هم وضيق قد يحرجه أو يخجله .

فها أجدرنا بالتحلى بخلق الرسول عليه الصلاة والسلام ، خُلُق القرآن .

فحياء المؤمن التقى يلازمه فى كل حركاته ، حياء فى الزيارة ، حياء فى الحديث ، حياء فى الحديث ، حياء فى إشارته ونظراته ، حياء من سرعة الإنفعال بما يثير غضبه أو شهواته ، فهو لا ينظر لما فى يد غيره من نعم الله ولا ينظر إلى المرأة تلك النظرات الفاحشة الماجنة التى قد تنزلق به وبها إلى مهاوى الرذيلة ، ومن ثم فهو بحيائه إنما يتقى نفسه ويتقى الناس :

« ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مامَتَّعْنَا بِهِ أَزْواجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَرِّرُ وَأَبْقَى (٣٠٠» .

« قُلْ لِّلمُوْمِنِين يغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِم وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهُ خَبيُرُ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣١٪)» .

ويامر الخبير العليم النساء خاصة بغض البصر والحياء ، ويحذرهن من بث الفتنة بين المؤمنين بما يبدين من مظاهر الزينة الصارخة والتبرج وإظهار المفاتن ، وبين لهن حدود هذا وذاك حفاظا لطهرهن وتزكية لإيمانهن :

« وَقُلْ لِلْمَوْ مِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبِدِينَ زِينَتَهُنَّ الْأَ اللَّهُ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ الاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ اللَّهِ مِنْ أَوْ الْحَوانِهِنَّ أَوْ الْحَوانِهِنَّ أَوْ الْحَوانِهِنَّ أَوْ الْحَوانِهِنَّ أَوْ الْحَوانِهِنَّ أَوْ اللَّهِ اللَّهُ مَنْ الرَّجَالِ أَوْ التَّالِمِينَ غَيْر أُولَى الإِرْبَةِ مِنَ الرَّجَالِ أَوْ الطَّهُلُ اللهُ عَوْرَاتِ النَّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بَأَرْجُلِهِنَّ لَيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ اللَّهُ عَلْمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ إِنْ اللهِ جَهِيعًا أَيُّهَا اللَّهُ مِنونَ لَعَلَّكُم تَفْلِحُونَ (٣٣)» .

ففى الآية الكريمة دستور حشمة المرأة واحتشامها ، ومن يحل لها إظهار زينتها من الرجال وهم الزوج والمحارم من الذكور ، وما ملكت المرأة من عبيد ، وكانت نساء الجاهلية يزين أيديهن وأرجلهن بالحلى المعدنية التي تحدث رنينا أثناء سيرهن ، وكن يتعمدن الضرب بأرجلهن على الأرض حتى يرتفع رنين هذه الحلى ، وكأن هذا الرنين دعوة للفت أنظار الرجال إليهن ، لقد حرم الله كل هذا حتى لا يكون هناك مجال للفتنة بين المؤمنين . ويأمر الله المؤمنات بعدم كشف صدورهن وبعدم ضم الثياب إلى الجسد ضها شديداً أى عدم لبس الضيق منها حتى لا تتثنى المرأة في سيرها أمام الرجال ، وأحل الله للمؤمنات في إظهار الزينة لغير الأزواج والمحارم ، تزيين ما يظهرن به أمام الرجال من أجزاء أجسامهن كالوجه واليدين ، فأحل الكحل يظهرن به أمام الرجال من أجزاء أجسامهن كالوجه واليدين ، فأحل الكحل والخضاب ، وجعل الله من الاحتشام والتحشم وسيلة لفلاح الأمة الإسلامية .

فأين الناس اليوم من هذا النداء الإلمي الحكيم ؟

أين هذا من روح التبرج والتعرى السائدين بين كثير من بنات الأمة الإسلامية ونسائها ؟

تلك الروح الشيطانية الخبيثة التى تثير فى الجنسين أحط الشهوات البهيمية ، فتدفعهم إلى ارتكاب ما حرم الله على المؤمنين والمؤمنات من مظاهر الفجور ولايرعون إلا ولا ذمة فى ارتكاب ما حرمه الله .

وكيف يبرر مؤمن أو مؤمنة هذا التبرج وذلك التعرى بحجة المدنية الحديثة وروح العصر ؟

إن ديننا القويم لا بحرم ولا يعوق التطور بالإنسان في مدارج الرقى ، إنما يأخل الإسلام بمبدأ حتمية تطور الإنسان وارتقائه إلى ماهو أحسن وأصلح فديننا يدعو إلى الكمال الإنساني في حدود ما أباحه الله ويحذر من الانتقاص من هذا الكمال بمظاهر تبعده عن أي صفة من صفات الكمال ، والله سبحانه وتعالى بما يأمر وينهي إنما يأمر بيني آدم بالخير وينهي عما يأتيهم بالأذي والسوء .

والسمة الخامسة للمؤمن هي خفض الصوت والبعد عن اللَّغو ، خفض صوته إذا ما تحدث ، فلا يتكلم إلا بصوت الخاشع لله وحده ، والله يكره من يرفع

صوته بمناسبة وبغير مناسبة ، فلا حاجة ولا موجب لأن يرفع المؤمن عقيرته حيث لا موضع ولا مناسبة للصياح ورفع الصوت .

والمؤمن من ينأى بنفسه عن اللغو الفارغ الذى يجرى به لسان ضعاف الإيمان بما يقولون ظنا منهم أنهم بكثرة كلامهم وانسياب الكلمات من أفواههم إنما يظهرون على الغير ويكسبون المعركة وهم إنما يخدعون بذلك أنفسهم باصطناع أعلى طبقات أصواتهم ويقذفون من بين شفاههم سيلا من الكلام الذى لا معنى له ولا طائل ولا فائدة ترجى منه ، بل قد يبدو أثناء هذا اللغو وفي غمرته مالا يستحب من المتكلم وللمستمع .

والمؤمن المطمئن النفس الواثق مما يقول ليس بحاجة إلى الزعيق والصخب وكثرة الكلام بل هو يتكلم حيث يلزم كلامه ويشد الانتباه إلى الاستماع إليه والإفادة من مناقشته ، وهو لايتكلم إلا حيث وجد بجال الجد في المناقشة والاستعداد للاقتناع بالحجة والقول الفصل . وهو في جميع هذه المجالات ليس بحاجة إلى إجهاد نفسه ولا إزعاج غيره باللغو الفارغ والصوت العالى . والمؤمن الحق من لا يلجأ إلى اللغو من الكلام بل يناى بنفسه عن مجالس اللغو والمهاترات وما تسفر عنه من عداوات ومعاندات أكثر مما تهدف إلى إحقاق الحق وحل المشكلات .

وما أحكم آيات الله في قرآنه الكريم الذي لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها وجلاها لكل عين تبصر وعقل يتدبر .

« قَدْ أَفْلَحَ اللَّوْ مِنُونَ * الَّذِينَ هُم فى صلاتهم خاشعون * والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣٣)» .

فلا فلاح ولا نجاح يرجى من اللغو .

« وإذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُم لا نَبْتَنِي الجَاهِلِينَ (٣٤)» .

فها أجدر المؤمن بألا يتحدث إلاجادًا وفيها ينفع وبما يعلم ، مع الابتعاد عن مجالس الجهلاء . وألا يجالس من يخوضون في آيات القرآن الكريم بغير علم أو بقصد الالتواء بمعانيها أو الاستهزاء بها .

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يخوضوا في حَديثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّنْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالكَافِرِينَ في جَهَّنَمَ جَمِيعاً »(°۳) .

فلا يجلس المؤمن مع من يستهزئون بآيات القرآن الكريم ، بل عليه أن يغادر هذا الجمع الماجن فلا يجلس ولا يتحدث معهم ، وإلاَّ باء بغضب الله وسخطه ، وله عذاب أليم .

ومن الأدب القرآنى الذى يجب أن ياخذ به كل مسلم نفسه ، احترام أصحاب الفضل والتقوى والعلم ، وهو فى تحديده نوع العلاقة التى يجب أن تسود الأمة الإسلامية إنما يضع مبدأ أساسيا للسلوك الإنسانى القويم فى أدب الحديث بين الصغير والجاهل والعالم ، والتلميذ وأستاذه والجندى وقائده وقد جاء عن ذلك فى محكم التنزيل :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيُّ ولا تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجْهرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْض أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُم وأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ<٣٦)» .

« إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُم عَنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امتَحَنَ الله قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَغْفِرةٌ وَأَجْرٌ عظِيمٌ »(٣٧) .

فأين نحن من هذا الأدب القرآني السامي ؟

فهل بعد ذلك من عدر لذلك الذى يدعى الإيمان ثم هو يفخر ويباهى الناس بأنه قد عنّف بأغلظ الأقوال وأسمع من أسوأ الألفاظ فلاناً أو فلاناً من رؤ سائه وأسائدة وأصحاب الفضل عليه ؟.

فاذا ما ذُكِّر بتقوى الله فيها يقول ، تعلَّل بحجج واهية ، وتشدق بمبادىء وقيم حفظ ألفاظها ولم يستوعب معانيها ، فيتشدق بالشجاعة وحرية الرأى والمساواة إلى غير ذلك مما يدعى تبريرا لطيشه وهوجه وتهوره .

٦ - القصد في السير ، وهو من سمات المؤمن الـذي يحفظ لإيمانـه وقاره ،
 ويرعى في سيره تقواه .

والقصد فى السير هو الاعتدال فى السير أمام الناس فى الطرقات أو المنتديات فيجب أن يكون سير المؤمن وئيداً غير متسرع ولا متعجل ، سير المطمئن إلى نفسه وسداد خطاه بفضل رضا ربه عنه ورعايته وتوفيقه له ، فليس من الإيمان التبختر والخيلاء فى السير . وليس من الإيمان التمايل ذات اليمين وذات اليسار إذا سار ، زهواً بنفسه واستلفاتا للأنظار ، وليس من الإيمان الدّب بالأقدام على الأرض أثناء السير ، ليسمع من لا يراه أولا يلتفت أو يهتم لوجوده ، فى حين أنه يستجلب على نفسه تعجب الناس من أمره بدلا من إعجابهم به ويبوء بسخريتهم واستهزائهم به بلا من احترامهم له ، ويحذر الحكيم العليم أمثال هذا المتعجب بقوله :

« ولا تَمْشِ فِي الأرضِ مَسرَحًا إِنْسكَ لَنْ تَخْدِقَ الأرْضَ ولَنْ تَبْلُغَ الجِبسال طُولاً »(٣٨» .

فالعظمة والتعاظم لله وحده الخالق لكل شيء .

« وَعِبادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرْضِ ِ هَوْناً وإذَا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً(٣٩٪ » .

فالمؤمن بالله وعظمته وجلاله هو الذي يتضاءل بنفسه أمام ربه القوى الجبار ويتقيه في سيره .

والمؤمن بالله ، المطمئن إلى صدق إيمانه وتقواه هو من لايناقش الجهلاء حتى لا يسمع منهم ما يخدش وقاره واحترامه لنفسه ، بل يتركهم ولا يحادثهم . ثواب المؤمنين ووسائله :

١ - « إِنَّ هَذَا القُرآنَ يَهْدِى لِلتى هِى أَقْومُ ويُبَشِّر الْمُؤْمِنِينَ الذين يَعْمَلُون الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَمُمْ أَجْراً كَبِيراً (٤٠)».

فالمؤمنون المذين يعملون بكتاب الله وما فيه من آيات تهدى إلى صراط الله المستقيم هم من شرح الله صدرهم للإيمان به ، وهى تلك الآيات التي جاءت بالحق الذى لا يأتيه الباطل من أى جانب ، هم المؤمنون الذين جعلوا من القرآن الكريم دستور عملهم في حياتهم الدنيا ووسيلتهم للفوز برضا الله عنهم وتوفيقه لهم ، فيجزيهم ربهم عن صالح عملهم بحقهم في خير جزائه في حياتهم الدنيا وفي الأخرة .

٢ -« الَّذِينَ يُؤْمنُون بِالغَيْب ويُقِيمونَ الصَّلاةَ وبمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون» (١٠) .
 ﴿ أُولِئِكَ عَلَى هُدَى مِن رَّبِّمْ وأولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٤١) .

والإيمان بالغيب من وسائل التماس المؤمن ثواب ربه فيفوز بأحسنه ، وليس الغيب هو ذاك الذى يذهب إليه ويدعيه مستطلعو النجوم وقارئو الطوالع وضاربو الرمل وقارئو الكف وغير هؤلاء ممن اتخذوا من دعوى التنبؤ بما سيحصل فى المستقبل ، وسيلة يخدعون بها البسطاء السذج لينالوا منهم أجراً ، وهم فى سبيل ذلك وإمعاناً فى خداع من ضعف إيمانهم يجعلون دائما هذا المستقبل براقاً ليرضوهم ويفرحوهم فيجزلوا لهم العطاء ، ليس هذا همو الغيب الذى ذكر الله به عباده المؤمنين ، فالغيب فى علم الله وحده لأنه سبحانه ، هو وحده صانع الماضى والحاضر والمستقبل .

أما الإيمان بالغيب ، كما هو وارد في القرآن ، فإنه يحمل معنى أجل وأسمى وهو أن الغيب في علم الله وحده وبتقديره ولا يشاركه فيه أحد . ولما كان الانسان بطبعه يحب أن يطمئن إلى مستقبله متمنياً أن يكون مستقبل خير وسعادة ، وهو في نفس الوقت عاجز عن معرفته واستطلاعه سلفاً ، فهو إذن شيء محاط بالغموض الذي يبعث في النفس القلق والحيرة ، ولما كان هذا المستقبل في علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وحده ، استتبع هذا تقوى العبد ربه وخشيته فيسلم أمره لله وحده ولا يملك إلا الاتجاه إليه سائلا الخير والبركة في قدره وتَقْدِيره .

ووسيلة المؤمن إلى رحمة ربه هى تقواه والتقرب إليه بالعمل الصالح كالإنفاق مما رزقه الله على المعوزين المحتاجين وبإقامة عباداته لربه فيتقبل منه الله صالح عمله ويكتب له الفلاح وبلوغ القصد فى حاضره ومستقبله . فالإيمان بالغيب إذن هو طريق المؤمن لتقوى ربه ، ومن اتقى ربه أتاه أحسن الجزاء .

٣ - « واللَّذِينَ آمنوا وعَمِلوا الصَّالِحِات أولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خَالدُونَ »(٤٣) .

« وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَمَا سَعْيَهَا وَهُـوَ مُؤْمَنَ فَـاَوُلِئِكَ كَــانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً »(٤٤) . « ولاَ تَهِنُوا ولاَ تَحْزِنوا وأنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّوْ مِنِينَ »(٥٠) .

والثواب الذي أصاء الرحمن القدير للمؤمن ، بما قدم من صالح الأعمال هي الجنة التي جعلت لمن آس بالحق ، والمؤمنون في أعلى درجات القرب من الله في دنياهم بما يرزقهم فيها بما يشاء من حيث لم يحتسبوا ، وينزلهم في الآخرة منازل الصالحين المقربين ، وهذه غاية مابعدها غاية يسعى إليها المؤمنون . ويُذهب بها الله عنهم الضعف أمام أعتى الطغاة الظالمين ويمسح عنهم حزنهم وأساهُم على ما يقترف الكافرون ، ويؤمّن لهم مستقبلهم بما تطمئن إليه قلوبهم وتهدأ به نفوسهم .

٤ - « أَلا إِن أُولِياءَ اللهِ لا خوفُ عليهمْ ولا هم يجزنونَ »(٤٠) .

«الَّذِينَ آمنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لكَلِماتِ اللهِ ذَلِكَ هو الفَوْزُ العَظِيمُ(٤٧)» .

والمؤمن الذى اتخذ الله ولياً له ونصيراً ، وإليه وحده يتجه في السراء والضراء ، فيحمده في السراء ويلتمس رحمته وعونه في الضرّاء ، وإليه وحده يتجه بالشكر على ما أتاه من نعم . هو المؤمن الذي لا تهزه الأحداث ولا يطاطيء رأسه ولا يذل إلا لخالقه سبحانه وتعالى ، فيذهب ربه عنه الخوف ، والحزن ، ويمنحه البشر والسعادة في الدنيا ولمه في الأخرة خير ثواب ، وهذا هو الفوز المبين ، والله صادق وعده للمؤمنين .

« مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرتُمْ وآمَنْتُمْ وكَانَ الله شَاكِراً عليهاً »(٤٨)» .

« إنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وأولا دُكُمْ فِتْنَةٌ واللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ »(٤٩) .

فالمؤمن الذى لا يُفتَنُ عن ذكر الله وتقواه بزينة الحياة الدنيا وبما آتاه ربه من مال وبنين ولا ينحرف بما امتحنه الله بإغداق النعم ، بل لا يزيده ، ما أنعم الله عليه به إلا ذكراً لربه وتقواه ، ويرجع بماله من نعم وعطاء إلى كرم ربه ورضاه عنه فيلتزم بشكره ويعبر عن حمده بمزيد من العمل الصالح ومزيد من الإيمان والتقوى .

هوامسش الفصسل الرابع

(۱) الزمر ۲۳ (٢) الرعد ٢٨ (٣) غافر ٢٨. (٤) البقرة ٢٦٠ (٥) آل عمران ١٧٣ (٦) الأحزاب ٢٢. (٧) البقرة ٢١٦ (٨) الإسراء ٣٠ (٩) الْكَهِف ٣٠ (١٠) الأعراف ١٧٠ (١١) آل عمران ٥٧ (١٢) أل عمران ١٩٥. (١٣) العنكبوت (٥٥) . (١٤) البقرة ٣ (١٥) الذاريات ١٩ (١٦) النساء ٩٥. (١٧) الإسراء ٢٧ . (١٨) الإسراء ٢٩ (١٩) الفتح ٢٩ (٢٠) الفجر ٢٧ - ٢٨ (٢١) الفتح ٤ (٢٢) الأعراف ٥٥ (۲۳) الرعد ۲۸ (۲٤) النساء ۱۱۰ (٢٥) الأعراف ٢٠٠ (٢٦) النساد ١٧. (۲۷) النساء ۱۸. (۲۸) يونس ۲۲ . (٢٩) البقرة ٢٧٣ . 141 4 (4.) **(۳۱) النور ۳۰** (٣٢) النور ٣١ . (٣٣) المؤمنون ١ - ٣

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٣٤) القصص ٥٥ (٣٥) النساء ١٤٠ (٣٦) الحجرات ٢ (٣٨) الإسراء ٣٧ (٤٩) الفرقان ٣٣ (٤١) البقرة ٣ (٤١) البقرة ٣ (٤٤) البقرة ٥ (٤٤) الإسراء ١٩ (٤٤) الإسراء ١٩ (٤٤) يونس ٢٢ (٤٤) يونس ٢٢

(٤٩) التغابن ١٥

الفصل الخامس

مراتب الإيمان

إن الإيمان بالله والتسليم بقدره والتوكل عليه وحده ، ليست كلمات تقال فيصبح الإنسان مؤمناً حقا . بل إن الإيمان هو عمل يرعى فيه المؤمن ربه ويذكره في سره وعلنه .

والإيمان بالله بغير تقواه يصبح لفظاً بلا معنى وشكلا بلا جوهر .

فعبادات الإنسان لربه ، وتعامله مع نفسه ومع الناس جوهر قبل أن تكون حركات آلية وسلوكاً ظاهرياً .

ومظاهر الإيمان إذا لم يسراع فيهما التقوى والخشوع للخالق ، جل وعلا ، أصبحت عملا بغير هدف وجسداً بغير روح .

فبقدَّر مدى تقوى المؤمن ربه فى سلوكه بقدر ما يكون قرباً أو بعداً من الله ، وهذا ما يعبر عنه بمراتب الإيمان أو درجاته .

وبقدْر عمل الإنسان بجوهر الإيمان ، بقدر ما تكون درجة قربه من ربه .

فالإيمان والتقوى متلازمان ، وهما وسيلتا التقرب إلى الله وكسب رضاه .

ولا يمكن تصور الإيمان بالله وبقدرته وبحكمته بغيرخشية المؤمن ربه وتقواه .

ودرجات الإيمان بالمعنى الذى بينه العزيـز الخبير في محكم تنـزيله غير تلك الدرجات التي رتبها أصحاب المذاهب الصوفية لإيمان المؤمنين .

فقد فهم بعض متصوفى الإسلام من التصوف البعد المطلق عن زخرف الحياة الدنيا ، وأن هذا البعد لا يكون إلا بانقطاع المتصوف عن العالم وتكريس حياته الدنيا للعبادة والتقرب إلى الخالق والتجرد من كل ما أحل الله من متاع الدنيا ، كما فهموا أن هذا النوع من العزلة إعداد للمؤمنين اعداداً تاماً للحياة الآخرة حياة الخلود والنعيم المقيم .

وقد تأثر بعض هؤ لاء المتصوفين بسِير من سبقهم من زهاد الفرس والهنود واليونانيين ورهبان المسيحية . واقتفوا أثرهم وأخذوا بما قالوا بأن الجسد سجن الروح وأنه لافكاك للروح من هذا السجن إلا عن طريق رياضة النفس على عدم تلبية كل مطالب الجسد تطهيراً للروح .

أخذ متصوفو الإسلام فكرة هؤ لاء الزاهدين من حيث العمل على تطهير النفس والسمو بها وإن اختلفوا عنهم من حيث الهدف ، وذلك أخذاً منهم بالآية الكريمة .

« ومَا هَذِه الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ هُوَّ ولَعِبٌ وإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لهى الحَيَوانُ لَوْ كَـانُوا يَعْلَمُونَ »(١)» .

مع أن هذه الآية لم تتناول التصوّف من قريب ولا من بعيد ، بل هي تحذير للمؤمنين بعدم التمادى والإسراف في الاستمتاع بالحياة الدنيا حتى لا يفتنهم بريقها عن ذكر الله وتقواه وحتى لا تنسيهم أن هناك حياة آخرة خالدة لا يحياها إلا من عاش صالحاً في حياته الدنيا والحياة الصالحة في الدنيا إنما تكون بالعمل الصالح والسلوك القويم والكسب الحلال والإنفاق في سبيل الله

وقد ذهب بعض السلف من غلاة متصوفى الإسلام إلى البعد المطلق عن هذا اللهو واللعب بالانقطاع التام عن المجتمع واعتزاله ، وأمعنوا في هذا النوع من الزهد بالحرمان التام ، وحملوا أنفسهم وأجسادهم مالا تطيق من الحرمان والتعذيب والآلام لتصفو نفوسهم وتنقى قلوبهم ، واتخذوا من هذا النوع من الزهد وسيلة للفناء عن أنفسهم والبقاء في ربهم وقربهم منه وشهودهم له واتحادهم به ، كما ظنوا .

ولقد كان رسول الله ﷺ ، لشدة تقواه وإيمانه بقدرة الخالق ، يأخذ نفسه بالتقشف في الملبس والمأكل ، وبالعكوف على العبادة والتهجد ، والوحدة والبعد عن

الناس للاختلاء بنفسه ليفكر في الخالق الواحد الأحد وفي بديع خلقه وتدبيره وصرفه ، وقد سار في هذا الاتجاه حتى نهاه الله عن ذلك وأدركه برحمته بقوله تعالى : « طَهَ * ما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقَرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكرةً لِكَنْ يَخْشَى »(٢) .

فخفف المصطفى عليه الصلاة والسلام بعضا من هذه المبالغة ، ولكنه لم يفتر عن ذكر الله والتسبيح بحمده والشكر لفضله مع تقواه فى السر والعلن بالاعتدال فى الملبس والمأكل واستعاذ بربه من غرور النفس وفتنة الحياة الدنيا ، تلك الفتنة التى كثيراً ما تصرف الإنسان المؤمن عن ذكر الله وتقواه واستغفاره والتوبة إليه .

ومن ثم فإن الزهد في الحياة الدنيا ، إذا أخذ بمعنى حرمان النفس بما أحله الله لعباده المؤمنين ، أو الإمعان في تعذيب النفس لتطهيرها وتقريبها إلى الله واعتزال العالم وعدم القيام بدور إيجابي بالعمل الصالح في هذا المجتمع ، كل هذا ليس من تعاليم الإسلام التي أوردها الله في كتابه المبين .

فقد أحل الله طيبات الأرض إذا سعى إليها المؤمن بالعمل الطيب الصالح ، وقد أحل الله للمؤمن الحصول على نصيبه الحق مما رزقه الله وأن يعمل بما أمر الله لنيل ما أحل من طيبات الحياة الدنيا بالحق وبغير عدوان أو ظلم :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وِلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّه لكُمْ عـدُو مُبِينٌ * إِمَّـا يِأْمُـرُكُم بِالسُّـوءِ والفَحْشَـاءِ وَأَنْ تَقُـولُـوا عَـلَى اللهِ مـا لا تعلمونَ »(٣) .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَـاكُمْ واشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيِّـاهُ تَعْبُدُونَ »(٤) .

« وابْتَغ فِيهَا آتَاكَ اللّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ ولا تَنْسَ لَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ ولا تَبْغِ الْفُسَادَ في الأرْضِ إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْفُسِدِينَ »(٥) .

ثم يعدُّد العلى الكريم بعضاً من نعمه التي أحلها للمؤمنين ونواحى الإفادة من هذه النعم :

« والأنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيها دِفْءٌ ومَنَافعُ ومِنْها تَأْكُلُونَ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدِ لَمْ تَكُونُوا بَالِغيهِ إِلا بِشِقَ الأَنْفُسِ إِنْ رَبَّكُمْ لَرَءُوف رَّحِيمٌ ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرِ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَالاً تَعْلَمُونَ ﴾ (٦) .

فإذا أخذنا الزهد بالمعنى الدينى الإسلامى الذى أمر به الله فى عحكم تنزيله وفقاً للتربية الإسلامية التى أرادها الله لمن آمن به وباليوم الأخر حتى يرضى عنه ويقبل إيمانه ويقربه منه ، إذا أخذنا الزهد بهذا المعنى وجدناه غير ذلك الذى أخذ به غلاة المتصوفة أنفسهم وظنوه عبادة وتقرُّباً إلى الله .

١ - فالزهد بالمعنى الدينى الإسلامى ترويض المؤمن نفسه على السلوك الإنسانى القويم ، يسترشد به فى فكره وقوله وعمله وتعامله فذكر الله عبادة ،
 والكلمة الطيبة عبادة ، وقول الحق عبادة .

فالزهد فى لعب الدنيا ولهوها معناه أخّدُ الحياة الدنيا بالجد والعمل الصالح ، مع ذكر الله وتقواه والتعامل مع الناس بالحق والعدل فيها يفيدهم ويصلح أحوالهم ، والبعد عن العبث المضيّع لمصلحة المؤمن ومصلحة مجتمعه ، والعمل على تأدية الرسالة التي من أجلها استخلف الله بني آدم في الأرض ، والزهد في الجاه والسلطان والتواضع والخشوع لقدرة الله جَلَّ وعلا عبادة .

وليس معنى الزهد فى المأكل والملبس أن يعيش الإنسان طوال حياته جائعاً عارياً رغم قدرته على الشبع والكساء ، إنما الزهد فى المأكل والملبس هو البعد عن الإسراف فى الطعام والتباهى بفاخر الثياب والتبرج الذى يلفت الأنظار ، وهذه عبادة مقبولة عند الله فإذا أمر العزيز الحكيم الناس بقوله :

« يَابَنِي آدَمَ خُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُسرِفِينَ »(٧) .

إنما يأمر المؤمنين بارتداء ما يحفظ عليهم وقارهم وعدم الإسراف في الطعام والشراب بما يضر صحتهم ويحرم الجائع من حفظ رمقه ، ويجعل من هذا عبادة وقربى لله تعالى .

والزهد في المال لايقصد به القعود وعدم السعى لكسب الرزق الحلال ، إنما يقصد به عدم الإمعان في جمع المال واكتنازه بطرق غير شريفة أو حبسه عن التداول في السوق مما يعطل انتعاش اقتصاد المجتمع ويضيق مجال الارتزاق للناس .

والزهد في المال لايمنع الكسب الحلال مع التصدق ببعض ما كسب على المحتاجين ، ومن ثم أمر الله بالاعتدال في تحصيل المال وفي إنفاقه ولم يأمر بالزهد المطلق في كسبه أو الإسراف في إنفاقه في غير ما يفيد

« ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَعْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلوماً تَحْسُوراً »(^›) .

« وآتِ ذَا القُرْبَي حَقَّهُ والمِسْكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ ولا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً »(٩) .

فالزهد في الإسلام إذَنْ هو أن يكبح المؤمن جماح نفسه عن شهواتها فيها حرم الله وألا يمعن في جمع المال من أجل المال فحسب بل عليه أن ينفق ما زاد عن حاجته مما رزقه الله وألا يسرف في الاستمتاع بمتاع الدنيا إسرافاً يصرفه عن ذكر ربه وخشيته وتقواه.

٢ - والمؤْمِنُونَ دَرَجَات عند رجهم حباً وقربا بمدى عمق إيمانهم بالله وخشيته
 وتقواه :

إِنَّمَا المؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتُهُمْ
 إِيَاناً وَعَلَى رَبِّمْ يَتَوَكَّلُونَ » * الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ ومما رَزَقْنَاهُمْ يُنْفقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ المؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرةٌ ورزْقٌ كَرِيمٌ »(١٠) .

٣ - والمؤمن الذى شرح الله صدره للإيمان وأضاء بصيرته فى فهم آيات قرآنه الكريم ، فآمن بربه وجلاله وقدرته وخشع له وحده وتوكل عليه ثم استعان به وشكره فى السراء والضراء ، وأنفق مما رزقه ابتغاء مرضاته وحده ، هذا المؤمن أقرب إلى ربه ممن مر على آيات كتاب الله مر الكرام ولم يحاول أن يتفهمها أو يعمل بما أتت به من موعظة ، كما أنه أقرب إلى ربه ممن لا يصلى أو ينفق إلا رئاء الناس .

٤- ويرزق الحكيم العليم عباده المؤمنين ليرى كيف ينفقون بما رزقهم . فمن استعجل ربَّه الرزق ابتغاء متاع الدنيا دون التزود بما رزق لآخرته ، عجل له الله في

رزقه ليسرف في الاستمتاع في حياته الدنيوية ثم يأخذه الرقيب الحسيب في الآخرة بما كسب . ومن عمل بما رزقه الله في دنياه وتزود به لآخرته أقرب إلى ربه وأعلى درجة :

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فيهَا مَا نَشَاءُ لِلَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً * وَمَنْ أرادَ الآخِرةَ وَسَعَى لَمَا سَعْيَهَا وَهُوَمُوْ مِنُ فَأُولِئكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً * كُلاً ثُمَّدُ هَوُ لاَء وهو لاء مِنْ عَطَاءِ رَبُّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ فَعَاءُ رَبِّكَ عَطَاءُ رَبِّكَ عَطَاءُ رَبِّكَ عَطَاءُ رَبِّكَ عَطَاءُ رَبِّكَ عَطَاءُ رَبِّكَ عَطَاءً وَمُؤْمِراً * انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ولَلآخِرةُ أكْبَرُ دَرَجَاتٍ وأكْبَرُ تَقْضِيلاً »(١١) .

« وَلِكُلِّ دَرَجَاتٌ مِّا عَمِلُوا وَلِيُوفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ١٢٢)

ويكرم الله العلم والعلماء المؤمنين فيجعل المؤمن العالم أقرب إليه من المؤمن الذي لايعلم :

« أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آناء اللَّيْلِ سَاجِداً وقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ ويَرْجُو رحمة رَبِّهِ قُلْ هَلْ يستوى الَّذِين يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألبابِ ٣١٣) .

والمقصود بأهل العلم المتفقهون فى علوم القرآن وهى جماع العلوم قديمها وحديثها ومستقبلها . والمقصود بأهل العلم أيضاً الذين يتأملون بديع صنع الخالق فيا تحتهم وفيها فوقهم فى هذا الكون فضلاً على تفقههم فى علوم القرآن فيزيدهم العلم بربهم إيماناً ومنه خشية ، هؤلاء أقرب درجة بمن لم يتفقه فى دينه ولم يتأمل أو يتدبر بديع صنع الخالق :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً الْوانُهَا وَمِنَ الجَبَالِ جُدَدٌ بيض وَحُرُّ مُخْتَلفٌ الْمُوانُهَا وغَرابِيبُ سُمودٌ * وَمِنَ النَّاسِ والمَّوابُّ والأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ الْوانُه كَذَلِكَ إِنَّا يَخْشَى اللهَ مِنْ عَبَادِهِ العُلماءُ إِنَّ اللهَ عزيزٌ غَفُورٌ »(١٤).

ويحفظ العليم الخبير للعلماء المؤمنين مقامهم الحق فى المجتمع ويجعل لهم مكان الشرف فى أى جمع من المؤمنين :

« يَا أَيُّهَا الذِينَ آمنُوا إِذَا قِيلَ لَكُم تَفَسَّحُوا فِي الْلَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسِحِ اللهُ لَكُم وإذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَع ِ اللهُ الَّذِينَ آمنوا منكُمْ والذينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ والله عِا تَعْملُونَ خَبِيرٌ »(١٥) . والمقصود بالذين آمنوا المؤمنون حقاً والذين تقبل الله إيمانهم قبولاً حسناً ورفعهم درجات على غيرهم ، ثم جعل الله الذين أوتوا العلم بقدرة الله وحكمته وبديع خلقه وصنعه مع هؤلاء المؤمنين في نفس مستوى القرب من الله ورضاه عنهم .

٥ - والمؤمن حق الإيمان هو من تحرّى قول الحق وإقامة العدل فى ضميره وفكره وقوله وعمله . فالمؤمن الذى رسخ إيمانه فى قلبه رغسك بتقوى ربه ، لايصدر منه إلا العدل والتسوية بين الناس فى القول كأداء الشهادة بالحق ، وفى العمل والتعامل بين الناس بإعطاء كل ذى حق حقه ، فالحاكم العادل هو من حكم وأصدر الحكم بعيداً عن الهوى حتى لاينال أحداً من الناس بظلم ، والأب العادل من يعامل أولاده على قدم المساواة ولا بميز ولداً على ولد إلا بالحق ، فالمؤمن العادل أقرب عند ربه وأعظم أجراً عن آمن بالله ولم يقم ميزان العدل ، ولا عجب فى تفضيل الله المؤمن العادل على غيره ، إذْ العدل من أسس الإيمان والتقوى .

« الذين آمَنُوا ولمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمِ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُون ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْراهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكيمٌ عَليمٌ »(١٦) .

« وَلِكُلُّ دَرَجَاتٌ بِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِل ٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ »(١٧) .

7 - وفى صدر الإسلام ، لاقى الرسول ومن تبعه من المؤمنين من عنت المشركين وتآمرهم وعدوانهم ما كاد يقضى عليهم ويقضى على دين الله فى مهده ، ولكن الله القوى القادر أبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، ومن ثم أمر الله رسوله الكريم ومن معه من المؤمنين بالصمود والصبر أمام عناد المشركين ورد عدوانهم بالمثل ، أمرهم الله بقتال المشركين دفاعاً عن بيضة الإسلام ، ووعدهم بحسن الجزاء وأيدهم بروح من عنده ، وأمدهم بجنود لم يروها ، وكتب لرسوله وللمؤمنين النصر المبين :

« وقَساتِلُوا في سَبِيسلِ اللهِ السَّذِينَ يُقَساتِلُونَكُمْ ولا تَعْتَسدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدينَ »(١٨).

﴿ كُتَبَ عَلَيكُمُ القَتَالُ وَهُو كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُو خَيْرٌ لَكُمْ وعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُو خَيْرٌ لَكُمْ وعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُو خَيْرٌ لَكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١٩)

فالقتال في سبيل الحق وفي سبيل الدفاع عن دين الله ، والتسليم بأمر الله وتنفيذه ولو كان فيه تعريض حياة المقاتل المؤ من للخطر ، والإنفاق على جيش المؤمنين لقتال المعتدين ، كل هذه التضحية بالنفس والمال في سبيل الله هي قمة الإيمان بالله وباليوم الآخر ، من أجل ذلك جعل الله المؤمنين الذين جاهدوا بالنفس والمال دفاعاً عن العقيدة ، أقرب إلى الله من المؤمنين القاعدين مع قدرتهم على القتال :

«لاَ يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ والمُجاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهُ بأمْوالِهم وأنفْسِهِمْ فَضَّل اللهُ المُجَاهِدِينَ بأمْوالهِم وأنْفسِهِمْ عَلَى القَاعِدينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللهَ الحُسْنَى وَفَضَّلَ الله المُجَاهِدِينَ عَلَى القاعِدينَ أَجْراً عِظيماً * دَرَجاتٍ مِنْهُ ومَعْفِرَةً ورَحْمَةً وكان الله غفوراً رحيهاً »(٢٠).

وشاء العليم الخبير بنفوس البشر وأهوائها أن يكشف حبايا من يتردد عن القتال في سبيل الله ، ويبين لنا أولئك الذين يقاتلون دفاعاً عن العقيدة وأولئك الذين يقاتلون من أجل الحصول على منفعة دنيوية عاجلة .

فالذين قاتلوا مع الرسول ووقفوا بجانب المؤمنين إذ كانوا قلة أمام جحافل المشركين ، هم أقرب درجة من أولئك الذين قاتلوا معه من بعد أن اشتد ساعده وزاد عدد المؤمنين المقاتلين معه ولاحت طلائع نصر الله المبين لرسوله الشجاع الأمين وخذلان أعدائه المشركين . فالذين قاتلوا مع الرسول قبل فتح مكة وهم قلة أقرب درجة عند الله من الذين قاتلوا معه يوم فتح مكة فالأولون اشتروا الآخرة بالدنيا وما عليها ، والآخرون قاتلوا مع النبي بعد أن أمنوا خطر المشركين .

« وَمَا لَكُمْ أَلَا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وللهِ مِيراثُ السَّمَوَات والأرْض ، لاَ يَسْتَوى مِنْ أَنْفَق مِنْ قَبْلِ الفَتْح وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الّذينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلوا وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ »(٢١) .

والمؤمن الذى صبر وأسلم أمره لله إذا ما ابتلاه ربه ، أكثر بِرًا وأشد تقوى وأرسخ إيماناً وأقرب إلى ربه من المؤمن الجزوع الهلوع الذى يصيبه البأس إذا ما ابتلاه ربه فيكفر بحكمة ربه وقدرته ورحمته .

والمؤمن الصابر على أذى الناس والكاظم غيظه أمام السفهاء والعافى عند المقدرة أحب وأقرب إلى ربه من المؤمن الضيق الصدر السريع الغضب القليل التسامح:

اللّذينَ يُنْفِقُونَ في السّرّاءِ والضّرّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ والعَافِينَ عَنِ النّاسِ واللهُ
 يُحبُّ ٱلْمُحسنِينَ (٢٢).

٨ - والمؤمن الذي إذا ما أتى بفاحشةٍ ثم تاب إلى ربه توبة نصوحا صادقة ولم
 يعد إلى ما ارتكب ، أقرب إلى الله من المؤمن المصرّ على ارتكاب المعاصى : -

والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أُوْظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فَاسْتَغَفَرُوا لِلدُّنُوبِهِم وَمَنْ يَغْفِر الذُّنُوبَ إِلاَّ الله وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ »(٢٣) .

« أُولَئِكَ جَزَاؤُ هُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّنْ رَبِّمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَّمْتِهَا الْأَمْهَارُ خَالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ»(٢٤)

﴿ إِثْمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِللَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولِئكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِم وَكَانِ اللهُ عَلَيْهِم وَكَانِ اللهُ عَلَيماً حَكِيماً وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيَّنَاتُ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ المُوتُ قَالَ إِنِّ تَبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِك أَعْتَدُنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيهاً ﴾ (٢٥٠) .

هوامسش الفصسل الحامس

(١) العنكبوت ٦٤ W-14 (Y) (٣) البقرة ١٦٨ - ١٦٩ (٤) البقرة ١٧٢ (٥) القصص ٧٧ (٦) النحل ٥-٨ (٧) الأعرآف ٣١ (٨) الإسراء ٢٩ (٩) الإسراء ٢٦ (١٠) الأنفال ٢ - ٤ (11) الإسراء 1A - 11 (١٢) الأحقاف ١٩ (١٣) الزمر ٩ (۱٤) فاطر ۲۷ ، ۲۸ (١٥) المجادلة ١١ (17) الأنعام ١٨ ،٣٨ (١٧) الأنعام ١٣٢ (١٨) البقرة ١٩٠ (١٩) البقرة ٢١٦ 47-40 elmil (Y+) (۲۱) الحديد ١٠ (۲۲) آل عمران ۱۳٤ (۲۳) آل عمران ۱۳۵ (٢٤) آل عمران ١٣٦ (٢٥) النساء ١٧ - ١٨



verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





الفصل الأول

القرآن والسلوك الشخصى

هذا القران الكريم:

هذا الكتاب المبين الذي لم يترك كبيرة ولا صغيرة ، من شئون البشر وأحوالهم إلا أحصاها بالحق .

هذا الكتاب الذى أنزله العليم الخبير وحفظه من أى تحريف أو تبديل ، وكف عنه كل يد عابثة تبغى تغيير كلمة منه أو حرف ، إضافة أو حذفا .

هذا الكتاب القيَّم في إعجازه مع وضوحه ، الذي أوحى به من لدن العزيز الحكيم إلى نبيه الأمى الصادق الأمين ، لهو آية ومعجزة ربانية لرسول من البشر ليهديهم به إلى صراط الله المستقيم .

فهل بعد هذا القرآن البينّ المحيط من مزيد ، لكل من آمن بالله الواحد القهار وبكتبه وبرسله وهو عليه شهيد ؟ .

أفغير هذا الكتاب المبين يتخذ أى مؤمن هَدْياً ونبراساً في حياته الدنيا ولآخرته ؟ .

« إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤ مِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِخَاتِ أَنَّ هَمُّمْ أَجْراً كَبِيرَا »(١) .

هذا هو انكتاب الذي أشار إليه منزله ، جل وعلا ، بقوله :

، وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُـلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَائَمْهُ وَصَاكَمْ بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ ٣٠٪ .

ألا ندعو الله جميعًا نحن المؤمنين بالله وكتبه ورسله أن يهـدينا إلى صـراطه المستقيم ، نتلمس بسلوكنًا هذا الصـراط رضا الخالق وتوفيقه ، ونتقى غضبه وعذابه ؟ .

اللهم:

ألاً نتخذ من هذا الكتاب مرشدا لنا فى التعامل مع الناس بالمعروف وسبيلا للفوز برحمة العزيز المقتدر ورضائه ، سبحانه وتعالى ؟.

هذا هو الفرقان ، دستور الإنسان الأزلى ، يفرق به المؤمن بين الحق والباطل ، وفي ضوء آياته البينات يميز الصواب والخطأ ، ويختار الطيب وينبذ الخبيث ، به يهتدى إلى الحق ويتحرى الصواب ويتخير الطيب في فكره وضميره وفي قوله وعمله فيفوز فوزاً مبيناً في حياته الدينا وفي دار البقاء والخلود .

فإلى قرآن الله الكريم خاتم كتب الله ، علينا نحن المؤمنين به وبمنزله وبمبلغه أن نهتدى به إلى الطريق القويم فى أسلوب عملنا فى هذه الحياة الدنيا وسلوكنا فيها ، وبه نسترشد دوافع العمل وأهدافه وطريقته بعد أن نتدبر الأسباب الطيبة لنحصل على مسببات طيبة ونربط بينها بالسلوك الطيب .

وما أبلغ هذا القرآن وما أعظم بيانه لمعنى السلوك الذى يجب على كل مؤمن الأخذ به ليسعد به وليشمله الله برعايته ونظره ورحمته ، إذْ يبين معانى ولاية المؤمن لاخيه فى الإيمان وتعاونهما ، ما أطاعا الله العزيز الرحيم ورسوله الصادق الامين :

وَالمؤْ مِنُونَ وَالمُؤْ مِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بعض يَاْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَنْكِرَ وَيُقِيمونَ الصَّلاَةَ وُيؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ أُولِئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ الله عَزِيزُ حَكِيمٌ »(٤) .
 الله ، إنَّ الله عَزِيزُ حَكِيمٌ »(٤) .

والله الغنى الحميد ، إذْ يأمر المؤمنين بالأخذ بالمعروف والانتهاء عن المنكر ، لا يبغى من عباده شيئا ، وهم هؤلاء الضعفاء الفقراء إلى رحمة ربهم ، إنما يريد عمران الأرض بالذى هو أصلح وأن يسلك عباده من سبل العمل والعيش بالتى هى أقوم .

يأمر الله عباده المؤمنين بالاستعانة به والتوجه إليه وإسلام الأمركله له لا تواكلا ولا قعوداً ، بل التماسا لإلهامه لهم إلى طريق الصواب وهديم في عملهم بالتي هي أحسن .

والمؤمن الصادق فى إيمانه ، والمتقى ربه حق تقاته ، بسيره على صراط ربه المستقيم بلا انحراف ولا عوج ، إنما يجعل من نفسه ومن سلوكه قدوة حسنة لغيره ، وعاملا فعالا فى بث الخير وإعلاء كلمة الحق .

فعلى هذا المؤمن إذن ، أن يبدأ بنفسه فيأخذ بمبادىء هذا الدين القيّم ، المبينة بأوضح بيان في القرآن الكريم ، فيسير على هدى آياته نصاً وروحاً في سلوكه العام والخاص ، فكراً وقولا وعملا ، في صدق وتقوى . فيكون له بذلك قوة الإيحاء والتأثير فيمن حوله ومن يتعامل معهم . يتقبلون منه النصح فيردهم عن الضلال إلى الهدى وعن الانحراف إلى الاستقامة . ولا يكون هذا إلا عن اقتناع به وتصديق له فيترسمون خطاه . وبذلك يكون هذا المؤمن قد نفع نفسه ونفع الناس وأوفى بعهد الله ووفاه بما التزم له به ، ووفى الناس حقهم في الهداية والاستقامة .

هذا ما يجب أن يكون عليه سلوك المؤمن ، وهذه هي نتائج هذا السلوك . ومظاهر السلوك الشخصي للمؤمن ، كما توحى به آيات القرآن الكريم هي :

١ - أداء المؤمن حق الله عليه في عبادته ، وهي تلك الفرائض الخمس التي حددها الله ليأخذ بها كل مؤمن مسلم ، وهي الشهادتان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إلى بيت الله الحرام . وسنتناولها هنا من حيث أثرها في تكييف السلوك الشخصى للمؤمنين بما يجعلهم قدوة صالحة لغيرهم :

لا يقصد بهذه الفرائض مظاهرها الحركية فحسب ، بل إن هذه المظاهر ما هي إلا وسيلة إلى هدف أعظم ، هو تجميل مؤديها بحميد الخصال وقويم الأخلاق التي يجب أن يكون عليها كل مؤمن صدق ايمانه وتقبله منه ربه .

وقد سبق لنا أن بينا أسلوب أداء كل فريضة من هذه الفرائض .

وعلينا أن نبين هنا انعكاسات أداء الفرائض في سلوك مؤديها وهي الهدف الذي قصده الله من فرضها . وهي انعكاسات تجعل من المؤمن إنسانا طاهراً صالحاً لا يصدر منه إلا كل طيب وصالح .

فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، تهدى المؤمن المسلم إلى الالتزام بالعمل بكل ما جاء في القرآن والسنة ، ومظاهرهما العملية أداء بقية الفرائض .

وبالصلاة ينتهى المؤمن المسلم عن ارتكاب ما نهى الله عنه من فواحش ومنكرات ويتحلى بفضائل الخشوع لله والتواضع له وتقواه والبعد عما يغضبه ، فيفوز برضا الخالق والحلق .

والزكاة تطهير للمال مما حرم الله فى طريقة جمعه وإنفاقه ، وتطهير للنفس من نقائص الجشع والأثرة والبخل لتحل محلها فضائل الزهد والتعاطف بين المؤمنين .

والصوم تدريب للمؤمن ورياضة نفسه على الصبر ومغالبة أهوائها وشهواتها كما أنه تطهير للبدن من البطنة والتخمة .

والحج تمجيد عملى وتقديس لمنزل الوحى الإلهى الذى تهفو إليه نفس كل مؤمن وتجميع لأمة الإسلام من مشارق الأرض ومغاربها فى صعيد واحد للتلبية والابتهال إلى الله عز وجل ، وللتعارف والتعاطف والتشاور فيها يدعم الترابط بين المسلمين واعتزازهم بدينهم وولائهم لربهم .

٢ - والمتفاؤ ل والرضا بما قسم الله ، من مظاهر السلوك الشخصى التى يسعد بها المؤمن كما يسعد بها كل من يتصل به . ومعنى التفاؤ ل توقع الخير والرزق الطيب من الله سبحانه وتعالى ، وما دام المؤمن قد آمن وسلم بقدرة ربه وحتمية قُدره فإنه يتقبل ما قسمه الله له بنفس راضية إيمانا منه بأن كل ما يأتيه من الله خير ولو بدا له شراً . وليس معنى التفاؤ ل والرضا والتوقع أن يتواكل المؤمن ويجمد فى مكانه ولا يعمل ويسعى وراء رزقه ، بل عليه أن يتحرك ويعمل ما يرى فيه الجق والخير ووفق ما أمر به الله عباده المتقين ثم يسلم بعد ذلك نتيجة عمله يقررها العزيز العادل .

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِه وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّم لِلعَبِيدِ »(°) .

« بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ »(٦) .

ومن مظاهر تفاؤ ل المؤمن البشاشة في المقابلة والحديث ، والعفو عمن أساء إليه ، والدعاء له بالغفران والهداية ، واجتناب سوء الظن بإخوانه المؤمنين أو التوجس منهم ، وعدم تحميل ما قد يبدو من أخطاء الغير أكثر بما تحتمل ، وقاية للمؤمن من الاندفاع وراء انفعال نفسي طارىء فيسيء العمل أو يخطىء التقدير أو يصدر حكما ظالما ، بل على المؤمن المتفائل الواثق من إيمانه وبرضا ربه وبنفسه الرد على المسيء بالموعظة الحسنة وتجنب الفظاظة في القول أو بالإشارة وأن يأخذ الجادمن الأمور مأخذ الجد الهادىء ، وأن يمر باللغو مراً كريماً ، وفي ذلك يقول التواب الرحيم :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بعْضَ الظَّنِّ إِنَّمْ وَلاَ تَجَسَّسُوا ولاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَغْضًا أَيُحِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ خُمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ واتَّقُوا الله إِنَّ اللهُ تَوَّابُ رَّحِيمٌ »(٧) .

« إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِخَات وتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَواصَوْا بِالحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ »(^) .

« أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيله وَهُوَ أَعْلَمُ بِاللهُتْدِينَ »(١) .

فعلى المؤمن ألا يستمع إلى قول السوء ، ثم يبنى عليه أقوالا أو أفعالا قد تكون أسوأ منه ، وعليه ألا يتطير من الإشاعات المغرضة والأقوال الباطلة ولا يسلّم بكل ما يسمع :

« وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُوْادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْتُولاً »(١٠) . بل عليه أن يتحرى ويدقق في مدى صدق ما يسمع ، ولا يردد منه ما ليس له به علم يقيني :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإِ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾(١١) .

٣- والصبر على نوائب الدهر ومفاجآت الحياة الدنيا من أبرز مظاهر سلوك المؤمن الشخصى ، وهو ملازم للتفاؤ ل وانعكاس له ، ويزيد عليه بعدم اهتزاز صاحبه ولا يتزعزع إيمانه أمام ما قد يصيبه في هذه الحياة الدنيا من أذى ، إيمانا منه بأن دوام الحال من المحال وبأن الحياة الدنيا ما هي إلا أيام يداولها الله بين الناس . فقد يخطىء التقدير في أمنه إلى شيء أو إلى شخص فيأتيه الخطر من هذا المأمن أو ذاك . والصبر يشحذ إيمان المؤمن ويقويه على تحمل الشدائد والصمود أمام ما يزعج النفس أو يقلق الفكر أو يؤذى البدن .

ومن المواقف التي يجب أن يأخذ فيها المؤمن نفسه بالصبر ، الحرمان من متعه من متع الحياة أو زخرف من زخارفها ، أو الفقر في المال الذي يهيىء للإنسان مطالبه الحيوية من طعام أو كساء أو مأوى أو أهواء النفس الجاجحة ، أو عدوان الناس عليه بالقول أو بالفعل .

وما الصبر على كل هذا إلا جهاد ، يجاهد به المؤمن ما يؤذى إيمانه : الصبر على الفقر بالاكتفاء بالقليل المتاح وفق قدرته وبما قدر الله له .

الصبر على أهواء النفس بكبح جماحها والسيطرة عليها وتـوجيهها إلى مـا هو أقوم .

والصبر على ما يصيب البدن من آلام وأمراض بذكر الله وطلب رحمته .

والصبر على عدوان أعداء المؤمن وأعداء عقيدته بالصمود وتحمل أهوال القتال في سبيل الله طمعا في الاستشهاد في سبيل الحق ونيل رضوان الله .

فالصبر إذن عمل وليس جمودا ، عمل إيجابي وكفاح سلاحه الصمود والثبات

أولاً ، ثم اتخاذ دور إيجابي في دفع الأذي والخطر ، وهذا ما بينه الحكيم العليم في عكم تنزيله :

« والصَّابرينَ في البَّاسَاء والضَّرَّاءِ وَحينَ البَّاسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينِ صَدْقُوا وأُولِئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ »(١٢) .

« لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُـوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُـوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْي كَثِيراً وإِنْ تَصْبِرُوا وتَتَقُوا فإنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأَمُورِ "(١٣) .

وعلى المؤمن التذرع بالصبر في مواجهة المشاكل ، مع ذكر ربه والاتجاه إليه بالدّعاء والتماس العون ، ليشد أزره ويوفقه ، فيجد مما هو فيه من ضيق مخرجا :

« واسْتَعينُوا با لصَّبْر وَالصَّلاةِ وإنَّهَا لَكَبيرَةٌ إلاَّ علَى الخَاشِعينَ »(١٤) .

ومن مظاهر صبر المؤمن ، كظمه غيظه إزاء ما قد يعكر صفاء نفسه الأمنة فلا يخرج بها عن جادتها وثباتها ، ولا يندفع دون تعقل أر ترو ليرد على ما سمع أو رأى من سوء فى هياج حيوانى حتى لا يكون منارا للسخرية أو الاشمئزاز ممن حوله ولكى يتقى غضب ربه :

« الَّذِينَ يُنْفَقُونَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاء والكاظمينَ الغَيْظَ والعَافِينَ عَنِ النَّاسِ والله يُحبُّ المُحْسِنِينَ »(١٥) .

فالمؤمن الصابر هو من كظم غيظه وصبر ، ثم يتخذ الموقف المناسب فيها يعرض لمه من مثيرات الغضب فيناى بنفسه عن جمالس اللغو والمجون ويعرض عن الجاهلين :

« واصْبِرْ عَلَى مَايَقُولُونَ واهْجُرْهُمْ هَجْرا جَبِيلاً ٣^(١٦) .

والمؤمن الصابر هو من تدبَّر أمره وتبين ما يجب أن يأخذ به من سلوك إزاء ما يثير النفس المؤمنة من أقوال أو أفعال ، ويتدبر أمره ويتعقل ، فلا يركبه الهياج والجموح ولا يندفع اندفاعا أهوج وبلا وعي وإلا أضاف لهذا الموقف مَشْهداً قد يكون أسوأ وأشد نُكرا :

« والَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَاثِرَ الإِثْم ۚ وَ الفَواحشَ وإذاَ مَاغَضبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ٣(١٧) .

﴿ وَإِنَّ عَاقبتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَاعُوقبَّتُمْ بِهِ ولَئِن صَبَرْتُمْ لَمُوَخَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ١٨٥٠ .

بل عليه أن يكظم غيظه ويكبح جماح غضبه ، فيتذرع بالصبر الجميل الذى يهى عليه أن يعفو ، أيهما أحسن وأوفق .

ومن كبح جماح نفسه وصبر ، فقد انتضر نصرين ، انتصر عـلى هوى نفسـه وانتصر على أهواء الناس وجموح سلوكهم ، وهذا هو النصر المبين :

« وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابِهِم البَّغْيُ هُمْ يَنتْصِرُونَ ٣^(١٩) .

« وَلَمْنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولِئِكَ مَاعَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ ٢٠٠٦ .

٤- ومن منظاهر سلوك المؤمن الصدق واليقظة للحق ، وعدم الخداع أو
 الغفلة ، الصدق واليقظة مع ربه ومع نفسه ومع الناس :

١- فالمؤ من الصادق مع ربه هو من أدى له ما فرض عليه من عبادات حق ادائها ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى ، وليس رئاء أو تظاهراً أمام الناس بالورع والتقوى ، ثم يسير فى حياته صادقا مخلصا لما تهدف إليه هذه العبادات من بِرِّبربه وبِرَّ بنفسه وبِرَّ بالناس ، فلا يكون مثله مثل أولئك المنافقين الذين جاء فيهم قوله تعالى :

إنَّ الْمَنَافِقينَ يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ وإذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُـوا كُسَالَى يُراعُونَ النَّاسَ ولا يَذْكُرُونَ الله َ إِلا قَلِيلاً * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلى هَوُلاءِ وَلاَ إِلى هَوُلاءِ وَلاَ إِلى هَوُلاءِ وَلاَ إلى هَوُلاءِ وَمَن يُضْلِل الله فَلَنْ تَجَدَلَهُ سَبِيلاً "(٢١) .

٧- وصدق المؤمن مع نفسه من أهم مقومات السلوك الشخصى السليم الذى يجب أن يأخذ به كل مؤمن صدق إيمانه ولا يفوز بهذا الصدق وينعم به إلا من عرف حقيقة النفس البشرية من حيث نواحى ضعفها ونوازعها الهوجاء التى لايخدع بضغوطها ويتبعها إلا كل من ضعف إيمانه أو صدَّق نفسه وهو في الواقع خادعها . وهو إذ يترك نفسه على سجيتها ويتبع هواها تنعكس انفعالاتها في تصرفات عملية خاطئة وسلوك غير سليم لايتلاءم مع ما يجب أن يتصف به المؤمن من تقوى وورع ، إذ يركبه الغرور بالنفس والتعالى على الناس وإهدار حقوق الغير فيبوء بكراهية الخالق والخلق .

ومن مظاهر صدق المؤمن مع نفسه أن ينتصح بما ينصح الناس بعمله وأن يفعل بما يقول ، وأن يأخذ نفسه بالبرِّ قبل أن يطالب الناس بالبر والتقوى .

« أَتَامُمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأنتم تتلونَ الكتابَ أَفَلاً تَعْقِلُونَ »(٢٢) .

۳- الصدق مع الناس فلا ينطق المؤمن عن الهوى ، أو بما يسمع ، بغير علم
 وتبصر ، ختى لاينحدر بنفسه إلى استهانة الناس به وبما يقول فيفقد ثقتهم .

ومن مظاهر الصدق مع الناس أداء الشهادة بالحق بعيدا عن أى تأثير معنوى أو مادى ، إرهاباً كان هذا التأثير أو إغراء ، فلا يتحيز لصاحب سلطان خوف من بطشه ، ولا يظلم بريئاً فقيراً طمعاً في مال ظالم غنى .

والصدق في القول عدة المؤمن الصادق يوم الحساب يثاب عليه خير ثواب :

« قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تجرِى مِن تَمْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ »(٢٣) .

« مِنَ المؤْمنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَاعَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَى نَحْبَهُ ومِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبدِيلاً * لِيَجْزِىَ الله الصادقينَ بِصِدْقِهِمْ ويُعَذَّبَ المُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أُو يَتُوبَ عَلَيْهِم إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيهاً »(٢٤) .

٤- وصدق المؤمن في العمل حافز على أداء ما يوكل إليه من أعمال في صدق وأمانة وحماسة ما وسعه جهده فيتقنه ، بل إنه ليسعى إلى مزيد من الإتقان بالاستزادة من العلم بما ينفعه ويعينه على مزيد من الاتقان ، ومظاهر الصدق في العمل محافظة العامل على مواعيد العمل المحددة وألا يضيع دقيقة من وقت العمل فيها لا جدوى منه ، والمحافظة على أدوات العمل وخاماته ، فلا إتلاف ولا تبذير ، وليضع العامل نصب عينيه أن صدقه في عمله إنما يعود عليه بالخير في شكل أجر ثابت يعيش منه أو تشجيع مادى أو معنوى من أصحاب العمل الذين يقدّرون فيه حرصه على مالهم ، كما يعود هذا الصدق على المجتمع إذْ يحصل على مقابل عادل لما يدفع من ثمن .

ومن آيات صدق المؤمن مع مجتمعه عدم النّفاق فيه ، فلا يظهر بوجه في موقف أو مع جماعة من الناس ثم لايلبث أن يظهر بوجه مخالف كل المخالفة في موقف آخر

ي به او جماعة أخترى ، أو يظهر أمام الناس بمظهر التقى الورع ويعلم الله أنه التقابين الادعباء عاء قوله سبحانه وتعالى :

رَبِرَ النَّاسِ مِن يُعجبكَ فَوْلُه فِي الْحَيَاةِ اللَّهَ لِهِ لَهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ زُرْ سَفِيمِياهُ (٢٤) .

مَ مِنْ اللَّهُ عِلَا الَّذِينَ آمِنُوا قَالُوا آمَناً وَاذَا خَالُوا إِلَى شَياطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّا نَحْنُ مِنْ اللَّهِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّا نَحْنُ مِنْ اللَّهِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّا أَنْحُنُ مِنْ اللَّهِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّا أَنْحُنُ مِنْ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّا أَنْعُنُ اللَّهُ اللَّ

، فِي تُنْوِبِهِمْ مَّرَضَ فَزَادَمُهُمَ الله مَرضاً ولَمَهُمْ عَذَابٌ أَليِمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ »(٢٧).

٥- ومن مظاهر صدق المؤمن مع نفسه ومع الناس ، اعتداله وتوسطه في مأكله ومأسه . فلا خير في مؤمن قد جعل كل همه ومتعته ومقصده في حياته الدنيا ملء علنه ما بمكنه الحصول عليه من طعام حتى لقد ينفق في سبيل ذلك كل ماله وكسبه وقد يحرم أولاده مما يشتهون .

ففضلا عما يلحقه الإسراف بصاحبه من تخمة يصاب بهما. وأمراض تصيبه وتطحن بدنه ، وفضلا عن حرمانه ببطنته حق غيره فيما رزقه الله ، فإن للإسراف في الطعام انعكاسات معنوية ضارة به وبغيره من الناس .

فالنهم البَطِنُ ، يتبلد تفكيره فلا يحس ولا يرى ما يعانيه الفقير المحروم وما فى نظراته من حسد وحقد ويستسلم لشهوات نفسه تسيره حيث تشاء وكيف تريد وهو لايملك لها قيادا ولا يستطيع لها ضبطا .

وما أصدق قول رسول الله ﷺ في وجوب الاعتدال في الطعام ، إذْ يقول :

(نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لانشبع) صدق رسول الله .

أى أن على المؤمن ألا يأكل إلا ما يكفى منع غائلة الجوع ، ثم إذا أكل لايسرف في الأكل إلى درجة التخمة .

ونحن لانقصد بالاعتدال في المأكل الحرمان بما أحل الله من أطايب الطعام الذي يأتيه الله للمؤمن بل ننادي بالاعتدال فيه أي يتناول ما يصلح بدنه ويستسيغه ذوقه

ويشبع جوعه ، دون ما إسراف وأن يتجنب تناول ما حرمه الله تحريما صريحا ، إنما خلق الله الطيبات والنعم لفائدة البشر :

« يَا أَيُّنَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبا ولاَ تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطانِ إنّهُ لَكُمْ عَدُوَّ مِّبِينٌ(٢٨) .

« وَكُنُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّه حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهِ الذِّي أنتم بهِ مُؤْمنُونَ »(٢٩) .

« وَهُوَ الذي أَنْشَأَ جَنَّاتِ مَعْرُ وشَاتِ وَ غَيْرَ مَعْرٌ وشَاتِ و النَّحْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلَفاً أَكُلُهُ وَ الزَّيتونَ والرُّمَّانَ متشاجهاً وَّغَيْرَ مُتَشَابِهِ كُلُوا مِن ثَمرِهِ إِذًا أَنْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِينَ "٣٠٥.

« كُلُوا مِن طَيبًاتِ مَا رَزَقْنَاكُم ولا تُطْغَوْا فِيه فَيَحِلٌ عَلَيْكُم غَضَبِي وَ مَن يَحْلِلْ عَلَيْه غَضَهِي فَقَدْ هَوَى»(٣١) .

« إِنِمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمُيْتَهَ والدَّمَ ولَحْمَ الحِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغِ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهُ غَفُور رَّحِيمٌ »(٣٢) .

والحكمة الإلهية في تحريم بعض أنواع العلعام على المسلم ، علمه سبحانه وتعالى بالأضرار الصحية التي تعود على بدنه من تناولها ، ومع ذلك ، ورحمة من الله على المسلم وخوفا على حياته من الذهاب جوعا ، أباح تناولها في حالة واحدة وهي حالة المضطر الذي يركب الصعب من الأمور لإنقاذ ما يجب عليه إنقاذه ، كأن يستبد الجوع بالإنسان ويهدده بالموت ولا يجد أمامه ما يدفع عنه الموت جوعا إلا هذا النوع من الطعام .

والاعتدال في الملبس والتزين من سمات السلوك الشخصى للمؤمن التقى وليس معنى الاعتدال هنا هو الحرمان مع القدرة أو لبس المهلهل المرقع من الثياب مع القدرة على لبس السليم اللائق منه . فإن الله قد أحل للمؤمن الملبس الطيب والتزين المعتدل اللى لايفقده وقاره أو يخرجه عن رجولته وعن جادة السلوك القويم ، وفي ذلك يقول أحكم القائلين :

« يَابَنِي آدم خُدُوا زِينتكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا واشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِينَ »(٣٣) . وذكر التزين عند الذهاب للمسجد يقصد به التحشم في الملبس واتخاذ مايناسب منه وقار المؤمن ، وأن يكون التحشم عادة ملازمة للمؤمن داخل المسجد وخارجه .

والحكمة فى فرض الاعتدال فى الملبس والتزين عصمة المؤمن من الغرور بمتاع الدنيا والزَّهو على الناس والتباهى بما عنده من مال ومتاع ، فضلا عن توقى حسد المحروم وحقده ، كما أن إسراف المؤمن فى التزين يخرجه عن سمة الرجولة التى خلقه الله عليها ، ويمسخها .

وتركز آيات القرآن الكريم على ملبس المرأة وتزينها بصفة خاصة ، لما فى المرأة من ضعف طبيعى تحاول التغلب عليه بجذب الأنظار إليها وكسب إعجاب الرجال بها ، وليبعدها عن مظاهر الفتنة والإغراء التي قد تنزلق بها وبالرجل إلى مهاوى الفحش والفجور ، وقد سبق أن بيّنا الحدود التي يجب أن تقف عندها المرأة في لباسها وزينتها ، ودعمنا قولنا بالمناسب من محكم آيات التنزيل .

هـ ومن أهم مظاهر السلوك القويم الذي يجب أن يكون عليه كل مؤمن ،
 تجنب الكبائر الأربع التي حرمها الله تحريما صريحا وبين أثرها الضار في خُلُقِ المسلم المؤمن ، وهي :

شرب الخمر ، ولعب الميسر ، وإتيان الزنا ، وممارسة الربا .

وفيها مافيها من أضرار بالغة تلحق بجسم فاعلها وعقله وإفساد نفسه وإفساد المجتمع ، فضلا عما فيها من دنس يلحق إيمان المؤمن وتقواه فتضعفهما وتجلب على صاحبها مقت الله وغضبه .

١ ـ فالخمر كل مشروب يؤثر في عقل الإنسان وتفكيره فيفسدهما مع علمه بذلك . ويطلق أهل الغرب عليها اسم المشروبات الروحية ، ولعلهم يقصدون بهذه التسمية أن شارب الخمر قد تجرد من إنسانيته وباع روحه للشيطان . . . فشارب الخمر يفقد وعيه ويتجرد من الروح الإنسانية فيتصرف بلا وعى فى فكره وقوله وعمله ، ويضل عن اتخاذ قرار حاسم أو أية خطوة سليمة .

. وسبق أن قلنا ان الإنسان يشترك مع الحيوان في تلك الغرائز التي تجعل منهما الة طيعة تتصرف فيهما على ماتهوى ، والإنسان الذي يتبع هوى نفسه وينقاد لنزعاتها إنما

يتصرف تصرفا لاشعوريا إزاء مايعترضه من مثيرات هذه الغرائز ، فيتخبط في سلوكه بلا وعي ولا تفكير ولا تدبير .

ولكن الله جلت قدرته وسمت حكمته ، وقد استخلف الإنسان على هذه الأرض لتعميرها ، قد وهبه أداة ضبط هذه الغرائز وتوجيهها إلى ماأراد الله لهذه الأرض من عمران . هذه الأداة هي العقل ، وهو نعمة اختص الله بها الإنسان وأكرمه دون سائر الحيوان ، فالعقل هو خير أودعه الخالق جسد الإنسان ليتدبر به أمره بما فيه الخير والسعادة له ولغيره من الناس .

وبغير هذا العقل ينقلب الجنس البشرى إلى قطيع من الحيوان الأعجم فهل لمؤمن أن يكفر بهذه النعمة ويضيعها بإتيان هذا المنكر الذي حرّمه ربه ؟

وماشرب الخمر إلا عصيان لأمر الله وكفر بنعمته .

لذلك كان شرب الخمر من أول المنكرات التي نهى الله عنها وحذر منها عباده المؤمنين ، وهي محرمة تحريما قاطعا في الإسلام :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ والْمَيْسِرُ والْأَنْصَابُ والأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَـلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(٣٤) .

إن شارب الخسر ، وقد افقدته عقله ووعيه ، ليتخبط في تفكيره وفي كلامه وفي حركاته ، إذْ تختلط في فكره صور الأشياء فيهذى في كلامه بما لايفهم وماليس له هدف ، كها أن شرب الخمر وإدمانها يتلف الشارب أعصابه فيفقد السيطرة عليها فيتخبط في حركاته ، فضلا عها يفقده من اتزان ووقار فيصبح عضواً غريباً وسط مجتمع إنساني صالح ، وموضع سخرية واحتقار الناس لما في سلوكه من خروج بين على العرف السائد وعلى الآداب العامة ، ويفقد ثقة الناس به ، فيرفضون التعامل معه في أية صورة من الصور ، وكيف يأمن عاقل لمدمن خرهوكل يوم في شأن ؟ بل إن من شاربي الخمر من يذهب به إدمانه لها إلى الانقلاب إلى وحش ضار ، إذ ينهال على من يوقعه سوء حظه في طريقه إلا في متناول يده سبا أو ضربا ، الأمر الذي ينعكس عليه هو أيضا بما هو أشد وأفظع ، وهو الجانب الضعيف في هذا وذاك ، وينتهى به الأمر إلى نبذ الناس له نبذ النواة ويبوء بكراهية الناس ومقاطعتهم له .

. يا ن اسرة عائلها مدمن خمر!

ي عسام مصالح أناس يتولاها شارب خمر !

زيه وبل مجتمع تولى أمره شارب خمر !

واذا مانصح شارب الخمر بتقوى ربه والإقلاع عن هذا المنكر النمس من البررات مالم ينزل الله بها من سلطان .

وبدر تارة يدعى بأن الخمر لاتؤثر في عقله أو وعيه أو سلوكه مهما عبّ منها . إلى الله قد يفخر بشربها مدعيا بأنه من القوة وثبات الأعصاب بحيث أنه لا يتأثر بها منها سرب منها ، ولا يدرى هذا البائس أنه من كثرة ماأدمن قد فقد شعوره وتبلد حسه ومانت فيه كل عاطفة إنسانية نبيلة ، ولبئس من لا يحس بما في الدنيا ولا يدرى هما حوله شيئا ، ولا خير يرجى منه .

وقد يدعى تارة أخرى بأن الخمر تفيده صحيا ، متمثلاً بقول ذلك الماجن الذي قال (وداون بالني كانت هي الداء) ، وهو في الواقع لا يخدع إلا نفسه فقد أثبتت الطبية الأثر السيىء للمشروبات الكحولية في جسم الإنسان .

ويدعى تارة ثالثة زوراً وبهتاناً ، فائدة الخمر له ، ويقتطع في سبيل تبرير ادعائد. هذا ، جزءا من آية قرآنية ويغمض عينيه عن بقية الآية :

فهـلا يكفى تحريم العليم الخبـير شرب الخمـر تحريمـا قاطعـا ، قلت كميتها أو كثرت إذْ يقول سبحانه وتعالى :

" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحَمْرِ والمَيْسرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وإثْمُهُما أَكبَرُ مِن نَفْعِهما وَيَسْأَلُـونَكَ مَاذَا يُنْفقُونَ قُل العَفْوَ كَـذِلَك يُبَـينُ اللهُ لَكُم الآيَاتِ لَعَلَّكُم نَتَفكُرُونَ "(٣٥).

ومن انعكاسات شرب الخمر في سلوك شاربها ، انصرافه بهما عن ذكر ربه وتقواه ، وعن الصلاة له والتقرب منه ، فضلا عما يبثه من فتنة بين الناس ، وينهى الله عباده عن شرب الخمر محذرا ومهددا .

« إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقَعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَانْيُسرِ ويَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَن الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنْتَهُونَ »(٣٦) .

٢ ـ الميسر: وهو كالخمر رجس يوسوس به الشيطان في الإنسان فيستسلم له ضعيف الإيمان ، وهو تدنيس لمال لاعبه ، يجلب عليه الشر ويذهب عنه الخير. ويصرف العبد عن ذكر ربه وتقواه . وقد حرمه الله لمخالفته لما يجب أن يكون عليه المؤمن من صلاح وتقوى وخلق كريم ، ولما فيه من كفر بنعم الله وعصيانه .

فلاعب الميسر يصرف وقته في هذه اللعبة وينسى واجب الصلاة لربه ، فضلا عها في هذه اللعبة من أكل أموال الناس بالباطل ، وتدنيس مارزقه الله من مال إذ ينفقه فيها لاينفع بدلا من إحسان صرفه كسد حاجة عياله أو مديد المساعدة للفقير المحروم .

ولاعب الميسر إذ يطمع فى زيادة ماله بهذا الكسب الحرام إنما يخدع نفسه ، فلعب الميسر خسارة محققة للكاسب والخاسر على السواء فالكاسب يطمع فى المزيد فيصر على اللعب ويمعن فيه وكلما كسب ازداد إصراراً على الاستمرار فى اللعب وقد يخسر فى مرة ماكسبه فى مرات ، والخاسر يصر على استرداد ماخسر من ماله ، وهكذا يدور كلا اللاعبين فى حلقة مفرغة لا نهاية لها ولا مخرج منها ولا خلاص .

فلعب الميسر من عوامل هدم المجتمع وفساده ، فالكاسب يزداد قسوة وبلادة حس والخاسر يزداد حسداً وحقداً وكراهية للكاسب . وقد ينزلق هذا المنكر بمؤتيه فتمتد يده لمال الغير بالسرقة أو النصب والاحتيال ، ولمال الدولة بالاختلاس والتزوير ، الأمر الذي يوقعه في النهاية في شر فعلته جزاء وفاقاً له في الحياة الدنيا ، ولعداب الآخرة أكبر وأشد وبالا .

٣ ـ الزنا : وهو وطء الرجل المرأة بغير وجه شرعى ، وهو منكر حرمه الله على كل مؤمن ويحاسب مؤتيه حساباً عسيراً ، كها تحاسب المرأة إذا آتته طائعة مختارة .

والزنا فضلا عن انحداره بصاحبه إلى مرتبة البهائم العجماوات التى تنساق سوقا وبلا وعى إلى اشباع غريزتها الجنسية . فهو من الكبائر التى لاتليق بالجنس الإنساني الذى استخلفه الله فى أرضه ليعيش فيها بالحق والعدل والصلاح والتقوى ، لا بالفسوق والعدوان .

والحكمة في تحريم الزنا هي حفظ الأنساب وتنظيم العلاقات الأسرية ، حتى لا يولد مولود لا يعرف أبا ينتسب إليه وله عليه حقوق ، كما أن في تحريم الزنا حفظا لحقوق الغير ، فلا يعتدى إنسان بهذه الفعلة المنكرة على حق غيره عدوانا يؤدى إلى تفكك روابط الأسرة ، وبالتالى تفكك روابط المجتمع وانحلاله وبث الفوضى فيه .

وقد شاء الله بواسع علمه وعظيم إحاطته بطبيعة النفس البشرية ونوازعها وحفظاً للنوع الإنساني من الانقراض ، تنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة بهذا الرباط الشرعى المقدس ، ألا وهو تزاوج الرجل والمرأة الذي أقره الله وأمر به في كل شرائعه ووضع له من الأصول والشروط والضوابط مايحفظ به حقوق كل من الزوجين . وزاد في تكريم المؤمن المسلم فأحل له الزواج بأكثر من واحدة حتى الرابعة تحصينا له وحفاظا عليه من الانزلاق إلى جريمة الزنا ، وحتى لا يكون لمؤمن بعد ذلك عذره إذا ماسولت له نفسه ارتكاب هذه المعصية ، ومن فعلها بعد ذلك فائمه على نفسه وجزاؤه من جنس عمله ، لذلك حرم الله الزنا تحريما قاطعا وصريحا :

« وَلاَ تَقْرَبُوا الزُّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً »(٣٧) .

وإذْ حرم سبحانه وتعالى الزنا فقد أورد من العقوبات على مؤتيه أشدها ، وبين في هذا العقاب نوعه وطريقة تنفيذه ، ليكون في ذلك عبرة لمن يعتبر .

« الزِانِيةُ والزَّانِ فاجْلِدوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهَمَا رَأْفَةً في دِينِ الله إِنْ كُنْتُمْ تُوْمِنُونَ بالله وَاليَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٣٨) .

كها حرم على المؤمن الزواج من زانية ، وحرم على المؤمنة الزواج من زان ، حتى لا يجتمع الطيب والخبيث ولا يتعايشا ، تطهيرا للطيب من أي دنس :

« الزَّانِ لاَيَنْكِحُ إلاَّ زَانِيةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَيَنْكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أَوْمُشْرِكُ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُوْ مِنِينَ ٣٩٠»

« وَ الَّذِينَ لاَيَدْعُونَ مَعَ الله إِلَمًا آخَرَ ، ولاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثاماً »(٤٠) .

وجعل الله الزانية أكبر إثما إذا ماكانت متزوجة ، فهى قد تركت ماأحل الله لها ورغبت فيها حرّم ، وخانت عهدها لزوجها ، فهى إذن نجس يجب تطهير المجتمع

منها ، وعلى أولياء أمرها عزلها عن المجتمع إلى آخر حياتها ، وتقول الآية في هذه الزانية :

« والَّلاتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ المَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلاً »(٤١) .

٤ - الربا : وهو لغويا معناه الزيادة والنمو ، والربا بالمعنى الدينى زيادة مال شخص وتنميته باضافة مال الغير إليه بغير حق ، وطريقته أن يُقرض شخص موسر آخر معسرا مالاً لأجل معين ثم يسترده مضافا إليه جزء من مال المقترض ، وهو ما حرمه الله تعالى ، وجعله من دلائل عدم التقوى .

« يَماأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَمْأَكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً واتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(٤٢) .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّوْ مِنِينَ »(٤٣)

والحكمة فى تحريم الربا هى نفس الحكمة فى فرض الزكاة وبذل الصدقات على كل قادر وفى كل وقت ، وعن طريقهما يربى الله مال المزكى والباذل بجزيد من المال الحلال والجزاء الحسن :

« يَمْحَقُ الله الرَّبَا وَيُرْبِ الصَّدَقَاتِ وَالله لاَ يُحِبُّ كُلُّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ »(٤٤) .

« وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ الله وَمَا آتَيْتُمْ مِّنْ زَكَاةٍ تُريدُونَ وَجْهَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الْلَضْعِفُونَ»(٥٠) .

أما أخد الربا لكى يزداد الغنى غنى والفقير فقرا ، فهو ما يتنافى مع المجتمع المثالى المتكامل ، ذلك المجتمع الذى يعين فيه الموسر أخاه المعسر توثيقا لأواصر هذا المجتمع وتكافله وقوته .

« وَأَخْذِهمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيهًا "(٢٦) .

ولا يشفع في الربا قول أصحابه وادعاؤ هم أنه نوع من التجارة . فالتجارة شراء بثمن وبيع بثمن يزيد قليلا عن ثمن الشراء ، وما المال إلا وسيلة لهذه التجارة

ولا يصح أن يخون هو موضوع التجارة فربح التجارة رزق حلال يحصل عليه صاحبه عن طريق حرفة تسهفة وضرورة من ضرورات المجتمع ، وبين عمليتي الشراء ولليع تجري عددة عمليات وتتهيأ مجالات واسعة لبقية الناس للعمل الشريف والكسب الحلال .

لذلك بسفه محكم التنزيل رأى آكلى الربا الذين يرون فى الربا تجارة ويقول فيهم :

و الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَيَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ نَالُوا إِنَمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ الله البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى الله وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالْأَهُ اللهَ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَاللهُ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَاللهُ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

ومن مظاهر سلوك المؤمن الشخصى الاعتدال في الإنفاق ، وهو بذل الإنسان ماله نقدا أو عينا للحصول على كسب مادى أو معنوى لا يمكنه الحصول عليه إلا ببذل المال.

وبقدر الاعتدال في هذا البذل وصلاح الغرض منه بقدر ما تكون سلامة سلوك المنفق ، وبقدر إحسان الإنفاق بقدر ما تكون سلامة النتيجة المرجوة وكسب رضا الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى النَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾(^4) .

والمقصود بالإنفاق في سبيل الله أن يذكر المنفق ربه ويتقيه ، فـلا يسرف في الإنفاق فيها لا جدوى منه ولا نفع ، ولا ينفق ماله في معصية ، بل ينفقه فيها يرضى الله ويما أمر الله ، فالإنفاق لإغاثة الملهوف جهاد بالمال في سبيل الله ، وعون الغنى للفقير بالمال جهاد في سبيل الله وبذل المال لمحاربة المعتدين جهاد في سبيل الله ، فيطهر الله ماله ويربيه ويضاعف كسب المنفق بما أنفق :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِاثَةُ حَبَّةٍ وَالله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٩) . وفى إنفاق المؤمن ماله للدفاع عن إخوانه وعن عقيدته ، إنفاق في سبيل الله :

« لاَ يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِ الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهَ يِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً يَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَاللهِ الْخُسُنِي وَفَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيبًا ﴾ (٣٠٠) .

وفى بذل المال للمحتاج المعدم ومسح كرب الملهوف إنفاق فى سبيل الله . وفى بذل المال لفتح المدارس لتعليم أبناء المسلمين . وفى إقامة المستشفيات لعلاجهم ، وفى إقامة الملاجىء لإيواء الأيتام والمعدمين والشيوخ والعجزة وفى إقامة مساجد ليصلى فيها المسلمون ، وفى إقامة المشروعات الاقتصادية التى تتيح للناس ما بناجون إليه وليشتغل فيها الوف العاملين ويعيشوا هم وذووهم عيشة كريمة ثن غذا إنفاق فى سبيل الله وبه يكتسب المنفق رضا ربه ورحمته وتوفيقه .

" نَيْسَى البِرَّ أَن تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلِ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالبَّيْسَ وَاتَى المَالُ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَ وَاليَّتَامَى وَالبَّيْسَ وَآقَ المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَ وَاليَّتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرَّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزُّكَاةَ وَالمُوفُونَ بَعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَّأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَّأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ وَمَدَهُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَّأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ وَمَدَةُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَّأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ وَمَدَةُوا وَالْعَلَى اللَّهُ اللَّهُ وَالمَّالَ عَلَى اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ وَالمَّالَ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ وَالْعَلَيْنَ وَالْمَالِينَ وَالْعَلْمَ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَالْمَالِينَ وَالْمَالَاقَ وَالْمَالَاقُولَ اللَّهُ اللللَّالَ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ الْمُنْ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُؤْمِلُولُ اللَّهُ اللللْمُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُؤْمِلُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّه

وبيس في سبيل الله بذل المؤمن ماله تحقيقا لمآرب دنيوية نهى الله عنها في كتابه الكريم ، كحب الظهور والتسلط أو الإذلال بالمال ، أو بالظهور أمام الناس بما ليس فيه ، هذا الإنذاق لا يقبله الله قبولا حسنا بل يذمه ويرفضه :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينِ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالَنِّ وَالاَّذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَـاءَ النَّاسِ وَلاَ يُوْ مِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرِكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسْبُوا وَالله لاَ يَهْدِى القَوْمَ الكَافِرِينَ »(٢٠).

ويرشدنا الأدب القرآن إلى أقوم طرق الإنفاق والعطاء فـلا تعالى في العـطاء ولا خدش لكرامة وحياء من يأخذ .

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ في سَبِيلِ الله ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلاَ أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهُمْ وَلاَ خَوْفُ عَلِيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ »(٥٣) .

وخير من العطاء الذي يتبعه أذى ، كلمة طيبة يبذلها المؤ من ابتغاء مرضاة الله : « قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللّهُ غَنيٌّ حَلِيمٌ »(٥٤) .

ويذم الله من اكتنز المال وحبسه عن الإنفاق وأمسكه عن البذل ، لما في هذا الاكتناز من جشع مذموم ، ولما في حبس المال عن التداول من تعطيل لعجلة النشاط الاقتصادى وإضعاف لقوى المؤمنين ، فضلا عما في ذلك من معصية لأمر الله بالتكافل والتعاون بين المؤمنين :

«الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَـاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ وَأَعتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا »(°°) .

هوامسش البساب الثالث والفصسل الأول

(١) الإسراء ٩ (٢) الأنعام ١٥٣ (٣) فاتحة الكتاب ٢ - ٧ (٤) التوبة ٧١ (٥) فصلت ٤٦ (٦) البقرة ١١٢ (٧) الحجرات ١٢ (٨) العصر ٢، ٣ (٩) النحل ١٢٥ (١٠) الإسراء ٣٦ (۱۱) الحجرات ٦ (١٢) البقرة ١٧٧ (۱۳) آل عمران ۱۸۹ (١٤) البقرة ٥٤ (١٥) آل عمران ١٣٤ (١٦) المزمل ١٠ (۱۷) الشوري ۳۷ (۱۸) النحل ۱۲۹ (١٩) الشورَى ٣٩ (۲۰) الشوري ۲۱ 184 , 184 = النساء ١٤٢ (٢٢) البقرة ٤٤ (۲۳) المائدة ۱۱۹ (٢٤) الأحزاب ٢٣ ، ٢٤ (٢٥) البقرة ٢٠٤ (٢٦) البقرة ١٤ (۲۷) البقرة ۱۰ (۲۸) البقرة ۱۹۸ (۲۹) المائدة ۸۸ (٣٠) الأنعام ١٤١ 小山 (四) (۳۲) النحل ۱۱۵ (٣٣) الأعرآف ٣١ وفى داخل أى مجتمع حيوانى تكون القوة هى العرف السائد ، فيعتدى القوى فيه على الضعيف ، ويسلبه ما فى يده وقد يسلبه الحياة نفسها ، وهذا ما يعرف بشريعة الغاب .

أما الجنس البشرى فقد ذلل الله له الأرض وميزه بالعقل الذى يدبر به أمـره ويرشده إلى طرق استغلال مواردها الطبيعية من نبات وحيوان ومعدن .

غير أنه كثيرا ما تتعارض المطالب والرغبات بين أفراد أو جماعات الجنس البشرى ، وقد يلجأ القوى إلى اغتصاب ما بيد الضعيف وقد يتمسك المعتدّى عليه بحقه فينشب القتال بين الأفراد وتشتعل الحروب بين الجماعات ، لذلك تعارفت كل جماعة من الجماعات البشرية على وضع طائفة من القواعد والأسس نظمت بها العلاقات الواجبة بين أفرادها تنظيها يعطى كل ذى حق حقه ويلزمه مقابل ذلك بأداء بعض الواجبات ويعتبر من خالف هذه القواعد خارجا على ما تعارفت عليه الجماعة ، وهذا هو ما يسمى بالقانون .

فإذا كان هذا القانون من وضع جماعة بعينها وتأخذ به أفرادها سمى بالقانون العام . وإذا كان من وضع عدة جماعات وتأخذ به كل جماعة فى علاقاتها مع غيرها من الجماعات ، سمى بالقانون الدولى .

ومع كل هذه التنظيمات والقوانين ، ظل النزاع منذ الأزل قائما بين أفراد الجماعة الواحدة ، وبين الجماعات بمختلف أوطانها .

وهذا هو أكبر ما ابتليت به البشرية منذ أن كان بنو آدم على سطح هذه الأرض . ومع كل هذه التنظيمات والقوانين الأرضية ، ظل التنازع والخلاف والقتال منـذ الأزل قائما بين الأفراد ، وقائما بين الجماعات .

لم يفت القرآن الكريم هذه الفوضى القائمة بين أفراد البشر ، وبين جماعاته ، بل بين فى التشريعات السماوية الحكيمة ما يكفل القضاء عليها إذا ما وعاها الناس وآمنوا بحكمتها وأخذوا أنفسهم بها .

وإذْ شرّع الله ما شرع للسلوك الشخصى للمؤمن ، إنما يعدّه ليكون عضواً نافعاً وصالحاً في تعامله مع بـاقى أفراد مجتمعـه الذي يعيش فيـه وترتبط مصــالحه

بمصالحهم بحيث تقوم العلاقات والتعامل والتعايش بين أفراد المجتمع على أساس الحق والعدل والمساواة ، وهذا ما يعرف بالسلوك الاجتماعى الذى يجب أن يأخذ به نفسه كل من آمن بالله واتقاه .

وإن تماسك بنيان أى مجتمع بشرى وتعاونه وسيلة لبقائه واستمراره وارتقائه وكل هذا رهن باتباع ما شرع العليم الخبير للبشر كافة .

يبين الله سبحانه وتعالى فى محكم تنزيله مقومات هذا السلوك الاجتماعى مبتدئاً عبد أن تكون عليه العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة ، إلى ما يجب أن تكون عليه العلاقة بين أفراد المجتمع كله . ونظمت آيات قرآنه الكريم أسس الحياة الاجتماعية البشرية الكريمة ، والتعايش السلمى بين أفراد المجتمع ، يتساوى فيه جميع الأفراد فيا لهم من حقوق يؤدون مقابلها ما عليهم من واجبات ، فلا عدوان إلا بالحق ، ولا تسلط ظالم من قوى على ضعيف

أولا: القرآن والسلوك العائلي:

يتناول هذا السلوك العلاقة بين الرجـل وزوجه ، ثم بينهـما وبين أبنـائهما . وبصلاح البنيان الأسرى صلاح الأمة كلها ، وما الأمة إلا مجموع هذه الأُسَر :

۱ - سلوك الزوج مع زوجته : ركز القرآن الكريم على واجبات الزوج نحو زوجته ، لأنه أقوى الطرفين بما ميزه الله من صفات جسدية وعقلية ، ولأنه فى الغالب.
 يكون هو البادىء بالعدوان :

« الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النَّسَاءِ بَمَا فَضَّلَ الله يَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضِ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمِ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ الله وَاللاتِي تُخَافُونَ نُشُوزَهُنَ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً فَعِظُوهُنَ وَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ الله كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا »(١).

والزواج عقد مكتوب وعهد متعارف عليه بين رجل وامرأة على أن يتعايشا في بيت واحد وأن الزواج شركة بينهما ، لكل منهما وظيفته وحقوقه وواجباته فيها :

الزوج يعول الأسرة ويدافع عنها ، والزوجة تنجب لـ الأولاد وتتعهدهم بالرهاية والتربية ، فضلا عن رعاية شئون البيت بما يحقق راحة وسعادة الزوجين

أولادهم وينفعون بهم مجتمعهم ، فينشئونهم على تأدية واجب العبادات نحوربهم ، وعلى الأخذ بالمعروف والانتهاء عن المنكر ، وأن يكون الآباء في كل هذا القدوة الصالحة لأبنائهم في سلوكهم حتى يكون لنصحهم أثره الطيب ولكلمتهم قيمتها عند أبنائهم .

وهذا لقمان يعظ ابنه بأداء حق الله عليه بالعبادات الواجبة وينصحه بالتجمل بالصبر والثبات في الشدائد والتواضع أمام الناس :

« وإِذْ قَـالَ لُقْمَانُ لِإِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَـابُنَى ۚ لاَ تُشْرِكُ بِـاللهِ إِنَّ الشَّـرْكَ لـظلْمُ عَظِيمٌ *(١١) .

« وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ للِنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلُّ مُخْتَالٍ ﴿ فَخُورِ هُ(١٢٠) .

ويكشف الخبير الحكيم للمؤمنين طبيعة النفس البشرية وما يعتمل فيها من أهواء ليكون الآباء على بصيرة بهذه الأهواء التي تجمح أحيانا بصاحبها فيأى تصرفات تضرّ به وبأبنائه ويضرب لنا ذلك مثلا سيرة يوسف عليه السلام ، إذ ميزه أبوه على أخوته بمزيد من المحبة والإعزاز ، فأثار بذلك غيرة أخوته منه حتى تآمروا على قتله لولا أن نجاه ربه :

« لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ للِسَّائِلِينَ »(١٣) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَل مَّبِينِ »(١٤) * «اْقُتلُوا يُوسُفَ أو الْمُرْحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ »(١٥).

٣ - وعلاقة الابن بوالديه يجب أن تقوم على الاحترام والتقدير والحب لما تحملا من تعب ونصب فى سبيل تربيته ورعايته ، بل لقد جعل الله طاعة الابن لوالديه فى المرتبه الثانية بعد طاعة الله الذى خلقهم وسواهم ورزقهم ، وفى ذلك تكريم من الله عز وجل ما بعده تكريم :

« وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَسرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَّا أُفِّ وَلاَ تَهْرَّهُمَا وَقُلْ لَهُمَّا قَوْلاً كَرِيماً »(١٦) * « واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْهَةِ وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً »(١٧) وليذكر الأبناء فضل والديهم عليهم ، وخاصة ما لاقته أمهاتهم من جَهْدٍ ونَصَبٍ في حملهم ووضعهم ورضاعتهم :

« وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتُهُ أُمُّهُ وَهْنَا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُوْ لِي وَلَوَالِدَيْكَ إِلَى اللهَّكُو لِي وَلَوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرُ »(١٨) .

« وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتُهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعْتُهُ كُرْهاً وَخَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتْكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَى وَعَلَى وَالِدَى وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِيتِي إِنِّي تُبْتُ النَّكَ وإِنَّ مِنَ ٱلمُسْلِمِينَ »(١٩٧) .

فها أحرى الأبناء برد بعض دَيْنهم لآبائهم ، وما أجدرهم بطاعتهم والتماس رضاهم ، وما يريد الآباء والآمهات لأبنائهم إلا الخير والسعادة . فها أقسى ذلك العاق الذي يعصى والديه ، وهما لا يريدان منه إلا أن يكون عند حسن ظنها في الوفاء لهما والبر بهما ، وما أضل الولد الذي يدعوه والداه إلى الاستقامة والتقوى فيأبي إلا العوج والضلال :

« وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفَّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنَى أَنْ أُخْرَجِ وَقَدْ خَلَتِ القُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ ، إِنَّ وَعُدَ اللَّهِ حَقَّ ، فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٠) « أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِي أُمَم قَدْ خَلَتْ مِن قَبلِهِم مِّنَ الجِنِّ والإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِدِينَ » (٢١) .

حالة واحدة لا طاعة فيها على ولد لوالديه ، وهى حضها له على الكفر والشرك بالله ومعصيته ، إذْ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وحتى في هذه الحالة ومع عدم طاعة الأبناء للآباء ، يجب على الأبناء الرد بمعروف ، مع إصرارهم وتمسكهم بطاعة الله :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آباءكُمْ وإخْوَانَكُمْ أُولِياءَ إِنِ اسْتَحَبُوا الْكُفْرَ عَلَى الإَيَانِ وَمَن يَتَوَلِّمُمْ مِّنْكُمْ فَاولَئِكَ هُمُّ الظَّلِلُونَ »(٢٢) .

« وإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فَى السُّنْيَا مَعْـرُوفـاً واتَّبِـعْ سَبِيـلَ مَنْ أَنْـاَبَ إِلَىّٰ ثُمّ إِلَىٰ مُرْجِعُكُمْ فَأُنبُكُمْ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٢٣) .

ومن الأداب الاجتماعية الإسلامية ، ألا يزور مؤمن بيت أخيه المؤمن في غيابه إلا في حالات معينة لا يجد معها مفراً من هذه الزيارة ، كإبلاغ أمر هام أو لطلب مُلِح . وفي هذه الحالة فقط له أن يدخل ، على أن يختصر الزيارة ، وأن يكون حديثه مع أهل رب البيت من وراء حجاب ، حتى لا ينزغ فيهم الشيطان بما يسىء لرب البيت أويحرج تقوى الزائر .

وإذا دُعى مؤمن إلى طعام عند صاحب له ، فعليه أن يلبى الدعوة شاكرا ، فإذا أكل كان عليه أن يستأذن للانصراف ، وإذا كانت الزيارة من غير دعوة سابقة فعلى الزائر ألا يطيل المكث انتظارا لموعد طعام رب البيت وأهله الذى قد لا يكون حسب حسابا لزائر ، وقد يستحى أن يبدى تبرمه وضيقه بإطالة هذه الزيارة وفى ذلك تقول الآية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاتَدْخُلُوا بَيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ولكنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَاذْ خُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَديثٍ إِنَّ فَاظِرِينَ إِنَاهُ ولكنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْ خُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَديثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيِّ فَيَسْتَحْى مِنْ اللَّهُ لا يَسْتَحَى مِنَ الْخَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن مَنَاعًا فَاسْالُوهُمْنَ مِنْ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن مَنْاعًا فَاسْالُوهُمْنَ مِنْ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تَوْكُوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَن تَنْكِحُوا أَزُواجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ غِنْدَ اللهِ عَلَيْ اللهِ وَلاَ أَن تَنْكِحُوا أَزُواجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ غِنْدَ اللهِ عَلَيْ اللهِ اللهِ وَلاَ أَن تَنْكِحُوا أَزُواجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ غِنْدَ اللهِ عَلَيْ

ورغم أن الآية خصت أسلوب زيارة بيوت النبى بما أراد لهذه الزيارة من طهر وتوقير فهى دليل عمل ومرشد حكيم للمؤمنين كافة في آداب الزيارة .

٣- ويحدد لنا القرآن أساليب السلوك القويم التي يجب أن ناخذ بها أنفسنا في
 بجالسنا الخاصة ومجالسنا العامة :

فلا يليق بمؤمن أن يتسابق لاتخاذ مركز الصدارة بغير حق فى أى مجلس ، بل عليه مراعاة من هم أكبر منه سنا وفضلاً ، ومن هم أكثر منه علماً أو مقاماً فعليه أن يضع نفسه فى مكانه المناسب ومركزه الطبيعى فى هذا المجلس فيتحاشى بحسن سلوكه استنكار الناس له واستهجانهم لمسلكه ورحم الله امراً عرف قدر نفسه وأقدار غيره من الناس وقد جاء فى القرآن الكريم :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَينَ يَدَى ِ اللهِ وَرَسُولِهِ واتَّقُوا اللهُ إِنَّ اللهُ سَمِيعٌ عَلَيمٌ ﴾ (٢٩) .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ الله لَكُمْ وإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ الله الَّذِينَ آمنُوا مِنْكُمْ والَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ والله بما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ »(٣٠) .

وإذا ما دار الحديث في المجلس فليكن حديثاً هادئاً هادفاً خفيض الصوت ولا يجهد سمع الناس ، ولا يحاول متطفل أن يظهر نفسه بغير حق ويثبت وجوده ويفرض رأيه برفع صوته ظنا منه أنه بذلك إنما يلفت الأنظار أو يملك ناصية الموقف أو يكسب رأيه قوة إقناع ، وهو في حقيقة أمره إنما يثير اشمئزاز السامعين ويكشف بنفسه تفاهته وسخف رأيه وقد يضيع صوت الحق ، بما يثيره هذا المتطفل من جلبة وفوضى ويأمرنا العزيز الحكيم بخفض الصوت في حضرة من هم أكثر علما وأعظم مقاما :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَـوْتِ النَّبِيِّ ، وَلِاَ تَجْهَروا لَـهُ بِالْقَولِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لَبَعْضِ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ » (٣١) ﴿ إِنَّ اللهِ قَلُوبَهُمْ للبَّقْوَى لَمُمْ الَّذِينَ يَغُضُّونَ الله قُلُوبَهُمْ للبَّقْوَى لَمُمْ الَّذِينَ يَغُضُّونَ الله قُلُوبَهُمْ للبَّقْوَى لَمُمْ مَعْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ »(٣٢) .

3- وليكن اجتماع المؤمنين على خير ، وأن يكون حديثهم لصالح مجتمعهم ، هدفه إصلاح أحوال المجتمع الإسلامي وبحث مشاكله ، والتشاور في حلها بما يرضى الله وبما يزيل عنهم عوامل الفرقة والاختلاف ، ويعلى من شأنهم ليكون المؤمنون مسلمين حقا ، والإسلام يدعو إلى السلام والوئام ، كما يدعو إلى إصلاح ذات البين بين فردين أو طائفتين من المؤمنين نزغ فيهم الشيطان بالكفر بالله وعصيان أوامره ، وليكن اجتماع المؤمنين على أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، والبعد عن اللغو الفارغ الذي قد يوسع شقة الخلاف في الأمة الإسلامية بدلا من زالته ، وحتى المعدون والبغضاء محل المحبة والوئام ، ولنعمل بما جاء في قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاتَتَنَاجَوْا بِالإِثْم ِ والْعُدْوَانِ وَمَعصِيةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بالبِرِّ وَالتَّقْوَى ، واتَّقُوا اللهَ الَّذِي إلَيْهِ تُحْشَرُونَ»(٣٣٠) .

« لاَخَيْرَ فِي كَثِيرِ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بَصَدَقَهٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَـيْنَ النَّاسِ ، وَمَن يَفْعَلَّ ذَلِكَ ابْتَغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسوْفَ نُؤتَيهِ أَجْراً عَظِيماً »(٣٤) . « الَّذِينَ يَتَرَبُّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فتح مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ للْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمؤْمنينَ فَالله يَحْكُمُ بَينَكُمْ يَوْمَ اَلقيامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللهَ لِلكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنينَ سَبِيلًا »(٤٤) .

« مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَوُّ لاَءِ ولا إِلَى هَوُّ لاَءِ ، وَمَن يُصْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَه سَبيلاً ،(٤٥) .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيدِيهِمْ ثَمَّ جَاءُوك يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِن أَرَدْناً إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً "(٤٦) . « أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ الله ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهم وَ عِظْهُمْ وَقُلُ لُّمُمْ فَى أَنْفسهمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾(٤٧) .

ومن المنافقين من يستجي من الخلق ولا يستحي من الخيالق ذي الانتقام ، فيتخذ أمام الناس مظهر التقى الورع الخاشع لله في عباداته وهو في ضلال مبين ، والله كاشف أمره للمؤمنين :

﴿ إِنَّ المُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهِ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصلاَّةِ قَامُـوا كُسَالَى يُرَاعُونَ الناسَ وَ لاَ يَذْكُرُونَ الله إلاَّ قَلِيلاً ﴿ ٤٨ ﴾ .

هؤ لاء هم الذين ماواهم قاع جهنم يوم الحساب العسير، ولهم فيها أشد العذاب جزاء وفاقا لكفرهم بالله وهزئهم بالدين وإفسادهم في الأرض ، وحق فيهم قوله تعالى :

« إِنَّ الْنَافِقِينَ فِي الدُّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنِّ تَجِدَلَهُم نَصِيراً» (٤٩٠) « بَشِّرِ المُنَافِقِينَ بِأَنَّ هُمْ عَذَابِاً ٱلْبِياً آلِيماً ﴿ ٥٠ . ﴿ اللَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ آؤلياءَ مِن دُونِ المؤ مِنين أَيَبتغُونَ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لله جَمِيعاً »(٥١) .

٧- والمؤمن المعتز بإيمانه ، لايصاحب ولا يجالس من هم دونه إيمانا أو علما ، لا - ترفعا ولا استكبارا ، بل لأنهم لاخير يرجى من مجالستهم ولا جدوى في الحديث إليهم ولا هم على استعداد للاستماع إليه ، وليست لديهم النية للإفادة من علمه وتقواه لأن الله قد طبع على قلوبهم الكفر بسوء نيتهم وعنادهم ومكابرتهم ، فعلى المؤمن عدم مخالطتهم أو محاولة موعظتهم ، لأنه سيلقى منهم عنتا واجهادا لا طائل وراءهما بل قد يسمع منهم ما يؤذى إيمانه وتقواه أو يجرح عقيدته بغير حق ، إمعانا منهم فى اللغو الفارغ والكراهية البينة .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنتُمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْواهِهِم وَ مَا تَّخْفِى صُدُورُهمْ أكسبَرُ قَدْ بيَّنَا لَكُمُ الآياتِ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُ وَنَ »(٥٢) .

فهؤلاء لا أمن للمؤمن عندهم ولا أمان يظهرون له مالا يبطنون ، يكاد بغضهم للمؤمنين أن يقفز من عيونهم ، ويفلت من بين شفاههم الحسد والحقد على ما أتى الله المؤمنين من نعم الهداية والرضا والاطمئنان ويتمنون زوال هذه النعم عن المؤمنين ويكيدون لهم ويتآمرون عليهم ، والله خير حافظ من كيدهم وكاشف ما فى صدورهم ، ليأخذ المؤمنون منهم حذرهم :

«هَا أَنْتُمْ أُولاَءِ تُحَبِّونَهُمْ ولاَ يَحْبُونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالكتِابِ كُلِّه وإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وإِذَا خَلُوا عَضُوا عَلَيْكُمْ ، إِنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ وإذَا خَلُوْا عَضُوا عَلَيْكُمْ ، إِنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصَّدُورِ »(٥٣) . « إِنْ تَمْسَسْكُمْ حسنةٌ تَسُوْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وإِن تَصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ الله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ »(٥٤) .

-- وعلى المؤمن ألا ينساق فى حديثه مع تيار الإشاعات الكاذبة المغرضة التى ينفثها المنافقون فى المجتمع الإسلامى ، ابتغاء مصلحة عاجلة ، وعليه أن يفسد هذه الإشاعات ولا يكون بوقا من أبواقها ، وعليه أن يحصرها فى أضيق نطاق ويقتلها فى مهدها ولا يكون وسيلة لتفشيها ، وعليه أن يقول الحق والكلمة الطيبة التى يريد بها وجه الله ، والله الحق الطيب يجذرنا من هذا الكذب وهؤلاء الكذابين .

« فَلاَ تُطِع الْمُكَذِّبِينَ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٥٥) * وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مُشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَّنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ "٥٦٥) .

ويأمرنا بأن نأخذ في سلوكنا الاجتماعي بالحكمة والمجاملة ماداما يؤديان لإحقاق الحق .

« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ واْلَمُوعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهُمُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْلُهْتَدِينَ »(٥٧) . « أَلَا تَرَ تَكُفْ ضَرَبَ الله مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبة كَشَجْرَةٍ مَلِيَّةٍ أَصْلُهَا قَابِتُ رَفْرْعُها فَي السَّاءِ * تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَ حِينٍ بِإِذْنِ رَجًا وَيَضْرِبُ الله الأَفْشَالَ لَلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ بِتَذَكَّ وِذِ ﴿ (٥٨٠) .

ُ « ذَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الإِحْسَانُ »(٥٩) .

1 - ومن الأدب القرآنى المفروض على كل مؤ من صدق إيمانه ، حفظه عهده مع الناس بعد عهده مع الله ، وحفظ الأمانات وردها لأصحابها كاملة ، فحفظ العهود والأمانات وصدق الكلمة هما عماد الثقة والترابط والقوة داخل المجتمع الإسلامي . فمن عاهد الناس إنما يعاهد الله ويشهده على الوفاء بما عاهد ، ومن يؤدّى الشهادة بالحزر والعدل إنما يشهد الله على مايقول ، فليؤدها بعيدا عن الموى أو متأثراً بشخصيات من يشهد لهم أو عليهم ، بل عليه أن يقول الحق ولا يخشى فيها يقول لومة لائم ، ولو كانت ضد أقرب الناس وأحبهم إليه فلا يأخذ جانب القوى بذيز حق خوفا منه ، ولا يشهد زورا ضد ضعيف استهانة بشأنه . والله يحب المقسطين .

« وأَوْنُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَادْ جَعَلْتُمُ اللهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَاتَفْعَلُونَ »(٦٠) .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ الله شُهَدَاءَ بالتِسْطِ وَلاَيَجْرِمَنَّكُمْ شنَئانُ قَوْم عَلَى الْاتَعْدِلُوا اعْدِلُوا هْوَ أَقْرَبُ للتَّقْرى واتَّقُوا الله إنَّ الله خَبير بَمَا تَعْملُون (٦١) .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِنْكَ وَمَنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنهُ بِدِينَارٍ لَا يَؤَدِّهِ إِنْكُ إِلَّا مَادْمْتَ عَلَيْهِ قَائِياً ذَلِكَ بِأَنْهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّينِ سَبِيلً وَيُقُولُونَ عَلَى اللهَ اللهَ عَلَيْهِ وَاتَقَى فَإِنَّ الله عُجْبُ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٦٣) ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ واتَقَى فَإِنَّ الله عُجْبُ اللهِ عَلَيْهِ وَاللهِ عَلَيْهِ اللهِ اللهِ عَلَيْهِ وَاللهِ اللهِ المُلْمُ

«إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أَهْلِهَـا وإذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّـاسِ أَن تُحْكُمُوا بِالعَدْلِ إِنَّ الله نِعَمَّا يَعِظكُمْ بِه إِنَّ الله كَان سميعاً بَصِيراً »(٢٤) .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينِ آمنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهداء لله وَلَهْ عَلَى أَنْفُسكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وِالْأَقْرِبِنِ إِنْ يَكُنْ عَنِيًا أَوْ فقيراً فالله أَوْلَى بهما فلا تَشَعْدِا الهُدَى أَنْ تَعَدِّلُوا وَإِن تَلُووا أَوْ نَعْرِضُوا فَإِنَّ الله كان بما تعملون خبيراً "٢٥٥) « ولاَ تَلْبِسُوا الحَقُّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقُّ وأَنْتُم نَعْلَمُونَ ٣ (٢٦٠) .

ومن الأمانة والعدل ، حفظ مال اليتيم والوفاء بـ كامـلا ، وعدم الغش والتدليس في المعاملات .

« وَآتُوا الْبِتَامَى أمواهُم وَلاَ تَتَبدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيْبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَاهُم إلى أَمْوَالِكُم إِنَّهُ كَانَ حُوباً تَبيراً »(٦٧) .

فمن الظلم البيرُ الذي نهى الله عنه في كتابه المبين الخلط بين مال اليتيم ومال المؤتمن عليه حتى إذا ما أصاب الناني خسارة في ماله انتقص من مال الأول ظلماً.

وعلى التاجر أن يرعى الله في تجارته ويتقيه فلا يبخس الناس حقهم في الكيل أو الميزان :

« وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِين * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وإِذَا كَالُوهُمْ أُو وَزُنُوهُمْ يُغْسِرُونَ * (٢٨٠ .

والله سبحانه وتعالى يحب القِسْط ، وهو الذي خلق الكون بأدق ميزان :

« والسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ (٢٩ ۞ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ ۞ وأقيِمُوا الـوَزْنَ بالقِسْطِ وَلاَ تُخْسرُوا الميزَانَ »(٧٠) .

والقسط والميزان من أسس الإيمان والتقوى فى السلوك الاجتماعى ، فليتعامل المؤمنون فيها بينهم بالعدل ويتحروا الحق فيها يقولون ويعملون ، والقسط والميزان من مستلزمات القضاء العادل فيرعى العدل والحق فيها يصدر من أحكام ، والقسط والميزان من أسس الحكم ، فالحاكم العادل يحكم بين الناس على أساس المساواة ولا يتأثر بشيء آخر غير تحرى العدل فى أداء مصالح الناس وقضاء حوائجهم ، كل على ستحق ويعمل .

هوامـش الفصــل الثان

(١) النساء ٣٤ (٢) الروم ٢١ (٣) النسأء ١ (٤) الأعراف ١٨٩ (٥) النساء ٣٢ (٦) البقرة ٢٣١ (٧) النساء ٣٥ (٨) آل عمران ١٤ (٩) الكهف ٤٦ (۱۰) الأنفال ۲۸ (۱۱) لقمان ۱۳ (۱۲) لقمان ۱۸ (١٣-١٣) يوسف ٧ - ٩ (١٩) الإسراء ٢٣ (١٧) الإسراء ٢٤ (۱۸) لقمان ۱۶ (١٩) الاحقاف ١٥ (۲۰-۲۰) الأحقاف ۱۷ - ۱۸ (۲۲) التوبة ۲۳ (۲۳) لقمان ۱۵ (٢٤) آل عمران ١١٠ (۲۵) النساء ۸۸ (٢٦) النور ٢٧ (۲۷) النور ۲۸ (٢٨) الأحزاب ٥٣ (۲۹) الحجرات ١ (۳۰) المجادلة ۱۱ (۳۲-۳۱) الحجرات ۲ - ۳ (٣٣) المجادلة ٩

14.

(٣٥) النساء ١٤٠ (٣٦) الأنعام ٦٨ (۳۷) عمد ۱۹ (۳۸) محمد ۳۰ (٣٩) محمد ٢٩ (٤٠) الأعراف ١٩٩ (٤١) عمد ١٧ (٤٢) الحجرات ١١ (٤٣) الحجرات ٦ (£2) النساء 121 (٤٥) النساء ١٤٣ (٤٦) النساء ٦٢، £7) النساء ¥2) (٤٨) النساء ١٤٢ (٤٩) النساء ١٤٥ (٥٠) النساء ١٣٨، (٥١) النساء ١٣٩ (٥٢) آل عمران ١١٨ (۵۳) آل عمران ۱۱۹، (٥٤) آل عمران ١٢٠ (٥٥) القلم ٨ - ٩ (٥٦) القلم ١٠ - ١٢ (٥٧) النحل ١٢٥ (٥٨) إبراهيم ٢٤، ٢٥ (٥٩) الرحمن ٦٠ (٦٠) النحل ٩١ (۱۱) المائدة ٨ (٦٢) آل عمران ٧٥، (٦٣) آل عمران ٧٦ (٦٤) سورة النساء الآية ٥٨ (٦٥) النساء ١٣٥ (٦٦) البقرة ٤٢ (٦٧) سورة النساء الآية ٢ (٦٨) المطففين ١-٣ (۲۹) الرحمن ٧ (٧٠) الرحمن ٨ - ٩

(٣٤) النساء ١١٤

القصل العالث

القرآن والسلوك الدولي

الإسلام دين السماحة والتسامح ، وهو دين السلام والمحبة ، والتعاون بين البشر بالحق والعدل ، وإذْ طهر الله دينه الذي ارتضاه للناس كافة من أى لون من ألوان التعصب أو الحقد لغير المسلمين ، إنما يطلب من أمة الإسلام التعاون والتعامل مع شعوب الأرض كافة على أساس الحق والعدل والمساواة ماعاملتهم بقية الشعوب بالمثل .

فلا عدوان إلا بعدوان ، ولا قطيعة إلا لمن ظلم ، ولا عهد مع من لا عهد له :

١ ـ فلم يفرض الخالق على المسلمين العزلة عن غيرهم من شعوب هذه الأرض . فقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى بعد إنزاله آدم وزوجه إلى هذه الأرض ، أن يكوناهما وبنوهما خلفاءه عليها ليعمّروها وليصلحوا فيها وانعم عليهم بنعمة العقل تمكينا لهم وهداية لتبين الحق فيها يفكرون وفيها يعمّلُونَ وليصدوا عن أنفسهم غواية الشيطان عدوهم منذ الأزل ، وهم لا حول لهم ولا قوة إلا بتقوى الله وذكره والاستعانة به من كيد الشيطان ووسوسته .

وهو سبحانه القادر على كل شيء ، إذّ جعل حياة بني آدم على هذه الأرض حياة عمل وكَدّ وجهاد ، إنما يختبر مدى إيمانهم به وحده وامتثالهم لأوامره وتجنبهم

به يانه م فرعا. في الرزق لبعض خلفه ويتقر عمل البعض الأخر ابتباناً فمؤلاء ومنها يعملون وليرى أي البائفتين أحسن عملاً .

غيرى على الأرغى من راح عليه وزفه ويتكبر ويتبعر فيفسد في الأرغى وينعمر فسه أي الأرغى وينعمر فسه الآاه الله من ذكره ، أم يحمد وبه ويشكر له نعمته ويعمل بأزامره ، وليرى عمل تهتز نفس وإيمان من قتر عليه في الوزق نمينميق حمد، ويكفر بربه ، أم يصبر ويحسد وبه على ماتدر لا ويؤمن بحك مته في قدره فيسلم الأمر كله لله وحده ، وفي كل مدا تطهير للنفس البشرية مما بوسوس به الشيطان فيها من سوء وخواية والمحراف عن صراط الله المستقيم ، ومن عارب الشيطان أعانه الله ونصره ، ومن اتبع غوايته ووالاء تخلى عنه الله قد مراط الله أم الأيجاد عن درن الله فصيرا .

وما أحكمه من قائل ، إذْ يقول :

« وَهُمَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَانِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْض دَرَجَاتٍ لَيَنْلُوكُمْ فَيِهَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبِّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وإِنَّهُ لَنَفُورٌ رَّسِيمٌ »(١) .

وما كان أيسر على الله القوى القادر أن يستخلف على الأرض ملائكة أطهارا بدلا من بني آدم :

« وَلَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَا مِنْكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَغْلُفُونَ ٣'٧) .

وهو العلى القدير ، لو شاء لجعل من سكان هذه الأرض أمة واحدة لاتفصل بينها حدود ، ولا يفرق بينها اختلاف قوميات وأجناس ولهجات وهو سبحانه لو شاء لما نشب فيهم تنافس على مال أو سلطان وما إلى ذلك مما نراه اليوم فى بنى آدم من خروج عن جادة الحق ومن مناصبة بعضهم بعضاً عداوة وعدوانا ، إنما هى إرادة الله وحكمته يريد بها تثبيت صاحب الحق والأخذ بيده ومجازاة الظالمين بظلمهم :

« وَلَوْ شَاء اللهُ جَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِه والظَّالِلُوْنَ مَاهُم مِّن وَلِيٍّ رَلاَّنَصِيرٍ ٣٠٠٠ .

« وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ِ واخْتِلاَفُ ٱلْسِنْتِكُمْ وَٱلْوَانِكُمْ إِذَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتِ لِلْتَالِينَ »(⁴⁾ . وهو سبحانه وتعالى إذْ استخلف بنى آدم على الأرض ، إنما أراد منهم تعميرها بالجهد والعمل ، وذكر الله وحمده ، تطهيرا لأنفسهم ، ومن طهارة النفس قيام العلاقة بين الإنسان وأخيه على أسس من الحق والتعاطف والتقوى ، ويبين ذلك فى الآية :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »(°) .

۲ ـ ویدعو الله سبحانه وتعالى ، الأمة الإسلامیة على اختلاف أجناسها وألوانها وأوطانها ، بان تجعل من القرآن الكریم نبراسا تهتدى به ودستور عمل وتعامل بین أفرادها حتى یبذلوا المعروف ویأمروا به ویتجنبوا المنكر وینهوا عنه ، لتكون هذه الأمة بحق ، خیر أمة أخرجت للناس ومثلا تقتدى به شعوب الأرض كافة :

« وَلْتَكُنْ مَّنْكُمْ أُمَّةً يدعُونَ إِلَى الخَيْرِ ويَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَــُونَ عَن الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(٦) .

فِلتكن من هذه الأمة ، كما أراد لها الله ، أمة واحدة اجتمعت على كلمة الله المبينة في كتابه الكريم ، شاكرة لربها أنعُمَهُ عليها إذْ جعل منها أمة واحدة في عقيدة واحدة أن تتقى ربها في السر والعَلَنِ ، ويداً واحدة ضد أي ظلم أو عدوان يقع عليها أو يمس عقيدتها .

وفى خاتم كتب الله بيان لكل ما يجب على أفراد هذه الأمة الأخذ به من حقوق وواجبات ، وأسلوب عمل وسلوك فى التعامل مع الغير مع نبل الهدف وحسن القصد بما يهيىء لهم السعادة فى حياتهم الدنيا ، والتزود منها لـلآخرة وهى خير وأبقى ، وعلى المجتمع الاسلامى أن يتمثل فى حياته وعمله وتعامله قول العزيز الحكيم :

« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً
 فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنَعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ
 مُنْهَا كَذَلِكَ يُبَينُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُمْتَدُونَ »(٧)

فهذا الدين القيم ، دين الإسلام ، هو الذي جمع شتات أمم كانت في عدوانها وضلالها وكفرها تسير في طريق الضياع والفناء ، لولا أن جمع شتاتها دينُ الحق وأنقذها مما كاد أن يوردها موارد الهلاك ، فها أجدر أمة الإسلام بشكرها لربها الذي هداها من ضلال وجمعها من شتات وألّف بين قلوب أبنائها بعد طول عداوة وعدوان ، وما أجدرها بإظهار هذا الشكر والحمد بالاتحاد على الحق والاعتصام بذكر الله وتقواه .

وعلى أمة الإسلام التى آمنت بالله ورسوله وباليوم الآخر ألا تكون فى ضلال بنى إسرائيل وكفرهم بما أنعم الله عليهم ففسدت عقولهم وأخذتهم العزة بالإثم، فنقضوا عهدهم لله بعد أن أنعم عليهم بالهدى ، إذْ أرسل به موسى إليهم ، فحق عليهم قوله تعالى :

« أَتَــاْمُـرُونَ النَّــاسَ بِـالبِــرُّ وَتُنْسَـوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَــابَ أَفَـلاَ تَعْقِلُونَ »(^) .

وعلى المسلمين ألا يكونوا فى ضلال أمم سابقة ، إذْ اختلفت فى الحق بعد أن أبانه الله لها ، وتفرقت كلمتها ، فأصابها الله بسوء العذاب فى حياتها الدنيا ، وأعد لها فى آخرتها أشد العذاب ، والله سريع العقاب .

« وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »(٩) .

ومن فضل الله على الأمة الإسلامية ، وتأكيده وحدتها وقوة أواصرها ، أن جعل منها أمة واحدة تربط بينها صلة الأخوة في العقيدة التي تؤكد بدورها وحدة الرأى ووحدة الاتجاه والقصد :

« إِنَّمَا الْلُؤْ مِنُونَ إِخْوَةً فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »(١٠) .

ولذا فلا يجوز شرعاً أن تقتتل طائفتان أو دولتان مسلمتان بعد أن جمع الإسلام بينهم على المحبة والإعزاز ، وبعد أن شدهم الإسلام بعضهم إلى بعض برباط الأخوّة الإسلامية المؤمنة التقية .

ولاتستخدم القوة في الإسلام إلا في الحتى وإعاده تناسم ، وذلك إذا ما اعتدات هولة إسانه ية اللماً على أخت الما في الدين ، حق تنتمي ربها ونذرب إلى وشادها وترجع إلى الحق :

ريأس العزيز الحكيم المؤمنين به ، بتقواه وبالسمى إلى السلام وانسره في البشر أجمعين ، ومقاومة ما يوسوس به الشيطان بين الحلق من عداوة وعدوان ، أو حقد وبغضاء ، حتى ينصرف بنو آدم إلى ما خلقوا واستخلفوا من أجله على الأرنمي وهو تعميرها وإصلاح أحوال البشر ، وبث الأمن والطمأنينة في نفوسهم .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشُّدْعَلَانِ إنَّهُ لَكُمْ مُ عَدُوًّ مُّبِين »(١٢) .

"i - واختلاف حظ أمم الأرض فيها أتاها الله من رزق وسلطان ومنعة ، لم يات، عبثا ، بل لحكمة إلهية :

فقد شاءت حكمته تعالى ، باختلاف الأمم فى أرزاقها ، زيادة فى تعارفها وترابطها كنتيجة طبيعية لحاجة كل منها إلى ما فى يبد غيرها من أنواع البرزق ، فيتبادلون المنافع ويتعاونون على زيادتها وتنميتها وتعميم خيراتها بالحق ، وهذا ما يعرف فى التعبير الحديث بالتكامل الاقتصادى ، وهو سبحانه القادر ، لو شاء ، لجعل البشر متساوين فى الرزق والسلطان والمتعة ، إلا أنه سبحانه وتعالى ، وهو الخبير بنفوس البشر أفرادا وجماعات ، قدّر أن لو بلغ كل بنى البشر غاية أرزاقهم وحصلوا على ما تهفوا إليه نفوسهم من نعم الدنيا لا نصرفوا إلى التكاسل والخمول ، ولنأوا بجانبهم عن ذكر الله وتقواه ، استكباراً منهم وغرورا بما أوتوا ، وما أوتوا فى الحقيقة إلا ما شاء الله أن يعطيهم ، ومن ثم يعيشون فى الأرض مفسدين بدلا من إصلاحها وتعميرها :

« وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ "(١٢) .

ومن حكمة العلى السفليم ، الإغداق أحيانا في الرزق على من كفر بنعمته أو عاث في الأرض مفسدا ، يحسب هذا الغافل أن ما أوق سربرينان على رضاربه عن أعماله وسلوكه ، فيمعن في سلوكه الخاطيء ، وهو الايدري أن ما أوق ليس بنعمة بل هو نقمة ، وقد يعجب مؤ من محروم إذ يرى أكثر الناس حظا في هذه الحياة الدنيا أقلهم إيمانا وتقوى ، ولو تبصر هذا المؤ من المحروم وتأمل لحمد الله على ماقدر له ، إذ يرى أن من آتاهم الله وزادهم رزقا قد ازدادوا بغياً وعصياناً وغرورا ، حتى يأخذهم الله أنجد عزيز مقتدر ، فيد عب بريحهم وبما آتاهم الله فيصبحوا كأن لم يغنوا بالأمس ، ولهم في الأخرة أشد العذاب . خسروا دنياهم وآخرتهم ، أليس في ذلك عبرة لهذا المؤمن المتعجب ؟ أفليس في هذه الحكمة الإلهية تئبيت لإيمانه بالله وتسليمه بقدره ؟ والرضا بما قسم له ؟ إذا كان في شك من أمره ، فلير الآية الأتية وليتبصر :

« وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَغَا كُلي هُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا كُمْلِ هُم لَيَزْدَادُوا إِنْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مّهينٌ »(١٤٠) .

وينوع القوى القادر في هذا العذاب الذي توعد به الكثير من الأمم التي كفرت بنعمته :

فهو سبحانه يسلط عليهم منهم من يفسد فيهم ويجرهم إلى الدمار :

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نَّهُلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً »(١٥).

وهو جلت قدرته يَصُبُّ عليهم جام غضبه تارة أخرى ، فيتولى تأديبهم تأديباً مباشرا ويسومهم من لدنه سوء العذاب :

فهاهم قوم نوح الذين كذبوا بالحق الذى آتاهم به رسول من ريهم ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فأغرقهم الله جميعاً ، إلا نوحا ومن تبعه من المؤمنين فقد رضى عنهم وأنجاهم .

وها هم قوم عاد وقوم ثمود ، وغيرهم من الأمم التى حادث عن الحق فأفسدت في الأرض ، نالهم جميعا من رجم سوء العذاب ، وذهبت ريحهم ، ولهم في الآخرة عذاب مُهين .

« وَكَمْ أَهْلَكُنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِـرَبُّكَ بِـذُنُوبِ عِبَـادِهِ خَبِيراً بَصِيراً »(١٦).

وما من أمة ، بلغت ما بلغت من غنى وسلطان فى هذه الأرض ، بمانعة أخذ الله له بإثمها وعصيانها إذا ما أثمت أو عصت ، ليبدّ لها العزيز الرقيب بغيرها أصلح منها :

« وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلَى لَولاً نَصِيرٍ $^{(1)}$.

« وَمَنْ لاَ يُجِبُ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بمعجز فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِـه أَوْلِياَءُ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينِ »(١٨) .

« أَفَلَمْ يَسيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقَبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافرِينَ أَمْثَالُهَا »(١٩) .

فالأمة التي سارت في حياتها الدنيا على صراط ربها المستقيم ، وعاشت بين الأمم بالحسني وبالتعايش السلمي وتوجهت إلى خالقها مصبحة محسية في سرها وعلنها ، ثم لم تبطر بنعمة ربها ولم تكفر به ، سبحانه وتعالى ، ثم اتقته فيها تقول وتعمل ، هدأ بالها وعاشت في أمن وسلام وزادها الله رزقاً وقوة :

« إِن الَّذِينِ قَالُوا رَبِنَّا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَعْزَنُونَ »(٢٠)

٤ - ويبين لنا محكم التنزيل طبيعة التعاون وحدود العلاقات السليمة بين المؤمنين وغيرهم من شعوب الأرض ووسائل هذا التعاون وأساليب هذه العلاقات ، وما يرمى من كل منها إلا إصلاح لأحوال المسلمين وسائر شعوب البشر ، تحقيقا لعمران الأرض وتوطيدا للوئام والسلام بين الناس ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو ، سبحانه وتعالى ، خير الوارثين .

وروح هذا التعاون ، كما أراده الله ، هى البر والتقوى ، ووسيلته عقد العهود والمواثيق ، ويأمر العزيز الحكيم بالوفاء بهذه العهود وجعل من نفسه طرفا ثالثاً فيها ومهيمناً عليها ، فهى ميثاق وعهد معه سبحانه وتعالى ، قبل أن تكون بين البشر ، ومن ثم يأمر عباده المؤمنين بمراعاة ربهم فيها عاهدوا والتماس رضاه واتقاء غضبه ،

فليجعلوا من هذه العهود ومن تلك المواثيق اتفاقاً مقدساً ، ما قام على الخيروالحق ، يلتزم به المتعاهدون ، وبهذا يكون تعاون الشعوب تقريباً بينها ووصلا على الخير .

فإذا ما اختلفت وجهات النظر عند التطبيق لسبب أو لآخر ، عليهم بتقوى الله في إزالة أوجه الاختلاف فلا اتباع لهوى ولا اندفاع في غضب ، بل عليهم الرجوع لكتاب الله ، يجدون فيه الحل الأمثل لما اختلفوا فيه :

« الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْد اللَّهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ * والذَّينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ به أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ »

« جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرَيَّاتِهِمْ واْلَمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّنْ كُلِّ بَابٍ * سَلاَمُ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَىَ الدَّارِ »(٢١)

« وما اخْتَلَفْتُمْ فِيه مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللهَ رَبِّ عَلَيه تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ »(۲۲) . »

وقد لعن الله ناقضى العهود ، وقاطعى كل صلة طيبة بينهم وبين الناس ، وأنذرهم بعذاب أليم ، جزاء وفاقاً بما أفسدوا فى الأرض التى لا يريد الله لها إلا كل صلاح وإصلاح :

« وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْد مِيثَاقِهِ وَيَقطَعُونَ مَاأَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ »(٢٣)» .

« إِنَّ الذينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم ، فَمَنْ نَّكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ ، فَسَيُوْتِيهِ أَجْراً عَظِيهاً »(٢٤)» .

٥ – ولا عهد ولا ميثاق بين مسلم مؤمن وبين منافق ، ولو كان ممن يتلون كتاب الله ، فالمنافقون قد فسدت ضمائرهم ومرضت قلوبهم ، وهم أعداء كل سلام أو إصلاح أو صلاح ، إنما هم يرون بقاءهم وبقاء سلطانهم مرهونا بما بين غيرهم من خلاف وشقاق ، وما السلام في نظر المنافق إلا اتفاق بين الناس على التعايش معا بالحق والمحبة والعدل ، وليس للمنافق في كل هذا من شيء ، بل هو من الجبن والضلال لدرجة انه يعمل دائماً في الظلام للوقيعة وبث الفتنة بين الناس ، بل إنه والمضلال لدرجة انه يعمل دائماً في الظلام للوقيعة وبث الفتنة بين الناس ، بل إنه والمضلال لدرجة الله عدم المنافق في كل هذا من شيء ، المنافق في كل هذا من شيء ، بل هو من الجبن والناس ، بل إنه المنافق في كل هذا من شيء ، بل هو من المنافق في كل هذا من من المنافق في كل هذا من من المنافق في كل هذا من المنافق في كل هذا من من المنافق في كل هذا من المنافق في كل هذا من من المنافق في كل هذا من المنافق في كل هذا من كل هذا من من المنافق في كل هذا من المنافق في كل هذا من من المنافق في كل هذا من من المنافق في كل هذا من المنافق في كل هذا من من المنافق في كل هذا منافق في كل هذا من منافق في كل منافق في كل هذا

لا يتورع عن التلوّن تلون الحرباء حسب المواقف والأحوال : فيظهر لقوم بوجه تم يظهر لغيرهم بوجه آخر ، لا يستقر على حال ولا يقطع برأى ، يلتوى بالكلام إلى ما فيه تحقيق لمأرب خبيث ولوكان فيه أبلغ الضرر بالناس ، يخادع بعمله ويبث بقوله الفرقة بين الناس .

هؤ لاء انمنافقون ليسوا على دين ولا ضمير ولا تقوى ، وهم آفة البشرية ، وعلى المؤمن ان يأخذ منهم حذره ، فلا يتعامل معهم ولا يركن اليهم ولا يتفق معهم ، وإلا كان منهم فاستحق ما أعد الله لهم من سوء المآب ، وعلى مجتمع المؤمنين ان ينبذهم بل يتخلص منهم ويطهر الأرض من شرورهم :

« فَهَا لَكُنْمُ فِي الْمُنافِقِينَ فِثَتَيْنُ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَثْرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلَ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ٣٠٥٠ .

« وَدُّوا لَوْ تَكْفُرونَ كَمَا كَفُرُوا فَتَكُونُونَ سَواَءً فَلاَ تَتَّخُذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءً حَتَّى يُهَاجِرُوا في سَبِيلِ اللَّهُ فَإِن تَوَلَّوْا فُخُذُوهُمْ واقْتَلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْ تُمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُ وا مِنْهُمْ وَلَيًّا وَلاَ نَصِيراً »(٢٦)» .

«لاَ يَتَخذِ اللَّوْ مِنوُنَ الكَافِرِينِ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُوْمنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهُ فِي شَيْءٍ إلاَّ أَنْ تَتَقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَه ، وَإِلَى اللَّهِ الْمُصِيرُ ٣٧٧٥) .

« سَتَجَدُونَ آخَرِين يُرِيدُونَ أَن يَاأُمَنُوكُمْ وَيَـاْمَنُوا قَـوْمَهُمْ كُلَّهَا رُدُّوا إِلَى الفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَمْ يَعْتَزِلُوكُم وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيديَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُم حَيْثُ ثَقَفْتُمُوْهُمْ وَأُولِئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً »(٢٨)».

حواميش النف سل الناك

(١) الأنعام ١٦٥ (۲) الزخرف ٦٠ (٣) الشورى ٨ (٤) الروم ٢٢ (٥) الحجرات ١٣ (٦) آل عمران ١٠٤ (٧) آل عمراد ١٠٣ (١٠) البقرة 13 (٩) أل عمران د١٠ (١٠) الحجرات ١٠ (۱۱) الحجرات ١ (۱۲) البقرة ۲۰۸ (١٤) الشوري ٢٧. (١٤) آل عمران ١٧٨ (19) Kunlaft (١٦) الإسراء ١٧ . (۱۷) الشوري ۳۱ (١٨) الاحداث ٢٢ 10 200 (19) (٢٠) الاحتقاف ١٣٠. (۲۱) الرعاد ۲۰ ، ۲۲ ، ۲۳ ، ۲۹ (۲۲) الشوري ۱۰ (۲۳) الرعد ۲۵ . ١٠ الفتح ١٠ . (٢٥) النساء ٨٨ 177) النساء A4 (٣٧) أل عمران ٢٨. (٨٧) الناء ١٩.

الفصل الرابع

« القرآن والسلوك القتالى »

كَذَبَ أعداء العرب والإسلام إذْ قالوا ان الإسلام إنما قام وانتشر بحد السيف . كذب من قال بأن الناس لـو تركـوا وشأنهم ، لما اتخذوا من الإسـلام دينا وعقيدة .

كَذَبَ هذا النفر من أهل الكتاب ، إذ تخرّصوا على الإسلام والمسلمين بأن من أسلم من أهل الكتاب إنما قد أسلم رهبة من قوة المسلمين وبطشهم ، أو ابتغاء بعض عا آتاهم الله من غنائم .

مثل هؤلاء المتخرصين من أهل الكتاب إنما يفضحون أنفسهم بأنفسهم ، فأى عقيدة هذه التى يخلعها صاحبها جبنا وخوفا من الخلق دون الخالق ، ليلبس عقيدة أخرى لا يؤمن بها ؟ .

وأى عقائد هذه التي أصبحت تجارة وبضاعة يبيعها أصحابها ليشتروا بها بضاعة تدر عليهم مغانم دنيوية زائلة ؟ .

ألا إنهم لا عقيدة فيها آتاهم الله ولا اعتقاد ! ألا إنه الضلال عما أنزل الله عليهم من كتب !

ألا إنه الحسد والحقد على من هداهم الله إلى دينه القويم خاتم الأديان السماوية وأنزل فيهم كتابه المبين خاتم كتبه ، وأرسل إليهم رسوله الأمين خاتم رسله .

ألا إن الإسلام هو الدين الذي أتم الله به نعمته على من آمن به وباليوم الآخر ، وهو الدين الذي ارتضاه للناس كافة ، هو الدين الذي حقد على أصحابه كل من كابر وعاند ولم يؤمن به .

ولو تبصّر هؤلاء المتخرصون فيها أنزل الله فى خاتم كتبه وعقلوه ، لوجدوا فيه المرد المبين عملى افتراءاتهم وأكاذيبهم وما نضم به خبث نفوسهم وضلالهم ، فليتبصروا :

« لَاَ إِكْرَاهُ فِي الدِّينِ قَدْ تَّبَيْنَ الرَّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهُ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انْفصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعُ عَلِيمٌ »(١) .

فهذا الدين القيم الواضح المعالم ، وهذا الكتاب المبين الذي يخاطب القلوب قبل العقول ، إنما يؤمن بهما من أرشده الله وهداه إلى الحق ، ولا يكفر به إلا من غواه الشيطان بالكفر وأضله عن الإيمان :

« تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض مَّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ يَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى بَنَ مَرْيَمَ البَيْنَاتِ وَأَيَدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ ما اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِّن بَعْدِهِم مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتُهُمُ البَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مِّن آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ الله مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ »(٢) .

فلا نعجب إذن مما يفترى أهل الكتاب به كذبا على هذا الدين القيم ، فقد سبقهم أخوة لهم من قبل ، كذّبوا ما نزّل عليهم من كتب سماوية وكفروا ، وقتلوا من بلغهم بها .

« الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالفَحْشَاءِ وَاللَّهْ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَصْلاً وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ٣٠٪ .

فها أضل هذا الكافر بآيات الله وما أقل عقله إذْ يختار ما يوعز به الشيطان من شر وخسران وينبذ ما وعده الله من خير إذا تخلى عن كفره وآمن بالخالق وحده وبيومه الآخر .

« لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلاِنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ »(³) . فيا على الرسول الأمين إلا البلاغ المبين ، ولا سبيل ، ولا سلطان على من غضب الله عليه بكفره فأضله عن سواء السبيل .

وليرجع هؤلاء المفترون إلى التاريخ المثبوت وإلى الواقع الحاضر الملموس ، على الله أن يهديهم إلى الحق والصواب . فلو كان الإسلام ، كما ادعوا كذبا ، قد قام بحد السيف ليخرج أهل الكتاب من دينهم ليعتنقوه ، ولو كان من مبادئه هدم ما سبق من أديان ، فلِم إذن قد أبقى المسلمون الأوائل وهم في عنفوان قوتهم وحماستهم وواسع سلطانهم ، على مالا يزال قائما للآن في العالم الإسلامي من معابد أهل الكتاب وأديرة رهبانهم ، وقد كانت كلها موجودة قبل الفتوحات الإسلامية الأولى ؟ : وعلى من لا يزال على افترائه على دين السلام والرحمة أن يرجع إلى المذابح البشعة التي اقترفها الصليبيون في الأرض العربية المقدسة وإلى وحشية المغول في حروبهم في العراق والشام .

ألا إنها العقيدة الإسلامية السمحاء ، عقيدة الرحمة والسلام ، تلك العقيدة التي جعل الله من أهم مقوماتها الإيمان بالله ورسله وكتبه .

ألا إن أعداء الإسلام والمسلمين المتربصين بأهل هذا اللدين ، ما أوادوها إلا فتنة في دين الله ، يبغون من وراثها الاحتفاظ بسلطانهم وجاههم في أتباعهم والتسلط على المسلمين بكيل الافتراءات والاتهامات الباطلة واستعداء الناس عليهم باسم الحق ، والحق منهم براء ، وباسم الدين وهم أول من خرج عن الدين .

فالإسلام دين رحمة وسلام للبشركافة ، دين المساواة بين الناس ، دين التواضع والخشوع للواحد الأحد دون سواه ، ولا يمكن لمن يدين بهذا الدين أن يكون عامل فتنة أو ظلم وعدوان ، أو غرور أو استعلاء بين بني آدم أجمعين .

فليرجع هؤلاء الأدعياء من أعداء الإسلام والمسلمين إلى خاتم كتب الله ، دستور الإسلام والمسلمين ، ليقرءوا فيه بقلب مفتوح وضمير منزه عن الهوى وبلا تحيز أعمى أو تجن ظالم ، فسيجدون فيه ما شوع الله للمسلمين من شرائع وحدود تعاملهم مع أهل الكتاب ، وألزمهم باتباعها ، ليتبينوا منها الأسباب الحقيقية التى دفعت المسلمين إلى القتال ، وسيرون أنه لم يكن عدوانا ولا تعصبا أعمى ، بل كان

قتالا عادلا أباحه الله وأخذ به العرف الانسانى فى كل زمان ومكان ، ألا وهو حق الدفاع عن النفس وما يتصل بها من عقيدة وأهل ومال ضد معتد بالإثم وضد من يعترض طريق نشر دعوة الحق ويحارب دعاتها بقوة السلاح لا بالنقاش الحر ولا بالمنطق السليم .

فالحروب فى الإسلام لم تكن من أجل نشره بقوة السلاح ولا بالضغط والإرهاب إنما كانت عدوانا بعدوان ، ودفعا ودفاعا ضد من بدأ بهذا العدوان ، والبادى أظلم .

وصف القرآن الكريم الدوافع الحقيقية لعدوات أعداء الإسلام ويكشف لنا زيف ادعائهم الكاذب بأنهم يحاربون من يعتدى على دينهم ، يصفهم خاتم كتب الله بأنهم حلفاء الشيطان الذي لا يريد لهم هداية ولا سعادة ، وإن من الكفر المين أن يتخذ إنسان من الشيطان ولياً ، والله يأمر المؤمنين يه يقتال أولياء الشيطان عدو الله والناس ، عدو الخير ورسول الشر ، وهو ذلك العاصى الخارج على أوامر خالقه ، وهو ذلك المخادع الذي يغرى الناس بالمعصية وييزين لهم عمل السوء ثم لايلبث أن يغدر بهم ويتركهم لمصيرهم المشئوم وهل يملك الشيطان ردا لإرادة الخالق وقدره ؟ .

« وإذْ زَيَّنَ لَهُمُّ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لاَ غَالَبَ لَكُمُ اليَومَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارً لَّكُمْ فَلَيَّا تَرَاءَتِ. الِفَتَتَانِ نَكُصَ عَلَى عَقِبْيْهِ، وَقَالَ إِنِّ بَرِىءً مُّنْكُمْ إِنَّ أَرَى مَالاً تَوَوْنَ إِنِّ أَخَاتُ اللهَ ، واللهُ شَدِيدُ العِقَابِ »(٥) .

ويحذر الحكيم العليم المؤمنين من الاستسلام لغواية الشيطان الذي لا يغوى إلا بالشر ولا يسوق إلا لضلال ولا يوسوس إلا بالظلم والعدوان ومن أجل التسلط والطغيان .

« الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ وَ الَّذِينَ كَفَوُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً "(٢) .

وهذا أمر صريح للمؤمنين يلله بألا يعتدوا بدون وجه حق وألا يحاربوا إلا أولياء الشيطان الذين يريدون بالناس شرّاً ، وأن الله مع من قاتل في سبيـل الحق ودفع العدوان ، والله ناصرهم :

« يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورِهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ »(٧٧) . وقد أباح الله للمؤمنين القتال في غير عدوان ، وجعل من القتال حرباً في سبيل الله وإعلاء كلمته ، وهل يرضى الله للمؤمنين بالعدوان ظلما ، كما يدعى أعداء الإسلام ؟ كلا ! فقد أمرهم الله بالقتال دفاعا عن الحق وعن العقيدة ضد من يعتدى عليهم وعلى دينهم .

وإذ أمر الله المؤمنين بقتال المعتدين ، ولكى يكون قتالا شريفا وواجبا ، قد رسم لهم في عكم تنزيله ، بوضوح لا لبس فيه ولا غموض ، سلوك المؤمن القتال ، إذ بين متى يجب على المسلم القتال ، وضد من يقاتل ، وعلى من يجب الجهاد ، وأوضح بحكمته وعلمه أسلوب القتال ، وحذرهم من معوقاته ، وما يجب عليهم الأخذ به أثناء القتال والالتحام ، كما بين متى وأين يحرَّم على المسلم القتال ، كما أوصى بحسن معاملة أسرى الحرب الذين أصبحوا بلا حول ولا قوة ولا خطر يخشى منه على دين الله والمؤمنين بالله ، وبين ظروف وشروط إطلاق سراح هؤلاء الأسرى : ومتى زالت أسباب القتال فلا يحق لمؤمن حرب ولا عدوان :

١ - الأمر بالقتال :

القتال فَرْضٌ إلهى على كل مسلم قادر ، وهوفى سبيل الله ، وهوقتال يرد به كل مسلم على عدوان يقع عليه وعلى إخوانه فى الدين ، دفاعاً عن الـدين والعِرْضِ والمال .

فالقتال فى الإسلام ليس حبا للقتل وسفك الدماء ، كما يدعى بعض المغرضين من أعداء دين الله ، بل هو قتال اضطراريٌّ فُرِضَ على المسلم ، مالم يجد وسيلة أخرى أومفرا من رد هذا العدوان ودفع الخطر عنه وعن عقيدته .

والإنسان بطبيعته يجب الحياة ويكره الموت ، ومن ثم يتحاشى كل ما يحرمه هذه الحياة ولا يجب حرباً لها تكاليفها وقد تنتهى بموته وحرمانه من الحياة ، إلا أنه قد يلجأ إلى الحرب متى وجد أنه لا سبيل له إلى الحياة إلا بالدفاع عنها ضد ما يهددها ولو اضطره الأمر إلى حمل السلاح والقتال في سبيل حفظ هذه الحياة والمحافظة على مقوماتها من عقائد ومُثل ومبادىء .

ومن أجل ذلك فرض الله على المسلمين القتال لا بالعدوان بغير حق بل دفاعا عن الحق ، وأباح من أجل ذلك الحرب هجوما أو دفاعا ، حسبها تقضى به ضرورة

هذا النوع من القتال أوذاك ، فقد يكون هجوما من أجل مساعدة أخوة لهم فى الدين ضد معتد بغير حق ، وقد يكون دفاعا ضد عدو يطمع فى السيطرة عليهم وإذلالهم ونهب أرضهم ومالهم ، وقد يكون هجوما على عدو أعد عدته وحشد جيوشه من أجل العدوان عليهم ، وخير وسائل الدفاع هو الهجوم ، وقد يكون هجوما على عدو لدينهم يسوم إخوانهم فى الدين سوء العذاب من أجل ردهم عن عقيدتهم ، ومن أجل هذا شرع الله للمسلمين قتال أعدائهم وأعداء عقيدتهم :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لِّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُو خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُو خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَحْبُوا شَيْئاً وَهُو شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ »(^)» .

وحضَّ الله المؤمنين على التضحية بالمال والنفس في سبيل الله وإعلاء كلمته وللدفاع عن عقيدتهم ، وأمر بألا يتخلف مسلم قادر عن هذا الغرض المقدس :

« انْفِرُوا خِفَافاً وثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرًلُكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »(٩) .

ومن أقوال رسول الله ﷺ في هذا الواجب المقدس على كل مسلم :

(جاهدوا الكفار بأنفسكم وسيوفكم وألسنتكم) .

(اغزوا فی سبیل اللہ) .

(لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، واذا استنفرتم فانفروا) .

« صدق رسول الله »

وشرط الحرب في الإسلام هو القتال ضد من يعتدى عليه وعلى أهلِه ، لا من أجل إشباع شهوة التعصب الأعمى ولا حبا في القتل وسفك الدماء ولا للنهب والسطو على أموال الناس ، كما ادعى أعداء الإسلام ، إذْ أن الله حرم القتال من أجل كل هذا .

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّـذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَـدُوا إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »(١٠) .

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »(١١) .

والإسلام بواقعيته ورحمته بالمؤمنين ، وإزالة منه لعوامل المضعف التي قد تنشأ في صفوف المقاتلين المسلمين ، قد أعفى غير القادر من القتال بنقسه إذا ما كان ذا عاهة أو مرض أو ضعف لا يقدر معها على القتال وتحمل مشاقه ، ولكنه لم يعفه من الإسهام بماله ، إذا كان ذا مال ، في إعداد جيش المسلمين بالسلاح والمثونة ، ومن لم يكن له حظ من هذا ولا ذاك ، فليكن معهم بقلبه يدعو لهم بلسانه لميشد به من عزمهم :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ ولا عَلَى الْمُرْضَى ولا على الذين لا يَجِدُونَ مَا يُنْفقونَ حَرَجٌ ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلِ وَالله غَفُورٌ رَّحَيُّهُمْ ﴾(١٣) .

« لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرِّجٌ وَلاَ عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمِيضِ حَرَّجٌ وَمَنْ يُتُولُ يُعَلِّمُ اللَّعْمَارُ وَمَن يَتُولُ يُعَلِّمُهُ عَلَى الْمُ عَلَى الْمُعْمَارُ وَمَن يَتُولُ يُعَلِّمُهُ عَلَى الْمُعْمَارُ وَمَن يَتُولُ يُعَلِّمُهُ عَلَى الْمُعْمَارُ وَمَن يَتُولُ يُعَلِّمُهُ عَلَى اللَّعْمَارُ وَمَن يَتُولُ يُعَلِّمُهُ عَلَى الْمُ

« وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلُّوا وأَعْيُنْهُمْ تَفِيضُ مِنَ النَّمْعِ حَزَناً ألاَّ بِجِدُوا مَا يُنْفَقُونَ »(١٤)» .

ويقول رسول الله ﷺ في اتحاد المسلمين ووحدة كلمتهم على قتال عدو معتد : (يد الله مع الجماعة) .

(من جهز غازيا فقد غزا ، ومن خلف غازيا في أهله بخير فقد غزا) « صدق رسول الله »

ولا يقبل الله مِن مسلم قتالا ، مالم يكن لوجه الله وحده وفي سبيل الحق ولإعلاء كلمته ، ولا يقبله إذا كان مراءاة للناس أو تفاخرا عليهم أو لنيل شهرة بينهم ، ولا يقبله إذا كان من أجل مغنم دنيوى زائل ، ولا يقبله إذا كان من ذلك النوع من العدوان الذى كان يقوم به أهل الجاهلية الأولى من أجل التسلط على الناس :

« لاَ يَهْاكُمُ الله عنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهُ يُحِبُّ المُقْسِطِينِ (١٥)». « إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخُرجُوكُمْ مِنَ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْراجِكُمْ أَن تَوَلُّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّمُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ "(١٦)». « وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بَطَراً وَدِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ِ اللهِ وَاللهُ بَمَا يَعْمَلُونَ تُحِيطٌ »(١٧٠)» .

وقد كان على المقاتل المسلم ، فى عهد رسول الله على ، إذا ما خرج للقتال المهاد فى سبيل الله ، أن يجهز نفسه من ماله بالسلاح والمئونة إيمانا منه بالحق الذى بدافع عنه ، وزهدا فى متاع الدنيا وتضحية منه وفداء فى سبيل إعلاء كلمة الله ، بل لقد كان من بين أغنياء المسلمين الأوائل من تكفلوا بتجهيز حملات بأكملها من مالهم الخاص ، فضلا عن قتالهم بأنفسهم ، وهؤلاء هم الذين صدقوا ما عاهدوا الله ورسوله :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَ سَبِيلِ الله أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »(١٨) .

وينذر العزيز ذو الانتقام من يتقاعد من المؤمنين القادرين عن الجهاد في سبيله ولإعلاء كلمة الحق وحماية العقيدة ، بسوء العذاب .

« إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيهًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »(١٩) .

وقد حق على المؤمنين قتال من اعتمدى عليهم وأخرجهم من ديارهم ونهب أموالهم :

« وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ »(٢٠) .

كذلك أحل الله للمسلمين قتال مثيرى الفتنة والفرقة بين صفوفهم بقصد إضعافهم والقضاء عليهم وعلى عقيدتهم ، فمثيرو الفتنة من الجبن والنذالة ومرض النفس بحيث لا يجرءون على مواجهة المؤمنين سافرين في ميدان القتال ، بل هم جند الشيطان لا يعملون إلا في الظلام ، يثيرون الذعر ويبثون البلبلة رغبة منهم في الكيد لمن هداهم الله بنور الإيمان ، بل لقد كان من مثيرى الفتنة الكثير من أهل الكيد لمن هداهم الله بنور الإيمان ، بل لقد كان من مثيرى الفتنة الكثير من أهل

الكتاب بمن غضب الله عليهم وأضلهم بسوء سريرتهم وختم على قلوبهم وعقولهم بمكرهم ، وزيغهم عما بين أيديهم من كتب الله ، إنما هو الحسد والحقد على من نزل الله فيهم خاتم كتبه وأرسل فيهم خاتم رسله واصطفاهم بالهدى والرحمة ، فعلى المسلمين القضاء على مثل هذه الفتن في مهدها قبل أن يستفحل أمرها ويشتد أوارها :

« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ اللَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إلاَّ عَلَى الظَّالمِنَ ﴾(٢١) .

« قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِاليوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهَ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّـذِينَ أُوتُوا الكِتَـابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِــزْيَةَ عَن يَــدٍ وَهُمْ صَاغِرونَ ﴾(٢٢) .

كما فرض الله على المسلمين القتال لنجدة من لا حول لهم ولا قوة من إخوانهم فى الدين ضد أعداء دينهم الذين يسومونهم سوء العذاب ، لا لشىء إلا لأنهم آمنوا بالله وحده وبرسوله :

« وِمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ والْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ القَّرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا واجْعَل لَّنَا مِن لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِن لَدُنْكَ نَصِيرًا »(٢٣).

« أَذِن لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بَأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهُ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ »(٣٤) .

ومن ضعاف الإيمان وخائني العهود ، من تظاهروا باعتناق الإسلام إما طمعا أو رهبة ، إما طمعا فيها فتح الله به على المسلمين من انتصارات وما أتاهم من غنائم أو رهبة من قوتهم ، ثم ما لبثوا أن ارتدُّوا عن الإسلام وانقلبوا أشد كفرا وللمسلمين الد خصاما بعد أن نالوا ما طمعوا فيه أو بعد أن زال عنهم خطر قوة المسلمين ، وهؤلاء المرتدون أشد خطرا على الإسلام والمسلمين من المشركين السافرى الشرك والعداء ، هؤلاء المرتدون لا خلاق لهم ولا عهد ولا أمان ، ومن الخير للإسلام والعداء ، هؤلاء المرتدون لا خلاق لهم ولا عهد ولا أمان ، ومن الخير للإسلام

والمسلمين أن يقاتلوهم ليطهروا الأرض من فسادهم وكيدهم ، وهم من جاء فيهم قوله سبحانه وتعالى :

«وَإِنْ نَّكَثُوا أَيَانَهُمْ مِن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَثِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ اللَّهُ لَا اللَّهُ لَا اللَّهُ أَحَقًى أَن تَخْشُوهُ إِن كُنْتُمْ مُوْ مِنِينَ (٢٦) * قَاتِلُوهُمْ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشُونَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشُوهُ إِن كُنْتُمْ مُوْ مِنِينَ (٢٦) * قَاتِلُوهُمْ يُعَذَّبُهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْ مِنِينَ "٢٧٥) . يُعَذَّبُهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْ مِنِينَ "٢٧٥) .

وليس لمؤمن أن يقبل أولياء له من بين الكفار أو أعداء دينه ، بل فرض عليه أخذ الكفار بالشدة في قتالهم ولو كانوا له أولياء :

« يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا قَـاتِلُوا الذينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّـارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهٰ مَعَ الْمُتَّقِينَ »(٢٨) .

وما كان للمسلمين أن يقاتلوا عدوهم من أجل القتال وسفك الدم بغير الحق ، وما كان لهم أن يهدروا دماءهم ودماء أعدائهم سدى ، بل كانوا قبل القتال يتلمسون وسائل تجنبه ما ارتدع المعتدى على دينهم فثاب إلى رشده ورجع إلى الحق ولم يقف فى سبيل نشر الدعوة : ولذا كان المسلمون يحذرون المشركين قبل بدء قتالهم بالعودة إلى الحق ونبذ ما أشركوا به الله فى عبادتهم وعدم التعرض بالأذى لمن أسلم من بينهم ، وقد أعذر من أنذر ، وفي ذلك تقول الآية :

« قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَمُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنّةُ الأُوَّلِينَ »(٢٩) .

٢ - التخطيط لقتال الأعداء:

إذا ما قرر المؤمنون القتال بعدما تبينوا حقهم فيه وواجبه عليهم ، وبعد ما استنفدوا كل الوسائل السلمية لرد أعدائهم عن غيهم أو تماديهم في الكيد لهم ، عليهم أن يتدبروا أمر قتالهم في روية ودون اندفاع عاطفي قد يسوقهم إلى ما لا تحمد عقاه .

فيجب عليهم التخطيط لهذا القتال تخطيطاً محكماً ، مستعينين بالله ،

ومستلهمين ما نزل عليهم في آيات القرآن الكريم بشأن قتال أعداء الإسلام والإعداد لهذا القتال ، وسيجدون في هذه الآيات خير ملهم وخير مرشد لهم :

(1) فعلى المؤمنين ألا يهنوا ولا يفقدوا ثقتهم بأنفسهم وبعون الله لهم ما بقوا على عهده قائمين ، وبذلك ترتفع روحهم المعنوية ويثبتون أمام العدو في المعركة ويصبرون على شدة القتال ووطيسه ، وليثقوا ثقة تامة بأن الله معهم ما داموا على حتى ، ومن كان الله معه فلا غالب له .

الله عَنْصُرْكُمُ الله فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِن بَعْدِهِ
 وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّل المؤْمِنُونَ »(٣٠) .

وليس معنى التوكل على الله التواكل والقعود والتكاسُل ، بل معناه أن يعد المؤمنون للقتال مستلزماته ، فليتدربوا أولا على حمل السلاح واستخدامه وأساليب القتال وحيله ، ومواضع الكر والفر في ميدان القتال ، ودراسة الميدان الذي سيلاقون فيه أعداءهم ومسالكه ، كما عليهم الوقوف على حال عدوهم من حيث عدده وعدته وحيله القتالية وأساليب غدره ليأخذوا منه حذرهم ، وعليهم الثبات وقت الشدة ، وخفة الحركة في متابعة العدو وملاحقته وسد منافذ نجاته منهم ، وأن يكونوا يداً واحدة في عجابهة العدو تمثلا بالآية الكريمة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا »(٣١) .

وعلى المسلمين بعد ذلك أن يعدوا للقتال جيشا منظها بجنود أقوياء ، وأن يزودوا جيشهم بأحسن السلاح نوعا وعددا وأن يوفروا ما يلزم من مئونة وذخيرة ووسائل النقل والانتقال والاتصال ، وبذلك يظهر جيش المسلمين لأعدائهم بالمظهر اللائق بجيش من جيوش الله ، قوة عظيمة البأس من قوى الحق تحارب رسل الشيطان وأعداء الحق .

﴿ وَأَعِدُوا لَمُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رَبَـاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفَقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهَ يُوفَ إِلْيُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴿٣٢).

ومن أقوال الرسول ، ﷺ ، في هذا الشأن :

(ألا إن القوة فى الرمى) ، (يا خيل الله اركبى) ، (نُصرت بالرعب) . « صدق رسول الله »

(ب) فإذا لاقى جيش المسلمين أعداءه فى ميدان المعركة ، فعليه ملاقاتهم طبقا لخطة القتال التى وضعها لهم قائدهم . لا عوج فيها ولا ثغرة ينفذ منها العدوكرا أو فرا .

وعلى جيش المسلمين أن يهاجم أعداءه بشجاعة مع الدراية التامة باستخدام أحدث الأسلحة نوعا وكيّاً:

« إِنَّ اللَّه يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم يُنْيَانُ مَّرْصُوصٌ ٣٣٦) .

كما على جيش المسلمين أن يتزود بالسلاح والعتاد المناسبين للمعركة ومكانها .

حتى إذا ما اشتبك جيش المسلمين مع عدوه والتحم به ، وحمى وطيس القتال ، كان عليه أن يقاتل بشجاعة ولا يهاب الموت في سبيل الحق ، وليعلم أنه يد الله التي تبطش بعدوه وعدو المؤمنين به ، فليشتد المقاتل المسلم على عدوه وليتابع ضرباته له ، حتى يقضى على قوته قضاء مبرما :

« فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرَّفَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِذَاءً حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ الله لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ ، وَلَكِن لَيْبُلُو بَعْضَكُم بِبَعْض وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ »(٣٤) .

(ج) والمقاتل المؤمن بالله وباليوم الآخر هو من نزل ساحة القتال وسلاحه العقيدة وعتاده الشجاعة في قتال قوى الشر ، فلا يرهب عدوا مهما ظهر أمامه رهيبا نحيفاً ، فالله هو الذي أمره بمحاربة أعداء دينه ، وهو حسبه وهو ناصره ، وإذا ما استشهد ففي سبيل الله وإعلاء كلمته :

« وَلَمَّا رَأَى الْمُوْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُـهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا »(٣٠) . « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ٣٦٠،

وكيف يخشى الموت مقاتل مسلم أمام أعداء العقيدة وأعداء الحق ، وها هو ذا يرى الرسول الأمين الشجاع في مقدمة صفوف جيش المسلمين ، يهاجم ويقاتل ويضرب ، مستهينا بالموت في سبيل العقيدة ومستعينا بربه في مجالدة الأعداء مضحيا بحياة عاجلة من أجل حياة الخلود والبقاء :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أَسْوَةً حَسَنَةً لَمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا، (٣٧) .

ذلك هو رسول الله الذى ألهمه ربه الصبر والصمود أمام شدة القتال ، وهو ، عليه الصلاة والسلام ، الذى حرض من معه على الثبات أمام قسوة الحرب وشد من عزيمتهم بقوله :

(الآن حمى الوطيس) ، إنما الصبر عند الصدمة الأولى) صدق رسول الله فمن تذرع بالصبر من أول المعركة ولم يهتز لهاوواصل قتال أعدائه إلى النهاية حتى يأتيه الله نصره المبين .

وعلى المقاتل المسلم ألا يفقد ثقته بنفسه ولا يتخاذل إذا ما لقى شيئا من شدة القتال فلا يتزعزع ولا يفزع ، فله من إيمانه قوة ومن توكله على الله وانتصاره له ما يخفف عنه آلام القتال ، إنما الألم أشد الألم والفزع أشد الفزع في عدوه الذي يقاتل بلا عقيدة ولا بسند من الحق :

« وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ القَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُونَ كَمَا تَأْلُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ الله مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيهًا حَكِيبًا ﴿٣٨٪ .

(د) وعلى المقاتل المسلم أن يأخذ جانب الحذر واليقظة إزاء كيد وخبث هؤ لاء الأعداء فقد يتخذ هؤ لاء الأعداء من شدة إيمان المسلم وتقواه ربه وذكره ، وحرصه على أداء حق ربه عليه في عبادته وإقامة شعائرها في مواقيتها فيحاول هذا العدو الغادر أن يأتى المسلم من مأمنه وهو بين يدى ربه يصلى له ويذكره ، والله لا يريد لكافر أن يفوز بمكره على عباده الصالحين ، وهو سبحانه وتعالى خير الماكرين . لذلك أذن

للمسلمين أثناء القتال باختصار صلاتهم ، حتى لا تُفتح لغدر عدوهم ثغرة ينفذ فيها ليأخذهم بغتة ، فأمرهم الله بقصر الصلاة في حالة الحرب ومواجهة العدو :

« وإذًا ضَرَبتُمْ في الأرْض فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ
 أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذينَ كَفَرُوا إِنَّ الكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًا مُبِينًا »(٣٩) .

ويسمى بعض الفقهاء هذا النوع من الصلاة بصلاة الخوف ، وأولى بنا أن نسميها صلاة الحذر أو صلاة الحرب أو صلاة الجهاد .

وزيادة في الرعاية الإلهية لأرواح المسلمين ، جنود الحق ، ودرءاً لكيد الأعداء وإتقاء لمكرهم وغدرهم ، أمر الله رسوله الكريم بأن يأخذ حذره من عدوه حتى في وقت المصلاة الواجبة على كل مسلم . أمر الله رسوله بأن يصلى بجماعة من المقاتلين المسلمين بينيا تقف جماعة أخرى تحرسهم أثناء هذه الصلاة ، حتى إذا ما انتهت الجماعة الأولى من صلاتها ، صلى الرسول بالجماعة الأحرى وتناوبت الجماعة الأولى حراستها أثناء صلاتها ، مع حرص المصلين والحارسين على أسلحتهم ووضعها تحت أعينهم وفي متناول يدهم أثناء صلاتهم وأثناء حراستهم :

وهذا النوع من الصلاة يكون فى ميدان القتال فى غير حالة الالتحام والصدام الفعلى ، ويقتصر فيها على ركعتين بدلا من أربع ، وأن تكون فى وقتها ، وبالنسبة للإمام الذى صلى بالمقاتلين على هذا النحو ، تكون صلاته الثانية سنّة أو نفلا .

أما النوع الثانى من صلاة الخوف فلا تقام جماعة ، بل يصلى كل مقاتل في موقعه ومكانه وفي حالته التي حددها له قائد جيش المسلمين ، سواء تمكن من استقبال

القبلة أم لم يتمكن ، ويستطيع أن يقتصر في صلاته في هذه الحالة على الإيماء برأسه بدلا من الركوع والسجود ، كما يمكنه أداؤ ها راكباً أو واقفاً :

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلُوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لله قَانِتينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَوِجَالاً أَوْرُدُاناً فَإِذَا أَمِنْتُم فَاذْكُرُوا اللهُ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَّالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾(٤١) .

فإذا حدث الاشتباك والالتحام القتالي الفعلي بين الجنود المسلمين وأعدائهم أخرت الصلاة حتى ينتهي هذا الاشتباك ثم تُقضى .

(هـ) ومن السلوك القتالى السليم ، رفع الروح المعنوية للمقاتل ، وشد أزره بالقول والفعل ، وهذا ما أمر الله به نبيه الكريم ، إذ أمره بشد عزم المؤمنين في قتالهم واستزادتهم إقداماً وحركة وفداء ، وأن يحرضهم على منازلة العدو وتشديد ضرباتهم له ، وعدم التردد أو الارتداد مهما ظهر لهم من تفوقه عدداً وعدة . فإن المسلمين بإيمانهم وعقيدتهم أولى الناس بالدفاع عن الحق والثبات والتصميم على نصرته ، ومن جاهد في سبيل الحق كتب الله له النصر مهما قل عدداً وعدة ، ويكفيه إيمائه بالحق وثباته على العقيدة قوة وحسن تدبيريقاتل بهما من لاعقيدة له ولا مبدأ معقول :

« يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ إِن يَكُن مِّنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مائتَيْن وإِن يَكُنْ مِّنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا الْفُا مِّنَ الذين كَفُروا بِالنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾(٤٠) .

فعلى المقاتل المسلم الثبات والشجاعة أمام المعتدى ، والكر عليه بـلا خوف. ولا وجل ولا تردد . فهو بإيمانه وعقيدته وطاعته ، جندى من جند الله ، ويأبى الله إلا النصر لجنده :

ه يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الآدْبَارَ * وَمَن يُولِّهِمْ.
 يَوْمَنَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتال إِ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ الله وَمَأْوَاهُ جَهَيْمُ.
 وَبِشْسَ المصيرُ »(٤٣) .

وعلى المقاتل المسلم أن ينفذ أمر قائده فور تلقيه ولا يناقش فيه ولا يتردد في تنفيذه ، فالحرب حركة سريعة ، فيها الموت أو الحياة ، لا مجال فيها لمناقشة ولا موضع فيها لتردد ، فإن خطة القتال قد سبق وضعها بتدبير وإحكام وفرضت فيها كل الاحتمالات .

وكها يصدر القائد العسكرى المحنك أوامره طبقاً لخطة أحكمت دراستها ووضعها ، كذلك كان رسول الله ، ﷺ ، يضع خطط القتال ويصدر أوامره في ميدان الحرب ، عن وحى وإلهام من ربه ، فها أخطأ الحكم وما أمر عن الهوى ، وكم أحرز السلف الصالح من انتصارات باهرة أذهلت الدنيا كلها ، رغم ما كان عليه المسلمون من قلة في العدد وعجز في العتاد أمام جحافل أقوى جيوش العالم في وقتهم ، وما كانت هذه الانتصارات لتأتي إلا بطاعة المقاتلين المسلمين لقائدهم وثباتهم أمام أعدائهم :

« وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَـهُ وَلاَ تَنَازَعُـوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِـرُوا إِنَّ اللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »(٤٤) .

« يا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللهُ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٥٠) .

(و) الحذر من المنافقين :

أمر الله رسوله والمؤمنين ، إذا ما عزموا على القتال ورد العدوان ، أن يكونوا على حدر من المنافقين والمتخاذلين والجبناء ، وغيرهم عمن آمنوا بشفاههم وقلوبهم غفل من كل إيمان وتقوى ، ليكون المسلمون المؤمنون على بينة منهم ومن نواياهم وكيدهم عندما يشتد القتال ، فيتقوا غدرهم وتخاذلهم ، ويطهروا جيشهم من هؤلاء المذبذبين لأنهم أشد خطراً عليهم من الكفار السافرى العداء .

١ – وفئة المنافقين المتخاذلين ليست جديدة على بنى آدم ، بل هى قائمة منذ الأزل ، وأكثر ما يكونون ظهوراً وقت الشدائد والأزمات كالحروب والكوارث الطبيعية فهى فرصتهم التى يتحرقون شوقاً لاغتنامها ليفيدوا منها مغنها على حساب ما يجل بالناس من أزمات وشدائد .

وكم لاقى من سبق من الأنبياء من هذه الفئة الضالة من مشقة وإجهاد وعنت ، بكيدها وتقاعسها عن طاعة ما أمر به الله وما جاءهم به الرسل ، بل منهم من آمن كذباً ثم ما لبث أن أخلف وعده ونقض عهده ، فباءوا جميعاً بغضب الله ولعنته ، وهاهم بنواسرائيل الذين أرسل الله فيهم من الأنبياء والرسل من إذا أرسلوا إلى العالم

كله لأمن وأسلم لله ، ولكنهم حاوروهم وداوروهم وصدوهم ، بل إنهم قتلوا الكثير منهم :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلاِ مِن بَنى إِسْرِائيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله قَال هَل عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنا أَلا نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قِلَيلاً مُنْهُمْ والله عَلِيمٌ بِالظَّلِلينَ ﴾ (٤٦) .

﴿ وَلِيعْلَمَ اللَّذِينَ نَافَقُوا وقِيلَ هُمْ تَعَالُوا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ
 قِتَالاً لاتّبعْنَاكُم هُمْ لِلْكُفْر يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ للإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُومِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ عِنَا يَكْتُمُونَ ﴾(٤٧).

ويحـذر الله المسلم المقاتـل من الاستماع إلى هؤلاء المخـذَّلين أو تصـديقهم وطاعتهم ، وإلا لحقته من عدوه هزيمة منكرة :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينِ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَـرُدُّوكُم عَلَى أَعْقَـابِكُمْ فَتَنْقلبُوا خَاسُوِينَ ﴾ (٤٨).

٢ - بل إن من المنافقين القاعدين عن الجهاد مع المؤمنين في سبيل الله من فقد إيمانه ونقد إنسانيته ونخوته فيسفر عن شماتته بالمقاتلين المؤمنين إذا لم يُرد الله للم نصراً في معركة من المعارك ، ويظهر شماتته ويبث الفتنة بين المجاهدين ، فعلى المؤمن حق الإيمان ألا يكترث ولا يلقى بالا لشماتة أعدائه أو سخريتهم ، ويكفيه إيمانه بالله والإسلام لقدره درعاً يتقى به كيد وشماتة هؤ لاء المنافقين :

﴿ يَاأَيُّهُا الَّذِينِ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينِ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزَّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهُم واللهُ يُمْنِي وَيُمِيتُ وَالله بَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »(٥٠) .

﴿ الَّذَيْنِ قَالُوا لِإِخْوَانِهِم وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُـلْ فَادْرَءوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ المَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(أه)

٣ - ومن المنافقين ، ضعاف الإيمان ، من اتخذ من كلمة الإيمان دون معناها ،
 وسلة لمغنم دنيوى زائل أو رئاء الناس يظهر به بأنه مؤمن ، حتى إذا دعا داعى القتال

في سبيل الله تلكأ وتباطأ ، وتردد بين حب الاستشهاد في سبيل الله وبين بريق الحياة الدنيا وزخرفها ، فإذا هُزم جيش المؤمنين في موقعة تنفس الصعداء وطار فرحاً بنجاته بنفسه ، بل قد يبلغ به كفره وخداعه أن يحمد الله ، الذي لم يصدقه إيمانه به ، أن لم يكن مع المؤمنين يوم هزيمتهم ، وهو لو وعي وعيد الله للمنافقين لتمني الموت لفوره ، فإذا ما فتح الله على المؤمنين بالنصر في جهادهم ، تمحك هذا المنافق في كلمة الإيمان لينال نصيباً مما أوى المؤمنين ، في قوله تعالى :

« وإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَيُبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ الله عَلَّ إِذْ لَمْ أَكُن مُّعَهُمْ شَهِيداً (٥١٠) * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةً يَا لَيْتِنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً «٢٥٠) .

« فَهَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنُ وَالله أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَصَلً الله وَمَن يُصْلِل الله فَلَن تَجَدَ لَهُ سَبِيلاً (٣٠) * وَدُّوا لَوْ تَكَفُّرُونَ كَمَا كَفُروا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيل الله فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم وَلاَ تَصَيراً » (٤٠٠).

إ - ومن المنافقين من يبلغ به الجبن والرعب والحوف من الخلق دون الخالق ، فيتردد ويتثاقل في القتال في صفوف المؤمنين خوفا من قوتهم ، وجبنا أمام أعدائهم فهو يخشى القتال مع أى من الجانبين ، ولا يتخذ موقفا صريحا واضحا أمام إحدى الطائفتين أو في مواجهتها معا ، مثل هؤلاء لا مكان لهم في صفوف جيش المؤمنين ، بل يجب نبذهم أو قتلهم :

« سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَـاْمَنُوكُمْ وِيـاْمَنُوا قَـوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الفِتْنَةِ ٱرْكَسُوا فِيَهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولِئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُم عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً »(٥٥).

ومن الجبناء المتخاذلين من اضطر اضطرارا ، لا عن إيمان عميق ، إلى قتـال يلتحم فيه مع جنود العدو ، فأصابه الوهن وخلع الرعب قلبه أمام ضجيج القتال وسيل الدماء وتناشر أشلاء القتلى وتساقط الجرحى ، ويعجب لسفك كل هذه الدماء ، بل إنه ليَسأل الله ، الذى لايُسأل عها أراد ، عن أسباب هذا القتال المرير ، ويتساءل لِمَ أقحم نفسه فى هذا البلاء وهو الذى نعم بالحياة الدنيا الهادئة ، ويستنكر العزيز الحكيم مسلك هؤ لاء الجبناء الذين أخذوا من الإسلام مظهره دون جوهره ، ويفضحهم علام الغيوب وكاشف المستور ويستهزىء بهم ويحذر المؤمنين منهم :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْديكُم وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَيَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشُونَ النَّاسَ كَخَشْيةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القِتَالُ لَوْلاً أَخْرَتَنا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْأَخِرَةُ خَيْرًلِّلْنُ اتَّقَى وَلاَ تُظلَمُونَ فَتِيلاً ((*) . اتَّقَى وَلاَ تُظلَمُونَ فَتِيلاً ((*)) .

ويطلب رسول الله من المؤمنين التضامن والتكاتف أمام العدو ، وأن يجاهدوا أنفسهم ونوازعها قبل أن يجاهدوا أعداءهم ويلتحموا معهم :

(يد الله مع الجماعة) ، (المجاهد من جاهد نفسه) .

صدق رسول الله

مثل هؤلاء الجبناء لا مكان لهم فى صفوف جيش المسلمين ، ولا نفع يرجى من تحريضهم على قتال أعداء العقيدة ، بل على المؤمنين أن ينبذوهم ، ولا يضيعوا معهم وقتهم وعليهم أن يكرسوا كل وقتهم وجهدهم فى مجاهدة العدو المتربص بهم :

ومثل هؤلاء الجبناء كمثل قوم موسى ، عليه السلام ، الذين عصوا أمر ربهم الذي أوحاه إلى نبيه بدخول الأرض المقدسة ، جبنا منهم وخوفا من أعدائهم ، رغم ما جاءهم من بينات لقدرة الخالق وعزته :

« قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ (٥٨٠) .

بل لقد بلغ الجبن ببني إسرائيل وكفرهم بربهم الذي أعانهم وأغدق عليهم

من نعمه ونصره ، أن قالوا لنبيهم :

« قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَادَامُوا فِيَها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاً إِنَّا * هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (٥٩) .

إن المجاهد المؤمن حق الإيمان هو من قاتل ولم يبغ من جهاده سوى وجه الله والتسليم بما أمر ، ولا يأمر الله إلا بالحق ومن أجل الخير ، فيضحى بنفسه وبما يملك في سبيل ربه ، ويتخذ من دنياه الوسيلة للقربي من الله ويبيع دنياه لشراء آخرته ، وهذا هو الفوز الأكبر :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيِلَةَ ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (٢٠٠ .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيَلِ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ الله اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ِ أَرْضِيتُم بِالحَيَاةِ الدُّنْيا مِنَ الأخِرةِ فَهَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الأَخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلُ ٣١٥٥.

٥ – ومن المنافقين الجبناء ضعاف الإيمان من يتظاهر بالشجاعة والإقدام مادام هوفى مأمن من القتال وبعيدا عن ميدان المعركة ، ولكن عيونهم تنطق بالخوف والهلع عند سماعهم كلمة القتال ، وقلوبهم ترتعد من مجرد رؤية ميدان القتال بل قد يتعهدون ويشهدون الله على عهدهم أن يقاتلوا مع المؤمنين في سبيل الله فإذا دعا داعى القتال ولوا الأدبار:

« وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهُ مِن قَبْلِ لاَ يُولُونَ الأَدْبِارَ وَكَانَ عَهْدِ الله مَسْتُولاً »(٦٢) .

« قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ المُعُوِّقِينِ مِنْكُمْ وَالقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمٌّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ البَّأْسَ إِلاً قَلِيلاً »(٢٣) .

ويصور القرآن سلوك هؤلاء الجبناء في صورة مـزرية لا تليق بـإنسان ، بَلْهُ المؤمن ، ويسخر من جبنهم ويسفر عها في دخيلة نفوسهم من جبن وهلع :

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءً الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرونَ إِلَيْكَ ، تَدُورُ أَعْينُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْه مِنَ المَوتِ ، فإذَا ذَهَبَ الجَوفُ سَلَقُوكُمْ بِٱلْسِنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ ، أُولَئِكَ لَمْ يُوْمِنُوا فَأَحْبَطَ الله أَعْمَالُهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيراً » (٦٤٠) .

وَيَقُولُ اللَّذِينَ آمَنُوا لَوْلاَ نُزَّلَتْ سُورَةً فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةً مُحْكَمَةً وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مُّرضٌ يَنْظُرُون إِلَيْكَ نَـظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَـوْتِ فَأَوْلَى لَمُمْ (١٠٥) .

« يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَم يَـذْهَبُوا وَإِن يَـنَاتِ الْأَحْزَابُ يَـوَدُّوا لَوْ أَنْهُمْ بَـادُونَ في الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَّاقَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً » (٢٦٠ .

٣ ـ وقد يكون من بين المؤمنين نفر أضعف الجبن إيمانهم بالله وقدرته على نصر المؤمنين على قلة عددهم وعدتهم ، واتبعوا غواية الشيطان ، فيحاولون أن يشيعوا في إخوانهم المؤمنين مافى أنفسهم من جبن وخوف ، بـل قد يـطلبون منهم الـرجوع والنكوص مثلهم ، أمام عدو جبار ، ولكن هذا التخذيل لا يزيد راسخى الإيمان إلا إيمانا بالحق وإصراراً على القتال والفداء ، ليزيدهم الله قوة ويأتيهم نصرا مبينا :

«الَّذِينَ قَالَ هَمُّمُ النَّاسِ إِنَّ النَّاسُ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوهُمْ فَزَادَهُمْ إِيَمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ »(٢٧) * « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلِ لَمْ يَسْسَهُمْ سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ والله ذُو فَضْل عَظِيمٍ » (٦٨) « إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ، فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُمْ مَوْ مِنِينَ »(٢٨) .

والحرب نصر وهزيمة ، والمؤمن هو الذي يحمد ربه عـلى ما آتــاه من نصر ، ولا يتزعزع إيمانه ولا عقيدته إذا ما لحقت به هزيمة .

أو ليس فيها يقضى الله حكمة ؟ ألم يبتل الله قوة إيمان المقاتل المؤمن ليرى مدى ثقته بحكمة الله وتسليمه بقدره ؟ وهـل يجزع مؤمن من هـزيمة بعـد العديـد من الانتصارات ؟ .

فعلى المؤمن الذى صدق إيمانه الاعتصام بحبل الله ، فكم صبر المقاتل المؤمن أمام أشد الهزائم نكرا ومرارة ، إذْ ظل على عهده لربه وإسلام أمره كله له وحده ، فنصره الله وهو أقدر الناصرين ، ولا ضير على المؤمنين من فشة قليلة من الجبناء المنافقين ابتلى الله بهم أمما مؤمنة من قبل ، لم يزدهم هؤلاء المنافقون إلا إصرار على الحق وعلى الجهاد في سبيله :

« إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِالله الظَّنُونِا (۱۷) * هُنَالِكَ ابْتُلِي الْمُوْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزِالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ إِلاَّ خُسرُوراً > * وَإِذْ يَقُولُ اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ خُسرُوراً > * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلِ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِلاَّ فِرِاراً » (٧٠).

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُروا نِعْمةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتكُمُ جُنُودٌ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً » (٧١) .

فعلى المقاتل المسلم ألا يهتز ولا يياس إذا لم يفز بنصر على أعدائه في إحدى المواقع ، وهو الذي وعده الله بالنصر ووعده حق ، ولا يياس من رحمة ربه وهو الذي يشمل المؤمنين برحمته ، بل عليه أن يرجع إلى نفسه يحاسبها ويسائلها عن أسباب هذه الهزيمة ليتبين هذه الأسباب فيتفاداها مستقبلا ، والله ناصر المجاهدين في سبيله والمجاهدين أنفسهم ، والله ناصر من ينصره ومن ينتصر فإنما ينتصر على نفسه :

« أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّا الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَلِيرٌ »(٧٥) .

٧ - الحذر من التخاذل عن القتال:

إن قوة أى جيش تكمن فى تلبية جنوده الدعوة للقتال فورا وبلا تباطؤ . فالموقف موقف جد وحزم أمام عدو متربص غادر ، ولا يحتمل أى تردد أو تخاذل ، ولا وقت لتلمس الأعدار هربا من الحرب وويلاتها . فتردد المقاتل عن قتال أعدائه من أكبر الأفات والمعوقات التى يصاب بها جيش .

وقد صادفت الجيوش الإسلامية الأولى شيئا من هذا التردد الذى ابتلاها به بعض المتخاذلين المترددين عن رد العدوان وفى ميادين القتال ، وهؤلاء هم أهم أسباب كل هزيمة لحقت بجيوش الإسلام .

وهم لا أمان لهم ولا إيمان ، وكان الخيرُ كل الخير للإسلام ولجيوشه تخليص صفوفها منهم . ويحذر الله منهم من أراد النصر على الأعداء .

لا يَسْتَأْذِنُك الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليَوم الآخِرِ أَن يُجاَهِدُوا بِأَمْوَالهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
 وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ (٧٣) .

فمن صدق إيمانه وتمسك بعقيدته وآمن بالحق لايتلمس عدرا ولا يتردد في القتال في سبيل إعلاء كلمة الحق :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَأَذِنُكَ الَّذِينَ لاَيُوْ مِنُونَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَارْتَـابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدُّدُونَ ﴾ (٧٤) .

بل إن من ضعاف الإيمان من يتردد فى قتال أعدائه وأعداء عقيدته مع قدرته على منازلتهم ومجاهدتهم ، بل إنزال الهزيمة بهم ، إلا أن حرصه على الحياة الدنيا وغروره بزخرفها أنسياه ربه فعصى أمره وآثر الأمن والسلامة وطيب العيش على الجهاد فى سبيل الله :

﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَهُ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ استَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَاعِدِينَ ﴾(٥٠) .

وَلَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَراً قَاصِداً لاَتَبَعُوكَ وَلَكِن بَعُـدَتْ عَلَيهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَـوْ اَسْتَطَعْنا خَـرَجْنا مَعَكُمْ يُبْلِكُـونَ أَنْفُسَهُمْ وَالله يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾(٧٦) .

ويأبى العزيز الحكيم العليم بما فى القلوب إلا وقاية جيش المؤمنين من هؤلاء المتخاذلين ، فهو العليم بترددهم وخطر وجودهم فى صفوف جيش يقاتل فى سبيل الله وحده ، يزيد فى قلوبهم التخاذل والتردد ، وينطقهم بما فى قلوبهم ، حتى يكشف دخيلة نفوسهم لجند الله ، فيحذروهم :

« وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَاعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَطَهُمْ وَقِيلَ اقعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ (٧٧) * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مًا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلاَ وْضَعُوا خِلاَلْكُم يَبْغُونَكُمُ الفِئْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ واللهُ عَلِيمٌ بِالظَّلِلِينَ »(٧٨).

ويعلم الله مدى كذب هؤلاء المتخاذلين ويكشف مكرهم إذ يتمسحون بالإسلام وما هم بمسلمين ، فهم إذا ما انتصر المؤمنون طمعوا في اقتسام الغنائم معهم ، وهم هم الذين لو دخلوا مع المسلمين حربا ضد الأعداء لاستبد بهم الذعر والجبن ولولوا الأدبار ولجمحوا جموح الماشية المذعورة يتلمسون مخبأ يحتمون فيه من الأعداء :

« وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَيْنَكُمْ وَمَاهُمْ مِّنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَومٌ يَفْرَقُونَ (٧٩) * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَاراتِ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ »(٨٠) .

ومنهم من يحمد الله على عدم انخراطه فى جيش المقاتلين المسلمين ونجاته من مشقة الجهاد وأهواله .

« فَرِحَ الْمُخَلِّفُونَ بِمَقْعدهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وكَرهُ وا أَن يُجَاهِـ دُوا بِأَمـوالِهُمْ وأَنْفُسِهِمْ في سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْخَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرَّا لُوْ كَـانُوا يَفْقَهَوُنَ »(^^)

ويعاتب الرحمن رسوله وصفيه عتابا خفيفا ، إذ قبل في صفوف جيشه أمثال هؤلاء المتخاذلين المقاعدين عن الجهاد في سبيل الله ، أو قبل اعتدارهم عن الجهاد :

« عَفَــا الله عَنْـكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَى يَتَبَــينَ لَــكَ الَّــذِينَ صَــدَقُــوا وَتَعْلَمَ ٱلْكَاذِبِينَ » (٨٣٪ .

« لَقَدِ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأَمُورَ حَتَّى جَاءَ الحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ » (٨٣٦) .

ثم يبين الله لرسوله والمؤمنين ما يجب عليهم حيال هؤلاء المتخاذلين :

« سَيَحْلِفُونَ باللهِ لَكُمْ إِذَا انقلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَمْ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »(٨٤) .

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بَانَ يكونوا مع الحَوالِفِ وطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَيَعْلَمُونَ ﴿ ٥٠٠ .

« فَإِن رَّجَعَكَ الله إِلَى طَائِفةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَاذَنُوكَ لِلْخُروجِ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعَى أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُوا مَعَى عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ » (^^>).

« يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ ١٨٧٠).

فالمنافقون والأعداء سواء ، يجب أن يحاربهم المؤمنون بل إن المنافق أشد خطرا على المسلمين من العدو الظاهر ، هذا عدو مستتر وذاك عدو سافر .

ومن ضعاف الإيمان من اتخذ القتال بجانب المجاهدين في سبيل الله ، تجارة وسلعة يبغى به مصلحة دنيوية ، فيبيع نفسه للجانب الذي يدفع ثمنا أكبر ، ومنهم اليوم من يسمون بالجنود المرتزقة ، مثل هؤلاء المقاتلين لا أمان لهم في جيش المسلمين لأنهم لايقاتلون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وحده ، وكم من هؤلاء المرتزقة من اندس في صفوف الجيوش الإسلامية بدعوى الإيمان والدفاع عن الحق ، وهم أبعد الناس عن الحق والإيمان ومنهم بعض الأعراب سكان البادية الذين اندسوا في جيش الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد حذر الله رسوله من هؤلاء الجنود المرتزقة .

« الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ الاَّ يَعْلَمُوا تَحُدُّودَ مَا أَنْزَلَ الله علَى رَسُولِهِ واللهُ عليمٌ حَكِيمٌ » (٨٨).

« ويمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْلَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سنُعَدِّبُهُمْ مَّرَّتِينِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذَابِ عَظيم » (٨٩).

ويكشف الله دخيلة نفوسهم وسوء قصدهم وما جبلوا عليه من خيانــة وغدر ونفاق وكذب:

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَربَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرةُ السَّوْءِ والله سَمِيعٌ عليمٌ »(٩٠).

« سَيَقُولُ لَكَ الْمُخُلِفُّوُنَ مِنَ الأَعْراَبِ شَغْلَتْنَا أَمُوالُنَا وَأَهْلُوناً فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنتهمْ مَّالَيْسَ فِي قُلُوبِهمْ قُل فَمَن يَمْلِك لَكمْ مِّنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَاد بِكُمْ ضَرَّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خبيراً »(٩١). « بَلْ ظَنَنَتْمُ أَن لَّنْ ينقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمَنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِ قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وكُنْتُمْ قَوْماً بُورًا »(٩٢).

« سَيَقُولُ الْمُخلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِم لتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُريدُونَ أَنْ يُبَدَّلُوا كَلاَمَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ الله مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُوننا بَلْ كَانُوا لاَيَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً »(٩٣).

٣- وقف القتال وظروفه:

إذا مانشبت الحرب بين فئتين لسبب أو لأخر ، استمرت قائمة حتى تنظفر إحداهما بالأخرى ، وتقضى على قوتها ومقاومتها ثم تتوقف الحرب وينتهى القتال بفوز إحدى الطائفتين وهزيمة الأخرى .

على أنه يحدث أحياناً أن يتوقف القتال أثناء الحرب قبل أن تنتصر إحدى الطائفتين على الأخرى ، وذلك فى حالات تعارف عليها الناس منذ أقدم العصور فيكون وقف هذا القتال مؤقتا أو دائماً .

(أ) وقد تعارف الناس على وقف القتال مؤقتا في ظروف معينة منها :

1- اتفاق الطرفين المتحاربين على وقف القتال بعض الوقت ليتمكن كل منها من دفن قتلاه واجلاء جرحاه عن ميدان المعركة وعلاجهم ويبقى كل من الطرفين شاكى السلاح ثم يستأنف القتال بعد ذلك ، وقد يوقف الطرفان القتال ، مؤقتا اذا ماسئها استمراره وتفادياً لمزيد من الخسائر والخراب في الأرواح والممتلكات ، وذلك لتهيئة جو من الأمن والسلام المؤقت لإجراء مفاوضات والتماس الحلول لتسوية سلمية فيها تنازعا عليه وتحاربا من أجله .

هذه الهدنة الموقوتة بزمن محدد والتي تعرف اليوم بالهدنة المسلحة ليست غريبة على العرب والمسلمين ، وقد حددها الحكيم الخبير في محكم آياته القرآنية ، التي لم تترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصتها وبينتها أمام كل ذي عقل يتدبر به ويهتدى في تنظيم جميع نواحي السلوك البشرى ومنها السلوك القتالي .

ففى القرآن الكريم ما نظم به العلى القدير السلوك الذى ينبغى أن يأخذ به كل مقاتل مسلم بما يحقن دماء المؤمنين بالله وباليوم الآخر ، بل دماء أعدائهم وأعداء عقيدتهم من الإهدار بغير حق ، وبغير ما يمنع إعلاء كلمة الله التي أراد بها خير البشر وصلاحهم أجمعين بل إن في إعلان الهدنة المؤقتة فرصة لهداية الضالين من أعداء الدين الى تفهم هذا الدين والرجوع إلى الحق ، وإحلال السلام بين الناس يحل التنازع والخصام .

حدد القرآن الكريم وقت هذه الهدنة تحديدا واضحا لا لبس فيه ولا غموض ولا تأويل ، بشرط التزام الطرفين بما اتفقا عليه ، حدد الله هذه الهدنة بأربعة شهور عربية محددة بالإسم هي شهور المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة .

« إِنَّ عِدَّةَ الشَّهُورِ عِنْدَ الله اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ مَنْهَا أَرْبَعَة حُرُم ذَلَك الـدِينُ الْقَيَّمُ ، فَلاَ تَـظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَـاتِلُوا اللهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (18) . المُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (18) .

ولم يحل الله للمسلمين قتال أعدائهم فى هذه الشهور إلا فى حالة واحدة وهى بدء أعدائهم بالعدوان عليهم واضطرار المسلمين إلى استخدام السلاح ، والقتال فى رد هذا العدوان ، دفاعا عن النفس والمال .

« الشَّهْرُ الْحَرَامُ بالشَّهْرِ الحَرَامِ والحُرُّمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ واتَّقُوا الله وَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَعَ الْمُتَّقِينَ » (٩٥٠) .

وقد كان في عرف العرب أيام الجاهلية وقبل الإسلام تحريم القتال بين قبائلهم في هذه الشهور الأربعة ولكن هذا التحريم كان يرمى إلى غرض آخر غير ما جاء به القرآن . قصدوا بهذا التحريم تهيئة جو من الأمن لمدة محددة يزاول اثناءها العرب تجارتهم وأفكارهم .

٧- وقد يحدد الطرفان المتحاربان ، بعد نشوب الحرب بينها ، مكانا معينا يتفقان على جعله منطقة حياد ، يحرم عندها على أى من الطرفين تجاوزها أو القتال فيها ، وهي منطقة يقف كلا الطرفين على جانبيها شاكى السلاح وعلى أتم الاستعداد لخوض المعركة إذا ما خرق الطرف الآخر ما اتفق عليه واخترق هذه المنطقة بقصد

العدوان والقتال وهذا ما نراه اليوم على الخريطة السياسية لدول العالم وهو ما يعرف بخطوط الهدنة .

هذا النوع من الهدنة المكانية ، كان موجودا قبل الإسلام وأيام جاهلية العرب ، إذ جعلوا من بيت الله الحرام مكانا آمنا لا يجوز فيه قتال ولاسفك دماء ، وذلك لنفس السبب الذي من أجله حرموا القتال في الأشهر إلحرم ، مضافا إليه سبب ديني وهو مزاولة عبادتهم عند بيت الله الحرام .

وقد حدد القرآن الكريم هذا المكان بالذات منطقة هدنة يحرم فيها على المسلمين القتال فيه إلا دفاعا عن النفس في حالة عدوان الأعداء عليهم .

وشاءت حكمة العزيز الحكيم اختيار هذا المكان تقديسا وتبريكا له . فهو أول بيت أقيم بأمر الله لعبادته وحده ، وأمر بتطهيره من سفك الدماء وتأمينه لمن يؤمه من عباد الله ورغم التواء المشركين بما أراد الله من بنائه قبل الإسلام وسنرى فيها بعد كيف ولماذا أحل الله للمسلمين منع المشركين من دخول هذا المكان المقدس أو مُزَاوَلَةِ طقوسهم الدينية فيه :

وَإِذْ جَعَلْنَا البَيْتَ مَثَابةً للنَّاسِ وأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقام إِبْرَاهِيمَ مُصَلَّى وَعَهِدْنَا إِنْ إَبْراَهِيمَ وإسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرا بَيْتِي للطائفينَ وألعاكِفِين وَالرُّكُعِ السَّجُودِ » (٩٦).

« وإِذْ قَالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً واْرِزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مَنْهُمْ بِاللَّه والنَّيْوِمِ الآخِرِ ، قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَّتُعُهُ قلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِشْسَ المصير » (٩٧)

وقد جعل الله سبحانه وتعالى ، من بيته الحرام قبلة للمؤمنين فى جميع أنحاء الأرض ، وأمر بإقامته ليصلى فيه الناس لله ويذكروه ويضرعوا إليه وحده ، مكان هذا شأنه وإذ جعله الله حصن أمان لعباده القانتين يأمنون فيه على أنفسهم أذى أعدائهم وعدوانهم ، مكان هذا شأنه ، لابد وأن يكون المؤمنون بالله أسْوَةً لغيرهم فى تقديسه ، ومن ثم أمر الله المؤمنين به أن يكونوا قدوة لغيرهم فى تطهيره ونشر السلام فى ربوعه وجعله دار أمن لهم ولمن يلوذ به من الناس كافة ، فلا قتال فيه إلا

دفاعاً عن النفس ولا قتال فيه إلا ضد نجس يحاول أن ينال من قدسيته ، ولا قتل فيه إلا لمن أراد بكفره أن يطفىء نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

« وَاقْتَلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفَتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحرامِ حَتِي يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَلِكَ جَزاءُ الكَافِرِينَ (٩٩) * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (٩٩) .

ولما أقام النبى عَنِينَ ، فى يثرب أول حكومة إسلامية منظمة تسير وفق ما أمر الله به فى كتابة الحكيم من مبادىء العدل والديمقراطية والمساواة ، ولما أقام من المسلمين المؤ منين جيشاً منظماً يدافع به عن العقيدة ويعلى به كلمة الحق ، ويطهر به بيت الله الحرام من أدران الشرك ، ونجس المشركين الذين كانوا لا يزالون يفدون إليه للطواف والتعبد لأوثانهم من دون الله ،

من أجل ذلك ومن أجل إبقاء البيت الحرام على ما أراد الله من بنائه ، ألا وهو عبادته وحده والتسبيح باسمه وحده ، ولوضع هذا البيت أمانة فى يد أصحابه وهم المسلمون ، من أجل ذلك أمر الله نبيه والمؤمنين بتطهيره من مظاهر الوثنية والإباحية التى كان يزاولها من دخل فيه من المشركين ، بتحريم دخوله على غير المسلمين ، فأنزل الله على نبيه الآية :

« وَأَذَانُ مِنَ اللَّهُ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّه بَرِى ۗ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبُّمُ فَهُو خَيْرً لِّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأْعَلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى الله وَبشَّرِ ٱلَّذِين كَفَرُوا بِعذَابٍ أَلِيم (١٠٠) . إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا ، وَلَمْ يُسَلِّعُ مَنْ المُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا ، وَلَمْ يُسَلِّعُ مَا الله عَلَيْكُم أَحَسَداً فَأَتِمَا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُسَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّه يُحِبُّ الله يُحِبُّ الله يُعِبُ الله عَلَيْكُم أَحَسَداً فَأَتِمَا الله يُعِبُ الله عَلَيْكُم أَحَسَداً فَأَتِمَا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُسَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّه يُحِبُ اللهُ عَلَيْكُم أَحَسَداً فَأَتِمَا إِلْيُهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُسَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّه يُحِبُ

واستثناء هؤ لاء المشركين المتعاهدين مع النبى ليس مطلقاً ، بل هو موقوت إلى أن يتم الأجل الذي تعاهدوا عليه ، وبعد انتهاء هذه المهلة ، كان شأنهم شأن بقية المشركين في تحريم دخولهم بيت الله الحرام :

و فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الحُـرُم فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ خَيْثُ وَجَـدُتُّمُوهُمْ وَخُـدُوهُمْ
 وَأَحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَمُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواَ وَأَقَامُوا الصَّـلاةَ وَآتُوا الـزكاةَ فَخَلُوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّه غَفُورٌ رَّحيمٌ » (١٠٢) .

فلا تشفى منهم ولا انتقام لما لاقاه المؤمنون منهم من إضطهاد وتعذيب ، وهذه ناحية أخرى من نواحى سماحة الإسلام وتسامحه حتى مع من كانوا له ألد الأعداء .

إنما أراد الله بطرد المشركين من بيته الحرام وقتالهم حتى يجلوا عنه ، تطهير هذا البيت من كفر المشركين ونجسهم وحتى لا يجتمع الطيب والخبيث في مكان واحد.

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْلُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمُسْجِدَ الحَرامَ بَعْدَ عَامِهُمْ هَذَا وَإِن خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُم اللّهُ مِن فَضْلِه إِن شاء إِنَّ اللَّه عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٣(١٠٣

فقد أمر الله نبيه الكريم بتطهير بيته الحرام من المشركين ومن مظاهر شركهم بالله ، وذلك بتحريم دخولهم هذا البيت الطاهر تزكية له من رجسهم ونجسهم ، وأمر الله بإمهال المشركين إلى نهاية عام الحج الأكبر ، يختارون بعده إما الإسلام لله وإقامة شعائر دينه فيبقون في مكانهم ، وإما الجلاء نهائياً عن هذه الأرض المقدسة وعدم عودتهم إليها ما بقوا على شركهم ، فإن أبوا إلا الشرك عناداً واستكباراً ، أحل للمسلمين قتلهم :

وهذا ما أعلنه الرسول الأمين للناس كافة وللمشركين بصفة خاصة يوم الحج الأكبر فقد أناب لإعلانه صفيه وصديقه أبا بكر الصديق رصى الله عنه ، وأمر المسلمين باحترام الهدنة المعطاة للمشركين ، مالم يبدأ المشركون بالعدوان على المسلمين أثناء الحج ، كما أعلن اجارة من يستجيره من المشركين لإعطاء الفرصة لإسلام من أراد منهم إسلاماً ، وذلك تنفيذاً لقوله تعالى :

« وإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْلُشْرِكِينَ اسْتَجَارِكَ فَأْجِرْهُ حَتَّى يسْمَهَ كَلاَمَ اَللَّه ثُمَّ أَبْلغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِك بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ »(١٠٤)

وهذا أسلوب حكيم من أساليب الحرب بين المؤمنين وأعدائهم ، حدده الله للمؤمنين ليأخذوا به في سلوكهم الحربي .

(ب) أما وقف القتال وقفاً تاماً ونهائياً ، فقد حدده الله فى حالات منها عـدم القتال بين المسلمين وعدم قتال من اصطلحوا معهم بشروطهم :

١ - فقد أبي الله إلا أن يتم نعمته على المؤمنين ، وأبي إلا أن يعيش أخوة الدين الواحد الذي اختاره لهم ربهم في سلام وأمن كأفراد أسرة واحدة . فأمر بعدم

القتال بين المسلمين حتى لا تكون فيهم فتنة تذهب بهم ، وهم أمة تدعو للسلام وتنادى به .

نهى الله المؤمن عن قتال أخيه فى الدين ، أو اتخاذ أمة إسلامية الحرب وسيلة لفض المشكلات التى تقوم بينها وبين أمة إسلامية أخرى ، بل حض الله على الإصلاح بين المؤمنين إذا ما بدت فى الأفق بوادر تنذر بنزاع أو اختلاف حتى لا يستفحل هذا النزاع إلى نشوب قتال بينهم ، كما أمر بمنع المعتدى وكف يده بل وقتاله إذا لم يرجع للحق أو لم يرتدع بالحسنى ، فالإسلام سلام وأمن واطمئنان بين أهله .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينِ آمنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَةً وِلاَ تَتَبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوَّ مُّينٌ ﴾ (١٠٠)

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُوْ مِنُونَ إِخْوَةً فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّه لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون ﴾ (١٠٦) .

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأَخْرَى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَغِي ءَ إِلَى أَمْسِ اللَّهِ ، فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللَّه يُحَبُّ الْمُقْسِطِينَ »(١٠٧) .

وقد شدد الله في تحريم قتل المؤمن أخاه المؤمن أو العدوان عليه والغدّر به ، وتوعد من خالف ما أمر به الله بأشد العدّاب :

« وَمَن يَقْتُلُ مُوْمناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدُ لَهُ عَذَاباً عَظِيهاً » (١٠٨) .

بل إن الله الرحيم بعباده المؤمنين قد زاد من رعايته لهم وأحاطهم بسياج من الأمن ، إذْ حض المقاتل المؤمن على التحرى وإمعان النظر أثناء قتال الأعداء فعلى هذا المقاتل أن يتبين ، فقد يكون بين هؤلاء الأعداء أخ له في العقيدة اضطرته ظروف العيش وقلة الحيلة إلى العيش بينهم ولم يستطع لنفسه منهم فكاكاً فلا يتعمد قتله ، فإن أخطأ رغم حرصه فقتله خطأ ، كان على من قتل التكفير عن خطئه والتعويض عمن قتله تعويضاً مادياً عادلاً .

بل لقد شاءت رحمة الله بخلقه من بنى آدم : أن تحرّم على المؤمن قتل من لم يؤمن إذا كان فى قوم بينهم وبين المؤمنين ميثاق أو عهد بعدم القتال ، كما سنتبين فيها بعد .

« وَمَا كَانَ لِمُوْ مِنِ أَن يَقْتُلَ مُّوْمِناً إِلا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْدِيرُ رَقَبةٍ مُؤْمِنةٍ وَدِيَة مُسلّمةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلا أَن يَصَدّقُوا فَإِن كَان مِن قَوْمٍ عَدِّو لَكُمْ وَهُو مُؤْمِن مُؤْمِن فَوْمِ عَدِّو لَكُمْ وَهُو مُؤْمِن فَن عَرْمِ رَقَيةٍ مُوْمِنةٍ مَوْمِنةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثاقٌ فَدِيَّةٌ مُسَلَّمةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتحرير وَقِيةٍ مُوْمِنةٍ فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرين مُتنابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّه وَكَانَ اللَّه عَلِيها حَكِيماً "(١٠٩٠)» .

والحكمة الإلهية من التأكيد على تحوير رقبة مؤمنة هو تكريم من آمن به من الأرقاء بتحريرهم حتى يكون جميع المؤمنين أحراراً ، فالحرية هي من المبادىء الأساسية في الإسلام .

٢ - وإذ أباح الله للمؤمنين به القتال في سبيله وحده وليس من أجل مغنم أو مطمع شخصى ، فإنه سبحانه وتعالى قد نهى عن قتل من استسلم لهم من جيش الأعداء بحجة أنه غير مسلم ، وعلى المؤمن ألا ينسى أنه كان مثله قبل أن يكرمه الله فشرح قلبه للإيمان ، فإذا ما طلب المعتدون الصلح وسلموا بشروط المسلمين المنتصرين فلا قتال بعد ذلك إلا ضد من يعتدى ، وذلك حتى لا تسوّل لمؤمن نفسه بإتخاذ عدم إسلام الناس حجة في سلبهم أموالهم بغير حق :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبُتُمْ فِي سَبِيلِ الله فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لَمْ أَلْقَى إلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْ مِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الذَّنْياَ فَعِنْدَ اللَّه مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِن قَبْلُ فَمَنَ اللَّه عليكم فتبينُوا إِنَّ اللَّه كَان بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً »(١١٠).

« وَإِن جَنْحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوكَّلْ عَلَى اللَّه إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ »(١١١)

ومع كل هذه السماحة وحب السلام ومد يد المؤمن لمن مد له يده بالسلام ، فإن على المؤمن أن يتحوط ويأخذ حذره مما قد يريده عدو غادر . فقد يطلب العدو السلام ويظهر الاستسلام أثناء الحرب خوفاً من بطش جيش المسلمين ، وقد رأى العدو أنه سيخرج من هذه الحرب مهزوماً ومدحوراً ، فيلجأ إلى الغش والحداع ثم

لا يلبث أن ينقض عهده وينقلب على المسلمين أشد ضراوة وقسوة ، فعلى المقاتل المسلم ألا يُخدع بل يكون على أهبة الاستعداد لرد كيد العدو إلى نحره إذا ما سولت له نفسه غدرا أو خيانة فلا يؤخذ على غرة منه بل يرد للغادر الخائن الصاع صاعين حتى لا تقوم له بعد ذلك قائمة .

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنُ مِن قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِــُدْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَــوَاءِ إِنَّ اللهَ لاَ بِحِبُّ الْخَاثِينَ ﴾(١١٣) .

. ٤ - مكاسب الحرب في الإسلام:

١ ـ فرض الله على المؤمنين القتال لرد ما قد يقع على الإسلام والمسلمين من عدوان ، وهو أصلاً وكما أمر به الله ، قتال في سبيل الله وإعلاء كلمته في العالمين ، وازالة ما يعترض انتشار العقيدة الاسلامية من كيد ومن عقبات لا تقوم على الحق والعدل ، والقضاء على من يريد بدعاة هذه العقيدة سوءاً عن طريق عدوان عليهم أو تسلط ، وهذا هو ما أراده الله بالجهاد في سبيله .

وقد يبدو لمن ينظر نظرة سطحية إلى ما شنه المسلمون الأوائل من حرب ، على انه عدوان منهم على غيرهم من الشعوب الآمنة ومن ثم رموهم بالتعصب الأعمى واتهموهم بحبهم سفك الدماء وميلهم للنهب والسلب . ولو تحرى هؤ لاء المفترون الدقة فى النظر والأمانة والعدل فى إصدار هذا الحكم الظالم ، لقالوا غير ما قالوا :

والمعروف أن النبي على الإسلام ، ولم يفاجئهم بحرب عدوانية بغية النهب الشعوب المجاورة يدعوهم إلى الإسلام ، ولم يفاجئهم بحرب عدوانية بغية النهب والسلب ، بل أرسل إليهم أن يسلموا لله أو على الأقل ألا يقفوا في سبيل انتشار الدعوة الإسلامية وأن يتركوا لشعوبهم الحرية في اختيار دعوة الحق والسلام والعدل ، وفي ظل هذه الحرية يترك الأمر للأفراد يهدى الله منهم من يشاء ويشرح قلبه للإسلام ، ولكن غرور بعض هؤلاء الرؤساء أركبهم رءوسهم ، فمنهم من أكرم رسل النبي إليهم ، ومنهم من رد رداً غير كريم . وكان هذا إصراراً منهم على الكيد للإسلام والمسلمين والوقوف منهم موقف العدوان ، ومع كل هذا لم يقاتل المسلمون الا من اعتدى عليهم أو على حلفائهم اعتداء فعلياً عن طريق شن الحرب والبدء بالعدوان . وكانت حروب مريرة بين المسلمين وأعدائهم ، فتح الله فيها على بالعدوان . وكانت حروب مريرة بين المسلمين وأعدائهم ، فتح الله فيها على

المسلمين بالنصر المبين ، وهنا انتصر الحق ، فها أن تحرر أفراد هذه الشعبوب من ضغط حكامهم واضطهادهم حتى دخلوا فى دين الله أفواجاً ، وهذا هو النصر المبين إذا أتاه الله لمؤمن اتقى ربه وأعلى كلمته ، لذلك يعتبر تحرير هذه الشعوب من ظلم حكامهم تحريرا للفرد فى اعتناق ما يؤمن به من دين .

هذا هو الكسب الأول للحروب الاسلامية الأولى ، وياله من كسب وياله من نصر ، انتصار الحق على الباطل ، وفوز الخير على الشر .

٢ ـ ومن مكاسب الحروب الإسلامية ، ما استولت عليه جيوش الإسلام مما بيد الأعداء المهزومين من مال أو متاع ، وهو حق مشروع لمن انتصر للحق وقضى على قوى الشر ، بل هو ما تسير عليه الدول في الحروب الحديثة فيها يسمى بالغرامات الحربية يفرضها المنتصر على المهزوم ويأخذها منه في شكل مال أو أرض .

وقد سُمى هذا الكسب فى القرآن باسم الغنائم وهو ما جرت عليه التسمية فى صدر الإسلام والغنيمة هى ما يستولى عليه المقاتل المسلم من عدوه بعد ان ينتصر عليه فى ميدان القتال .

وقد شرع الله للمسلمين طريقة عادلة في اقتسام الغنائم بين المسلمين سواء منهم من حارب أو من لم يحارب ، وذلك توفيقا للتكافل والتعاون بين الأخوة في دين الله :

« وَاعْلَمُوا أَنَمَا غَنْمُتُمْ مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وِلِذِى القُرْبَ وَالْيَتَامَى وَالْمَتَامِي وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِالله وما أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانَ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٩٣٥) .

وعلينا أن نفرق بين هذه الغنائم وبين ما يسسى بالفيء .

فالفىء هو ما أتى الله المسلمين من أموال الاعداء من غير حرب مئل مال الصلح الذى كان يدفعه بعض الحكام المجاورين للمسلمين مقابل ألا يعتدى أحدهما على الآخر أو مقابل حماية المسلمين لاحد هؤ لاء الحكام ونجدته إذا ما اعتدى عليه حاكم آخر ومن الفىء الأرض التى كان يفر منها أعداء المسلمين خوفاً من محاربة المسلمين فتصبح هذه الأرض للمسلمين ، ومن الفىء أيضاً الجزية التى كان يدفعها أفراد

الشعوب المهزومة من أهل الكتاب إذا فضلوا البقاء على دينهم وأعفى منها من اتخذ . الإسلام دينا كما يشمل الفيء مصادر أخرى لأموال المسلمين في صدر الإسلام كالصدقات والزكاة والخراج والعشور .

وقد شرح العزيز الحكيم مصارف الفيء في الآيات ٧ - ١٠ من سورة الحشر ، بين فيها للمسلمين ضرورة مراعاتهم المساواة في العطاء من هذا الفيء بين من يستحقه من المسلمين فلا يستأثر به بعض منهم حتى لا يكونوا طبقة من الأغنياء يتميزون بما أخدوا من مال المسلمين على فقرائهم .

معاملة الأسرى في الإسلام:

ان الله الرحمن الرحيم ، وقد وسعت رحمته كل خلقه ، لم يستثن من رحمته أولئك الذين حاربوا دين الحق وناصبوا دعاته العداء ، فشملت رحمته الأسرى من الأعداء الذين وقعوا في يد المسلمين المقاتلين في سبيل الله بعد أن أتاهم بنصره المبين . فبعد أن أصبح هؤلاء الأسرى لا حول لهم ولا قوة ولا خطر يخشى منه ، وبعد أن كفي الله المؤمنين المنتصرين شر هؤلاء الأسرى وعدوانهم أبي الله إلا أن يؤخذوا بالرفق . فقد أمر سبحانه وتعلى المؤمنين بحسن معاملة هؤلاء الأسرى وتأمين حياتهم بل أمرهم أيضاً باقتسام الأسرى طعام المؤمنين حتى إذا ما اطمأن الأسرى إلى حسن معاملة المسلمين الأقوياء المنتصرين وإلى سماحة دينهم أخذهم المسلمون بالموعظة الحسنة في دين الله ، فقد يشرح الله قلوبهم للإسلام بعد ان ذهبت المسلمون بالموعظة الحسنة في دين الله ، فقد يشرح الله قلوبهم للإسلام بعد ان ذهبت المساحة الإسلام وحرمته بما كان في قلوبهم من غل وحقد وسبوء فهم لهذه الشريعة الإلهية السمحاء ، وتبين آيات الله البينات في كثير من المواضع ما يجب على المقاتل المؤمن أن يأخذ به سلوكه في معاملة الاسرى .

« وإنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّه ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنهُ ذَلِكَ بِائْهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴿١١٤٠ .

« يَا أَيُّنَا النَّبِيُّ قُل لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ اْلاَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُوْ تِكُمْ خَيْراً بِمَا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »(١٧٥٠)».

« وَيُطْعِمُونَ الطُّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيهًا وَأَسِيرٍٱ(١١٦)» .

بل إن سماحة الإسلام واحترامه لحرية الفرد لتابي إكراه أهل الكتاب من غير المسلمين على اعتناق هذا الدين القيم ما لم يشرح الله قلوبهم للإسلام فالهداية من الله وحده ، ولا إكراه في الدين .

ولذلك فرض على المغلوب الذى ظل على دين غير الإسلام جزية معلومة يدفعها فداء لنفسه ولحريته ، وحقاً لله وللمؤمنين به وبرسوله .

«قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَومِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (١١٧٨)».

٦ - ثواب القتال في سبيل الله:

إن فى قتال المؤمنين أعداء الله وأعداء الحق وأعداء السلام الذى أراده الله لهذه الأرض ، إنما هو قربي لله تعالى والتماس عفوه ورضاه ، وتطهير للمؤمن من هوى نفسه ، وحرب منه ضد الشيطان الذى يزين للناس حب الحياة الدنيا ويصرفهم عن طاعة الله وتقواه . والقتال في سبيل الله ولإعلاء كلمته التي أنزلها بالحق ، هو تكفير من المؤمن عما بدر منه من زلات أغواه بها الشيطان الرجيم في غفلة من المؤمن عن ذكره ربه وتقواه وبراءة للمؤمن من ذنبه وتزكية لنفسه إذ هو يشترى آخرته بدنياه ، ويشترى بحياته الموت في سبيل الله .

لذلك قرّب الله إليه المقاتلين من المؤمنين . إذْ أن من علامات تقوى المؤمن ربه والتقرب إليه وصدق الإيمان به التضحية بالنفس والمال حين يدعو داعى الجهاد والفداء في سبيل الله وحده لذلك فالمؤمن المجاهد في سبيل الله وحده أقرب وأحب إلى ربه من المؤمن المقاعد وهو قادر على القتال والجهاد :

« لأيَسْتَوى القَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّررِ وَالمُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوْالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدين دَرجةً وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْمُجَاهِدينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدين دَرجةً وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنِي وَفَضَّلَ اللَّهُ المُجَاهِدينَ عَلَى القاعِدينِ أَجْرا عَظيماً (١١٨) * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَعْفِرةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيهاً (١١٩) » .

الذينَ آمَنُوا وَهَاجَروا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظُمُ دَرَجَةً
 عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ (١٢٣).

فكيف إذن بأولئك القادرين جسدا ومالاً ثم قعدوا عن الجهاد مع إخوانهم المؤمنين في سبيل اللهِ وفي سبيل العقيدة ، وهم أقـدر على تحمـل متاعب الحـرب وتكاليفها ؟ ألا إنهم لقوم آمنوا بأفواههم بينها قلوبهم خواء من أى إيمان .

﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْحَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ (١٢١) » . وما أصدق قول رسول الله في هؤلاء المتخلفين :

(من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من النفاق) صدق رسول الله

وما لهؤلاء المتخلفين عن القتال فى سبيل الله لا يتخذون من الرسول الشجاع وممن آمن به من السلف الصالح أسوة ، ليؤتيهم الله فى آخرتهم خيراً مما بذلوا فى دنياهم ؟.

« لَكَن الرَّسُولُ والَّـذِينَ آمَنُوا مَعَـهُ جَاهَـدُوا بِأَمَـوالِهُمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُّ الخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُّ الْخُلِحُونَ » (١٣٢).

وإذْ أمر الله العلى القدير المؤمنين بقتال أعدائهم وأعداء دين الله ، إنما يعدهم النصر ويؤيدهم بروح من عنده ، فيأخذ بيد جنود الحق ، ويخذّل أعداءهم وينزل في قلوبهم الرعب والهلع ، وينصر المؤمنين ويظهرهم عليهم ، وهو سبحانه على كل شيء قدير :

« سَنُلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعب بِمَا أَشْرَكُوا بِالله مَالَمْ يُنزَّلْ بِهِ سُلْطَانـاً وَمَاواهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِينَ »(١٢٣) .

« قَدْ كَانَ لَكُم آيَةً فِي فِئتَيْنُ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبيلِ الله وَأُخْرَى كَافِرةٌ يَروْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَسيْنِ وَالله يُؤَيِّسُدُ بِنَصْسرِهِ مَنْ يَشْساءُ إِنَّ فِي ذَلِسكَ لَعِبْسرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ »(١٧٤). « وإذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذينَ كَفَرُوا لِيُشْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ُ والله خَيْرُ المَاكِرِينَ » (١٢٥) .

« وَلُو قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلُّوا الْأَدْبَارَ ثُمُّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَّلاَ نَصِيراً »(١٣٦).

وإذْ يخلُّل القوى العريز الكفار والمعتدين ويوهن قواهم ، يمد المؤمنين المجاهدين بجند من عنده لايرونها فتشد من أزرهم وتكون معهم حرباً على الكفار:

« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَسا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُوْمِنِينَ مَنْهُ بَلاَءٌ حَسَناً إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ »(١٢٧).

« بَلِ ِ اللَّهُ مُوْلاَكُمْ وَهَوُ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ١٢٨١) .

«إِذْ تَقُولُ لِلْمُوْمِنِينَ آلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُحَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَـة آلاف مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٣٢) * بَلَى إِن تَصْبَرُوا وَتَتَقُوا ، وَيَأْتُـوكُمْ مِن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاف مِنَ الْمَلائِكَة مُسَوَّمِينَ» . « وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئنَ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ الله الْعَزِيزِ الْحَكيِم » . « لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ اللَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْيِتَهُمْ فَيَنْقلِبُوا خَائِبِينَ» (١٣٠) .

« ذَلِكُمْ وَأَنُّ الله مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ » (١٣١) .

« وَعَدَّكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيَرةً تَأْخُدُونَهَا فَعَجَّل لَكُمْ هـذهِ وَكَفَّ أَيْدِى النَّـاسِ عَنْكُمْ ، وَلِتَكُونَ آيةً لِلْمُؤمنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيهاً »(١٣٢).

« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ، أَنِّ مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ مُرْدَفِينَ » (۱۳۳) .

هذا هو النصر الذي أتاه الله المؤمنين في حربهم ضد المعتدين ، وهو نصر يرفع به الله راية الحق ويعز به الإسلام والمسلمين في حياتهم الدنيا ، ما بقوا على إيمانهم بالله وتقواه والجهاد في سبيله ، فيلمسون من فورهم ثمرة هذا النصر بما يأتيهم الله من فضل وغنائم .

« وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لمْ ينالُوا خيْراً وكَفَى الله المَثْ منِين القتال وكانُ الله قَوياً عَزيزاً » .

« وأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّن أَهْلِ الكِتَابِ مِنَ صَيَاصِيهِمْ ، وَقَذَف في قُلُوبِهِمِ الرُّعْبِ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوَاهَمْ وَأَرْضَالَمْ لَمُ اللهِ عَلَى كُلُّ شَيءٍ قَدِيرًا » (١٣٥) .

« لَقَدْ رَضَى الله عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تحت الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُومِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً . وَمَغَانِمَ كَثِيَرةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً وَعَدَكُمُ الله مَغَانِمَ كَثِيرةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِه » (١٣٦) .

وإذْ نصر الله المؤمنيين على أعدائهم ، أحل لهم أخذَ أموالهم ومتاعهم وسلاحهم ، يوهن بذلك قوة الأعداء ، فيزدادوا ضعفاً ، ويزيد بها قوى المؤمنين فيزدادوا عزةً ومَنَعَةً .

ومن استشهد من المؤمنين في سبيل الله ، أتاه الله خيراً من كل ما في الدنيا ، آتاه مغفرة لما تقدم من ذنب ، رضاً وتقرُّباً منه ، ونعماً ونعياً دائماً مما لم يخطر على بال البشر ، وما عند الله خير وأبقى ، لا يؤتاه إلا من عَمُقَ إيمانه واتقى ربه ونفذ أمره ورضى بقَدَرِه .

وكيف يخشى المقاتل المؤمن الموت فى سبيل الله ، وكل نفس ذائقة الموت ، طال بها العمر أم قصر ، وخير للمؤمن أن يموت شريفاً كريماً فى سبيل الحق والعقيدة ليفوز برضا ربه ورحمته :

« فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله الذينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيا بالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُوْ تَبِهِ أَجْراً عَظِيهاً»(١٣٧) .

« وَلَثَن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى الله تُحْشَرُونَ »(١٣٨) .

« وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ الله أَوْمُتُمْ لَمُغْفِرةً مِنَ الله وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ بِمَّا يَجْمَعُونَ ٣(١٣٩٠) .

« وَلاَ تَحْسَبَنُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهَ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْـدَ رَبَّهُم يُرْزَقَــوُنَ . فَرَحِينَ بَمَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بَالَّـذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزُنُونَ (١٤٣) يَسْتَبْشِرُون بِنِعْمَةٍ مِنَ الله وَفَضْلَ وَأَنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المُؤْمِنين . الَّذينَ اسْتَجَابُوا لله وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ القَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرً عَظِيمٌ »(١٤٠) .

« إِنَّ الله اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمنينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ ويُقتَلونَ وعداً عَلَيْه حَقّاً في التَّوراة والإنجيل وَالقرآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْده مِنَ الله فَاسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُمُ الَّذَى بَايَعْتُمْ بِهِ وذلك هُوَ الْفَوْزُ العَظِيمُ »(١٤١).

وفي الحديث الشريف عن ثواب المقاتل في سبيل الله :

(الجنة تحت ظلال السيوف) ، (جعل رزقى تحت ظلال رمحى). (لغذوة أو رؤحة في سبيل الله خير بما تطلع عليه الشمس أو تغرب) ، (قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار) .

(من شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة) .

(يشفع الشهيد في سبعين من أهله) . صدق رسول الله .

هوامسش الفصسل الرابع

(١) البقرة ٢٥٦ (٢) البقرة ٢٥٣ (٣) البقرة ٢٦٨ (٤) البقرة ٢٧٢ . (٥) الأنفال ١٨ (٦) النساء ٧٦ (٧) التوبة ٣٢ . (٨) البقرة ٢١٦ (٩) التوبة ٤١ (١٠) البقرة ١٩٠ (١١) البقرة ٢٤٤ (۱۲) التوبة ۹۱ (۱۳) الفتح ۱۷ (١٤) التوبَّة ٩٣ (١٥) المتحنة ٨ (١٦) المتحنة ٩ (١٧) الأنفال ١٧. (۱۸) الحجرات ۱۵ (١٩) التوبة ٣٩ (٢٠) البقرة ١٩١. (٢١) البقرة ١٩٣٠ (۲۲) التوبة ۲۹ (۲۳) النساء ۷۵ (٢٤) الحيج ٣٩ (٢٥) التوبة ١٢ (٢٦) التوبة ١٣ (۲۷) التوبة ۱٤ (۲۸) التوبة ۱۲۳ (٢٩) الأنفال ٢٨ (۳۰) آل عمران ۱۲۰ (٣١) النساء ٧١ (٣٢) الأنفال ٦٠ (٣٣) الصف ٤

(٣٥) الأحزاب ٢٢ (٣٦) الأحزاب ٢٣ (٣٧) الأحزاب ٢١ (۳۸) النساء ۱۰۶ (۳۹) النساء ۱۰۱ (٤٠) النساء ١٠٢ (٤١) البقرة ٢٣٨ ، ٢٣٩ (٢٤) الأنفال ١٥ (٢٤) الأنفال ١٥، ١٦ (23) الأنفال ٢٦ (٥٤) الأنفال ٥٤. (٤٦) البقرة ٢.٤٦ (٤٧) آل عمران ١٦٧ (٤٨) آل عمران ١٤٩. (٤٩) آل عمران ١٥٦ (٥٠) آل عمران ١٦٨ (١٥) النساء ٧٧ (۷۳) النساء ۷۳ (۵۳) النساء ۸۸ (٥٤) النساء ٨٩ (٥٥) النساء ٩١ (٥٦) النساء ٧٧ . (۷۷) النساء ١٤ (۷۹) المائدة ۲۲ (40) المائدة ٢٤ (۲۰) المائدة ۲۵ (٢١) التوبة ٣٨ . (٦٢) الأحزاب ١٥ (٦٣) الأحزاب ١٨ (٦٤) الأحزاب ١٩. Y. Jak (90) (٦٦) الأحزاب ٢٠ . (٦٧) آل عمران ١٧٣ (۲۸) آل عمران ۱۷٤ (٦٩) آل عمران ١٧٥ (٧٠) الأحزاب ١٠، ١٣. (٧١) الأحزاب ٩ (٧٢) آل عمران ١٦٥

(٧٣) التوبة ١٤ .

(٤٤) عمد ٤

(٧٤) التوبة ٤٥ (۷۵) التوبة ۸٦ (٧٦) التوبة ٤٢ (٧٧) التوبة ٤٦ (٧٨) التوبة ٤٧ (٧٩) التوبة ٥٦ (۸۰) التوبة ۵۷ (٨١) التوبة ٨١ (۸۲) التوبة ۴۳ (۸۳) التوبة ۸۸ (٨٤) التوبة ٩٥ (۸۵) التوبة ۹۳ (٨٦) التوبة ٨٣ (۸۷) التوبة ۷۳ (٨٨) التوبة ٩٧ (۸۹) التوبة ۱۰۱ (٩٠) التوبة ٩٨ (٩١) الفتح ١١ (٩٢) الفتح ١٢ (٩٣) الفتح ١٥ (٩٤) التوبَّة ٣٦ (٩٥) البقرة ١٩٤ (٩٦) البقرة ١٢٥ (٩٧) البقرة ١٢٦ (٩٨) البقرة ١٩١ (٩٩) البقرة ١٩٢ (۱۰۰) التوبة ٣ (١٠١) التوبة ٤ (۱۰۲) التوبة ٥ (۱۰۳) التوبة ۲۸ (۱۰٤) التوبة ٦ (١٠٥) البقرة ٢٠٨ (١٠٦) الحجرات ١٠ (۱۰۷), الحجرات ۹ (۱۰۸) النساء ۹۳ (۱۰۹) النساء ۹۲ (١١٠) النساء ٩٤ (۱۱۱) الأنفال ٦١ (١١٢) الأنفال ٥٨.

(١١٣) الأنفال ٤١

(۱۱٤) التوبة ٦ (١١٥) الأنفال ٧٠ (١١٦) الإنسان ٨ (١١٧) الْتَوبَة ٢٩ (۱۱۸) النساء ۹۰ (١١٩) النساء ٩٦ (۱۲۰) التوبة ۲۰ (۱۲۱) التربة ۸۷ (۱۲۲) التوبة ۸۸ (۱۲۳) آل عمران ۱۵۱ (۱۲٤) آل عمران ۱۳ (١٢٥) الأنفال ٣٠ (١٢٦) الفتح ٢٢ (١٢٧) الأنفال ١٧ (۱۲۸) آل عمران ۱۵۰ (١٢٩) آل عمران ١٢٤ (۱۳۰) آل عمران ۱۲۰-۱۲۷ (۱۳۱) الأتفال ١٨ (۱۳۲) الفتح ۲۰ (۱۳۳) الأنفال ٩ (١٣٤) الأحزاب ٢٥-٢٧ (۱۳۵) الفتح ۱۸-۲۰ (١٣٦) النسآء ٧٤ (۱۳۷) آل عمران ۱۵۸ (۱۳۸) آل عمران ۱۵۷ (۱۲۹) آل عمران ۱۲۹–۱۷۲ (١٤٠) التربة ١١١



verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





العلم والإيمان :

يحض العليم القدير ، عظم علمه وجلت قدرته ، في قرآنه الكريم ، بني آدم على التفكير فيها حولهم من ظواهر الأشياء وجوهرها ، وهي تلك الأشياء المادية مما يمكننا إدراكها بحواسنا ، كالبصر والسمع واللمس ، كما يأمرنا بتدبر وتعقل ووزن ما نرى أو نسمع أو نلمس بميزان العقل ، مع البعد عن الغرض والهوى ، أى أن يكون تفكيرنا في هذه الأشياء محايدا وموضوعيا ، فالحيدة والموضوعية هما أهم أسس معرفة ظواهر الأشياء وحقائقها .

ونحن إذْ نحس هذه الأشياء نتدبر أسبابها وموجداتها فنصل بذلك إلى جوهر هذه الأشياء ومعانيها الحقيقية ، ونحن اذْ نتدبر هذه المعانى إنما نحاول - الحصول على المعرفة الشاملة بتكوينها وأسبابها والقصد من إيجادها ، وهذا ما يسمى بالمعرفة اليقينية . فالحواس تؤدى إلى العلم المادى ، والعلم يؤدى إلى معرفة الجوهر والمعنى .

وبِتدبُّر معانى الأشياء وانفعال النفس بها وتمثلها يستيقظ الضمير ، ومن هـذا الضمير ينبع الاحساس بجوهر الموجود أو حقيقته التي لا تدرك بالحواس وحدها ولا بالعقل وحده ولكن بتعاون الحواس والعقل والضمير . فمن أوتى حسا سليها

وعقلا راجحا وضميرا حيا يقظا اهتدى إلى المعرفة اليقينية بالحق سبحانه وتعالى وقدرته على الخلق والإبداع وسلامة تدبيره وخير قصده ، كل هذا يؤدى إلى الإيمان المطلق من حدود الزمان والمكان بالخالق القادر الحكيم المدبّر المسيّر لما خلق ، وإسلام الأمر كله له والعمل بما أمر به والتوكل عليه والاستسلام لِقَدَرِهِ .

من هذا نرى أن حث الله لنا على طلب العلم وتحصيل المعرفة إنما أراد بهما الخير لنا فى حياتنا الدنيا ، هذا هو ظاهر العلم . أما باطنه فهو الوصول إلى معرفة الخالق والإيمان بوحدانيته وقدرته وحكمته ، والتسليم بقَدَرِه .

والحكمة الإلهية من حض الناس على ممارسة هذا النوع من السلوك الفكرى ، هى ان تطمئن نفس الإنسان ويهدأ باله ، لأن اطمئنان النفس وهدوء البال مع حسن التدبير من عوامل التيقن التي هى أولى مقومات الإيمان ، وباليقين يتجنب الإنسان الشك الذى يؤدى إلى إساءة الظن بالأشياء وعدم تدبر حقيقة الظواهر والأفعال والنتائج ، وما ينعكس عن سوء الظن والتدبر في حياة الناس من قلق نفسى وخطأ في السلوك وما يقعون فيه من آثام ، وما يلحق نفس الإنسان من ضلال ومعاناة وعذاب .

وقلما نجد سورة من سور القرآن الكريم وليست فيها آية أو أكثر تحض المؤمنين على النظر والتعقل والتفكر والتدبر أو تحصيل العلم والمعرفة .

وقد يفكر الإنسان فيها يرى مما حوله ويتأمله ويتدبره ثم يعمل بما علم ليفيد منه فائدة دنيوية فحسب ، وقد يحس الإنسان بما حوله من مظاهر ولكنه يمر بها مر الكرام دون أن ينال منها أى نفع .

وعلى العكس من ذلك نجد آخر يفكر فيها حوله ، يتأمله ويتدبره بقصد الحصول على المعرفة والعلم المجردين ، فيتدبر الأسباب والنتائج ثم يقف عند اختزان المعرفة .

فالانسان فى الحالة الأولى إنما يفكر ويتدبر فيها ينفعه نفعاً مادياً فى حياته الدنيا فحسب أو يفكر ولا يفيد شيئا ، فيزداد حبا فى الدنيا وتعلقاً بها وتمسكاً بحياته فيها ، وينسى آخرته ويوم الحساب المحتوم ، وهذا شر ما تبتلى به البشرية من تفكير خاطىء

سىء العاقبة ، وهذا سبب ما نراه فى العالم من تسلط وظلم وعدوان ، وهو سبب ما يعانيه الإنسان من تعاسة وآلام ، إذْ نسى ربه واليوم الآخر فحرمه الله من رحمته ورعايته .

أما الإنسان في الحالة الثانية فإنه ينظر ما حوله ويتدبر ، ثم يكشف بما عرف قدرة الخالق فيها خلق وحسن تدبيره وصرفه للأمور فيؤ من بالخالق وبوحدانيته وبحكمته فيها خلق ودبر ، فيهدأ باله ويطمئن قلبه .

والناس فيها يفكرون ويتدبرون صنفان :

فمنهم من قد ينصرف بكليته نظراً وفكراً متأملاً فيها خلق الله ، دون الإفادة من ماديات الحياة ، فيصل إلى ما يعرف بالتصوف ، وهو التجرد والانقطاع المطلق عن متاع الدنيا إلى العبادة والقربى من الخالق سبحانه وتعالى ، دون أن ينال حظه مما أحل الله له من نعم وما منحه من رزق ومتاع دنيوى مادى .

يقابل هذا صنف آخر من الناس انصرف بحسه وحواسه وفكره إلى نيل أقصى ما تصل إليه يداه من متاع دنيوى لنفسه ودون غيره ، حتى ولو كان فيها يرغب ويحصل عليه إضرار بالناس أو صرف له عن ذكر الله وتقواه وعن يوم الحساب في الآخرة وهذا الصنف هو ما يطلق عليهم اسم الماديين .

وليس من الإسلام هذا ولا ذاك ، فالاسلام دين ودنيا :

الإسلام دين يذكر المؤمن ربه وتقواه وإقامة شعائره ، ثم الاستعانة به في العمل للعيش في دنياه حياة كريمة صالحة وإسلام الأمر كله إليه والرضا بقدره ، وحمده سبحانه وتعالى وشكره على ما يقدر ، فيعمل المؤمن بما أمر الله من صالح الأعمال في دنياه ونيل حظه فيها ، والتزود من دنياه لأخرته .

ومن ثم حض الإسلام المؤمن على البحث وتحصيل العلم بما ينفع المؤمن فى دنياه وآخرته ، إذْ أمر بأن يكون تحصيل العلم والمعرفة قائبا على تقوى الله والتماس عونه فى كسب الرزق الذى أحله ، وذلك بالعمل الصالح الذى يفيد منه صاحبه كما يفيد به مجتمعه ، بغير عدوان على حق الله وحقوق الناس .

فبطلب العلم وبالعمل الصالح بما عُلم وعُرف ينفّذ بنو آدم أمْرَ ربهم في عمران هذه الأرض بالتي هي أحسن وأصلح:

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَاده والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »(١) .

ورابطة العَقْد بين الإيمان بالله وذكره وتقواه وبين طلب العلم والحصول على المعرفة ، هو العلم القائم على النظر والتأمل والتدبر ، والربط بين المرثيات ، والمحسوسات واستخلاص النتائج ، ثم عملُ المؤمن بما عَلِم على معرفة الله والإيمان بقدرته وقدره ، والانتفاع بهذا العلم في إعلاء كلمة الحق وإقامة العدل ، حتى تكون ثمرة المعرفة والعمل كسب رضا الخالق والنفع الحقيقي للخلق .

وبذلك يفيد العالم ، بعلمه ، نفسه ومجتمعه في حياته الدنيا ، ويتزود بصالح أعماله في دنياه لآخرته . والعمل إذا لم يكن قائبا على علم يقيني ومعرفة تامة بطبيعة الأشياء التي يبغى الإنسان الانتفاع بها في معاشه ومعاش من حوله من الناس ، يصبح عبثاً وعملاً غير صالح ، لا من حيث عدم حتمية النتائج المادية المرجوة فحسب ، بل من حيث عدم عمومية فائدتها لسائر الناس .

هذا عن العلم في جانبه المادي .

أما الجانب الروحى من العلم وجوهر المعرفة فهو الوصول بصاحبه إلى معرفة الحق وبذلك يعمق هذا الجانب إيمان المؤمن بالله وحده وترسخ فى قلبه تقواه ، وهو بذلك يكون علماً صالحاً ومعرفةً مقبولة عند الله ، وينال بهما صاحبهما خير الجزاء :

« فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ومن يَعْمَلْ مثقال ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »(٢) .

القرآن والمنهج العلمي :

ان المعرفة الحقة والعلم اليقيني بشيء أو بظاهرة لا يأتيان عفوا ، بل لابد للحصول عليها من اتباع أسلوب أو طريقة تتمثل في عدة خطوات متتابعة ومترابطة يسلكها الباحث في فكره وعمله لكي يحصل على المعرفة أو العلم المطلوب ، بحيث تكون كل خطوة في بحثه وتحصيله نتيجة لسابقتها وتمهيداً للاحقتها ، وهذا ما يعرف

فى التعبير الحديث بالمنهج العلمى ، ويمكن أن نسميه بالسلوك العلمى ، وتكون النتيجة النهائية لهذه الخطوات حقيقة ثابتة تنطبق على الأشياء والظواهر المشابهة بشرط توافر نفس الشروط ، ومتى ثبتت صحة هذه النتيجة أصبحت قانونا أو نظرية .

وتسير خطوات العمليات العقلية في المنهج العلمي على الترتيب التالى :-

١- الإحساس بالشيء أو الظاهرة ، وأدوات هذا الإحساس هي البصر والسمع واللمس والذوق والشم .

٢- الملاحظة أى إمعان النظر أو السمع أو اللمس مع التفكير .

التذكر والربط أى تذكر ما يتصل بهذا الشيء أو هذه الظاهره عن طريق تداعى
 المعانى ثم ربط المتشابه منها بما نحس .

٤- فرض الفروض أى تدبر ما نحس وتقليب الفكر فى كـل جوانبه ، وتلمس
 التفسير لما رأينا أو تذكرنا .

٥- تجربة الفرض ، وهو الجانب العملى فى البحث ، للتحقق من صحة هذا الفرض .

٦- فإذا نجحت التجربة وثبتت صحة الفرض ، جاءت النتيجة إيجابية وأصبح هذا الفرض يقينا فيسمى قانونا ، والقوانين حقائق ثابتة تتكون منها المعرفة الحقة والعلم اليقينى .

هذه الخطوات في المنهج العلمي في البحث وتحصيل العلم والمعرفة قد أوحى بها الله للناس في كثير من آيات القرآن الكريم ، فهذه الآيات تتضمن ألفاظا توحى طريقة تحصيل الناس للمعرفة ، فمن هذه الألفاظ مشلا : تنظرون ، ياأولى الأبصار ، انظر ، اسمعوا - تتذكرون - تتفكرون - تعقلون - تعرفون - تعلمون .

وهذه كلها أوامر ربانية للناس بأن يتخذوا من هذا القرآن الكريم مرشدا يهتدون بتوجيهاته وبياناته لفهم الكون وما يجرى فيه من أحداث وللحصول منه على العلم والمعرفة .

وسبيل الحصول على هذا العلم وهذه المعرفة هو النظر والتأمل والتذكر والتدبر والتعقل والعمل ، ثم بعد ذلك نصل إلى تحصيل المعرفة بما هية ماديات هذا الكون ومعنوياته فنؤ من إيماناً راسخاً وعلماً يقينيا بوجود السبب الأول لكل أسباب الكون ،

مادق فيه وما عظم ، ألا وهو الخالق الواحد جل وعلا . وطريقنا هو تفهم القرآن الكريم وآياته البينات وما أتت به من علم يقيني ومعرفة حقة من بحر علم الله الذي لن نبلغ منتهاه .

فلننظر ولنتدبر بعضا من هذه الآيات :

« قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبةُ المُكَذَّبِينَ »(٣) .

فلنقرأ تاريخ الأمم ولننظر ونتدبر ما انتهت إليه بعضها بظلمها وكفرها بالله :

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصَارِكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَاتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرّفُ اْلآيَاتِ ثم هم يَصْدِفُونَ »(٤) .

وهو سبحانه وتعالى القادر على كل شيء قد وهبنا السمع والبصر والفؤ اد لنحس بها ونفكر ونتدبر بديع خلقه ، وهو وحده القادر على أن يذهب بها جميعا .

« وهو الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ »(°) .

وهل ينكر عاقل أن الله وحده هو القادر على أن يحيى ويميت ؟ أو ليس في ذلك حث لأهل العلم على التواضع ، وهم أمام علم الخالق أقزام لم يحيطوا إلا بـأقل القليل من واسع علمه ؟ .

فآيات الله ظاهرة واضحة لكل ذى عينين يبصر بهما ولكل ذى عقل يفكر به ، فعلينا أن ننظر ونفكر في بديع خلقه لنحصل على مزيد من العلم والمعرفة .

« قُلْ إِنْمَا أَعِظُكُم بواحدةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرادَى ثُمَّ تَتَفَكَّروا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابِ شَدِيدٍ »(٦) .

فعبادة الله وذكره وتقواه لا تتعارض مع حرية تفكير البشر وتحصيلهم العلم .

لا قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينَة اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعبادِه والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصةً يَوْمَ القِيامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »(٧) .

« وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَومٍ يَفْقَهُونَ ، (^) .

فهو سبحانه وتعالى يزيد العالم والفقيه علماً ، بزيادة البيان والتفصيل فيها يعلمون ويفقهون ، ومن لا يؤمن بآيات الله الواضحة البينة فهو لا يعلم ولا يفقه شيئا .

« وتلك الأمثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وما يَعْقِلُهَا إلاَّ العالِمُونَ »(١) .

« وهَذَا صِرَاطُ ربك مستقيما ، قد فَصَّلْنا الآيات لقوم يَذَّكُّرُونَ »(١٠)» .

وكلام الله سبحانه وتعالى واضح وآيات قرآنه الكريم لا لبس فيها ولا غموض على من ذكر ربه واتقاه وأسلم لقدرته وقدرِه وحكمه .

العلم والعلماء في القرآن:

أن من يقرأ القرآن الكريم قراءة واعية متفهمة ، فاتحاً بصره وقلبه لما يقرأ ، يجد فيه منهلا عذباً لا ينضب له معين من أنواع العلوم والمعارف التي تناولت قدرة الخالق وعظمته وبديع خلقه ، كما تناولت عجيب تكوين هذا الكون بما فيه من حى وجامد ثم هو بعد ذلك لن يطلع ولن يلم الا بقطرات من بحر علم الله الواسع الذى لا حدود له ولا نهاية .

ومهما أوقى قارىء كتاب الله المبين من علم ومعرفة ، فإن علومه ومعارفه لتتضاءل إلى أقل من القليل من بحر علم الله ، ذلك العلم المطلق بكل صغيرة وكبيرة مما يظهر لنا ، وما يزال خافيا عن إدراكنا .

وكيف نعجب لقصورنا وعجزنا أمام علم الخالق جل وعلا ؟ وهو الذي أحاط علمه بالماضي الذي لا نزال نجهله والحاضر الذي نحاول التعرف عليه بقدراتنا المحدودة – والمستقبل الذي لا يعلمه إلا هو وحده علام الغيوب.

كيف نعجب ؟ وهو سبحانه المبتدأ والمنتهى ومصير كل شيء إليه ، هو الخالق والمحيى والمميت ، وهو سببحانه الذي لا يقول لشيء كن الا وكان ، وهـ و جلت قدرته الأغرف بما خلق ، ما خفى منه وما ظهر :

« إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ »(١١) .

إن إرادة الحالق ، وقد خلق بني آدم واستخلفهم على هذه الأرض لإصلاحها وتعميرها بالحق والعدل ، ما شاءت إلا أن يرعاهم بعنايته فأمدهم بجزء من علمه ،

وبالقدر اللازم الذي يساعدهم على تذليل هذه الارض والعمل والاستزادة ، من العلم والمعرفة .

وقد بدأ العليم الخبير بآدم أبى البشر عند خلقه ، فلقنه من هذا العلم ما لم يلقنه لملائكته الأطهار :

« وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَوُ لاَءِ إِن كُنْتُمْ صادِقينَ »(١٢) .

« قَالَ يِاآدُمُ أَنْبُتُهُمْ بِأَسْمَاثِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَاثِهِم قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّ أَعْلَمُ عَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَأَعْلَمُ مَا تبدونَ وما كنتم تَكْتُمونَ »(١٣)» .

ويريد العليم الخبير من أولى العلم ومن الباحثين عن المعرفة أن يصلوا ببحثهم وعلمهم إلى جوهر الأشياء فضلاً عن ظاهرها ، فيتبينوا قدرة الخالق وجلال تدبيره فيزدادوا إيماناً بقدرة الله ووحدانيته فيها خلق بالحق وتدبيره وتسييره بالعدل .

« شَهِدَ اللَّهُ أَنَّه لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِمًا بِالقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاًّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »(١٤) .

والعالم إذ يصل بما علم إلى معرفة الحق وعظمة ربه وجلاله ليتضاءل أمام الحق تعالى وليخشع له في سره وعلنه ويخضع لأمره ويسلم لمشيئته ويتقيه ، فيتجمل بما أراد الله للعلماء من تواضع ويتقى غضب ربه بالعمل الصالح بما علم وعرف ، فيفيد البشر بدلا من أن يفسدهم ، ويعمر الأرض بدلا من أن يخربها .

ومن آياب تواضع العلماء وتقواهم :

« قُل آمِنُوا بِهِ أَوْلا تُؤْمِنُوا إِنَّ الذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىَ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً »(١٠)» .

« وَيُخِرُّونَ للأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزيدُ هُمْ خُشُوعاً »(١٦) .

« وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ ربِّنَا ، إِن كَان وَعْدُ رَبِّنَّا لَفْعُولاً(١٧)» .

ويميز الله العلماء من الناس ويجعلهم أقرب إليه من غيرهم

« أَمَّنْ هُوَ قَانِتُ آنَاءَ الَّلِيلِ سَاجِداً وَقَائِهاً يَخْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّه قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَاَيَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكُّرُ أُولُوا الْآلْبابِ ،(١٨).

بل يشبه الحكيم العليم من لا يعلم ولا يعرف بالأعمى الذي لا يرى ما حوله من بديع صنع الخالق .

«وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩)» .

ومَنْ أحسن عملاً بما علّمه الله وبما آتاه من معرفة ثم اتقى ربه ، أحبه الله وزاده من لدنه علما ومعرفة ، وها هو يوسف الصديق عليه السلام ، إذ اتقى ربه وعرف الحق وصان الأمانة فحصن نفسه عن المعصية والخيانة لمن أحسن إليه ، فأتاه الله من العلم ما فسر به الرؤيا ومن حسن التدبير ما انقذ به شعبا بأكمله من مجاعة كادت تدهمه .

« وَلَّا بَلَغَ أَشُدُّهُ آتَيْنَاهُ حُكُماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزى الْمُحْسِنينَ ، (٢٠)».

والإنسان لا يولد عالما ، بل يخرج من بطن أمه إلى هذه الدنيا غفلاً من أى معرفة أو تدبّر . ولكن العزيز الحكيم الرحيم بعباده ، قد زود هذا المولود بأدوات المعرفة والعلم التى تنمو بنموه ، زوده بالحواس التى بها يحس ما حوله من ظواهر الأشياء ، وعقل يتدبّر ما يحس به . فيكتسب من الخبرات والمعارف مع تقدم العمر ، ما يعينه على الحياة الصالحة في هذه الدنيا ، وبالعلم يصل إلى معرفة الحق سبحانه وتعالى والإيمان به وتقواه في سلوكه ، والتسبيح بحمده وشكره .

« وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْدًا وَجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِلَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(٢١)» .

ومظهر الشكر لله هو عمل العالم بعلمه ما يصلح حاله وحال إخوانه من بنى آدم .

ويأمر العزيز الحكيم عباده بتحصيل العلم والتزود بالمعرفة عن طريق البحث والتنقيب فى خلق الله بالبصر والبصيرة ، وبقلب مفتوح للحق وعامر بالإيمان بقدرة الخالق وجلاله ، وعلى الناس وهم يحاولون الحصول على العلم والمعرفة أن يتخذوا

من الماضى عبرة لحاضرهم ومن حاضرهم عدة نافعة لمستقبلهم ، وأن يميزوا فيها يعلمون ويعرفون بين الحق والباطل ، وبين الطيب والخبيث ، متجهين في جميع الأحوال إلى ربهم يلتمسون منه المزيد من العلم .

« وَقُل رَّبِّ زِدْنِ عِلمَّا (٢٢)» .

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُم قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بها فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُودِ »(٢٣) .

« أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَان عَاقِبة الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدً مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَهَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلَمَهُمْ ، وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (٢٤)؛ .

ذلك لأن العلم بلا إيمان وتقوى ، يكون إفسادا لا وسيلة تعمير وإصلاح ، ومن غره ما آتاه الله من قوة وغنى ، بالكفر بنعم الله وعدم تقواه ، فهو لا يزال جاهلاً وضعيفاً وفقيراً أمام الخالق وقوته وغناه ، ولا يملك لنفسه دفعاً لبأس ربه وغضبه وعذاه .

ويأمر العلى القدير الناس بالرجوع إلى أنفسهم وما بداخلهم يبحثون في طبيعة النفس البشرية وأهوائها ومثيراتها ونوازعها وغير ذلك مما توصل إليه الباحثون وأقاموا منها علما قائما بذاته هو علم النفس ، ومن عرف نفسه حق المعرفة اتقى من نوازغها ما يقوده إلى الشر والفساد ، كما يأمر الخالق سبحانه وتعالى الناس بالتبصر والتفكير في السماء التي فوقهم وفي الأرض التي تحت أقدامهم للحصول على العلم والمعرفة التي تصل بهم إلى الحق وإلى الإيمان بأن لكل مما يرى أجلا محتوما لا يعلمه إلا الله فيزدادون إيماناً بالخالق ويتقون في عملهم ذلك اليوم العصيب يوم البعث والحساب:

«أَوَلُمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَواتِ والأرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالحقّ وَأَجَلٍ مُسَمَّى وَإِنَّ كِثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلقاءِ رَبِّهِمْ لكافِرُونَ »(٢٠) .

وليس العلم أو تحصيل المعرفة هو الأخذ بظواهر الأشياء للانتفاع بها نفعاً مادياً في الحياة الدنيا فحسب ، إنما العلم والمعرفة هما ما أديــا بصاحبهــما إلى التفكير في الأسباب فيرجعها كلها إلى تلك القوة العليا التي لا ندركها بحواسنا ، بل ندركها بقلوبنا وضمائرنا وبذلك يصل العالم في تحرّيه هذه الأسباب إلى الإيمان بالله وحده وباليوم الآخر :

« يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَة هُمْ غَافِلُونَ »(٢٦) . .

ومن وصل بعلمه إلى معرفة جوهر الأشياء وحقيقة الظواهر وأسبابها والحكمة في خلقها ، فقد اهتدى للحق فخشع له ، وهداه الحق إلى الإسلام له والسير على صراطه المستقيم :

«وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الْخَقُّ مِن رَّبِّكَ فيؤ منوا بِه ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهُ لَهَادِ الَّذِينَ آمنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »(٢٧)

« وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صرَاطِ العَزيز الْحَمِيد (٢٨)» .

إن تحصيل العلم وكسب المعرفة وإتيان الحكمة ليست بالأمور الهيئة الميسرة لكل الناس ، بل هي لمن هدى الله ، وسلك بعلمه السلوك العلمي الصالح من بداية النظر والتأمل إلى حدوث النتيجة الصالحة المرجوة . فالسلوك العلمي الصالح يتطلب ، فضلاً عن التطلع والنظر والتأمل والصبر وتقصى الحقائق ، كثيراً من القراءة والاطلاع فيها ترك لنا علماؤنا من السلف الصالح ، وان على من يبطلب العلم والمعرفة ، إذا ما وفقه الله إلى تحصيلها ، ألا يستأثر بها لنفسه ولا يتخذ منها وسيلة للفساد والإفساد ، بل عليه أن ينفع الناس بما آتاه الله من نعمة العلم سواء بالخطاب او بالكتابة بل عليه أن يدونه في صحائف لينتفع به من يليه من أجيال ، وبذلك تتراكم المعرفة وتسع دائرتها بتوالي الأجيال .

ومن السلوك العلمى الصالح تقوى العالم ربه فيها يقول وفيها يكتب ، وألا يغفل عن ذكره ، وعليه ان يستعين بالله ويلتمس رضوانه فيها يقول أو يكتب فيكون بذلك عالماً صالحاً ، ولا يصدر عنه من العلم والمعرفة إلا كل صالح نافع له ولمجتمعه .

وما نزل القرآن على سيد المرسلين إلا ليعلمه ربه ما لم يعلم ، وليعلم الناس بما علم ما هداه الله إليه من أنواع العلوم والمعارف ونواحى السلوك الصالح . ويكفى

دليلاً على أهمية العلم للانسان أن نزلت أول سور هذا الكتاب المبين تأمر الناس بالعلم وتحصيل المعرفة :

« إِقْرَأْ بِاسْم رَبُّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الأنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمَ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »(٢٩) .

هذه هى منزلة العلم ، وهذه هى مكانة العلماء فى كتاب الله الكريم ، حث على طلب الصالح من العلوم وتحصيل المعرفة الحقة ، وإكبار للاتقياء من العلماء وإعلاء لشأنهم بين البشر .

وقد تضمن خاتم كتب الله طرفا من علم الله المطلق وحكمته البالغة في كونه الواسع اللانهائي ، ماضيه وحاضره ومستقبله ، جاء من ذلك بالقدر الذي رأى فيه موعظة منه لبني آدم ونفعا لهم ، وفتحاً لباب البحث والمعرفة لكل ذي عقل وصبر ليصل الناس إلى بعض من أسرار الكون والخلق ، ينتفعون بها في حياتهم الدنيا ، ويتعرفون على قدرة الخالق وبالغ حكمته وواسع رحمته بخلقه ، وفي كل هذا تثبيت للإيمان به وحده ، وفتح لصدورهم للمزيد من تقواه وخشيته .

إن كل ما وصل إليه البشر في تاريخهم الطويل منذ أن نزل أبوهم آدم إلى هذه الأرض من خبرات وعلوم ومعارف ، ما هي إلا قطرة من بحر علم الله الذي لا نهاية له ولا حدود :

« وَلَوْ أَغَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالبَحْرُ يَكُدُهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حكيمٌ (٣٠)» .

« يَا بُنَىَّ إِنَّهَاإِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرِدل ، فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السّمَواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٣١٪» .

وقد أورد العليم الخبير في قرآنه الكريم طرفاً من علم الله الواسع ، يوحى به إلى المبشر بمزيد من الرغبة في استطلاع الكون وتحصيل العلم وتطلعا إلى المعرفة بالكون والحلق ، وإذْ يؤت الله البشر ما شاء من علمه إنما يعطى بالقدر اللازم وبما يكفى الإنسان وما ينفعه في حيانه الدنيا وما يزيدهم إيماناً بالله وقدرته وحكمته .

وللقرآن الكريم أسلوبان في عرض العلوم ونواحى المعرفة والأحكام ، اقتضتها حكمة الله في تعليم البشر وتربيتهم :

فهو يلمح تلميحاً ويجمل إجمالاً فيها يتصل بطبيعة الكون وتركيبه وحركاته وكل ما ندركه بحواسنا وهو ما يسمى بالعالم المادى ، ويترك للإنسان بعد ذلك بحث التفاصيل بالعمل الجاد وبما وهبه الله من عقل وإدراك ليستفيد بما حصل عليه من أسرار الكون في حياته الدنيا . وهذا النوع من التحصيل هو ما يطلق عليه اسم العلوم الطبيعية .

ثم يفصّل بأدق تفصيل ويبين بأجلى بيان وأبلغ لسان كل ما يتصل بالسلوك الإنسانى الصالح وبعلاقة الإنسان بربه بما يزيد إيمانه وتقواه . كما يسوق فى آياته وسحر بيانه الحكمة البالغة والموعظة الحسنة والأحكام القاطعة فى علاقة الإنسان بغيره من الناس ويجمع كل هذا ما يسمى بعلوم القرآن .

هوامسش البساب الرابع

(١) الأعراف ٣٢ (١) الزلزلة ٧ ، ٨ (٣) الأنعام ١١ (٤) الأنعام ٢٦ (٥) المؤمنون ٨٠ (٦) سبأ ٤٦ (٧) الأعراف ٣٢ (٨) الأنعام ٩٨ (٩) العنكبوت ٤٣ (١٠) الأنعام ١٢٦ (١١) آل عمران ه (۱۲) البقرة ۳۱ (١٣) البقرة ٣٣ (14) آل عُمران ١٨ (١٥) الإسراء ١٠٧ (17) الإسراء ١٠٩ (۱۷) الْإسراء ۱۰۸ (۱۸) الزمر ۹ (١٩) فاطر ١٩ (۲۰) يوسف ۲۲ (۲۱) النحل ۷۸ 118 46 (77) (۲۳) الحج ۲۹ (٢٤) الروم ٩ (۲۵) الروم ۸ (٢٦) الروم ٧ (٢٧) الحج ٤٥ ۲۲) سات (٢٩) العلق ١-٥ (۳۰) لقمان ۲۷ (۲۱) لقمان ۱٦

الفصل الأول

علوم القرآن

ويقصد بعلوم القرآن تلك العلوم المتصلة به ، ككتاب سماوي ، من إعجاز في الأسلوب والمعاني وبلاغة في التعبير ووضوح اللغة وبيانها ، وأصول الدين والعبادات ، والتثيريع لما يجب أن تكون عليه العلاقات بين أفراد المجتمع الإسلامي بعضهم مع بعض ، ومع أصحاب الملل الأخرى .

وقد سبق أن بينا أصول الدين والعبادات فى الباب الشانى الخاص بـالإيمان وشروطه ومقوماته . وسنتاول فيها يلى النواحي اللغوية والتشريعية .

أولا .. اللغة :

شاء العليم الخبير بنفوس البشر وتقلب أهوائها وعنادها وترددها ، أن يكبح جماح هذه النفوس ويرجعها عن غيها إلى جادة الصواب والحق ، فأرسل في كل أمة رسولا من أهلها ، وحمله كتابا سماويا بنفس لغتهم ، فيه بيان الصراط المستقيم الذي يجدر بالبشر السير على هداه ، ومبينا للناس الحق من الباطل ، والسلوك الصالح الذي ينفعهم في حياتهم الدنيا بحياة صالحة جديرة بأرقى الكائنات الأرضية ، ولينالوا بصالح أعمالهم ما يرجون من واسع رحمة خالقهم وربهم ورضوانه يوم البعث والحساب في الحياة الأخرة :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولِ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لَيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ الله مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ، وَهُو العَزِيزُ الحَكِيمُ »(١) .

وما أرسل الله من رسول إلا أيَّده بروح من عنده ومعجزة خارقة يلجم بهما ألسِنَة المكابرين من قومه ، فلا يجدون أمام قدرة الله ومعجزاته سوى الإسلام له عز وجل ، والتسليم والإيمان بوحدانيته ، والخضوع لمشيئته ، والانصياع لأوامره بلا تردد ، والتماس عفوه ورضاه وإتقاء غضبه :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَان حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْلُؤ مِنِينَ »(٢) .

أرسل الله نبيه موسى إلى فرعون وقومه بمعجزة العصا التي انقلبت ، بإذن الله ، حية التهمت أفاعيهم ، وبها شق البحر لينجو بقومه من مطاردة فرعون وجنده ، وليفجر بها الماء العذب من الصخر الأصم .

ووهب عيسى بن مريم القدرة على شفاء المرضى وإحياء الموتى بإذن ربه سبحانه وتعالى :

« وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطَّينِ
 كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ الله وَأَبْرِيءُ الأَّكْمةَ وَالْأَبْرَصَ وأُحيى أَلمُوْتَ بِإِذْنِ الله وأُنبَّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُم إِنَّ فِي ذَلِكَ لآية لَكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ »(٣).

أما معجزة سيدنا محمد على فكانت وستظل ، قرآن الله المبين ، الذى أوحى به إلى هذا النبى الأمى ، وبلسان قومه حَرْفاً ولفظاً ومعنى ، ولكنه كان فى تراكيبه وأسلوبه تحدياً لما أوتى العرب وما اشتهروا به من فصاحة وبلاغة وبيان وذكاء فى التعبير بمختلف فنون التعبير اللغوى شعراً كان أو نثراً ، ولكنهم وقفوا أمام هذا الكتاب المبين ، عاجزين عن الإتيان بمثله ومبهورين أمام بلاغة لغته وفصاحتها : (أ) إعجاز القرآن :-

كان من شدة وقع هذا الكتاب في نفوس المشركين من العرب وتحدّيه لعقولهم وأخيلتهم ، أن ظنوه ضربا من السحر حمله اليهم ساحر .

فأى سحر هذا الذى ينزل بلغة قوم ، ثم لا يستطيعون الإِتيان بسورة أو آية مثله ؟.

وأى ساحر هذا الذى استطاع تحدى قومه بلغتهم ، وهو ذلك الأمِّيُّ الذى لم يقرأ ولم يَكتب ؟ .

ولكنه العناد والمكابرة من المشركين المصرين على عدم الاقتناع بأن :

« تَنزْيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيم ِ »(١) .

وما نزّل الله من كتاب إلا مبشراً ونذيراً للناس ، وأنزله بلغتهم ليعوه وليعملوا بما جاء فيه :

« وَكَذَلِكَ أَوْحَينَا إِلَيْكَ قُرآناً عَرَبِياً لِتُنْذِر أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيه فَرِيقٌ فِي الجُنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعيرِ »(°) .

« إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣٧٠ .

« قُوْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَج لِعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ $^{(Y)}$.

« وإنَّهُ في أُمُّ الكِتابِ لَدَيْنَا لَعَلِيُّ حَكِيمٌ »(^).

وهو ، سبحانه وتعالى ، إذْ أنزل قرآنه المبين على نبيه الأمى الذى لم يقرأ توراة ولا إنجيلا ، إنما أراد أن ينزع الشك فيه والريبة منه فى نفوس الكافرين والمكابرين .

« وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّه بِيَميِنكَ إِذاً لاَرْتَابَ الْمُبِطْلُونَ »(٩) .

وما كان نبينا الأمى الكريم الصادق شاعراً ، فها نزل القرآن شعراً ، بل نزل ذِكراً وموعظة وهداية إلى التي هي أحسن ، وما يؤمن بما جاء في هذا الكتاب إلا من شرح الله قلبه للعلم والمعرفة الحقة من بعض أهل الكتاب من يهود أو نصارى .

« وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرِ وَقُرْآن مُّبِينُ »(١٠) .

« بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيَّنَاتٌ فِي صُــدُورِ الَّذينَ أُوتُـوا العِلْمَ ، وَمَا يَجْحَـدُ بِآيَــاتِنَا إِلاًّ الظَّالِمُونَ »(١١) .

« وَإِن كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَنَاءَكُمْ مِن دُونِ الله إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(١٢) . « أَم يَقُولُونَ افْتراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورةٍ مَّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ الله إن كُنْتُمْ صَادِقينَ » (١٣) .

« فَإِن لَمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّـاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِـدُتْ لِلْكَافِرِينَ »(١٤) .

وهذا تحدّ ما بعده تحدّ ، وإعجاز ، وتهديد دونه أى تهديد لمن أنكر ما جاء به الرسول ، ﷺ ، من لدن العزيز الحكيم ، ولم يؤ من بالله وأصر على كفره ، بل يشاء العزيز القدير أن يبعث اليأس في قلوب الكافرين والمكذبين ، فيضرب لهم مثلا ربانيا في قوله :

« قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالجِنَّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبعْضِ ظَهِيراً »(١٥) .

ولا عجب فى مكابرة المشركين وإعراضهم عن الإيمان بما أنزل الله من آيات مبينات ، فقد سبقهم إلى هذا العناد والكفر أقوام أشد عناداً وكفراً ، ولهم جميعا سوء العذاب :

« بَلْ كَذَّبُوا عَا لَمْ يُحيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الطَالمَينَ »(١٦) .

هذا هو القرآن المبين ، الذي تحدى لسان العرب وعقولهم ، قد استوقف الجن وشد انتباههم إذ سمعوا آيات لأول مرة ، وأثار دهشتهم وتعجبهم ، فآمنوا به وصدقوا لفورهم ما جاء فيه من حق وتبيين :

« وإذْ صَرَفْناَ إِلِيْكَ نَفَراً مِّنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قَلْمًا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قَضِى وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُنْذِرِينَ »(١٧) .

« قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى ، مُصَدِّقًا لِّيها بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقَيِمٍ ﴾(١٨) .

أما أهل الكتاب، وخاصة اليهود ، فقد كان لهم موقف آخر أشد كفرا وعنادا .

فان ما جاء فى القرآن من آيات لم يكن إلا تصديقا لما فى كتابهم المنزل ، ولكنه صحح بعض ما حذفوا أو غيروا من كتابهم حسب أهوائهم ، فحقدوا على العرب أن أنعم الله عليهم بتنزيل خاتم كتبه على نبى عربى . فحاول المكذبون ظلماً ، تجريح آيات الله البينات ، فلما لم يجدوا حيلة أمام إعجاز هذا القرآن ، حاولوا تصيد ما فيه من آيات صححت ما حذفوا أو بدلوا فى كتبهم وحاجوا الرسول على ، بما نزل فى القرآن من تصديقه لكتبهم ، زاعمين ، كل فئة على حدة ، أن كتابهم هو خاتم الكتب ومن ثم فهو الذى يجب أن يأخذ به الناس أجمعون . وهم لو صدقوا القول وخلصت نيتهم لا عترفوا بأن تصديق القرآن لا يكون لما بدلوا وحذفوا ، بل تصديق لكتبهم كما أنزلها الله وقبل أن يلحقها التحريف والتشويه بفعلهم ، ولكنهم يخدعون أنفسهم ويحاولون خداع غيرهم من الناس .

نواحي الإعجاز القرآني وصوره :-

إذا كان هذا القرآن الكريم الذى نزل بلغة العرب ، قد بلغ من الإعجاز حدًّا وقف عنده العرب عاجزين مشدوهين ، وهم أهل اللغة العربية التى تناولت كل ما وقع تحت أنظار العرب أو ما أحسوا به ، بما فى هذه اللغة من فصاحة وبلاغة وحسن بيان ودقة تعبير ، تناولوها جميعاً بالوصف الدقيق شعراً ونثراً ، وإذا كان العرب بدلا من التسليم والإيمان بكتاب الله المبين وتصديق مبلغ الدعوة الأمين ، قد رموا القرآن ومبلغه بالسحر والشعوذة . إذا كان الأمر كذلك فى موقف العرب من القرآن الكريم ، فما السر اذن فى هذا الإعجاز القرآنى رغم وضوحه نصا ومعنى ؟ وما نواحى هذا الإعجاز القرآنى رغم وضوحه نصا ومعنى ؟ وما نواحى هذا الإعجاز ؟

هل هي في اللغة التي نزل بها القرآن ؟ كلا فإنهم أصحاب هذه اللغة .

هل هى فى تنوع الأسلوب ودقة التعبير وإن العرب سادة الأساليب اللغويـة المنوعة .

هل فى فصاحة اللغة وسحر الإغراب؟ والعرب أهل فصاحة وحس مرهف بما يحسون ، وبما تختلج به مشاعرهم وأخيلتهم .؟

إِنْ الإعجاز يكمن في كل ذلك وفي ترتيب آياته أحيانا على غير ما يتوقع قارىء القرآن أوسامعه فيشحذ تفكيرهما ويشد انتباههما . وقد يكون في حذف ما يتوقع

وجوده من هذه الآيات ، وفي ضرب أمثال مما في علم الله وبما لم يسبق للعرب علم به . أوفى تأكيد كلام الله فيها نزل من كتب قبل القرآن ، وفي شرح ما أسىء فهمه أو تصحيح ما لحق من عبث وتشويه في تلك الكتب ، والإعجاز في كل هذه الأسباب مجتمعة ، فلنتناول هذه النواحي والصّور لنتين هذا الإعجاز .

١ - وضع آية مكان آية ، على غير ما يتوقع القارىء :

وما نزّل الله من كلمة إلا بالحق ، وكل ما يصدر من عند الله هو لحكمة بالغة هدفها خير البشر وهديهم ، ومن اهتدى فلنفسه ومن أساء فعليها . وينزل الله إلى الناس من واسع علمه تلك الآيات ليهتدى بها الناس ولترشدهم إلى سواء السبيل . ولا تبديل لكلام الله مهما اختلفت صوره وأساليبه ، فهو الحق الأزلى في لوح الله المحفوظ والله وحده هو المحيط بكل شيء علما ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون :

« وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آية وَالله أَعْلَمُ بَمِا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١٩٠) .

ولا يعترض على كلام الله ، جل شأنه ، ولا يصر على الكفر به الا من كان وليا للشيطان ومشركا بالله :

« فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٢٠) .

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهُمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢١) .

إِمَّا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلُّونَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ "(٢٢) .

وكيف يعترض من شرح الله قلبه للإيمان ، وعلم أن كلام الله حق لأنه تنزيل من الحق ؟.

إن الله جل شأنه ، إذْ ينزل آياته البينات ويرتب مواضعها في كتاب من كتبه المنزلة ، هو وحده أعلم بما نزل ، ولماذا أنزله ، وليرى أى من الناس أكثر ايمانا :

هل هو الذى أسلم نفسه وأمره لرب العالمين فآمن بكل حرف وكلمة وآية فى كتابه ، إيمانا منه بوحدانية الخالق وبكلمته ، وبأنه سبحانه وتعالى وحده العالم بما يريد ؟ .

« قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينِ آمَنُوا وَهُـدًى وَبُشْرَى للهُسُلمِنُ "(٢٢) .

أم هذا الذى لم يرض عنه الله لسوء سريرته ومرض نفسه ، فلم يشرح الله صدره للإيمان ، فظل على شكه وضلاله وشركه ؟ .

أم ذاك الذى كان يدعى بأنه من أهل الكتاب المؤمنين بالله ، فلما نزل القرآن مصدقاً لما بين يديه من كتاب ، مصححاً لما لحق بها من عبث ، ازداد عناداً واستكباراً ؟ .

« مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَثِنَّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَّن شَرَحَ بالكُفْر صَدْرًا فَعلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »(٢٤) .

أما المؤمنون حقاً من أهل الكتاب فإن الله يزيدهم إيماناً به وباليوم الآخر وبما أنزل الله على نبينا الكريم ولهم عند ربهم خير الجزاء :

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهُمْ خَاشِعِينَ للهُ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ الله ثَمَنًا قَلِيـلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عند ربهم إِنَّ الله سَرِيعُ الْحُسَابِ »(٢٥) .

٧ - حذف آية من حيث يتوقع وجودها :

ومن نواحى الإعجاز فى القرآن الكريم ، حذف آية توقع قارئه أو المستمع إليه وجودها ثم لا يجدها ، فيأخذه التعجب حيث لا عجب ولا استغراب ، فانه سيجد من الآيات ما تكرر ذكرها فى مواضع أخرى ، إنما هو علم الله المحيط بما يفعل ، سبحانه وتعالى ، وفيها يقول ، ولم يعلم البشر إلا قليلا ولو تمعن القارىء أو المستمع لوجد مكان ما حذف ما هو خير منه وأوضح بيانا :

« مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلْمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٢٦) .

والأمثلة على ذلك : الآيات ١٤٦ الأنعام ، ١٧٣ البقرة ، ٤٣ النساء ، ٩٠ المائدة ، ١٨٧ البقرة ، ١٤٢ البقرة . وما على المؤمن الراسخ الإيمان بالله الواحد الأحد العالم القادر ، إلا أن - يتلقى كلام ربه بإيمان مطلق ، وعليه ألا يلبسه شك فى حكمته الإلهية فيها أنزل للبشر وفيها احتفظ به من آيات ، وأن يصرف فكره فى محاولة مخلصة لتفهم ما يقرأ وحكمة ربه فيه والهدف منه ، وعليه أن يحصن نفسه من الاستماع إلى ألسنة السوء والمضللين ، أعداء دين الله القويم :

« أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السّمَاواتِ وَالأَرْضِ ِ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ »(۲۷) .

وعلى المؤمن ألا يكون في عناد قوم موسى وكفرهم بما آتاهم به :

« أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْل وَمَن يَتَبَدَّل ِ الكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ »(٢٨) .

وهم بنو اسرائيل الذين حقدوا على العرب ما أنعم عليهم الله بقرآنه المبين على يد رسول منهم كريم ، حيث توقعوا أن يكون خاتم أنبياء الله من بني اسرائيل :

« وَدَّت طَّـاثِفَةً مِنْ أَهْـل ِ الكِتَابِ لَـوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَـا يَضِلُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَـا يَشْعُرونَ ﴾(٢٩) .

« مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَلا المُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِن ـ رَّبُّكُمْ وَالله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مِن يَشَاءُ وَالله ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ »(٣٠) .

« وَمَا كَانَ هَذَا القُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ الله وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَـدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العَالِينَ »(٣١) .

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّـذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كَتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ »(٣٢) .

وهم بنو اسرائيل الذين ظاهروا المعاندين المكابرين من المشركين ضد الرسول وضد من آمن برسالته ، حسدا منهم وحقدا على ما أنعم الله به على العرب الذين آمنوا بالرسول الأمين وما حمله اليهم في خاتم كتب العزيز الحكيم ، وظلوا على كيدهم للمؤمنين وسعيهم ليرد وهم عن دين الله

« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِي الله بِأُمْرِهِ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٣٣) .

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَـاتٌ مُّخَكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ، وَأَخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُومِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَقْلُونَ آمَنَا بِه كُلِّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكُرُ وَمَا يَقُولُونَ آمَنَا بِه كُلِّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكُرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبَابِ "(٣٤).

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الإسلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابِ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُم العِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ »(٣٥) .

« وَمَنْ يَبْتَسِغ ِ غَيْرَ الإِسْسِلاَم ِ دِينًا فَلَن يُقْبَسِلَ مِنْهُ وَهُسُو فِي الآخِسرَةِ مِنَ الحَاسِرِينَ »(٣٦) .

٣ - ضرب الأمثال:

- تقريبا للحق وجوهر الإيمان إلى أذهان من نزل فيهم القرآن المبين ، وتفتيحا لعقولهم على فهم ما نزل فيه من آيات ، ضرب الحكيم العليم الأمثال تلو الأمثال ، جلاءً للمعانى التي أراد بها تثبيت إيمان من آمن والعودة بمن ضل إلى الصراط المستقيم .

وينوع لنا القرآن فيها يضرب لنا من أمثال ، ويختار بحكمته ما يراه مناسبا منها لمقام الحديث ولمن يقرأ أو يسمع آياته البينات ، ويتخير من الأمثال ما يرى فيه الكفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد ، ويترك بعد ذلك من أصر على كفره متخبطا فى غيه وضلاله إلى أن يأذن الله له بالهداية :

« إِنَّ اللهُ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مّا بَعُوضَةً فَهَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّـذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ الله بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ "(٣٧) .

« وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِمِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ »(٣٨) .

وقد تنوعت الأمثال الإنمية في قرآن الله الكربم :

نمنها ما جاء مثلا لقدرة العزيز القدير ، والحكمته البالغة ، ولرحمته الواسعة ليثبت قلب المؤمن على الإيمان بقدرة الخالق فيتند ، ويرجع الأمور كلها والخلق كلهم إلبه و-عده :

« وللَّهِ مُلْكُ السَّمرَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »(٣٩).

« وَلَلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرجَعُ الأُمُورُ»(٤٠٠) .

ويبين العزيز الحكيم للمؤ منين أن النصر من عنده وحده يؤتيه من يشاء ، بقوته تعالى وبقدرته المطلقة على خلق الأحداث وإنهائها بما يرى وعندما يريد .

« ولِلَّهِ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ »(٤١) .

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(٤٢) .

ويضرب العزيز الحكيم المثل لقدرته على خلق ما يريد وكما يريد وكذلك أحيائه الموق حين يشاء ، وعلمه المطلق بما يُسِر الناس أو يعلنون ، وهو سبحانه يهب من يشاء من خلقه القوة والمقدرة والمعجزات .

« قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »(٤٣) .

« تُولِجُ اللَّيلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَثُغْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَّيْتِ وَثُغْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَتَرِزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْر حِسَابٍ »(٤٤) .

« أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِى خَاوِيةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّ يُحِيى هَذِهِ الله بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَه الله مِاثَةَ عَامٍ ثُم بَعْتُهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يومًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِاثَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهُ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ، وَلَنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا خَمًّا فَلَمًّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ الله عَلَى كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (فَ عَلَمُ أَنْ الله عَلَى كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (فَ فَا الله عَلَى كُلُ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (فَ فَا الله عَلَى كُلُ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (فَ فَا الله عَلَى كُلُ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (فَ فَا الله عَلَى كُلُ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (فَ فَا الله عَلَى كُلُ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (فَ فَا اللهِ عَلَى كُلُ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (فَ فَا اللهُ عَلَى كُلُ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (فَ فَا اللهُ عَلَى كُلُ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (فَا اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى كُلُ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (فَا اللهُ عَلَى كُلُ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (فَا اللهُ عَلَى كُلُ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (فَا اللهُ عَلْمُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى كُلُ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (فَا اللهُ عَلَى كُلُونُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى كُلُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهِ اللهُ اللّهُ اللهُ الل

« أَلُمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ اللّهُ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيثُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِ بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ يُحْيِي وَيُمِيثُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِ بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بَالشَّالِينَ »(٤٦) .

وهو سبحانه وتعالى ، وحده القادر على إيتاء عباده المؤمنين الداعين ، فرجا من بعد يأس ، يثبت به الإيمان في قلوبهم ويزيدهم له خشوعا وإسلاما .

« قَالَ رَبَّ أَنَّ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ »(٤٧) .

ومن ضروب الأمثال ، ما نزل منها فى بعض الآيات القرآنية ما يعجز ضعيف الإيمان عن فهمها ، ولا يتفهمها إلا من عمر قلبه بالإيمان بالله وحكمته فيها يفعل وما يقول . فمن حكمة الله اختبار مدى إيمان من آمن حقا ، وكشف كفر من أصر على كفره . فقد يبلو هذا بما لا يجب ويملى لذاك فيها يجب ، ليرى بعد ذلك سلوك كل منهها فياخذ كلاً بما كسب . وهذا ما ورد في أمر الله لرسوله بتغيير قبلة المسلمين .

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لللهِ الْلَشْرِقُ وَالْمُغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم (٨٠) ۞ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أَمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِي وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرةً إِلاَّ عَلَى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرةً إِلاَّ عَلَى اللهِ يَلْفِينِ إِيَانَكُمْ إِنَّ الله بِالنَّاسِ لرَّوف رَّحِيمٌ ﴾ (٤٩) .

ومن أمثلة الآيات المبينة لحكمة الله فى اختيار الصابر من المؤمنين ، من الجَزِع الهلوع . `

« وَلَنْبُلُونَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَسْوَال وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ » .

« الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لللهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »(٥٠).

« لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَتْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُـوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »(٥١) . «وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَثَمَا ثُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لاَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا ثُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْبًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ »(٢°) .

ومن الأمثلة والعبر ما يبين رحمة الله بعباده المؤمنين ، إذْ ينتشلهم ، سبحانه وتعالى ، من مواضع الأذى واليأس ، فهو جلت قدرته ، لا يترك المؤمنين طعمة سائغة للمتجبرين والكافرين ولا يبخل برحمته على من ضل ثم تاب وجاء ربه مستغفرا تائبا توبة نصوحا .

« وإذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آل ِ فِرْعَـوْنَ يَسُومُـونَكُم سُوءَ العَـذَابِ يُذَبِّحُـونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِى ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مِن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ »(٥٣) .

«وإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُم وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ»(٢٥٠) .

» وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فاستغفروا لِلدُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ اللَّنُوبَ إِلاَّ اللهَ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَافَعلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » * « أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِسرةٌ مِنْ رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْسِرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدينَ فِيهِا وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ »(٥٥).

ويضرب الله الأمثال مفرِّقا بها بين الخير والشر ، ومنبها إلى مظاهر كل منهما وجزاء المحسن والمسيء .

« وَالَّسِذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِسكَ أَصْحَابُ الجَنَّـةِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ »(٥٦) .

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلاَ أَذَى لَمُمْ اَ اللهِ ، ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلاَ أَذًى لَمُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَجْزَنُونَ »(٥٧) .

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرونَ بِآياَتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقِّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسِ فَبشَّرْهُمْ بِعَذابٍ آلِيمٍ »(٥٠) .

وتأتى آيات الله البينات بأمثلة مهينة للكافرين وتصوراتهم السقيمة ، وألوان ما ينتظرهم من عذاب أليم .

«أُولَثِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالهُدَى فَهَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتِدينَ »(٥٩) .

فهم اتخذوا من الإفساد وسيء الأعمال والسلوك الضار حرفة يتعيشون منها ، ولا عيش لهم ، في نظرهم في حياتهم الدنيا ، إلا عن طريق هذه التجارة الخاسرة .

« مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَيَّا أَضَاءَتْ مَاحَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَركَهُمْ فِي ظُلْمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ »(٢٠) .

فهم يفسدون من حيث ظنوا أنهم يصلحون ، وهو يضرُّون من حيث ظنوا أنهم ينفعون ، في أفسده من عمل ، وما أبورها من تجارة ، حتى إذا أخذهم الله بغتة ضلوا طريقهم بعد أن عميت بصيرتهم .

« صُمُّ بُكُمُّ عمى فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ،(٦١) .

وهم لا يستمعون لنصح من الناس ، ولا وازع لهم من ضمير ، ولا ينطقون بحق .

« هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ الله في ظُلَل ٍ مِّنَ الغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ وَقُضِىَ الأَمْرُ وإِلَى الله تُرْجَعُ الأَمُورُ ﴾(٦٢) .

فهم إذن حالة ميئوس منها ، ولا خير ينتظر منهم ، ولا نفع يأتي من جانبهم .

« سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِّنْ آيةٍ بَينةٍ وَمَنْ يُبدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فإنَّ الله شَدِيدُ العِقَابِ ٣٣٦٠) .

« زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحُيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرونَ مِنَ الَّذِينَ آمنُوا وَالَّذينَ اتَّقُوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْر حِسَابِ »(٦٤) .

« كَيْفَ يَهْدِى الله قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيَانِهِمْ وَشَهِـدُوا أَنَّ الرَّسُــولَ حَقَّ وَجَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وَالله لاَ يَهْدِى الْقَوْمُ الظَّالِمِينَ »(٦٠) .

« لَقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ سَنَكْتُبُ مَاقَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ بِغَير حَقُّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَريق »(٦٦) .

« لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبنَّهُمْ
﴿ لِاَ تَحْسَبَنَّ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٦٧) .

« لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا في البِلادِ »(٦٨) ۞ « مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِشْسَ الْمَهَادُ »(٦٩) .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيَانِهِمْ ثُمَّ ازدَادُوا كُفْراً لَّن تُقْبَل تَـوْبَتُهُمْ وَأُولَيْكَ هُمُ الضَّالُونَ " (٧٠) .

وتؤكد لنا هذه الآيات أن من كَفَر بعد إيمانه أشد كفرا من الذى ظل على شركه بالله عز وجل . وأنهم من الضلال وضعف العقل بحيث تراهم تائهين بين الحق والباطل بعد مابينها الله أوضح بيان وبعد ما ضرب الكثير من الأمثال يرشد بها الناس إلى التمييز بين الخير والشر وبين الطيب والخبيث ، وما أشد ضلال من آمن بآيات الله بعد اقتناع واستبانة وتأكد ، ثم بعد ذلك يترك هذا الصراط المستقيم الواضح المعالم المؤدى إلى خير الإنسان ، ليختار طريق الضلال والهلاك .

وهل بعد ذلك أمان لمن كفر بعد إيمانه ؟ وهل هناك خير يرجى منه نحو نفسه ونحو غيره ؟

لقد خرج على طبيعة الوجود ، الذى أوجده الله بالحق ، بل لقد نزل بنفسه الضالة إلى ماهو أقل من مرتبة الحيوان ، فالحيوان يعمل ما ينفعه ولا يلتفت لما ينفع غيره بينها الضال يضر نفسه ويضر بقية بنى جنسه .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَروا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهُم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ الْقَتَدَى بِه أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ»(٧١) .

وهل تقبل توبة ممن أصر على الكفر وأمعن فى الضلال ؟ وهل تقبل فدية ممن تجنب طريق النور واختار طريق الظلام ؟ إن مثل هذا التاثب مثل من يحاول خداع الله والناس وهو لا يخدع إلا نفسه ، وخط بيده نهايته المشئومة حيث لا يستجيب له مغيث ولا معين ، وما له من مجيب بعد أن غضب عليه الله وكتب له العذاب الأليم .

ومن إعجاز القرآن ماورد فيه من أمثلة ومشاهد تبين أهوال يوم القيامة والبعث والحساب :

ذلك اليوم الذى لا يعلم ميقاته إلا الله وحده . وهو ، سبحانه وتعالى ، الخالق المحيى المميت الباعث .

هو ذلك اليوم الذى احتفظ الله بسره ، لا يطلع عليه أحدا من خلقه ولوكان من أنبيائه ورسله المقربين .

وفى ذلك حكمة إلهية حتى لا يلجّ الناس فى المعاصى حتى إذا ما قرب موعد الساعة ، إذا كانوا بميقاتها عالمين ، استكثروا من الخير طمعا فى الجنة وخوفا من عذاب الجحيم لا عن إيمان وتقوى وذكر الله .

«يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِثَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّ لاَ يُجَلِيِّهَا لِوَقْتِها إلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ في السَّمواتِ والأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِثْمَا عِنْدَ اللهِ ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ٣٧٥٪.

ومن إعجاز القرآن ما ورد فيه من أهوال ومشاهد يوم القيامة والبعث والحساب ما يفوق كل صور الأهوال والمشاهد التي تخيلها الناس في حياتهم الدنيا ، ويأتيهم الله ما كانوا عنه يتساءلون :

« يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ »(٧٣) .

وهو يوم آت لاريب فيه ، وهو يوم محتوم يفرضه الخالق فرضا عندما يشاء . « إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ لَيْسَ لوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ »(٧٤) .

ومن علامات الساعة اهتزاز كوكبنا الأرضى اهتزازا عنيفاً ، تتفتت فيه الجبال فتصبح هباء متراكما وتُخرج الأرض مافى بطنها وتنثر العظام من قبورها ، ويبعث الموتى إلى الحياة مرة أخرى ، فيشاهدون في هذا اليوم مالا عهد لهم به :

« إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءاً مُّنْبَثًا »(٧٥) .

« إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالُهَا »(٢٦) .

ثم تصطدم الكواكب والنجوم بعضها ببعض وتنفجر ، وتلتهب السماء ويختلط مافى الكون .

« يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الجِبالُ كَالْعِهْنِ »(٧٧) .

« فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ * وَخَسَفَ القَمَرُ * وَجُمَعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ »(٧٨) .

عندئذ يفزع الإنسان ، ويتساءل البشر في هلع عما جرى للكون ، ويظل الجميع في ذهولهم وتيههم ، حتى يحين وقت الحساب ، فيصبح كل امرىء بأمره في شغل عن غيره :

« وَقَالَ الإِنْسَانُ مَاهَا * يوْمَئذِ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبُّكَ أَوْحَى هَا »(٧٩) .

« يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئذِ أَيْنَ المَفَرُّ * كَلا لاَ وَزَرَ »(^^) . « إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذِ المُسْتَقَرُّ يُنَبًّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئذِ بَمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ »(^^) .

« وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمٌ * يُبَصَّرُونَهُم يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَـدِى مِنْ عَذَابِ يَـوْمَئِذ بَبَنِيهِ * وصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ التِي تُؤْوِيهِ * وَمَن في الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴾(٨٢) .

وكيف لمجرم أن يفر من عذاب جهنم وهو يراها رأى العين ، وكلما حاول الفرار منها ، دعته فيأمره الله بالرجوع إليها ولا راد عنده لأمر ربه ، وكلما جاء النار فوج من هؤلاء المجرمين ابتلعتهم لتوِّها وطلبت المزيد :

« كَلاَّ إِنَّهَا لَظَّى * نَزَّاعَةً للشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى »(٨٣).

ثم يقف الناس أمام ربهم ، وقد انعقدت السنتُهم فتنطلق حواسهم بما قدمت في حياتها الدنيا ، ويحاسب كل إنسان حساباً عسيراً على ما قدم ، إن خيراً أو شراً ولن يظلم الله أحداً :

« يَوْمَثِذِ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوا أَعْمَالُهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (١٤٨) .

وبعد هذا الحساب ، يقسم الحسيب الخبير عباده إلى طائفتين ؟

أهل اليمين الذين آمنوا بربهم واتقوه في حياتهم الدنيا وقدموا لأنفسهم ما أرضوا به الله ، فرضى عنهم وجزاهم في آخرتهم بجنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من ألوان النعيم الإلهية، فينعم بها على عباده الصالحين .

« فَأَصْحَابُ اللَّمْنَةِ مَا أَصْحَابُ اللَّمْنَةِ (() والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ، في جَنَّاتِ النَّعِيمِ ((() عَلَى سُرُرِ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِثِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانُ مُخَلِّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينِ * لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ * وَفُورٌ عِينَ * كَأَمْنُالِ اللَّوْلُو يُنْوِنَ * وَفُاكِهةٍ عِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَهُم طَيْرِ عَمَّا يَشْتَهُونَ * وَجُورٌ عِينَ * كَأَمْنُالِ اللَّوْلُو لَيُؤُونَ * جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لاَ يَشْمَعُونَ فِيهَا لَغُواً وَلاَ تَأْثِيهاً * إلاَّ قِيلاً سَلاَماً اللَّوْلُو اللَّهُ اللَّوْلُو اللَّهُ اللَّولُو اللَّهُ الللللَّهُ اللَّهُ اللللْمُأْلُولُ اللْهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللللْهُ اللَّهُ اللْهُ اللَّهُ اللَّهُ اللللْهُ الللْهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللْهُ اللْهُ اللَّهُ الللللْمُ اللَّهُ الللللْمُ اللللْهُ اللللْهُ اللللْهُ الللْهُ الللللْهُ الللْهُ اللَّهُ اللْهُ اللَّهُ الللللْهُ اللللْهُ الللْهُ اللللْهُ اللللْهُ اللللْهُ اللللْهُ اللللْهُ اللللْهُ الللللْهُ الللْهُ اللللْهُ اللللْهُ الللْهُ الللْهُ اللللْهُ الللللْهُ اللللْهُ الللْهُ اللللْهُ الللللْمُ الللْهُ الللْهُ اللللللْهُ الللللْمُ الللللْمُ الللْهُ اللللْه

وفى الجانب الآخر يقف فى ذِلَّة وانْكسار ، قوم قد لبسهم البؤس ولفهم الشقاء ، هم أهل الشمال الذين غضب الله عليهم لما عصوه ورسله فى الحياة الدنيا ، يقفون اليوم وقفة المجرم الذى أحاطت به ذنوبه من كل جانب ، يلقون سوء العذاب بما قدموا ، وأى عذاب أشد من نار جهنم التى أعدها الله لهم ، تشوى جلودهم وتأكل بطونهم فاذا خبت حياتهم من الحريق أعادها لهم العزيز ذو الانتقام ليستمر عذابهم إلى ما شاء الله ، وهذا هو نصيب من كفر بنعمة ربه ، وكذب آياته .

« وَأَصْحَابُ الْلَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ اللشْأَمَةِ »(^^^) .

« وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصَحْابُ الشَّمَالِ * في سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلَّ مِنْ يَحْمُومِ لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ » (٨٩٪).

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلِّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ إِنَّ الله كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً »(٩٠) .

« ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيَّهَا الضَّالُونَ المُكَذِّبُونَ * لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِنْ زَقُّوم * فَمالِئُونَ مِنْها البُّطُونَ * فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ » (٩١٠) .

« هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطَّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِن فوقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (٩٣) * يُصْهَرُ بِهِ مَافِي بُطُونِهِمْ وَالجُلُودُ * وَلَهُمْ مُّقَامِعُ مِنْ حَذِيدِ (٩٣) * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمِّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» (٩٤).

ومن مشاهد يوم الحساب والجزاء ، ذلك الحوار الطريف بين أهل الجنة وأهل النار على ما أتى الله كلا منهما من جزاء بما كسب كل منهما في حياته الدنيا .

« وَنَادَى أَصْحَابُ اجْنَّةِ أَصِحَابَ النَّارِ أَن قد وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا * فَهَلْ وَجَدْنَمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمُ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذَّنُ بَيْنَهُمْ أَنْ لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمُ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذَّنُ بَيْنَهُمْ أَنْ لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ عَلَى اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوجًا وَهُمْ بِالأَخِرَة كَافُرُونَ * (١٠٠) .

« وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ اجْنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْمِمًّا رَزَقَكُمُ الله قَالُوا إِنَّ الله حَرِّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ * الَّذِينَ اَتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهُوْاً وَلَعِباً وَغَرَّتُهُمُ الْخَيَـاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾(٩٦).

٤ - تأكيد ما أنزل الله في كتبه السابقة .

إن القرآن الكريم ما نزّل إلا تأكيدا لكلمة الله فى كتبه السابقة ، وكلها من مصدر واحد أزلى ودائم هو الحق سبحانه وتعالى ، ولا تبديل لكلمات الله . إنما نزّل الله كتبه ليهدى بها من فتح قلبه للإيمان بالله وحده ، وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر ، وتثبيتا لإيمان من آمن حقا بهذا كله من أهل الكتاب الحافظين له حق حفظه .

« قُولُوا آمَناً بِالله وَمَا أُنْزِل إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْراهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوقِ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »(٩٧) .

وهذا ما أوحى الله به لخاتم رسله محمد على ، فآمن بما أنزل الله وبملائكته وبمن سبقه من رسل ، وما كان لنبينا الأمين إلا أن يبلغ الناس ما أوحى إليه من رب العالمين :

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلِّ آمَنَ بِاللهِ وَملاَئِكتِهِ وَكُثُبِه وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحـدٍ مِّنْ رُسُلِهِ وَقَالُـوا سَمِعْنَا وَأَطْعَنـا خُفْرَانَـكَ رَبَّناَ وَإِلَيْـكَ المَصِيرُ »(٩٨) .

وما كان القرآن الكريم ، خاتم كتب الله ، إلا تنزيلا ممن نزل التوراة والإنجيل وما أوحى به إلى رسله وأنبيائه المصطفين .

« الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » (٩٩) « نَزَّلَ عَلَيْكَ الِكتَابَ بِالحَقِّ مُصَدَّقاً لَمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ »(١٠٠) . « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ والنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إبراهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وإسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَرُونَ وَسُلَيْمَانَ وَإِسْمَاعِيلَ وإسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَرُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوِدَ زَبُوراً »(١٠١). « وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكُلَّمَ الله مُوسَى تَكْلِيهًا »(١٠٣). « رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِشَلاً لَمْ نَقْدَ لِللَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيهاً »(١٠٣).

ويؤكد العزيز الحكيم تنزيل التوراة والإنجيل من قبل ، هدى ونور للناس إلى الطريق القويم ، ما استمسك أهل هذين الكتابين بما جاء فيهما من الحق المبين :

« إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا والرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بَمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْه شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشُوا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتُرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولِئَكَ هُمُ الكَافِرُونَ »(١٠٤).

« وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً كَمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَمُورَةً وَأَتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَمُورَةً وَمُصَدِّقاً لِلَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وُهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ »(١٠٥).

ثم يأمر الله عباده الذين آمنوا بالتوراة والإنجيل ، بالإيمان بخاتم كتبه ، قرآنه الكريم الذي نزل بالهدى والنور ، يهدى به الله إلى صراط مستقيم .

« وَالَّــذِينَ يُوْ مِنْــونَ بِمَــا أُنْــزِلَ إِلَيْـــكَ وَمَــا أُنْـــزِلَ مِن قَبلِكَ وَبِــالآخِـــرَةِ هُمْ يوقِنُونَ »(١٠٦) . « أَوَلَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَّبِّجِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(١٠٧) .

ويتوعد القوى القادر ، المنكرين للحق والجاحدين بأنعمه ، والناقضين لميثاقه المخلفين لوعده ، المنكرين لخاتم كتبه ، بما توعد ناقض عهده وميثاقه من بنى إسرائيل .

« يَابَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَى الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّانَى فَارْهَبُونِ » (١١٠٨ . « وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِه وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِ ثَمَناً قلِيلاً وَإِيَّاىَ فَاتَقُونِ » (١٠٩ . « وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالبَاطِل وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (١١٠) . ويواسى الرحمن حبيبه المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، ويخفف عنه حزنه على تكذيب بعض أهل الكتاب له ، وكفرهم بما أنزل فى القرآن مصدقاً لكتابهم وهو سبحانه وتعالى ناصره ، ولو كره الكافرون .

« قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِينَ بِآياَتِ اللهِ يَجْحَدُونَ »(١١١) .

« وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذَّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِيّ الْمُرْسَلِينَ »(١١٣) .

ولمَ يَأْسَ محمد ، ﷺ ، على قوم جاءهم بكتاب من إله واحد يؤمن به كما يجب أن يؤمنوا ؟ وفيم حزنه على إعراضهم ، لا تكذيباً بل تعالياً واستكباراً منهم ؟ .

وهم الذين ظنوا خطأ أنهم وحدهم أحباب الله ، وأنهم هم الشعب الذى اختاره الله من دون خلقه أجمعين ، وهم الذين ادعوا أن كتابهم الذي أنزله الله لهم ، هو أول كتبه وآخرها :

كيف يَأْسَى رّسولنا الأمين على قوم جاءهم بكتاب مصدق لما أنزل الله إليهم ومؤكدا له ؟ .

كيف يَأْسَ النبي الكريم على قوم يخفون ، عمدا ، ما أعلمهم الله به في كتابه الذي سبق أن أنزل إليهم ؟

كيف يَأْسَى خاتم رسل الله على قوم سبق أن قتلوا الأنبياء ، وكفروا بما أوحى الله لرسله إليهم وأنكروا ما نزل إليهم من الكتب ؟

« ثُمُّ آتَيْنَا مُوسَى الْكتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّمِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾(١١٣) .

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاثِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إلا اللهُ وَبِالْوَالِـدِيْنَ إِحْسَانًا وَذِى القُرْبَ وَاليَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ »(١١٤) . ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كَتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لَمَا مَعَهُمْ ، وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفُروا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾(١١٥) .

« وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاه مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوه وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »(١١٦).

ثم يأمر الله هؤ لاء الكافرين بنعمته وبما أنزل عليهم في كتابه ، بالإيمان بخاتم رسله الذي جاءهم بخاتم كتبه .

« الَّذِينَ يَتَبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّى الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلَّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِم الخَّبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِلمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلَّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِم الخَبْائِثَ وَيَضَرُوهُ وَيَضَرُوهُ وَاللَّهُمُ الْمُعْلِمُونَ »(١١٧) .

« وإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ الله قَالُوا نُؤْمِن بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَه وَهُــوَ الْحَقُّ مُصَـدُّقــاً لَمَـا مَعَهُمْ قُــلْ فلِمَ تَقْتُلُونَ انْبِيَــاءَ اللهِ من قَبْــلُ إِنْ كُنْتُمْ مُوْمِنِينَ »(١١٨) .

« وَلَقَــدْ جَاءَكُمْ مُــوسَى بِالَبِيِّنَـاتِ ثُمَّ الْخَلْدُمُ العِجْـلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ »(١١٩) .

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّـذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ »(١٢٠) .

« قُلْ أَتَّحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ تُخْلِصُونَ »(١٢١) .

« أَفَـلاَ يَتَدَبَّـرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَـوْ كَانَ مِنْ عِنْـدِ غَيْرِ اللهِ لَـوَجَدُوا فِيـهِ اخْتِلافـأ كَثِيراً »(۱۲۲) .

وكفى الله صفيه ورسوله مشقة مناقشتهم ومحاجتهم من بعد ما بلغهم الأمانة ، ومن بعد ما تلى عليهم مما أنزل الله من آيات مبينات ، فليتركهم إذن وشأنهم فلاخير يرجى منهم ولا طاعة ، وما عليه إلا البلاغ المبين . ويكفى رسول الله إيمان من آمن منهم ، والله كفيل بأخذ مكذبيه بكفرهم .

« فَإِنْ آمَنُوا بِمثْل مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلُّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكُفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣(١٣٢) .

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لله لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ الله ثَمَناً قَلِيـلاً أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْـرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ الله سَـرِيعُ الحِسَابِ »(١٢٤) .

وكيف لا يؤمن أهل الكتاب بما آمن به من أسلم ؟ ولماذا لا يؤمن أهل الكتاب بما أنزل عليهم من كتب الله ؟ فكلها تفرض نفس العبادات المفروضة في قرآنه الكريم ، والإيمان بالله واليوم الآخر ، والثواب والعقاب ، والجنة والنار وكلها تحض على الخلق الكريم والسلوك القريم وإقامة العدل والقصاص ، وغير ذلك مما هـو مدون في اللوح المحفوظ لدى الحكيم الخبير الخالق المدبر ، علام الغيوب القادر على كل شيء ، ولا مبدل ولا مغير لكلام الله لأنه الحق ، والحق بين لا يحتمل قولين ، ولا يتناول جوهره تفسيران .

ومفهوم السلام وإقامة العدل والقصاص هي واحدة في كتب الله السماوية وتحذير الخالق لخلقه من كيد الشيطان ، ورد في خاتم كتب الله كما ورد فيها سبقه من كتبه .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا في السَّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُم عَدُّقً مُبِينٌ "(١٢٥) .

« فَإِن كُنْتَ فِي شَكِّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَل ِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الِكتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ »(١٢٦) .

« وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيها حُكْمُ الله ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولِئِكَ بِالمؤْ مِنينَ »(١٢٧)

« وَكَتَبْنَا عَلَيْهِم فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالعَيْنَ بِالعَيْنِ وَالأَنْف بِالأَنْفِ وَالأَذُنَ بِالسَّنَ بِالسِّنَ وِالجُرُوحِ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّلِلُونَ »(١٢٨).

« وَلَكُمْ فِي الِقصاصِ حَيَاةً يَأُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(١٢٩) .

وها هو خاتم كتب الله ، يبين لهم ويؤكد ما أمر الله به في كتبه السابقة من عبادات فرضها على عباده المؤمنين به وبكتبه وبرسله ، ويكفى المؤمن حق إيمانه ، شهادة الخالق جل وعلا وملائكته الأطهار ومن أضاء الله قلوبهم بنور العلم به ، وبوحدانيته سبحانه وتعالى وبعدله ورحمته بالناس ، وبعلمه وحكمته ، وهو سبحانه وتعالى أصدق القائلين .

« شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالِقَسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »(١٣٠) .

وهو سبحانه وتعالى الذى فرض العبادات على الخلق أجمعين قد أمر من آمن بكتبه ورسله بأداء فروض هذه العبادات فى القرآن الكريم كما سبق أن فرضها فيما سبق من كتبه .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَقُونَ ﴾(١٣١) .

« وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ عَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (١٣٢).

وينكر العزيز القادر على المكذبين من أهل الكتب السابقة على القرآن ، تباهيهم الكاذب وتعاليهم المزيف على من أسلم لله ، إذ ادعوا كذباً وبهتاناً بأن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام ومن جاء بعده ، من ذريته كانوا جميعاً يهوداً أو نصارى ، ثم يكشف ، سبحانه وتعالى كيدهم ، فيوجة إليهم هذا السؤال الاستنكارى .

« أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللهِ وَمَنْ أَظْلَمُ مِثَن كَتم شَهَادَةً عِنْلَهُ مِنَ اللهِ وَمَا الله بِغَافِل عَلَا تَعْمَلُونَ ﴾(١٣٣)

ثم يقرر سبحانه وتعالى كذب ادعائهم هذا بما أنطق به إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، بالدعاء إليه وحده ، والتماس رضوانه والإسلام له .

« رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »(١٣٤) .

« إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسلِم قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالِينَ »(١٣٥) .

« وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيُّ إِنَّ الله اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ »(١٣٦٧)

ويسفه الواحد الديّان من خرج عن ملة إبراهيم ودينه .

« وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيم إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وإنَّهُ فِي الأَنْيَا وإنَّهُ فِي الأَنْيَا وإنَّهُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ الللللِّهُ الللللِّهُ اللللللِّهُ الللللِّهُ اللَّهُ الللللِّهُ اللللللِّ

ويكُشف الحاكم العادل ذلك الخلاف الذى قام بين بعض أهل الكتاب بعد أن أعرضوا عن دعوة خاتم رسل الله ، إذ أخذ كل منهم يدعى ، بغير حق ، بأنه هو وحده الذى على حق وهدى ، وأن غيره في ضلال مبين .

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَىءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى ' شَىءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكَتَابَ كَذَلكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهُمْ فَالله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَومَ القِيَامَةِ فِيها كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ 'ه\١٣٨').

ثم تعود الطائفتان المختلفتان ، فتتحد كلمتها ويتفق رأيها ضد خاتم كتب الله وخاتم أديانه الذى ارتضاه الله دينا للناس كافة ، فتناقضان ما سبق أن قالت كل منها عن الأخرى وتدعيان أنها معا ووحدهما ، من خَلق الله ، من وعدهما الله بالجنة ، ونسوا جميعاً أن الجنة والنار وأهل كل منها من أمور الغيب التي احتفظ بها الخالق ولا يعلمها أحد سواه . ويحكم الحكيم الجبير على كليها في ادعائها هذا بالجهل المطبق رغم ما لدى كل منها من كتاب نزله الله إليهم مبيناً فيه الحق والباطل ، ويسفه أحلامها ويأخذهما بأقوالها الباطلة وباستسلامها لغواية الشيطان ، وبكفرها بالله .

« وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ اجْحَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَـاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(١٣٩) .

« الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحشْاء والله ْيَعِدُكُمْ مَّغْفِرةً مِنْهُ وفَضْلاً وَالله واسِعٌ عَلِيمٌ»(١٤٠) .

فإذا ما قرر الخالق أن الدين عنده ، هو الإسلام ، كان هذا هو الدين الذى ارتضاه لمن آمن من البشر بالله وحده وباليوم الآخر ، وأن أهل الكتاب هم أجدر الناس باتباعه .

« إِنَّ الدِّينَ عَنْدَ الله الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ اللّذِينَ أُوتُوا الِكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكَفُّرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ١٤١٠).

وعندما يقرر الحق ، سبحانه وتعالى ، أن القرآن هو خاتم كتبه المنزلة على البشر ، فهو إذن الدستور الإلهى الذى جعله الله قانوناً وشريعة يسير عليها الناس كافة فى كل زمان ومكان فى حياتهم الدنيا ، وبه يسترشدون لإعداد أنفسهم ليوم الحساب فى الحياة الآخرة . وهو ذلك الكتاب المذى جعله الله مهيمنا على كتبه وشاملاً لها .

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكَتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّهَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بَهَا أَنْزَلَ الله وَلاَ تَتَبِعْ أَهْوَا عَهم عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُم شِرْعَةً وَمِنْها جاً وَلَوْ شَاءَ الله جَعَلَكم أَمة واحدة ولكن ليبلوكم فيها آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِعاً فَيُبَتِئكُمْ بَا كُنْتُمْ فِيهِ تَغْتَلِفُونَ »(١٤٧).

فمن ذا الذى يكفر بذلك الكتاب الحق بعد أن نزله وفرضه على البشر الحق سبحانه وتعالى ؟ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لِمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (١٤٣) لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيل مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (١٤٤) مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفَرةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ »(١٤٥) .

وعند ما يقرر الله أن الرسول محمدا على الذي أوحى إليه بهذا الكتاب ، هو خاتم رسله ، فها على البشر عامة ، وأهل الكتاب خاصة ، إلا تصديقه والإيمان به ويما أوحى إليه من الخالق الواحد الأحد ، أو ليس محمد هو الرسول الذي أنطق الله نبيه عيسى باسمه ؟ .

« وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَم يَابَنَى إِسْرَائِيلَ إِنِّ رَسُولُ اللهَ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِيَّا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْراة ومُبَشِّراً بِرَسُول يَأْتِي مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَيًّا جَاءَهُمْ بالبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ »(١٤٦) . فمن آمن بالله وحده ، ثم آمن بملائكته ، وبكتبه وخاتمها القرآن الكريم وبرسله وخاتمهم نبيناً محمد ﷺ ، ومن آمن بالغيب وباليوم الآخر ، ومن اتخذ الإسلام ديناً ، هو المؤمن حقاً ، وهو الذي أطاع خالقه واكتسب رضوانه فكتب له السعادة في حياته الدنيا ، والمغفرة والرحمة في حياته الآخرة .

ويصحح رب العالمين في كتابه المبين ، ويأتى بالنبأ اليقين عها تعارف عليه أهل الكتاب من سير الأشخاص وأحوال الأمم الغابرة ، التى تناقلها الخلف عن السلف بعدما تراكم عليها بمرور الأجيال من اصطناع وأخيلة ضلت سبيلها عن حقيقة ما جرى لهؤلاء الأشخاص ولتلك الأمم ، فيورد لنا العليم الخبير أدق التفاصيل ويعرضها لنا كها لو كانت حية متجسدة .

فهذه سير نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى عليهم جميعاً السلام ، كما جرت بالحق وبإذن العلى العليم .

فهذا نوح الذى نجاه ربه ومن استخلص بمن آمن من قومه فى الفلك الذى بناه بأمر الله ، إذْ نجاه من الطوفان الذى أغرق الله به من عداهم من الكافرين المكذبين بأوامر الله ، فمحاهم الله من فوق الأرض وأبقى على نوح ومن تبعه .

« وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوِمِ الظَّالِمِينَ »(١٤٧) .

« قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَم مِّنَّا وَبَركَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَم مِّمَّن مُعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمتِّعُهُمْ ثُمَّ يَسُّهُمْ مِِّنَّا عَذَابٌ اللِيمُ »(١٤٨) .

وهذا هو إبراهيم أبو الأنبياء الذي أضاء الله قلبه بالإيمان به وحده ونجاه من القوم المشركين الظالمين .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِينَ (١٤٩) إِذْ قَالَ لأبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ »(١٥٠) .

« فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً هُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ »(١٥١) .

« قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْت هَــذَا بِآلِهَتِنَا يا إِبْـرَاهِيمُ (١٥٢) قَالَ بَـلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَــذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ٣٥٥١) . «قَالُوا حَرُّقُوهُ وانْصُرُوا آلِمَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٥٤) قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْراهِيم »(١٥٥٠)

« وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأرْضِ الَّتِي بَارْكَنا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ » (١٥٦٠).

ويجتبى الله نبيه يوسف ويؤتيه الحكمة البالغة والرؤ يا الصادقة وينجيه من غواية الشيطان ، ثم يزيده ، بتقواه ربه ، في الأرض تمكينا ، فيزداد لربه شكراً وبه إيماناً .

« وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَاوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آل يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمُّهَا عَلَى أَبَويْكَ مِن قبلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبُّـكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »(١٥٧) :

« لَقَدْ كَانَ فِي يوسُفَ وإِخْوَيْهِ آياتٌ لِّلسَّائِلينَ »(١٥٨) .

« إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَل مّبِين »(١٥٩) .

الْقُتْلُوا يُوسُفَ أو اطْرحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْماً
 صَالِحِينَ »(١٦٠) .

« فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْه لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِامْرهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرون »(١٦١) .

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْـهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ »(١٦٢) .

« فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعِ الْعَلِيمُ ١٦٣١) .

« وكَذَلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوًّا مِنْها حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٦٤) .

«رَبِّ قَـدٌ آتَيْتَني مِنَ المُلْك وعلمتني مِن تَأْوِيـل الأَحَادِيثِ فَـاطِـرَ السَّمَـواتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ ولِيّى فِي الدُّنْياَ والآخِرَةِ تَوَقَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ »(١٦٥) .

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرآنَ وَإِن كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لِنَ الغَافِلِينَ » (١٦٦٠) .

« ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ، وَهُمْ يَمْكُرُونَ »(١٦٧) .

« وكَايِّن مِّنْ آيَـةٍ فِي السَّمَـواتِ والأَرْضِ يَحُـرُّونَ عَلَيْهَـا وَهُـمْ عَنْهَـا مُعْرِضُونَ » (١٦٨)

ومن أنباء الماضى السحيق الذى لم يصل لنبينا الأمى ولا لقومه منها إلا طرف كان فى نظرهم من أساطير الأولين ، تلك القصص التى أوردها العليم الحكيم فى كتابه المبين ، يؤيد بها رسوله الأمين إذ يأتيه بالخبر اليقين عن هذه الأمم فى كثير من التفاصيل التى عجز عن حفظها البشر أجمعون ، فوقفوا منها حائرين مترددين ومكذبين وما هذه القصص إلا حقائق ثابتة فيها سبق أن نزل الله فى كتبه وفيها تركه الأولون من آثار ومدونات .

وها هى قصص أقوام خلت منذ قرون . منها قوم فرعون موسى فى مصر ، وقوم عاد فى جنوب الجزيرة العربية وقوم ثمود فى شمالها ، وقوم شعيب فى سيناء وغيرهم وغيرهم ممن عاش على هذه الأرض من شعوب منذ آلاف السنين ، وبين لنا القرآن الكريم ما حل بهذه الشعوب حين أخذها الله بفسقها وكفرها وفسادها :

« وَهَلْ أَتَاكَ حَديثُ مُوسَى » (١٦٩) .

« إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى »(١٧٠) .

« وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْم ِ اعْبُدُوا اللهُ مَالَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاً مُفْتَرُونَ »(١٧١).

« وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيِرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِن الأَرْضِ وِاسْتَعْمَرَكُمْ فيها فاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قريب مُجِيبٌ »(١٧٢) .

« وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ،(١٧٣) .

« تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ للْمُتَّقِينَ » (١٧٤).

شرح وتوضيح ما أسىء فهمه فى كتب الله .

هذا القرآن الكريم المنزل من رب العالمين ، كتاب لا ريب فيه ، ولا يتناقض مع ما سبقه من كتب سماوية ، بل هو توضيح لما جاء بها ، إنما نزل خاتم كتب الله لشرح ما غمض أو أسىء فهمه منها ومكملا لها ومهيمنا عليها جميعا ، ولا سبيل لنكران هذه الحقيقة بمن قرأه وفهمه حق فهمه .

« الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِـهِ وَمَن يَكْفُرْ بـه فَأُولَئِكَ هُمُ الحَاسِرُونَ »(١٧٥) .

« وَمَا كَانَ هَذَا القُرآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَـدَيْهِ وَتَفَصِيلَ الكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبٌ العَالِينَ »(١٧٦) .

ولا أدل على ما أنعم الله به على خلقه مما ورد فى هذا الكتاب من تصحيح لما أسىء فهمه من كتبه السابقة ، إذْ هدى به الناس إلى بعض الحقائق التى قــررها الحالق المقتدر .

مثال ذلك ما ورد فى القرآن الكريم عن حقيقة مولد عيسى بن مريم ، عليهما السّلام ومسألة قتله وصلبه التى جرت على ألسنة بعض الناس ظنا ، وما هى من الحق فى شىء .

فالسيدة العذراء مريم ولدت من أبوين صالحين من بنى البسر وتقبلها الله قبولاً حسناً ، وحفظ لها طهرها وصفاء نفسها ، وأعدها لهذا الحدث الربانى ألا وهو مولد عيسى ، كلمة الله ، وضَعَتْهُ أمه ولم تتزوج ولم يمسها بشر ، فاصطفاه ربه لتبليغ رسالته إلى بنى إسرائيل ، وأوحى إليه إنجيله المقدس هاديا ومصدّقًا للتوراة :

« إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّ نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحُرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنَى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ »(١٧٧). السَّمِيعُ العَليمُ »(١٧٧).

« وإذْ قَالَتِ المَلاثِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهِ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ ، وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ ٱلْعَالِمِينَ ﴾ (١٧٨) .

« إِذْ قَالَت الملائكة يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ
 مَرْيَمَ وَجِيهاً فى اللَّدنيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْلَقَرَّبِينَ »(١٧٩) .

« قَالَتْ رَبِّ أَنَّ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ الله يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ له كُن فَيَكُونُ »(١٨٠) .

« إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَـهُ كُن فَيَكُونُ "(١٨١) .

ثم أرسل الله عيسى إلى بني إسرائيل رحمة بهم ومصدقا لكتابهم .

« وَمصَدَّقاً لِيّا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأَحلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وجِئْتُكُمْ بآيةٍ مِن رَّبَّكُمْ فَاتَّقُوا الله وَأَطيعُونِ »(١٨٢) .

« إِنَّ الله رَبِّيَّ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِراطٌ مُّسْتَقِيمٌ » (١٨٣) .

ثم يصحح العليم الخبير فكرةً بعض الناس عن وفاة المسيح عيسى بن مريم ويرد كيد بني إسرائيل وكذبهم .

« إِذْ قَالَ الله يا عِيسَى إِنِّ مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِنَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفُرُوا إِلَى يَوْم ِ الْقِيامَةِ ثَمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيهَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »(١٨٤) .

« وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا أَلْسِيحَ عِيسَى أَبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فيه لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْم إِلاَّ اتَّباعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً (١٨٥٠) .

ثم يحذر العزيز ذو الانتقام أهل الكتاب الـذين اتخذوا من التثليث دينـا لهم وعقيدة . فهو سبحانه وتعالى واحد لا شريك له ولا شيء مثله ، وهو سبحانه لم يلد ولم يولد . وما كان عيسى ابن مريم إلا بشرا من بنى آدم وعلى صورتهم ، وعبداً من عباد الله اختاره ربه رسولا وأوحى إليه بالانجيل هدى ورحمة لقومه .

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَتَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى الله إِلاَّ الحَقَّ إِنَّمَا الْسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلْنَ مُرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا الله إِلَهُ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَن يكُونَ لَهُ وَلَدُ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الاَّرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً» (١٨٧) .

« لَن يَسْتَنْكِفَ ٱلْمِسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدا لله وَلا ٱلْلاَئِكَةُ ٱلْلُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عَبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً »(١٨٨) .

وكها صحّح القرآن الكريم فكرة الناس عن مولد عيسى ونهاية حياته الدنيا ، صَحَّحَ أَيْضاً فكرة الناس الخاطئة عن الربا وحرمه تحريما قاطعا ، فقد ادعى أهل الربا وبرروا معصيتهم بقولهم إن الربا نوع من التجارة ، وما هو من التجارة في شيء ، بل هو أكل أموال الناس وإذلالهم بغير حق .

« اَلَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يُقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذَى يَتَخَبُّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ قَالُو إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهَ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مُوْعِظَةٌ مِن رَبِّهِ فَانْتَهِى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى الله وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا زَلِدُونَ "(١٨٩٩).

وقد يذهب بعض المكابرين الى التعجب من إباحة القرآن بعض ما حرّم الله فى كتبه السابقة كما فعل اليهود مع نبينا الصادق الأمين ، إذْ نَسُوا أو تناسوا أن فى الإباحة والتحريم حكمة إلهية قد يجهلها البشر ولا يؤمن بها إلا من شرح الله صدره بالإيمان وأضاء عقله بالفهم السليم . ومن ذلك ما أباحه القرآنُ من أنواع الطعام ما سبق أن حرّمه الله على بنى اسرائيل فى التوراة عقابا لهم على ما اقترفوا من ذنوب ومعصية ، إذ حرّم فى التوراة بعض متع الدنيا عقابا لهم ، واختبارا لهم فى مدى إسلامهم لأمر الله وطاعته ، وصدق إيمانهم بما نزل إليهم .

« وَعَلَى الذينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ البَقَرِ والْغَنَم حَرَّمنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أوالْحُوايَا أو ما أُخْتَلَطَ بِعَظْم ذَلَكَ جَزَيْنَاهمْ بِبَغْيهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ »(١٩٠) فإن كَذَّبُوكَ فَقُل رَبَّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ولاَ يُرَدُّ بَأْسهُ الْقَومِ المُجْرِمِينَ »(١٩١).

« قُلِ لَا أَجِدُ فِيهَا أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِم يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرِ فإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيِّرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلاَ عَادٍ فإنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »(١٩٢).

ولكنهم بما جُبلوا عليه من عناد ومكابرة وتكذيب بما أنزل الله فى قرآنه الكريم كفروا بنعمة ربهم عليهم وبما أراد لهم من مغفرة ورجمة ، إمعانا فى كيدهم للإسلام والمسلمين ، فَيَا لضلال ِ قوم ٍ أَبُوا أن يتقبلوا رحمة ربهم بهم !

٦- تصحيح ما لحق الكتب السماوية من تشويه نتيجة حذف أو إضافة .

لقد أنزل الله خاتم كتبه من نفس لوحه المحفوظ الذى نزل منه على البشر كتبه السابقه ، هداية ورحمة وعوداً بهم إلى صراطه المستقيم ، وتصحيحا لما لحق هذه الكتب من تشويه أملته أهواء بعض عمن سعى وراء مصالح شخصية ومنافع دنيوية عاجلة أو إمعاناً منهم فى الاستكبار والاستعلاء بما آتاهم الله من بعض علمه ولكنهم خانوا الأمانة واستباحوا ما حرم الله وحرموا ما أحل ، وألبسوا الحق بالباطل ، وتسلطوا على عقول البسطاء من الناس وأضلوهم عن سواء السبيل ، إلا من عصم الله من عباده الصالحين .

« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِلَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ ومُنْدرينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكَتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَينَ النَّاسِ فِيها اخْتَلَفُوا فِيه وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ ما جَاءَتُهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهَ الَّذِينَ آمنُوا لِلا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ بَعْدِ ما جَاءَتُهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهَ الَّذِينَ آمنُوا لِلا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ "(١٩٣٠)».

ولوكان ما لحق هذه الكتب من تشويه نتيجه لعدم فهم كتاب الله على وجهه الصحيح أو نتيجة لقصور غير مقصود فى تفسير كلام الله بالحق ، لهان الأمر وقُبل العدر إذا ما اقتنع هؤلاء المفسرون بخاتم كتب الله وآياته البينات ولتابوا إلى الله وآمنوا به ، وعسى الله أن يقبل توبتهم ، وهو سبحانه الرحيم الغفور .

أما إذا كان هذا التشويه متعمدا ومقصودا من أناس هم أعرف بكتاب الله ومقاصده ، وهم أدرى الناس بصدق ما جاء به وبمفهومه ، إذا كان هذا التشويه على

هذا الوصف لكان هو الضلال بعينه والكفر المبين والارتداد عن الحق بعد ما تبين ، وما يزيد الله هؤ لاء المرتدين إلا كفرا بالحق وإصرارا على الكذب والافتراء ليضاعف لهم العذاب بما قدموا من كفر وتضليل .

« الَّذين آتَيْنَاهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَه كَهَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّهُم لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ »(١٩٥٠) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشَرِينَ » (١٩٥٠).

ومن أشد كفراً وأهلاً لغضب الله ولعنة الخالق والخلق ممن كتم عن الناس نور الحق وهو يعرفه ، ويأبي الله إلا أنْ يتم نوره ولو كره هؤلاء المفترون الضالون :

هؤلاء هم المفترون المصرون على كفرهم وكذبهم ، الذين لا يناقشهم الله يوم الحساب فيها قدموا في دنياهم من إثم وفساد ، فإثمهم عيط بهم وفسادهم آخذ بتلابيبهم ، وقد غضب عليهم القوى الجبار وكتب عليهم سوء العذاب ، فلا موجب لحساب ولا وقت لمؤ اخذة أو مناقشة ، بل يقذف بهم لتوهم قذفا في نار جهنم ولا يرحمهم الله ولا يشفع لهم أحد ، وهل بعد الافتراء على الله ، سبحانه وتعالى ، بالكذب من ذنب ؟

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالْمُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَاهُ لِلنَّاسِ فِ الْكِتَابِ أُولِئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهَ ويَلَعْنُهُمُ اللاَّعنُونَ »(١٩٦٦) .

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيامَةِ وَلاَ يُـزكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ إَلِيمٌ »(١٩٧٧)» .

« إِنَّ الدَّينَ يَشْتَروُنَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أَولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ في الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُّ اللَّهُ ولا يَنْظُرُ إِلَيْهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيُمُ (١٩٥٠)».

أما من تدارك خطأه فى دنياه فأصلحه ، وتبين ضلاله فنفضه عنه ، ثم عمل جاهدا على إصلاح ما أفسد وثاب إلى صراط ربّه المستقيم ، وأخلص نبته فصدق قوله وتاب إلى ربه توبة نصوحا ، تقبل الله توبته وعفا عنه وشمله برحمته ، وهو سبحانه التواب الغفور .

« إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَينَّوُا فَأُولَثِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »(١٩٩٠) .

فهل آن لهؤلاء الضالين أن يتحروا الحق فى تفسير كتبهم وأن يُصْدِقوا الجهد فى استخلاص العبر والحكم مما يقرءون ، بدلا من تلمس ما يتفق ونفوسهم المريضة وأهـوائهم الخبيثة ، وبدلا من تصيد المتشابه من آيات القرآن الكريم يفسرونها بما يتفق ومصالحهم الخاصة ، وبدلا من اختلاق ما لم ينزل به الله من كلام يدسونه زورا إلى الله ، والله أعلم بذات صدورهم وبما يؤ فكون ، ولهم سوء العذاب ؟ .

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتبابَ مِنْهُ آيباتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتبابِ وأُخْرُ مُتَشَابِهاتُ فأَمًا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابِتْغَاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأُويِلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأُويِلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالراسِخُونَ فِي العِلم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلَّ مِنْ عِنْدِ رَبَّنَا وَمَا يَذَّكُرُ إِلاَ أُولُوا الأَلْبابِ " (""") « .

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكتَابِ لَتَحْسَبُوهُ مِنَ الِكتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ وَيَقُولُونَ عَلَى الله الكَلِبَ وَهُمْ الكَيْتَابِ وَيَقُولُونَ عَلَى الله الكَلِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (٢٠١٪ .

وهم يقولون ما لم يُرد الله أو ينزّل ، ويقلبون الحقائق التي آتاها الله للبشر ، ورغم علمهم بذلك فإنهم يتمادون في بث الشك والفتنة بين المؤمنين ، حسداً منهم وطمعا ، ورغبة منهم جامحة في التسلط على الناس ، ولكنهم في الواقع لا يضلون الا أنفسهم أمام تقوى المؤمنين وثباتهم على الحق .

« وَدَّت طَّاثِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَـوْ يُضِلِّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَـا يَضِلُونَ يُضِلُّونَ »(٢٠٢) .

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَلْبِا أَوْ كَلْب بآياتِهِ إِنَّهُ لاَ يُمْلِحُ الْمُجْرمُونَ ،(٢٠٣) . . .

وما أهل الكتاب إلا بشر دأب الشيطان على الكيـد لهم وبث الفتنة فيهم ، ففيهم من اتخذ من الشيطان ولياً واتبع هواه ، ومنهم من ثبته الله على إيمانه فعمل

بكلام الله المنزل ، ومنهم المهتز النفس الضعيف الإيمان الخائن للأمانة الناقض للعهود ، ومنهم القانت الخاشع لله فظل على الايمان به وحده وباليوم الآخر .

« ومِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْه بقنطارٍ يُؤَدّه إِلَيْك ومنهم مَنْ إِنْ تَأْمَنهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدّه إِلَيْك ومنهم مَنْ إِنْ تَأْمَنهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدّهِ إِلَيْك إِلاَّ مَا دُمْت عَلَيهِ قَائِماً ذَلِكَ بِالنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمَّيِّينَ سِبيلُ وَيُقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَهُم يَعْلَمُونَ »(٢٠٤)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَاْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالِفَضَّةَ وَلاَ يُيفْقُونهَا في سَبِيلِ اللَّهِ فَبشَّرْهُمْ بِعَذابِ أَلِيمٍ »(٢٠٥)

ويعرّف العليم الخبير معنى الإيمان كما أراده وكما بينه في كتبه ، حتى يهتدى الضالون ويتقوا ربهم فيها يقولون .

« إِنَّ الذينَ آمَنُوا وَالذينَ هَادُوا والصَّابِثُونَ والنَّصَارِي مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَّـوْمِ الآخِرِ وعمل صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ »(٢٠٦)

ويحذر الله من آمن به من ضلال وتضليل بعض أهل الكتاب الذين يبغون بينهم ويبثون فيهم الفتنة ، ويأمر المؤمنين به أن يكونوا دعاة خير وإحسان .

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا إِن تُطيِعُوا فَريقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُو الْكِتاَبَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَائِكُمْ كَافِرِينَ »(٢٠٧)

« وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَناْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ »(٢٠٨).

والعليم بما فى الصدور ينكر على بعض أهل الكتاب تماديهم فى الضلال والكفر والتكذيب بما أنزل الله رغم علمهم بالحق .

« يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٢٠٠) يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمونَ الْخَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (٢١٠)

ويضرب الله مثلا بضلال بنى اسرائيل وغيرهم من أهل الكتاب بما أنزل الله ، ويكشف تزييفهم للحق وخيانتهم وعدوانهم ، يضرب بكل هذا مثلا للمؤمنين

يحذرهم منهم ومن كيدهم ، والله رالاكيد الكافرين بما كفروا وأثموا ، وبما أثاروا من فتنة بين الناس :

« وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاحْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَـاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »(٢١١)

« لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُولُوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ »(٢١٢)

« منَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّواضِعِهِ وَيقَولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَع وَراعِنَا لَيًّا بَٱلْسِنَتِهِمْ وطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأطعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلِكِنْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاً قَلِيلاً »(٢١٣)

« وإذْ أَخَدَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُو الْكِتَابَ لَتُبَيَّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَدُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَروا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئسَ مَا يَشْتَرُونَ » (٢١٤)

« ضُربتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إلاَّ بِحَبْلِ مِنَ اللَّه وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّه وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المُسْكَنَةُ ذَلِك ً بِأَنْهُمْ كَـانُوا يَكُفُرُونَ بِآيَـاَتِ اللَّهِ ويَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بغير حَقِّ ذَلِكَ بِما عَصَوْا ، وَكَانُوا يَعْتَدُونَ »(٢١٥)

« وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَدْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظَّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغرَيْنَا بِينَهُمُ العَسدَاوَةَ والْبَغْضَاءَ إِلَى يَسوم ِ القِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنبِئُهُمُ اللَّهُ بِمِا كَانُسوا يَصْنَعُونَ »(٢١٧) .

ثم يسلط الله نـوره على مـا أخفى أهل الكتـاب من الحق ويبـين للمؤمنـين ما حاولوا إخفاءه .

« يَأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَينُّ لَكُمْ كَثِيراً يمَّا كُنْتُمْ شُخْفُونَ مِنَ الْكتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثْيرِ قَدْ جَاءَكم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِنٌ (١١٧) » .

« قُلْ يَأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالُوْا إِلَى كَلِمةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّه وَلاَ نُشْرِكَ بِهُ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ » (١١٨)

ويُبصِّر ألله أهل الكتاب فيها اختلفوا فيه ويكشف مدى ضلالهم وتخبطهم فيها يفكرون وفيها يقولون وتحريفهم فيها يعلمون وفيها لا يعلمون . فكل منهم يريد أن يدعم قوله ، بغير حق ويقرع حجة زميله ، بحجج أو هى من حججه ، إذ يقولون إن ابراهيم أبا الأنبياء عليه السلام كان يهوديا أو نصرانيا رغم أنهم لا يعرفون أى ملة كان عليها ابراهيم ، ومن ثم يصحح القرآن لهم ما تاهوا فيه من أخطاء وضلال ، وما كان ابراهيم من هؤلاء ولا هؤلاء ، بل كان مسلها حنيفاً .

« يَأَهْلَ الْكَتَابِ لَمْ تُحَاجُونَ فِي إِبْراهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ والإِنْجِيلُ إِلاَّ مِن بَعَدْهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ » (٢١٩) .

« هَا أَنْتُمْ هَوُ لاَءِ حَاجَجْتم فيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ ثَحَاجُونَ فِيَمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٢٢٠) مَا كَان إِبْراَهِيمُ يَهُودياً وَلاَ نَصْرَانياً وَلكِن كَان حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَان مِنَ المُشْرِكِينَ (٢٢١) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ والَّذِينَ آمنُوا وَاللَّهُ وَلَيُّ الْمُؤْمنينَ «٢٢٢).

ثم يشدد الله القول على بنى إسرائيل ويعنفهم تعنيفاً شديداً بما ارتكبوا من جرائم وأكاذيب وعصيان لأوامر الله ويعذبهم فى حياتهم الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب أشد .

« فَبِهَا نَقْضِهِمْ مَّيْثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بَآياَتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقِّ وَقَولِهُمْ قُلوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهَ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً » (٢٧٣) وِبَكُفْرِهِمْ وَقَولِهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاتاً عَظِيماً » (٢٧٤)

« فَبِظُلْم مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْناً عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً» (٢٢٥) وأُخْذِهِمُ الرِّباَ وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَأَعْتَدُنَا للهُ كَثِيراً» (٢٢٦) اللَّكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيهاً » (٢٢٦) .

« فَبِهَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِم عَن مَّوَاضِعهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمًّا ذُكِّرُوا به ولا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَاثِنَة منْهُمْ إِلاَّ قَلْبِلاً مِنْهُمْ فَاعفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ الله يُحِب الْمُحْسِنِينَ » (۲۲۷) ثم يسأل الله رسوله عيسَى بْنَ مَرْيَمَ سؤ الا استنكاريا عما ادعى بعض أهل الكتاب كذباً ويبرىء عيسى نفسه أمام ربه من هذا الادعاء الكاذب ،

ر وإذْ قَالَ الله يَاعِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخَذُونِ وَأَمِّىَ إِلَمَىٰ مِرْ دُونِ اللهِ قَالَ اللهَ يَاعِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ للنَّاسِ التَّخَذُونِ وَأَمِّى إِلَمَانُ مَعْلَمُ اللهِ قَالَ اللهَ مَا يَكُونُ لَى أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِي بِحَق إِنْ كُنْتَ قُلْتُه فَقَدْ علمته تَعْلَمُ مافي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ (٢٢٨) * مَاقُلْتُ لَمُمْ إِلاَّ مَا أَمُرْتَنَى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلمَا تَوَقَيْتَنَى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدً » (٢٢٩)

وكما ادعى بعض أهل الكتاب من النصارى ربوبية نبيهم عيسى ، ادعى اليهود أيضاً أن عُزَيْراً ابنُ الله والله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ، فليكذب الكفار ماشاء لهم الكذب ولينالوا جزاء كذبهم .

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ الله ، وَقَالَتِ النَّصارَى الْمُسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قاتلهمُ الله أنَّى يُؤ فَكُوُنَ » (٢٣٠)

ثَمَ يقرر الحالق العليم حقيقة عيسى بن مريم ، فما هو إلا بشر من بنى آدم قال الله فيه كلمته بما يشاء ليخلق منه ما يشاء .

« مَا الْمُسِيحُ ابْنُ مَرِيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُهُ الرَّسُلُ وأَمَّهُ صِدَّيقَةٌ كَـانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نَبَيْنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْ فَكُونَ » (٢٣١) .

ومع ذلك لا يزال من أهل الكتاب من لم يكتف بتأليه رسولهم ، بل تعدوا هذا الكفر إلى ما هو أشد كفراً وعصيانا إذ صنعوا من قسسِهم أرباباً فتعددت آلهتهم وضلوا سبيلهم إلى الله الذي لا إله إلا هو .

« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِن دُونِ اللَّهِ والمسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ ومَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا إِلهًا واحِداً لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ »(٢٣٢)

ويلعن الله وأنبياؤه بنى اسرائيل بكفرهم وبما تمادوا فيه من إثم وعدوان وبتحزبهم للكفار للصدِّ عن سبيل الله ، ويتوعدهم بعذاب اليم .

« لَعِنَ الذين كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بَمَا عَصَوْا وُكَانُوا يَعْتَدُونَ »(٢٣٣)

« تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَولُّوْنَ الَّذين كَفَرُوا لبِثْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُم أَنْ سَخِطَ الله عَلَيْهِمْ وَفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ »(٢٣٤).

« وَلَوْ كَانُوا يُؤْمُنُونَ بِاللهِ والنَّبِيِّ وما أَنْزِلَ إِلَيْه ما اتَّخَذُوهُمْ أُوْلِيَاء ولكنِّ كَثِيراً مِّنْهُم فاَسِقُونَ »(٢٣٠)

ثم يأخذ القوى العليم من ضل من أهل الكتاب بأقوالهم وافتراءاتهم ، ليبين لهم ما كانوا فيه يتخبطون ويهذون ، فيكشف كفرهم وسوء ظنهم وفساد ضمائرهم وغرورهم بأنفسهم .

« وَقَالَت الْيَهُودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِم يُعَذَّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفُر لِمَن بِشَاءُ وَيُعَذِّب مَن يَشَاءُ ، ولِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وإلَيْه المَصِيرُ »(٢٣٦) .

« قُلْ يَا أَهُلَ الكُتاَبِ لَسُتُمْ عَلَى شَي ء حَتَّى تُقِيموا التَّوْرَاةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إليْكُمْ مِّنْ رَّبَّكُمْ وَليَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الكُافِرِين »(۲۳۷) .

« ومَنْ أَظَلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللهِ كَلْبِاً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّلِلُونَ » (٢٣٨).

« ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهِمْ إِلاَّ أَن قَالُوا واللّهِ رَبُّنَا ماكنًّا مُشْرِكينَ »(٢٣٩) .

« انظُرُ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلُّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرَوُنَ ١٢٤٠).

ثم يأمر الله أهل الكتاب بالإقلاع عن العبث بدين الله والبعد عن هوى النفس وأن يكونوا صادقين مع أنفسهم ومع ربهم .

« قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دينكُم غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُوا كَثِيراً وضَلُوا عَن سَواءِ السَّبِيلِ » (٢٤١).

ويقطع عليهم سبيل التملص مما لجّوا فيه من ضلال ، فيرسل إليهم رسولا يصحح لهم أخطاءهم ويلقى إليهم بكلمة الحق ليردهم إلى سواء السبيل .

« يَا أَهْلَ الكِتِابِ قَدْ جَاءَكُم رَسُولُنَا يُبَين لَكُمْ عَلَى فَتْرة مِّن الرسُل أَن تَقُولُوا ما جَاءَنَا مِن بَشِيرِ ولاَ نَذِيرِ فَقَد جَاءَكُمْ بشيرِ ونذيرِ والله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ »(۲۶۲) .

« قَلْ يَا أَهْلَ الكُتَابِ هَل تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهُومَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وما أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَانَّ أَكْثَرِكُمْ فَاسِقُونَ » (٢٤٣) .

٧ - الحروف المقطعة في أوائل سور القرآن :

ومن نواحى الإعجاز القرآنى ما ورد فى أوائل بعض السور من حروف مقطعة يزداد عددها أو يقل كما يشاء الله .

فمن السور ما يبدأ بحرف واحد من نفس حروف اللغة التي نزل بها القرآن ، والبعض الآخر يبدأ بحرفين أو أكثر لا تربطها كلمة واحدة ذات معنى بالمفهوم البشرى ولكنها عند الله ذات معنى ومدلول لا يزال العقل البشرى عاجزاً عن التعرف عليها ، وقد تضاربت الأقوال في هذه الحروف .

فيقول البعض إن الحروف المقطعة هي أسهاء سور أي عناوين لها .

وهذا قول مردود عليه بأن الكثير من السور اشتهرت بأسهاء وعناوين غير ما بدأت به من حروف مقطعة . فسورة البقرة اشتهرت بهذا الاسم ولم تشتهر بما بدأت به من حروف (الم) ، ومثلها سور آل عمران والأعراف ومريم والعنكبوت والروم ولقمان . وسورة غافر اشتهرت بهذا الاسم ولم تشتهر بما بدأت به من حرفي (حم) ومثلها سور فصلت والشورى والزخرف . وسورة يونس اشتهرت بهذا الاسم ولم تشتهر بما بدأت به من حروف (الر) ومثلها سور هود ويوسف وإبراهيم والحيجر . ولا يستثنى من سور القرآن في هذا المجال سوى سور (يس) ، (طه) ، (ق) إذ أن عناوينها وأسهاءها هي هذه الحروف المقطعة .

ومن أقوال البعض الآخر أن الحروف المقطعة في أوائل بعض سور القرآن قد قصد بها تنبيه العرب إلى أن القرآن قد نزل بلغتهم وبنفس صور حروفها .

وهذا قول مردود عليه بأن العرب لم يكونوا ليجهلوا أن اللغة العربية هي لغتهم وأن القرآن قد نزل بها .

وقال آخرون إن هذه الحروف المقطعة ما هي إلا تحد للعرب وتعجيز لهم عن الإلمام بأسرار الله سبحانه وتعالى . وقد يكون في هذا القول بعض الصواب من حيث الشكل ولكن لا يبين لنا جوهر هذا الإعجاز . وقد رأينا فيها سبق من نواحي الإعجاز أنها إنباء للناس بما لم يسبق لهم به علم ، ولكن الأمر يختلف من حيث هذه الحروف فإنها لا تنبئنا بشيء ولا يفهم منها نبأ أو حكمة ، وهذا ما يجعلنا نعجز عن فهمها وبالتالي لا نستطيع تفسيرها .

وإذا كان القرآن قد نزل لصالح البشر وليعملوا بما فيه إنما يطلع به الله عباده المؤمنين على بعض من أسراره بالقدر الذى ينفعهم فى حياتهم الدنيا وبما يثبت فيهم الإيمان بالخالق القادر وحده والتسليم لأوامره والبعد عن نواهيه ، فقد احتفظ الله ببقية أسراره له وحده حيث لا يفيد بعلمها البشر ، على الأقل فى وقتهم هذا .

إذن لا داعى لأن يتعب الناس أنفسهم فى محاولة تفسير هذه الحروف ولا هم مطالبون بفهمها ما لم يأذن الله بذلك ، ولا يجوز للخلق أن يحاولوا الإلمام بكل علم العزيز العليم بأسرار كونه وخلقه ، وكم فى الكون من أسرار إلهية لا يدركها العقل البشرى ، ولا جدوى له من معرفتها ، فهى من الغيبيات الإلهية التى يكفى العبد منها الإيمان بقدرة الخالق وبواسع علمه وتسليم الأمر له وحده .

(ب) البلاغة في لغة القرآن:

تتضح لنا روعة كتاب الله المبين وعظمته فى كل ناحية من نواحى البلاغة اللغوية فمن دقة فى التعبير وحسن البيان إلى وضوح فى التصوير وبلاغة فى التشبيه ، إلى غير ذلك من ألوان البلاغة مما لا يجعل فى هذا الكتاب الذى أحكمت صياغته ثغرة لسوء فهم أو مجالا لتزييف فى التأويل فهو بروعة بلاغته ومحكم بيانه ، تنفذ آياته من عين القارىء إلى قلبه فيطبعه على الإيمان ويثبته ، ويقع ترتيله على الأذن فينفذ إلى الضمير فيضيئه ويصفيه . فهو كلام الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

١ - فيا أبلغ القرآن في تجسيده صفات البشر ، وما أروع تصويره لها حين يصور ذا القلب المقفل المصر على الكفر ، بمن فقد أقل ما يحس به أدنى الحيوانات ، فهو بذلك أحقر وأدنى من أدنى الكائنات الحية .

«وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْك كِتاباً في قِرْطَاس فَلَمَسُوهُ بالْيديهِمْ لَقَال الَّذِينَ كَفُرُوا إِنْ هَذَا إِلاً سحْرٌ ، مُبينٌ »(٢٤٤) .

« وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّماء فظلوا فيهِ يَعْرُجُونَ (٢٤٠) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » (٢٤٦).

٢ - ويبين لنا القرآن بأجلى بيان مدى كفر الكافر وانصرافه عن الإيمان بالله مها أتاه الرسل من معجزات إلهية ، ويبين لنا مدى مكابرته وإصراره على الكفر ومشاقته لرسل الله ولا عجب في هذا الإصرار ، فإن الله لم يرد له رشداً ولا هداية ما ظل عاصياً لأوامره وتابعاً للشيطان .

« وإِن كَان كَبُرَ عَلَيْك إِعْرَاضُهُمْ فَإِن اسْتَطَعْت أَن تَبْتَغى نَفَقاً في الأَرْض أَوْسُلَّماً في السَّماء فَتَاْتِيَهُمْ بآية وَلَو شَاءَ اللَّه جَمَعَهُمْ على الهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ »(٢٤٧).

« قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وأَبْصاركُمْ وخَتَم عَلَىَ قُلوِبكُمْ مَّنْ إِلَهُ غيرُ الله يأْتِيكُمْ به انْظر كَيْفَ نُصَرِّف الآيات ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ »(٢٤٨) .

س - ثم انظر وتدبر هذا التلميح القرآنى البليغ ، إذ يصور من ينظر إليك بعينين مفتوحتين ولا يرى ، ومن يعيرك أذنه ولا يسمع من قولك حرفاً وكلاهما كالأبله الفاقد الإحساس والرشد فلا يتبين ما يرى بعينيه ولا يعى ما يسمع بأذنيه ، بل هما بالموتى أشبه فى بلادة الحس .

« وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إليك أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ولَوْ كَانُوا لاَ يَعقِلونَ ، (٢٤٩) .

« وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَمْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ » (٢٥٠٠ .

« فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ »(٢٥١) .

٤ - ويبث القرآن بأسلوبه البليغ اليأس فى قلب من كفر بآيات الله ، فقد تخلى الله
 عنه كما بعد هو عن ربه بكفره وسوء عمله .

« إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِناَ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ في سَمّ الخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ »(٢٥٢).

« لَهُ دَعْوَةُ الْخَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إَلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلَى الْمَاءِ لَيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِه وَمَا دُعَاءُ الْكافِرِينَ إلاَّ فِي ضَلاَل ٍ »(٢٥٣).

وما أشبه تابع الشيطان ، والمغتر بما زينه له من سوء الأعمال بالمتعطش إلى شربة ماء فيجرى وراء السَّراب باحثاً عنها ، وما هو ببالغها ، وما يخدع إلا نفسه .

« وَالَّذِينَ كَفَروا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّه عِنْدَهُ فَوَفًاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهَ سَرِيعُ الحِسَابِ » (٢٥٤).

وما أشبه الكافر بآيات الله بالغارق فى بحر من الظلمات ، يلفه الظلام ويحيط به من كل جانب فلا يكاد أن يتبين شيئاً مما حوله .

« أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لِجُنَّ يَغْشَاهُ مَوْجُ مِن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بعض إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراهَا وَمَن لَمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُوراً فَهَا لَهُ مِن نُودٍ »(٢٥٥) .

وما أشبه عمل الكافر بنسيج العنكبوت الواهى ، يظهر كأنه متماسك وهو فى حقيقة أمره مفكك وضعيف ، وهو بذلك لم يكسب من عمله شيئاً فى دنياه وهو فى الآخرة من الحاسرين .

« مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّه أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ التَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّه أَوْلَيَاءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ التَّخَذُونَ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »(٢٥٦) .

« وَيِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُون » (٢٥٧).

وممن كفر بآيات الله البينات واتبع غواية الشيطان ذلك الحائر الذي لا يقر له قرار ولا يبقى على حال ، بل هو يدور حول نفسه ويتعب وتتقطع أنفاسه بسوء ما يعمل أو يسعى ولا يجنى مما عمل سوى الإجهاد والإعياء ، فهو كالكلب الضال الحائر يلهث وهو يعمل ويلهث وهو قاعد بلا عمل ، وياله من تشبيه .

« واثلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَـاتِنَا فَانْسَلَخ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ (٢٥٨) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبِعَ هَوَاهُ فَمَثُلُهُ كَمَثَل الغَاوِينَ (٢٥٨) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبِعَ هَوَاهُ فَمَثُلُهُ كَمَثَل الكَلْبِ إِن تَخْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَتْ أُو تَثْرِكُهُ يَلْهَتْ ذَلِكَ مَثُلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا فَاقْصُصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢٦٠) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ "(٢٦١) .

٦ - وما أشبه معبود الكافر المشرك بالله ، بالذبابة فى ضعفها وقلة حيلتها ، بل هو أضعف منها وأقل تدبيراً ، والله وحده هو خالق هذا وتلك ، وما هو أكبر منها وأدنى .

« ياَ أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّه لَن يَخْلُقوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالطَّلُوبُ » (٢٦١) .

ويمعن القرآن الكريم في التهكم على أتباع شياطين الجن ، إذ يدخلون تباعاً في صحبة أوليائهم إلى نار جهنم حتى تزدحم بهم وتضيق بهم ذرعاً ، ويتوسلون إلى الله أن يرحمهم ويغفر لهم وينقذهم مما هم فيه من عذاب ، ولكن الله يغفر لكل شيء إلا أن يشرك به .

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَد اسْتَكْثُرْتُمْ مِّنَ الإنْسِ وقال أَوْلِيَاوُهُمْ مِّنَ الإنْسِ وقال أَوْلِيَاوُهُمْ مِّنَ الإنْسِ رَبَّنا أَسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْض وَبَلغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُم خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّه إِنَّ رَبَّكَ حُكِيمٌ عَلِيمٌ »(٢٦٢).

٧ - وحين يصور القرآن للناس الجنة والنار بالمفهوم البشرى الدنيوى ، إنما يقرب صورتيها إلى أذهانهم ترغيباً أو إرهاباً ، ولكى يتبينوا جزاء ما قدمت أيديهم إن ثواباً أو عقاباً .

« مَثَلُ اجْنَةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَقُونَ فَيهَا أَنْهَارُ مِن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنِ وأَنْهَارُ مَن لَّبَنِ لَمْ يَتَغَيَّرُ طَعْمُهُ وَأَنْهَارُ مِنْ خَيْرٍ لَدَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارُ مِنْ عَسَل مُصَفِّى وَلِّمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَعْفِرَةً مِّن رَّبِّمْ كَمَنْ هُو خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » (٢٦٣) .

وتقارن الآية بين ما فيه أهل الجنة من نعيم ، وبين ما يصلى أهل الجحيم من عذاب أليم ، وعندما يذكر الله ما ينعم به أهل الجنة من ماء ولبن وخمر وعسل وثمرات إنما يقرب إلى أذهاننا أنواع هذه النعم . فليست كلها مما طَعِمَه الناس في حياتهم الدنيا بل هي نِعمٌ ربانية أعدها الله وشبهها في لذتها بالماء النقي واللبن والخمر والعسل التي عرفها الناس وتمنوها في حياتهم الدنيا . فالخمر التي أشارت إليها الآية ووعد بها الله أهل الجنة ليست ذلك الشراب الدنيوي الخبيث الذي حرمه الله على المؤمنين تحرياً قاطعاً .

أما أنَّ هذه الأنواع من مشروبات الجنة تجرى بها أنهار ، فكناية عن دوامها وعدم انقطاعها ، فهى خالدة خلود أهل الخنة .

وليس الحميم الذى يشربه أهل النار نوعا من الماء المألوف لدينا بل هو معدن مصهور يصبه الله صباً فى جوف كل عاص أثيم إمعاناً فى تعذيبه بما قدمت يداه فى حياته الدنيا .

٨ - وما أروع القرآن الكريم فى بلاغته وسحرِ بيانه حين يصور ذلك المرتد عن دين الله والذى كفر بآياته البينات بأبشع صور الحيوان وأقلرها ، فيشبهه بالقرد ، وبالخنزير قبحاً ودنساً وجبناً ، إذ يحاول هذا النجس الاستخفاء عن الناس فيلبس لباس المؤمن وهو فى دخيلة نفسه أشد الناس كفراً ، ولكن الله عليم بذات الصدور .

« قُلْ هَلْ أُنبُّنُكُم بِشَرٍ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّه مَن لَّعَنَهُ اللَّه وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ » (٢٦٤) .

« أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » (٢٦٠) .

ثانيا ـ القرآن والتشريع :

ويقصد بالتشريع القرآنى تلك الأحكام والحدود التى وضعها الخالق للخلق رحمة بهم وهداية لهم . وهى التى وُضعت بالحق والعدل ، والتشريع القرآنى هو شريعة الله فى تنظيم العلاقات بين أفراد البشر وجماعاته ، ورَعى فيها الصلاحية والصلاح لكل البشر فى كل زمان ومكان .

والشريعة الإسلامية هي تلك الأحكام الربانية التي وضعها الله ليهتدي بها الناس كافة إلى صراط مستقيم . وهي الحد الفاصل بين الحق والباطل ، يتحرى الناس بها العدل وينبذون الظلم فيها يقولون وفيها يعملون ويتعاملون ، حتى يكون بنو آدم مجتمعاً كاملاً ، يأخذ بالمعروف وينهي عن المنكر .

« إِنَّ هَذَا القُرآن يَهْدِى لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْلُوَّ مِنينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ كُمْمُ أَجْراً كبيراً » (٢٦٦) .

« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيهاً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تُتَّبِعُوا السُّبُـلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(٢٦٧) .

« وَأَقْيِمُوا الْوَزْنَ بِالقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْلِيزَانَ »(٢٦٨) .

« الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْم ِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ »(٢٦٩).

« إلاَّ الَّذِينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ »(٢٧٠).

مصادر التشريع في الإسلام:

مصادر الشريعة الإسلامية ثلاثة ، وها هي مرتبة حسب أولوية ما يؤخذ به في التشريع وفي إصدار الأحكام .

- الحكام قاطعة المحادر هو القرآن الكريم وما نصت عليه آياته من أحكام قاطعة لا لبس فيها ولا غموض .
- حسنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهي ما صدر عن النبي من أقسوال وأفعال ويرجع إليها إذا لم نعثر على الحكم في القرآن أو لبيان المراد مما ورد في القرآن .
- ٣ رأى أولى الأمر ويرجع إليه إذا لم نعثر على الحكم فى القرآن أو فى السنة أو لبيان
 ما ورد فيهما .

فيجتهد أولو الأمر رأيهم . ويقوم هذا الاجتهاد على عنصر الشورى ، فإذا حاز هذا الرأى الاتفاق وجب العمل به . وتظهر قيمة رأى أولى الأمر فيها يعرض من حوادث لم تكن موجودة من قبل ، وطريقتهم فى إبداء هذا الرأى هو القياس على أحكام القرآن والسنة أى اصدار الحكم فى حادث بمثل ما صدر فى حادث مماثل .

ففيها يختص بالحدود والأحكام القرآنية فإنها تلك الأحكام القاطعة التي لا تقبل أى تلبيس أو تأويل ، وهي التي تهدى إلى أقوم الأحكام .

« إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْلُوْ مِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أُجْرًا كَبِيرًا »(٢٧١) .

« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (٢٧٢).

والأخذ بسنة الرسول واجب على كل مؤمن إذا لم يجد في القرآن ما يبين له حكما قاطعا .

فالأخذ بسنة الرسول في هذه الحالة إنما هو أمر وإذن من الله بوجوب طاعـة المؤمن لرسول الله :

« فَلاَ وَرَبَّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيهَا شَجَرَبَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسلَّمُوا تَسْلِيهًا ٣(٢٧٢) .

فهو رسول الله الأمين الذي هداه ربه إلى صراطه المستقيم وعصمه من الغواية والهوى ولا يحكم إلا بوحى من ربه :

« وَالنَّجْمِ إِذَا هَـوَى * مَـاضَـلُ صَـاحِبُكُمْ وَمَـا غَـوَى * وَمَـا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى » (٢٧٤).

ر إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى »(٩٧٠) .

اما الأخد برأى أهل الثقة من ذوى الحل والعقد من أبناء الأمة الإسلامية الصالحين من العلماء وأرباب النظر فأحكامهم واجبة النفاذ ، فهم لا يصدرون أحكامهم إلا عن خبرة وتقوى ، ولا يبتون في الرأى إلا إذا لم يجدوا له بديلا في القرآن والسنة :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ »(٢٧٦).

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْر وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً » (۲۷۷) وإذا كانت القوانين الوضعية ، وقد وضعها البشر لصالح المجتمع ، واجبة النفاذ ، ولا نفاذ لقانون إلا بطاعته والامتثال لأحكامه ، وإذا كان واضعو القانون وهم بشر ، غير معصومين من الهوى أو الخطأ رغم اجتهادهم وحسن قصدهم ، إذا كان الأمر كذلك بالنسبة للقانون الوضعى ، فيا أحرى البشر بالطاعة والامتثال لما شرع أعدل الحاكمين لهم من مبادىء وأحكام لم تتناول كل نواحى حياتهم الدنيا فحسب ، بل وما يتعلق أيضا بحياتهم الآخرة ، وما أجدرهم بعد ذلك بالتزود بالصحيح الوارد عن سنة الرسول الأمين ، وبما قال الصالحون المجتهدون الذين آمنوا بالله وبرسوله .

ورغم كل هذا البيان والتفسير الإلهيين ، لا يزال بيننا نحن المسلمين من انحرف بمفهوم الاجتهاد في اصدار الأحكام وطاعتها وتنفيذها كما أراد الله ، إلى القول بوقف هذا الاجتهاد وقفل بابه .

بل لقد انحرف البعض عن الاجتهاد في تبين الحق إلى المنحدر الواضح حتى عن البين من أحكام الله ، سبحانه وتعالى ، في قرآنه الكريم ، بحجة أن لكل عصر ولكل بلد أن يتخذ من دون هذه الأحكام أحكاما وقوانين وضعية يصطنعها كل قوم عما يناسبهم ، بل لقد تمادوا في ادعائهم إلى القول بأنه لا شيء يصلح لقوم إلا إذا كان من صنعهم هم ، لأنهم أدرى بمصالحهم ، ألا كبرت كلمة خرجت من أفواههم! فيا وَضَع الشريعة الإسلامية إلا العليم بأحوال الخلق الخبير بما يصلح لهم وما لا يصلح . وما دفع هؤ لاء المتخرصين الخارجين على أحكام قرآن الله الكريم إلا أهواء وأطماع شخصية مالت بهم عن جادة الحق إلى صاحب سلطان تقربا منه وطلبا لمنافع دنيوية عاجلة وإشباعا لشهوات نفسية جامحة في مال أو سلطة أو شهرة .

فماذا يأخذون على أحكام القرآن وشريعة الله سبحانه وتعالى ؟

فهل فى تحريم الخمر ولحم الخنزير والميتة بداوة لا تليق بمجتمع عصرى متحضر شرقيا كان هذا المجتمع أو غربيا ؟ فلينظروا إذًا إلى ما يلحق شاربها أو آكلها من أضرار صحية وعقلية .

وهل في تحريم الإسلام للزنا والتبرج والربا ما يتنافى مع الأخذ بأسباب الحضارة البشرية والتقدم الإنساني ؟ فلينظروا إذًا إلى ما ساد المجتمعات الأمريكية والأوروبية

من فساد وفوضى أخلاقية ، إذْ أمعنت هذه المجتمعات في إتيان هذه الكبائر ما عجزت معها حكوماتها عن وقف تيارها الذي يهدد بانهيارها .

وهل فى إقامة حدود الله على من يفسد فى الأرض ويعتدى على حقوق الغير ، ما يتنافى مع القواعد الحضارية الحديثة ؟ فهل نترك القاتل يقتل ، والسارق يسرق ، والمحتال يأكل أموال الناس بالباطل دون أن ينال الجزاء العادل حتى يقطع دابر هؤ لاء الأثمين فى حق الله وحق الناس ؟ وهل هناك ما هو أحكم وأعدل مما أمر الله به من حدود تقام على كل آثم أو معتد ؟ .

لقد بلغ العجز وقلة الحيلة في وقف تيار هذه المعاصى ببعض الحكومات غير الإسلامية إلى الأخذ ، عن غير قصد أو إيمان ، بالشريعة الإسلامية في إقامة حدود الله في كثير من الحالات التي عجزت عن علاجها قوانينهم الوضعية :

فهذه فرنسا وغيرها من دول أوربية قد أخذت بجبداً الطلاق كقانون يطبق عندما تستحيل الحياة والمعاشرة بين زوجين ، أليس من أوليات الشريعة الإسلامية إباحة الطلاق ؟ بل إن للطلاق في الشريعة الإسلامية السمحاء قيودا واشتراطات وإلتزامات فرعية تضمن لكل من الزوجين حقه الإنساني الكريم في حالة انفصالها بالطلاق . .

وهذه انجلترا وامريكا ، وهما لا تدينان بالإسلام ، قد عادتا إلى إقامة حد الله (النفس بالنفس) وتنفيذه بإعدام قاتل النفس بغير حق بعد أن كانت قواتينها الوضعية تمنع إعدام القاتل وبعد أن عجزت عن منع هذه الجريمة البشعة أو الحد منها .

فيا أحرانا نحن أهل العقيدة الإسلامية بالأخذ بشريعة الله المبينة في قرآنه الكريم . وما أحرانا نحن المسلمين بشكر الله وحده على ما أنعم علينا في كتابه المنزل من تشريع قويم فنعمل بما ورد فيه من أحكام ونقيم ما بينه لنا من حدود في كل شئون حياتنا الدنيا ، إذا ما أردنا السعادة والكمال والتقدم لمجتمعنا الإسلامي ، وحتى نكون عند حسن ظن الله بنا . فنسير على هدى قرآنه الكريم ، وأن نجعل من هذا الكتاب الإلهى المبين دستور حياتنا في عمومياتها وتفاصيلها ، وأن نجعل منه نورا يضىء لنا الطريق إلى صراط الله المستقيم ، وحتى نكون بحق وكها أراد الله لنا ، خير أمة أخرجت للناس .

وسنتناول بالشرح ، البيّنات واليقينيات من هذه الشرائع والأحكام ، فيها جرى رجال القانون على تسميته بالأحوال الشخصية ، ثم نثنى بالحدود التى فرضها الله قصاصا من الخارجين على أحكام هذا التشريع بعد وانهم على حقوق المجتمع وهوما يطلق عليه بلغه القانون اسم العقوبات .

(أ) القرآن وأحكام الأحوال الشخصية:

وهي تلك الأحكام الخاصة بالعلاقات الزوجية والميراث والوصية والدُّيْن :

١ - في العلاقات بين الزوجين :

تناول القرآن الكريم هذه العلاقات بكل تفاصيلها من بدء الاختيار والخطبة ثم في الاتفاق والتعارف على الزواج ، ثم أسلوب المعاشرة الزر ما يجب على كل طرف في سلوكه حيال الطرف الآخر ، ثم في افتراق الزوجين سواء بالطلاق أو بالوفاة .

والدين الإسلامي دين الحق والمساواة ، قد أكد حقوق وواجبات كل من الزوج والزوجة ، ويلاحظ لطف الله ورحمته بالمرأة رعاية منه لضعفها وقلة حيلتها ، فكرمها تكريما عظيما ودفع عنها كل ظلم أو عدوان ، ولا عجب في ذلك فالإسلام أراد بالمسلمين مجتمعا متماسكا صالحا ، ولا تماسك لمجتمع ولا صلاح إلا بتماسك الأسرة وصلاحها ، فالأسرة هي الخلية الأولى لأي مجتمع وفي سلامتها سلامته .

ففى اختيار الزوج المسلم لمن ستكون شريكة حياته ، يأمره الله بأن يحسن الاختيار فيختار المسلمة المؤمنة ويحرم عليه الزواج من مشركة ، كما حرم على المؤمنة الزواج من مشرك .

« وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلاَّمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَبْرٌ مِّن مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبْتُكُمْ وَلاَ مَنْ خَبْرٌ مِن مُشْرِكِ وَلَوْ أَعْجَبْكُمْ أُولَئِكَ وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِ وَلَوْ أَعْجَبُكُمْ أُولَئِكَ يَلاَ عُنْ خَبْرٌ مِن مُشْرِكِ وَلَوْ أَعْجَبُكُمْ أُولَئِكَ يَلاَّعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهَ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمُغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »(٢٧٨)

والحكمة في هذا التحريم هي أولا تنشئة جيل مسلم على تربية إسلامية صحيحة بكل ما يعنيه الدين الإسلامي من عبادات وسلوك قويم ، ولا يتأتى هذا إلا إذا كان

الأبوان مسلمين مؤمنين . وهى ثانيا تحاشى افتتان المؤمن أو المؤمنة والاستسلام والانقياد للطرف المشرك ، مما قد يؤدى به أو بها إلى زعزعة الإيمان بل قد يؤدى إلى الردة والكفر بعد الإيمان .

وكيف يأمن مسلم إلى مشركة أو مسلمة إلى مشرك على أولادهما ؟ وكيف يسكن كل منهم اللآخر ويأمن إليه ؟ فلا اتفاق بين الخير والشر ولا التئام للطهر مع النجس .

أما إذا آمن الطرف المشرك قبل عقد الزواج واتخذ له الإسلام دينا ، فلا تحريم ، وهذا تيسير ما بعده تيسير ، وسماحة لا مطمع بعدها في سماحة .

ولنفس الأسباب حرمت الشريعة الغراء زواج مسلم صالح من زانية ، كما حرم الله زواج مسلمة صالحة من زان ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

« الزَّانِ لاَ يَنْكُحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكُ وَحُرِّمَ ذَلكَ عَلَى الْلُوْ مِنِينَ » (۲۷۹).

وهذا تحريم قاطع مانع للزواج من زان أو زانية ، ولا يشفع للتحلل منه كونها مسلمين ، بل لقد جعل الله من ارتكاب الزنا معصية لله تستوجب المساءلة والحساب العسيريوم الحشر الأكيد .

وهذا إيحاء من الله للمؤمنين بفظاعة الزنا وخطره على المجتمع الاسلامى ، وهو أشد فظاعة إذا أتاه مؤمن أو مؤمنة . ووجه الخطورة فى هذه المعصية أن يأمن مؤمن صالح إلى مسلمة زانية فيصاب بالغفلة عما قد تأتيه هذه العاصية من فاحشة حتى بعد الزواج وما يترتب على ذلك من النجس واختلاط الأنساب الذى قد يصاب به المجتمع الإسلامى ويبدد كيانه ويدمر أخلاقياته ، كما أن نفس الخطورة تقع إذا ما تزوجت مؤمنة صالحة من مسلم زان . وسنرى فيما يلى ما أوجب الله الأخذ به حيال من يأتى به أحد الزوجين من زنا .

ولحكمة إلهية لا تخفى على لبيب ، حرم الله على المؤمنين الزواج من أنواع محددة من ذوى القربى المسلمين ، ويتبين هذا في الآيتين الكريمتين :

« وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النَّسَاءِ إلاًّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فاحِشَةً وَمَقْتأ وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾(٢٨٠). والمقصود بما قد سلف أي ما حصل من زواج من هذا النوع قبل الاسلام :

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وبَنَاتُكُمْ وأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ الَّلاقِ ارَضَعْنَكُمْ وَأَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبائِبُكُمُ الَّلاقِ فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّلاقِ دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، فَإِن لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بَهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأَخْتَيْنَ إِلَّا مَا قَدْ سَلَف إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوراً رَحِيهاً » (٢٨١).

« يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (۲۸۲ .

فأى بيان ودقة فى التحديد بعد هذا ؟ ومن يجرؤ بعد هذا البيان الإلهى فيدعى الجهل وعدم الفهم فى الخروج عما أمر الله به ؟

فالحكمة فى تحريم أنواع من الزواج ما هى إلا تكريم للإنسان ولبنى جنسه ، ورحمة به وحفاظاً على سلامة المجتمع الإنسانى ليكون جديراً بإنسانيته وبما وهبه الله من عقل واع وضمير حى .

و إلا فماذا يكون الفرق بين المجتمع الإنساني وبين أي قطيع حيواني أعجم يسير في سلوكه الجنسي بلا رابط ولا ضابط ؟

وماذا يكون هذا المجتمع الذى لا يعرف الفرد فيه أخاه من ابنه ، ولا يميز بين ابنته وأخته ؟ وأى حياة زوجية هذه التي يجمع فيها الزوج بين أختين ليقطع ما بينها من صلات حب وتعاطف فرضتها صلة الرحم ؟ هذا عن الفوضى الاجتماعية ، فإذا صح ما قال به علماء الأحياء من الضعف الجسماني والعقلي اللّذين لاحظوهما في نسل مثل هذه الزيجات التي حرمها الله ، زاد إيماننا بحكمة الله ورحمته بعباده المؤمنين .

ومن أجلّ مظاهر تسامح الإسلام وأخله بمبدأ المساواة وبعده عن التعصب الأعمى ما أباح الله من زواج المسلم من كتابية :

« الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلِّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلِّ اللَّهِمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ اللَّهِ مِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ اللَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا اللَّكِتَابَ مِن اللَّوْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ اللَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا التَّيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُو فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ »(٢٨٣).

وبعد الاختيار والتوافق والاتفاق على النحو الذى وضحه محكم التنزيل يبين لنا أيضا روابط وضوابط هذا الاتفاق ليصبح الزواج والمعاشرة الزوجية رباطاً قوياً يحفظ للأسرة كيانها وللمجتمع رقيه واستمراره .

فلم يجعل الله من عقد الزواج عقداً عادياً كغيره من العقود والمواثيق التى يتعاقد عليها طرفان ينظر فيها كل طرف منها إلى مصلحته وحده ، بل لقد جعل عقد الزواج أوثق وأحكم ، إذ جعله ميثاقاً غليظاً قوياً ومحكماً يتفق فيه الزوج والزوجة على حسن العشرة القائمة على المحبة والتعاطف والاحترام والتعاون الصادق ، فلا يتخذ منه الزوج وسيلة لأكل مال زوجته بغير حق :

« وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِّيشَاقَاً عَلِيظاً » (٢٨٤) .

وكيف لا يكون الزواج من أقدس العقود وأقوى المواثيق بين طرفين حسنت نيتهما ، وقَبِل كل منهما الآخر عن طواعية واختيار ؟

كيف لا يكون هذا الزواج مقدّساً وقد صدق طرفاه نفسيهما وأشهدا الله على نيتهما ؟.

ألم يجعل الله من كل من الزوجين لباساً وستراً للآخر ، وهما اللذان خلقهما الله من نوع واحد ، يألف كل منهما الآخر ويميل إليه بطبعه وغريزته ؟

ألم يأمن كل من الزوجين للآخر ويسكن إليه ويكمله ؟ ثم هما بعد ذلك ينجبان من الأولاد قرة لأعينهما وأملاً لهما في حياتهما وامتداداً لهما بعد مماتهما .

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مُّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقُومٍ يَتَفَكّرُونَ »(٢٨٠٠ .

« هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْس وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا مَمَّلَتْ خَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّه رَبُّهَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » (٢٨٦٠) .

فكيف لا يكون الزواج إذن أقوى رباط يربط بين الذكر والأنثى ، لا يدانيه رباط الأبوّة أو الأخوّة أو البنوّة ؟.

فالزواج ليس عقد تجارة يبرم بين بائع ومشتر ثم ينصرف كل منهما إلى حال سبيله ، ولا عقد تمليك امرأة لرجل يملك به التصرف فيها كيفها شاء ، بل هو عقد مودة ورحمة وطيب عشرة . وليس المهر الذى يدفعه الرجل ثمنا لسلعة تشترى ، بل هو رمز ودليل رغبة حرة ومودة خالصة ، يعطيه الرجل ولا ينتظر له مقابلا ماديا ، ولذلك لم يحدد الله هذا المهر ولا طبيعته ، بل سماه صدقة ونحلة أى عربون لصدق النية ودليل رغبة ورضا :

« وَآتُوا النَّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً »(۲۸۷) .

فإذا دخل الرجل بزوجته واستقر فى بيت الزوجية ، قامت المعاشرة والتعامل بينها على قدم المساواة فى العمل بالمعروف والانتهاء عن المنكر . وعلى كل منها القيام بما فرضه الله من واجبات وأخذ ماله من حقوق بما لكل منهما من فضل وعلم ومقدرة .

فقوامة الرجل على زوجته ليست مطلقة ، بل حددها الله بما أوتى الرجل من فضل وعلم ورجاحة عقل يسيِّر بها شئون بيته وأسرته فيها يفيدها ويصلح أحوالها ويحفظ أمنها وسعادتها ، وبما وهبه الله من مال ينفق منه على أسرته بما يحفظ لها معاشاً كريماً وحياة رغدة . وعلى الزوجة مقابل هذا واجب الطاعة لـزوجها ما أحسن التصرف بفكره وماله وتعامله .

فإذا كان الزوج عاطلاً من المال أو التقوى أو سلامة التفكير ، أو كان شرس الحلق ، فلا طاعة على الزوجة له . وإذا كان الزوج يعيش على مال زوجته أو معوج السلوك فلا قوامة له على زوجته ، بل على الزوجة في هذه الحالة أن تدير شئون بيتها ونفسها وزوجها بما أتاها الله من فضل ومال وصلاح وتقوى . وإلا أصبحت الحياة الزوجية لا معنى لها ولا هدف ، ولدبت فيها الفوضى والتناقض والفساد ، ولكان انفصال كل من الزوجين عن الآخر أصلح من مثل هذه الحياة .

أما إذا جنحت الزوجة إلى عصيان زوجها رغم ما يؤدى ما عليه من واجبات فعلى الرجل العاقل تدبر الأمر ، فقد يكون هذا السلوك من الزوجة نتيجة لسوء

فيهم ، وعليه في هذه الحالة أخذها بالنصح والموعظة الحسنة ، فإذا أصرت على العصيان بغير حق أو بإهدار حقوق زوجها بغير ما سبب ، كان على الزوج أخذها بالشدة والعقوبة المناسبة مادية كانت أم معنوية بما حدده الله للزوج لأخذ زوجته به حتى تثوب إلى رشدها وتمتثل إلى الحق والصواب :

«الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض وَبَمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بَمَا حَفِظ اللَّهُ وَاللاَّي تَّخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فَى المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّه كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً » (٢٨٨) .

فإذا تطور الخلاف بين الزوجين واستحكم إلى الحد الذى لا تجدى معه موعظة أو عقاب ، فعليها الاحتكام إلى أسرتيها طلباً للصلح والتوفيق وإزالة أسباب الاختلاف ، ومن واجب الأسرتين المبادرة فوراً إلى تحقيق رغبة الزوجين إذا صدقت نيتها على المصالحة ، وليس كالأسرتين من هم أقدر وأصدق نية في إصلاح ذات البين بين الطرفين المتنازعين :

« وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنهما فَابْعَثُوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَما مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدُا إِصْلاَحاً يُوفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَليماً خَبِيراً »(٢٨٩) .

والحكمة الإلهية في فرض هذا التحكيم هو استحالة وصول الزوجين المتنازعين وحدهما إلى حل سليم ودائم لهذا الخلاف والشجار، فقد ساء ظن كل منها بالآخر واشتد بها الغضب واستبد الهياج بما قد يشذ بها عن الصواب فيها يريان من حلول. والأوفق إذن أن يقوم بالصلح بينها أرفق الناس بها وأشدهم حدباً عليهما وأحرص على حفظ حياتهما الزوجية، وهم أهل الطرفين.

وكما تكون الزوجة هي سبب ما يقع في الأسرة من خلاف ، قد يكون السبب هو الزوج أيضا . فقد يفقد الزوج مقومات القوامة على الزوجة ، كأن يكون مثلا سقيم التفكير أو منحرف السلوك أو شحيحاً في الانفاق على بيته ، إلى غير ذلك مما يعتبر نشوزاً منه وخروجاً على جادة الصواب والحق ، ففي هذه الحالة كان على الزوجة الحريصة على كيان أسرتها وسلامها العائلي أن تتعاون مع زوجها في إصلاح حاله ،

فتعمل على حل مشاكلهما فى هدوء وتعقل ، وأن تتلمس مع زوجها أسباب ودوافع تصرفاته السيئة ، عسى الله أن يوفقهما ويمدهما بعونه لإزالة هذه الأسباب فيعودا بحياتهما الزوجية إلى مجراها الطبيعى :

« وَإِنِ امَرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحِا بَيْنَهُمَا صُلْحا وَالصَّلْحُ خَيْرٌ ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشَّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً » (٢٩٠) .

فإذا يئست الزوجة من إصلاح زوجها ولم تتفق معه ، كان لها الحق في طلب الطلاق دون إثارة مشاكل من أى نوع ، بل يحسن أن ينفصلا في هدوء وسلام بدلاً من الانفصال على عداوة وبغضاء ، وهذا ما يراد بالإحسان والتقوى المذكورين في الآية . وليس على المرأة من التزام في هذه الحالة إلا إعفاء مطلقها من النفقة وترد له ماله .

ولم تقتصر الرعاية الربانية على حفظ كرامة المرأة المؤمنة الصالحة فى شخصها فحسب ، بل أبت رحمة الله أن تحمى أموالها أيضا من أى عبث يلحقه بها زوج طامع ، عن طريق التهديد بالزواج من أخرى أو بالطلاق أو غير ذلك مما قد يلجأ إليه زوج عابث لا يرعى فى زوجته إلا ولا ذمة ، ويأمر الله المؤمنين بأن تكون المعاشرة الزوجية قائمة على الأخذ بالمعروف ، وألا يتخذ الزوج من النفور والتباعد عن زوجته أو غير ذلك من وسائل الضغط والإرهاب ، سلاحاً مسلطاً لابتزاز أموالها ،

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا يَبَعْض مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةِ مُبَينَّةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمُعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثَيْراً » (٢٩١).

فإذا أراد الزوج أن يتزوج بأخرى ، فلا يجوز له أن يأخذ من زوجته الأولى عما أتاها شيئا ، حتى لا يزيد من حزنها :

« وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مُكانَ زَوْجٍ ، وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطاراً ، فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً »(٢٩٢) ً. وإذْ أباح الله للمسلم أن يتزوج من أكثر من واحدة ، فهو يأمر أيضا بالعدل بين زوجاته رغم استحالة تحقيق هذا العدل ، ويأمره بألا يميل إلى إحداهن دون الأخرى حتى لا يفقدها حقها الطبيعى فى الحياة الزوجية معه ، وفى نفس الوقت لا يتركها لتتزوج من غيره :

« وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَينَ النِّسَاءِ ولَـوْ حَرَصْتُمْ ، فَـلاَ تَمِيلُوا كُلَّ اللَّيـلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ، وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَّحِيهاً »(٢٩٣) .

« وَإِن يَتَفَرَّفَا يُغْنِ الله كُلاُّ مِن سَعَتِهِ ، وَكَانَ الله وَاسِعاً حَكِيباً »(٢٩٤) .

كل هذا تكريم من الرحمن للمرأة ما بعده تكريم ، ما بقيت على إيمانها وصلاحها وتقواها وتعففها . فإذا ما خرجت عها أمر الله به من تقوى وطهارة ، وآتت ما نهى الله عنه من الفواحش ، اعتبرت نجسا لا يقربها زوجها بل وتبقى ما بقى لها من حياة فى عقر دارها بعيدة عن زوجها ومنبوذة من سائر المؤمنين :

« وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرَبَعَةً مِّنْكُمْ ، فَإِن شَهِدُوا فَامْسِكُوهُنَّ فِي الْبَيُوتِ حَتَّى يَتَوفَّاهُنَّ الْمُوتُ ، أَوْ يَجْعَلَ الله فَهُنَّ سَهِيلاً » (٢٩٥) » .

ولو جاء الفاحشة كلا الزوجين ، أقيم عليهما حد الله على مرتكب الزنا ، وعلى الناس أن ينبذوهما ، حتى يتوبا إلى الله ويواصلا حياتهما الزوجية في طهر وشرف :

« وَالَّلذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ، إِنَّ الله كَانَ تَوَّابًا رَّحِيهً (٢٩٦٠ .

وحرَّم الله على المؤمن فراش الزوجية إذا ما أقسم ألا يقرب زوجته فى ثورة من ثورات الغضب أو على سبيل الانتقام ، وقد فرض الله على هذا المتهور ما يستحقه من عقوبة معنوية جزاء تهوره وانسياقه لهوى نفسه وجاء تعريضه اسم الله بالقسم لأذى الغير . فجعل هذه العقوبة أربعة شهور يحرم عليه خلالها إتيان زوجته ، وله بعد هذه المدة أن يباشر حقوقه الزوجية الطبيعية ، بعد أن كفر عها اقترف فى حق الله وفى حق زوجته :

« لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَاثِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُـرٍ ، فَإِنْ فَـامُوا فَإِنَّ الله غَفُـورٌ رَحِيمُ »(۲۹۷) .

« وَلاَ تَجْعَلُوا الله عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ، أَنْ تَبَرُّوازَ تَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ، وَالله سَمِيعٌ عَلِيمْ »(۲۹۸) » .

« لاَ يُوَاخِذُكُمُ الله بِاللُّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَلِكِن يُوَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَلِكِن يُوَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَالله غَفُورٌ رَحيهُ » (٢٩٩)

ومن أنواع القسم الذي نهى الله المؤمنين عنه ، ما يسمى (بالطهار) ، أي قسم الزوج بألا يقرب زوجته ويحرّمها على نفسه كحرمة أمه عليه ، إذْ يقسم قائلا لزوجته (أنتِ على كظهْرِ أمى !) ، وهو ذلك القسم الذي جرى على لسان أوس بن الصامت لزوجته خَوْلَة بنت ثعلبة . وكان رجل الجاهلية إذا ما قال هذه العبارة لزوجته حرم عليه إتيانها . فلما جاء الإسلام أثيرت القضية من جديد . فعندما ظاهر أوس من زوجته خولة ثم عاد فدعاها إلى نفسه أبت . وجاءت خولة إلى رسول الله وقصت عليه قصتها مع زوجها واستفتته فيها تعمل رد قائلا ما (أراك إلا قد حرمت عليه) ، وأخذت تجادله في هذه الفتوى وتلح عليه ولا يجد الرسول لديه من الوحى ما يفتى به فتوى قاطعة فرفعت رأسها إلى السهاء تشكو لربها ما بها من حيرة . فنزل على الرسول الوحى بالآية :

« الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِن يِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ الْلاثِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وإِنَّ اللهَ لَعَفُو ّغَفُورٌ »(٣٠٠٪.

وبذلك أصبح هذا الظُّهار منكراً وقولا كذبا ، لا يقبله الله من مؤمن .

أما إذا استحالت المعاشرة الزوجية وتعذر الإصلاح بين الزوجين ، وأصبح الانفصال بالطلاق هو الحل الوحيد للخلاص من حياة تعسة ، فقد أباح الإسلام الطلاق .

وقد أوضحت آيات الله البينات شروط هذا الطلاق والتزاماته ، حفاظاً على ما كان بين الزوجين المؤمنين من ود وتعاطف ، وحفاظا على حياة ما قد يكون لهما من

أطفال هم بحاجة إلى رعاية وتربية :

 $_{\rm w}$ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاَقَ فَإِنَّ الله سَمِيعُ عَلِيمٌ $_{\rm w}^{\rm (771)}$.

« وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالمُعْرُوفِ حَقًّا على الْتَّقِينَ » (٢٠٢) .

فمن شروط الفراق فى الإسلام أن يقع الطلاق باثنا ، وإلا ، فيبقى الزوجان متعايشين فى بيتهما دون أن يتماسا ، عسى أن يَتُوب المتعنت منهما إلى رشده وتصفو الحياة الزوجية ، وفى هذه الحالة يجب أن يحسن الزوج معاملة زوجته ، فإذا لم يجدا بعد ذلك مفرا من الطلاق البائن فليسرِّح الزوْجُ زوجتِه بإحسان وليعطها كافة حقوقها وأموالها التى حددها الله :

« الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكُ بَعْرُوفِ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانِ وَلا يَحَلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا عِمَّا آتَئْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمًا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمًا حُدُودَ الله فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيهَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَأُولِئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ "٣٠٣».

ويحذر الله المؤمنين غضبه من التحايل على آياته البينات فيفسرونها لمصلحتهم وبما تمليه عليهم أهواؤ هم . فقد أباح الله للزوج استرداد مطلقته على أن يكون ذلك عن نية خالصة على إعادة الحياة الزوجية إلى خير مما كانت عليه ، وليس بنية التعسف والإيذاء أو الانتقام من زوجته .

« وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بَعْرُوفِ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرارا لتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَل ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوا آيَاتِ الله هُزُواً وَإِذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلْيكُمْ مِّنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا الله واعْلَمُوا أَنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٣٠٤).

وقد فرض الله على المطلق التزامات لابد له من أدائها لمطلقته ، ويفرق العليم الخبير بين المُطَلَّقَةِ التي سبق أن دخل بها وتلك التي لم تُمَسَ :

« وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرِضْتُم لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُم إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الذَّى بِيدهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَب لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ الله عِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرُ » (٣٠٥).

وعلى المطلِّق الذى لم يفرض لمطلقته فريضة ملزمة ، أن يكون كريما فيحسن إليها ما وسعه الإحسان ، وبقدر ما يستطيع :

« لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّحُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى اللَّهْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمُعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ » (٣٠٦) .

وعلى المطلقة ألا تتزوج قبل ثلاثة شهور من تاريخ طلاقها ، وهي المدة الكافية لظهور أعراض الحمل ، إذا كانت قد حملت من مطلقها قبل الطلاق وعليها ألا تكتم حملها عليه ، فقد يرغب المطلق ردها حفاظا على المولود الذي جاء من صلبه ، وهو أحق بها وبه من زوج آخر .

« وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءِ وَلاَ يَحُلُّ لَمُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ الله فى أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بَرِدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواَ إِصْلاَحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِاللَّعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَّجَةً وَالله عَـزِيزٌ حَكِيمٌ »(٣٠٧).

ومن حتى المطلقة إذا كان لها من مطلقها طفل رضيع أن تقوم هى بإرضاعه حتى يتم سنتين منذ ولادته ، وعلى الوالد أن ينفق على مطلقته حتى يتم الرضيع هاتين السنتين وما ذلك إلا حرصا على المولود الذى يهم أمره كلا الطرفين . بل لقد كان من فضل الله ورحمته بالأطفال أن فرض مثل هذه النفقة واستمرارها لتمام السنتين ، فى حالة وفاة المطلق ، على من يرثه ، وإذا اتفق المطلقان على قصر مدة الفطام لأقل من حولين ، فلا مانع من هذا الفطام ، وإن اتفق الطرفان على أن ترضع الطفل مرضعة غير أمه فلا مانع أيضا من هذا الاسترضاع بشرط أن يتولى الوارث الاستمرار فى الإنفاق على المرضعة .

هذا عن انفصال الزوجين بالطلاّق .

فإذا كان الانفصال نتيجه لوفاة الزوج ، بقيت الأرملة فى بيت الزوجية لتقيم فيه حتى نهاية اَلْحُوْل ، وللأرملة حرية البقاء بالمنزل لهذا الحول أو تخرج منه عقب وفاة زوجها اذا شاءت ذلك :

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصيَّةً لأَزْواجِهِمْ مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيَها فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَالله عَزِيزٌ حَكيمٌ » (٣٠٨) .

ولا يحل للزوجة التى توفى زوجها الزواج إلا بعد انقضاء أربعة أشهر ، وهى المدة الكافية لظهور أعراض الحمل ، ولها أن تستمر فى منزل الزوجية الى نهاية الحول حتى تضع حملها .

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَّتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإَذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُم فِيها فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِٱلْمُعَرُّوفِ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِرٌ »(٣٠٩).

٢ - في المواريث:

« وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالَى بِمَا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وِالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيمَانُكُمْ فَٱتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللهِ كَانَ عَلَى كُلُّ شَيءٍ شَهِيداً » (٣١٠) .

فإذا توفى شخص عن مال ، خرج هذا المال عمن كان يملكه وأصبح من الواجب أن يمتلكه شخص آخر . وقد جرى العرف بين الناس منذ أقدم العصور على أن يئول هذا المال أو الأرض إلى أقرب الناس إلى المتوفى وألصقهم به ، وهم أولاده .

ولكن كثيرا ما كانت تدب الفوضى فى الإرث بعد وفاة المالك عن مال ، كالنقود أو الحيوانات أو الحاصلات الزراعية أو العقار والأرض أو متاع البيت وخاصة إذا كان للمورث زوجة ضعيفة أو أطفال لا حول لهم ولا قوة فيصبح هذا المال نهبا لغير ذى حق .

فقد كان يحدث مثلا أن يفرض الحاكم أو من بيده الأمر ، وخاصة في النظم القبلية ، حقه في تملك كل أو بعض ما ترك المتوفى من مال ، ويحدث أحياناً أن يعبث واص عديم التقوى بمال من هم تحت وصايته من أطفال صغار عبثا قد يودى بكل أو بعض ما ورثوا .

وقد شاء الرحمن أن يكون المجتمع الإسلامي مجتمعاً مثالياً فنظم العلاقات بين أفراد هذا المجتمع على أسس سليمة ، ونظم هذه العلاقات فيها تضمنته الكتب السماوية من آيات بين فيها أسلوب التصرف فيها ترك المتوفى من مال من حيث المستحقين والأنصبة .

وجاء القرآن الكريم . المهيمنُ على ما سبق من هذه الكتب ، ففصّل فيه ما أجمل بها . فقد حدد القرآن الكريم تحديدا دقيقا الأشخاص الـذين لهم الحق فى الإرث ، ونصيب كل منهم ولم يترك هذا الكتاب المبين ، فى شأن المواريث ، مجالاً لأى تأويل أوعبث أو تلاعب :

فسوَّى الله فى حق الميراث، بين الرجل والمرأة من حيث الاستحقاق فى الإرث - مع اختلاف فى المقدار ، لحكمة سنذكرها فيها بعد ، إذْ جعل للمرأة نصف نصيب الرجل . كها جعل للأقارب حقا فيه مع اختلاف أنصبتهم حسب درجة قرابتهم من المورث .

فالأبناء والزوجات والآباء يجبُّون غيرهم من الأقرباء ، فاذا لم يكن للمورِّث أولاد أو زوجة أو أب على قيد الحياة استحق الأخ والأخت نصيبا من الميراث ، واذا لم يكن له أخ أو أخت استحق أبناؤ هما الميراث .

كل هذا نظمه كتاب الله المبين الذى شمل برحمته ، أول ما شمل ، أطفال المتوفى وزوجته وأبويه فكلهم لهم حقوق فرضها الله على الأباء والأزواج والأبناء وزيادة فى الحرص على مصلحة الأطفال حدد الله الواجبات المفروضة على الوصى أو من يتولى رعاية هؤلاء اليتامى القصر بما يحفظ حقوقهم كاملة ويكف عنهم طمع الطامعين :

ففى تقرير حق كل من الرجل والمرأة فيها ترك الوالدان والأقربون ، نزل قوله تعالى :

« لِلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوالِدان وَالْأَقْرَبُونَ وَللنِّساءِ نَصِيبٌ مُّمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ منه أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا «٣١١» .

ومن حيث الأنصبة حددها الحكيم الخبير تحديدا دقيقا مقدِّرًا فيها كل ما وسعه علمه من احتمالات ، حتى لا يغمط كل ذى حق حقه ، فيحدد نسبة نصيب الرجل ونسبة نصيب المرأة :

« يُوصِيِكُمُ اللهُ في أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأَنْثَيَين ، فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوقَ اثنتين فَلَهُنَّ ثُلثا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النَّهْفُ وَلاَبَوْيْهِ لَكَلِّ وَاحِد مِّنْهَا السُّدُسُ عِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ وَالْحَدَةً فَلَهُ أَبُواهُ فَلاَّمَّهِ الثَّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةً فَلاَّمَّهِ الثَّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةً فَلاَّمَّهِ الشَّلُثُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْدَيْنِ آبَاؤُ كُمْ وَأَبْنَاؤُ كُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ السَّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْدَيْنِ آبَاؤُ كُمْ وَأَبْنَاؤُ كُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَريضَةً مِنَ اللهِ إَنَّ اللهَ كُانَ عَلِيهاً حَكِيهاً »(٣١٣) .

أما من حيث أنصِبَة الزوج والزوجة ، والأخوة والأخوات ، فتحددها الآية :

« وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَمْ يَكُنْ لَمُنْ وَلَدُ فَإِن كَانَ لَمُنَ وَلَدُ فَلِكُمُ الرَّبُعُ مِا تَرَكُنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بَهَا أَوْدَيْن وَلَمُنَّ الرُّبُعُ مَا تَرَكْتُمْ إِن لَمْ يَكُن لَّكُمْ ولَدُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ ولَدُ فَإِنْ كَانَ رَجُلٌ كَانَ لَكُمْ وَلَدُ فَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُومِينٍ مَا تَوْدُونَ بَهَا أَوْ دَيْنِ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُومِينٍ تَوصُونَ بَهَا أَوْ دَيْنِ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُومِينٍ كَلاَلَةً أَو الْمِراة وَلَهُ أَخْ أَوْ أَخْتُ فَلَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا السَّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِن لَا لِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْدَيْنٍ غَيْرَ مُضَارً وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَالله عَلِيمٌ حَلِيمٌ مَ حَلِيمٌ » (٣١٣) .

وتقرر هذه الآية المبدأ الأساسى فى التوريث ، وهو حفظ حق المرأة فى الإرث تماما كحق الرجل ماداما فى نفس الدرجة من القرابة ، كما يقرر نصيب الرجل بضعف نصيب المرأة .

وكانت بعض الأديان تحرم المرأة من أى حق فى الميراث بينها كان بعضها يساوى بين الرجل والمرأة من حيث الأنصبة ، فجاء الإسلام بتشريع وسط بين هذه وتلك ، فلم يحرم المرأة كل الحرمان ولم يساوها بالرجل فى المقدار .

ويراعى التوريث الإسلامي درجة القرابة في أولوية الميراث ، وحدد بمقتضاها الأنصبة :

فللزوج نصف ما تركت الزوجة إذا لم يكن لها ولد منه أو من زوج سابق ، فإن كان لها ولد ورث الرجل نصف النصف .

ونفس النظام ينطبق على الزوجة التي مات زوجها مع مراعاة أن يكون نصيبها نصف نصيب الرجل . أما فى حالة الكلالة (أى من يموت وليس له والد ولا ولد، وله أخت أو أخ)، كان لأخ المورث الإرث كله ولأخت المورِّث نصف الإرث، وقد بين الله ذلك فى الآية الآتية:

« يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُقٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يِكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا إِثْنَتَيْنَ فَلَهُمَا الثَّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتِا إِثْنَتَيْنَ فَلَهُمَا الثَّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكِرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيِينْ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُوا والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٣١٤) .

فهو ، سبحانة وتعالى ، العليم بتقلب أهواء النفس البشرية يدقق فى حفظ حقوق المؤمنين من أى عبث ، فيتناول كل من له حق الإرث من أقارب المورث على اختلاف درجات قراباتهم منه ، ثم يحدد لكل منهم نصيبه تحديدا دقيقا لا يدع مجالا لأى لبس أو تلبيس أو تدليس .

وفى جميع هذه الحالات لم يغمط الله الكريم العادل ، حق كل ذى حق من غير هؤلاء الأقربين أو ممن ليست له صلة قرابة من المورث من أى نوع ، بل حفظ حق الجميع ، وأوْلَى الناس بهذا الحق هو صاحبُ المال الأصلى أى المورث ، فمثلا فيها يترك من وصية يوصى بها فى الحدود التى رسمها الله ، وكذلك قضاء دين من كان المورث مدينا له وظل دينه قائها حتى وفاته ، أمر الله باحترام هذه الوصية وهذا الدين وتقديسها وربطها رباطا وثيقا بالتقوى وحق الله على المتقين . وقد حددت السُنة حدًا أقصى لنسبة ما يوصى به المتوفى إلى ماله كله بالثلث . ويوصى الله عباده المؤمنين بتحرى الدقة والعدل والحق فيها يوصون به :

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمُوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنَ والأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى المتقينَ (٣١٥) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣١٦٪.

« وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْتَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا الله وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً »(٣١٧) .

فليخش المورث ربه وليتق غضبه ، فلا يسيء إلى ورثته الشرعيين بالوصية لمن

ليس محتاجا إليها بينها ورثته في حاجة إلى ما تـرك من مـال حتى لا يضـر بهم ولا بأنصبتهم :

فلا يأت الموصى فى وصيته بتصرفات تمليها عليه شهوة باطلة أو هوى فاسد كأن يوصى للأجانب بجزء من ماله أو يقرّ بديون لا وجود لها كيدًا للوارث الشرعى بل لقد شاءت حكمة الله وعدله بأن تكون الوصية بالعدل وبما أمر الحكيم الخبير ، فإن خالفت الوصية ما أمر الله به ، فلا حرج على من بيده الأمر فى إصلاح هذا الانحراف ، وإعلاء كلمة الله :

« فَمَنْ خَافَ مِن مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (٣١٨) .

كما يحدِّر الله غَضَبه ، كاتم شهادة الحق فيها شهد مما يوصى به مورث حضره الموت فجأة ، كأن تكون هذه الوفاه أثناء سفر ، أو لم يكتب المورث وصيَّته قبل أن تحضره الوفاة ، وبين طريقة الإدلاء بهذه الشهادة مع تحرى الدقة في التعرف على صلاحية وسلامة هذا الشاهد :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المُوتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذوا عَدْل مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةُ المُوتِ عَدْل مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِ ثَمَناً وَلُو كَانَ ذَا قُرْ بِي عَيْسِونَهُما مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِ ثَمَناً وَلُو كَانَ ذَا قُرْ بِي وَلاَ نَكُتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّنَ الاَّئِمِينَ (٣١٩) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهَا اسْتَحَقَّا إِثْمَا فَاخَرانِ يَقُومانِ مَقَامَهُما مِنَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمْنَ الاَّلِينَ (٣١٠) فَإِنْ غُيْرَ عَلَى أَنْهَا اللَّهَ الْمُقَامَلُها أَنْ الظَّالِينَ (٢٠١٠) ذَلِكَ أَدْنَ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » (٣٢١).

وَيُحذر اللَّهُ الوَصِى من تبديد أموال اليتامى أو أكلها بغير حق أو الإهمال في حفظها واستثمارها ، أو خلطها بأمواله ، حتى لا يُظلّم يتيم لا حول له ولا قوة أمام وصى ظالم أثيم :

« وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْـوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدُّلُـوا الْخَبِيثَ بِالـطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْـوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّه كَانَ حُوباً كَبِيراً»(٣٢٧) .

وقد يتحايل الوصى على مال اليتيم ليأكله بالباطل ، كأن يتخذ من الزواج من يتيمة سلّما ووسيلة لتحقيق هذا الهدف الخبيث . ويحذر الله من إتيان هذا الأمر بعد أن أباح للمؤمنين الزواج بأكثر من واحدة حتى لا يجد الوصى فى ذلك ذريعة للزواج من اليتيمات من النساء أو مجالا لاغتيال أموالهن :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النَّسَاءِ مَثْنِيَ وَتُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فواحِدةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلا تَعُولُوا » (٣٢٣) .

وعلى الوصى ، إذا ما بلغ اليتيم ، الذى تحت وصايته ، رشده وأصبح أهلا للتصرف الحكيم فى ماله ، أنْ يسلمه ماله كاملا ، إلا ما أنفقه عليه مضافا إليه ما استحقه هو شرعا كأجر لإدارة هذا المال ورعاية صاحبه ، ومن كان قد أغناه الله عن هذا الأجر فحسبه الله فيها أدى من معروف :

« وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْتُولاً »(٣٢٤).

« وَابْتَلُوا النَّتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النَّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَاكُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَاكُلُ بِالْمَعُرُوفِ فَإِذَا دَفَعَتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَاكُمْ فَاللهِ فَاللهِمُ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِالله حَسِيباً »(٣٢٥).

أما إذا كان الموصَى عليه غير أهل لإدارة ماله ورعايته ، كأن يكون سفيها أو معتوها فعلى الموصِى الاستمرار في قيامه على ماله ، فيتولى الانفاق عليه من هذه الأموال بالحق والعدل وحسن المعاملة ، حتى يقضى الله أمره :

« وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمُوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهَ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً » (٣٢٦).

وحرصا من العليم العادل ، سبحانه وتعالى ، على حق الورثة وحق الدائن معا ، ومنعا لأى لبس فى تحديد مقدار هذا الدين ونوعه ، أمر الله بتحرى الدقة فى بيان الدين والتذرع بالصبر والأمانة فى تدوينه :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنِ إِلَى أَجَلِ مُسَمَّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدَلِ وَلاَ يَاْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتَبَ كَمَا عَلَمهُ الله فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقَّ مَفِيها أَوْلاَ وَلْيَتِي الله رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَس مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقَّ سَفِيها أَوْ ضَعِيفاً أَوْلاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُلَّ هُو فَلْيُمْلِلْ وَلِيهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِجَالِكُمْ فَإِنْ يَسْتَطِيعُ أَن يُكَنَّ وَجُلَ وَامْراتَانِ مِمْن تَرْضَوْنَ مِن الشَّهَدَاءِ أَن تَضِلُ إِحْدَاهُمَا فَتُدَكِّرَ إِحْدَاهُمَا اللَّخْرِي وَلاَ يَأْبُوا إِلاَّ يَابَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلاَ تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمُ أَقْسَطُ عِنْدَ الله وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادِةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمُ أَقْسَطُ عِنْدَ الله وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادِةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ فَلِكُمُ أَقْسَطُ عِنْدَ الله وَأَقُومُ لِلشَّهَادِةِ وَأَدْنَى أَلاَ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكْتُبُوهُ وَلاَ يَضَارً إِلَى أَجَلِهِ وَلاَ يَشَالُ اللهُ وَالله بِكُل حَامِرةً بَدُومَةً وَأَنْ أَمِن بَعْضَكُمُ الله وَالله بِكُل ضَعْمَا فَالله فَالله عَلَيْهُ وَالله عَلَى سَفَو وَلَمْ عَلْوا لَالله عَلَى مَقْهُ وَالله بَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَلَا تَكْتَمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمُهَا فَإِنَّه وَالله عَلَى الله وَالله وَلا تَكْتَمُوا الشَّهَادَة وَمَن يَكْتُمُهَا فَإِنَّهُ وَالله عَلَاهُ وَالله عَلَى مَقْولُهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَة وَمَن يَكْتُمُهَا فَإِنَّهُ وَالله عَلَى الله وَلا الله وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَة وَمَن يَكْتُمُهَا فَإِنَّا الله وَلا الله وَلْهُ وَالله عَلَى الله وَلا تَكْتُمُ وَالله عَلَى الله وَلا تَكْتُو وَالله عَلَا الله وَلا تَكْتُمُونَ وَلَا تَكْتُمُونَ وَلِولَ عَلَى الله وَلا تَكْتُمُونَ وَلِلْ الله وَلَا الله وَلا الله وَقُولُ وَلَا الله وَالله وَلَى الله وَلا تَكْتُوا الله وَلا تَكْتُوا الله وَلا الله وَلا الله وَلا الله وَلا الله وَلا الله وَلا ا

(ب) القرآن وإقامة الحد :

جُيل الإنسان منذ الأزل على الأنانية والأثرة واتباع شهوات نفسه الجامحة ، وهذا ما يعلمه الله منذ بدء خلقه ، وهو ما حدث منذ أن عصى آدم أمر ربه إذ انقاد لغواية الشيطان وكيده ، فزل عن الحق الذى أمره به خالقه وباء بغضبه ، فقذف به وبشيطانه إلى هذه الأرض ، بعد ما كفر بنعم ربه وعصاه ، ثم قبل الرحمن توبة آدم ورحم ضعفه ، ولكنه جلت قدرته كتب عليه الجهد والمجاهدة, في حياته الدنيا . كتب عليه الجهد في تحصيل عيشه وإقامة حياته في هذه الأرض ، كما كتب عليه عجاهدة نفسه وضبط أهوائها حتى يمنعها من غواية الشيطان الذي لا يُغرِي إلا بالإثم والبوار والحسار .

من أجل ذلك نزَّل العليم القدير على بنى آدم تعاليمه وأوامره فى كتبه وخاتمها قرآنه الكريم ، تذكرة وهداية للناس ، وبين لهم فيها أوامره ونواهيه وما يأمر الله إلا بالمعروف ، وما ينهى إلا عن المنكر ، أمر بالمعروف الذى فيه الخير كـل الحير للناس كافة ، ونهى عن المنكر الذى لا يعود عليهم إلا بالسوء والأذى .

حدد الله للناس فى خاتم كتبه ، صراطه المستقيم الذى يجب عليهم اتباعه وهو سبحانه وتعالى سندهم ومغيثهم من نزغات الشيطان ، ما اتبعوا صراط الله المستقيم . وهو سبحانه وتعالى لا يريد للإنسان إلا صلاحا ، ولا للأرض إلا عمرانا ، يريدهما بالحق والعدل .

ويبين العزيز الحكيم لعباده المؤمنين ، بما لا يدع مجالا للشك ، جزاء من اتبع هوى نفسه وخرج عن صراطه المستقيم ، وثواب من التزمه ، وهـو وحده العليم الشهيد بأهواء النفس البشرية ونزعاتها .

« وَنَفْسِ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتقواها * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا » (٢٣٩) .

« مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِالله شَهِيداً » (٣٣٠٠ .

وكما بين العزيز الحكيم في محكم تنزيله ، حقه على عباده المؤمنين ، بين أيضا حق الناس بعضهم على بعض فأوحى الله في قرآنه الكريم ألوانا من الثواب لمن آتاه حقه من المؤمنين وألوانا من العقاب يوقعه على من غمط فيه وكفر ، وما استأثر علم الله بهذه وتلك كان أعظم ، ولكنه سبحانه وتعالى ، في بيانه ما يجب على الناس الأخذ به في عملهم وتعاملهم قد أوضح وبين للناس ما يجب الأخذ به في حياتهم الدنيا بما لايدع مجالا لأى شك أو سوء تأويل . فقد بين الحدود التي يجب أن توقع على من يسىء إلى الناس أو يعتدى على حقوقهم ، وأوضح الأسس السليمة والمبادىء القويمة التي تنظم حياة الناس بما أراد الله ، وتكف يد كل أثيم معتد على حق الغير ويأخذ بناصيته لينال الجزاء العادل بما اقترفت يداه وبما وسوس له شيطانه من إثم .

ولولم يقم الناس حدود الله التي بينها في خاتم كتبه ، لدبت الفوضى في المجتمع الإنساني الذي أراد الله له الخير ، ولتحول المجتمع الإنساني إلى قطيع من الحيوانات الشرسة التائهة في غابة مظلمة ، يسير فيها بشريعة الغاب الذي يعتدى فيه القوى على الضعيف يهدر دمه ويهضم حقه في الحياة .

ولكنّ القوى الرحمن ، جلّ وعلا ، قد فَرضَ الحدود المحكمة الحكيمة للاقتصاص من كل مجرم مفسد فى الناس وغرب فى الارض ، حتى تسير حياة الناس على هذه الأرض بما أراد الحق تعالى ، وما أراد الله للناس إلا الخير والصلاح .

﴿ وَٱنْزِلْنَا ٱلْیِكَ الْکَتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدَّقاً لِیَا بَیْن یَدَیْهِ مِنَ الْکِتَابِ وَمُهَیْمِناً عَلَیْهِ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ بَمَا أَنْزِلَ الله وَلاَ تَتَبعْ أَهْوَاءهُمْ عَیَا جَاءكَ مِنَ الْخَقِّ لِکُلِّ جَعَلْنَا مِنْکُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلُوْ شَاءَ الله جَعَلْکُمْ أُمَةً وَاحِدَةً وَلَکِن لیبْلُوکُمْ فیهَا آتَاکُمْ فَاسْتِبقُوا الْخَیْراتِ إِلَى اللهِ مَوْجِعُکُمْ جَمِیعاً فَیُنَبِّئُکُمْ بَهِا کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿ (٣٢١) .

بل لقد جعل الحق تعالى ، بعلمه وحكمته ، من إقامة حدوده والاقتصاص من المجرمين أساساً لا غنى عنه لبقاء المجتمع الإنساني واستمرار حياته على سطح هذه الأرض :

« وَلَكُم فِي الْقِصَاصِ حِياةً يَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (٣٣٢).

فعلى من بيده الأمر والحُكم الاهتداء بما أنزل الله فى إقامة الحدود ، اقتصاصا من كل معتد على حق غيره ، ولينا كل مؤمن عن أى غرض أو هوى ، فيطهر حكمه من أى عبث أو تأويل مغرض ، وأن يطبق حدود الله نصاً وروحاً ، وألا يتبع قول سوء فيها فرضه الله من هذه الحدود .

فأمر الحِقّ أحقُّ بأن يُتّبع ، فلا يجعل الحاكم أو القاضى من غير الحق سلطانا على ضميره ورأيه ، ولا موضعا في حق من هوى أو سوء تأويل :

« أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحَسَنُ مِنَ الله حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » (٣٣٣) .

وعلى القاضى ، وهو أهل لكل نزاهة وإيمان وسلامة حكم على الأمور ، أن يقيم الحق بميزان العدل الدقيق وبالقسط الذى لا يقبل طعنا ولا مجال فيه لمأخذ ، وليضع القاضى عمل المعتدى في إحدى كفتى هذا الميزان ثم يعدل الكفة الأخرى بما يناسبه من عقاب . وعلى القاضى أن يتذرع قبل إصدار حكمه بالصبر والأناة والتقوى في جمع الأدلة وإسقاط الواهى منها لتبين دوافع عدوان المعتدى حتى لا يبقى لديه مجال للشك في ثبوت إثم المعتدى وإجرامه . وعلى القاضى ان يوسع صدره

لسماع كل كبيرة وصغيرة ذات صلة بما يفصل فيه من دعاوى ، حتى اذا ما اطمأن إلى صحة الأدلة والتصاقها بالمتهم اصدر حكمه على المعتدى بالعقوبة المناسبة :

« وَإِنْ عَـاَقَبَتُم فَعَـاقِبُسُوا بِمِثْـل ِ مَـا عُـوقبِتُمْ بِـهِ وَلَئِن صَبَـرْتُمْ لَهُــوَ خَــيُرٌ لِ لِلصَّابِرِينَ »(٣٢٤) .

ثم يبين الله أنواع الجرائم البشرية ، ويحدد لكل جريمة الجزاء العادل الذي يجب أن يؤخذ به مقترفها ، وقد شاءت حكمة الخالق وعدالته ، أن يكون نوع الجزاء من جنس العمل ، فحدد نوع العقوبة التي توقع على المجرم من جنس ما أتاه من إثم وعدوان .

ويبدأ سبحانه وتعالى بالتحذير من إتيان جريمة القتـل العمّد فيجعلهـا أبشع الجرائم ، ويقرر عقوبتها قبض روح من أزهق روحا بغيرحق ، بل صور بشاعة هذه الجريمة وأثرها الضار بالجنس البشرى ، فيجعلها جريمة لحقت بكل أفراده :

« مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبِنَا عَلَى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْر نَفْس أَوْ فَسَادٍ في الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسِ جَمِيعاً ، وَلَقَدْ جَاءَتُّهُمْ أَلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسِ جَمِيعاً ، وَلَقَدْ جَاءَتُّهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ، ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ في الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ "(٣٣٥) .

« يَا أَيْهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلِيكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَيِ الْخُرُّ بِالْخُرُّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثِي فَمَنْ عُفِي لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمُؤُوفَ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبُّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَن اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٣٣٦)

ثم يبين الله حدود الجروح أى العقوبة التي توقع على من يؤذى غيره في بدنه من غير قتل ، وجعل هذه العقوبة من نوع مالحق المعتدّى عليهِ مِن أذى :

« وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بالنفس وَالْعَيْنَ بَالْعَينِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأَذُنَ بِالأَذُنِ وَالسِّنَ بِالسِّن وَاجْخُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَمْ يَحْكُم بما أَنزَلَ الله فَأُولَئكِ هُمُ الظَّلِلُونَ »(٣٣٧) .

ثم يحدد العليم الخبير عقوبة من يمد يده لأخْذِ مال الغير بغير حق وسرقته وسلبه من صاحب الحق فيه ، بالقضاء على الأداة التي يستخدمها السارق في سلب مال الغير ، فأمر بقطع هذه الأداة ، وهي يد السارق .

ولا شك أن القتل والسرقة من أكبر عوامل إفساد المجتمع وقلقه واضطرابه . ولا أمان لمجتمع مهدد في حياته وماله ، ولا أمان للمجتمع ولا استقرار له إلا بالقضاء على أدوات هذا الفساد قضاء مبرماً ، ولا يكون ذلك الا بالقضاء على حياة القاتل وقطع يد السارق وتشويه المعتدى بما شوّه به وجه غيره ، جزاءً وفاقا لقضائهم على حياة الناس وأموالهم وأذاهم لأبدانهم .

« وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ الله وَالله عَـزِيُزُ حَكِيمٌ »(٣٣٨) .

ومن بديع نواهى علام الغيوب ، نهيه عن الرشوة التى عرفت وتفشت بشكل مزعج بين الناس فى جميع أنحاء الأرض . والرشوة هى ذلك العطاء الذى يعطيه من لاحق له إلى من بيده الأمر من الحكام ليسلب حق صاحب الحق ، سواء كانت هذه الرشوة مادية فى شكل نقود أو هدايا ، أو معنوية فى شكل خدمات من أى نوع وفى ذلك قال الله سبحانه وتعالى :

« وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَ تُدْلُوا بِهَا إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِّنْ أَمُوال النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٣٣٩».

ومن الحدود التى فرضها الله ، تلك التى أمر بتوقيعها على من يعتدى على أعراض الناس بالفعل أو بالقول ، فقد جعل الله من عقوبة الزانى والزانية ومن يكشف ما أمر الله بستره من أبدان الناس وأحوالهم الجلد العلنى عقابا لهم وعبرة لغيرهم ، حتى يرتدع كل من تسوّل له نفسه الاعتداء على كرامة الناس وأعراضهم :

« الزَّانِيَةُ والزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمَا مِاثَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذكُمْ بِهِمَا رَأْفَةُ في دِينِ الله إِنْ كُنْتُمْ تُؤْ مِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ ِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَاَبَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْلُؤ مِنِين »(٣٤٠) .

كها حدد الحكيم العليم العقوبة المناسبة لمن يرمون المحصنات بالأقوال الكاذبة .

« والَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بَأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ »(٣٤١).

وقد جعل الله من مرتكبي الزنا نجسا لا يخالطهم المؤمنون الأطهار ، فيقول في الزاني والزانية :

« الزَّانِي لاَ يَنْكُحُ إِلاَّ زَانيةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيةُ لاَ يَنْكُحُهَا إلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكُ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْلُوْمِنِينَ »(٣٤٦) .

هوامسش الفصسل الأول

(١) إبراهيم ٤ (٢) الروم ٤٧ (٣) آل عمران ٤٩ (٤) الاحقاف ٢ (٥) الشوري ٧ (٦) يوسف ٢ (۷) الزَّمْر ۲۸ (۸) الزخرف ٤ (٩) المنكبوت ٤٨ (۱۰) يس ٦٩ (11) العنكبوت 24 (١٢) البقرة ٢٣ (۱۳) يونس ۳۸ (١٤) البقرة ٢٤ (١٥) الإسراء ٨٨ (١٦) يونس ٣٩ (١٧) الاحقاف ٢٩ (١٨) الاحقاف ٣٠ (١٩) النحل ١٠١ (۲۰) النحل ۹۸ (٢١) النحل ٩٩ (۲۲) النحل ۲۰۰ (۲۳) النحل ۲۰۲ (٢٤) النحل ٢٠٦ (٢٥) آل عمران ١٩٩ (٢٦) البقرة ١٠٦ (۲۷) البقرة ۱۰۷ (۲۸) البقرة ۱۰۸ (٢٩) آل عمران ٦٩ (٣٠) البقرة ١٠٥ (۴۱) يونس ۳۷ (٣٢) البقرة ١٠١ (٣٣) البقرة ١٠٩

(٣٤) آل عمران ٧ (٣٥) آل عمران ١٩ (٣٦) آل عمران ٨٥ (٣٧) البقرة ٢٦ (۲۸) إبراهيم ٥٥ (٣٩) آل عمران ١٨٩ (٤٠) آل عمران ١٠٩ (٤١) آل عمران ١٢٩ (٤٢) آل عمران ١٢٣ (٤٣) آل عمران ٢٩ (\$٤) آل عمران ٢٧ (٤٥) البقرة ٩٥٩ (٤٦) البقرة ٢٥٨ (٤٧) آل عمران ٤٠ (٤٨) البقرة ١٤٢ (٤٩) البقرة ١٤٣ (٥٠) البقرة ١٥٥-١٥٦ (٥١) آل عمران ١٨٦ (٥٢) آل عمران ١٧٨ (٥٣) البقرة 14 (20) البقرة ٥٠

(00) آل عمران ١٣٥-١٣٦

onverted by 1111 Combine - (no stamps are applied by registered version)

- (٥٦) البقرة ٨٢.
- (٥٧) البقرة ٢٦٢ .
- (٥٨) آل عمران ٢١ .
 - (٥٩) البقرة ١٦ .
 - (٦٠) البقرة ١٧ .
 - (٦١) البقرة ١٨ .
 - (٦٢) البقرة ٢١٠ .
- (٦٣) الْبِقْرَة ٢١١ . ،
 - (٦٤) البقرة ٢١٢ .
- (٦٥) آل عُمران ٨٦ .
- (٦٦) آل عمران ١٨١ .
- (۲۷) ال عمران ۱۸۸ . (۲۷) آل عمران ۱۸۸ .
- (۱۸) آل عمران ۱۹۳ . (۱۸) آل عمران ۱۹۳ .
- . Tribly of (17)
- (٦٩) آِل عمران ١٩٧ .
- (۷۰) آل عمران ۹۰ .
- (٧١) آل عمران ٩١ .
- (٧٢) الأعراف ١٧٨ .
 - (٧٣) القيامة ٦ .
- (٧٤) الواقعة ١ ، ٢ .
- (٥٧) الواقعة ٤ ، ٦ .
- (۷٦) الزلزله ۱ ، ۲ .
- (۷۷) المعارج ۸ ، ۹ .
- (٧٨) القيامة ٧ ، ٩ .
- (٧٩) الزلزلة ٣ ٥ .
- ۱۱ ۱۰ القيامة ۱۰ ۱۱ .
- (٨١) القيامة ١٢ ١٣ .
- (۸۲) المعارج ۱۰ ۱۶ .
- (۸۳) المعارج ۱۵ ۱۸ .
 - (۸٤) الزلزله ٦ ٨ .
 - (٨٥) الواقعة ٨.
- (٨٦) الواقعة ١٠ ١٢ .
- (٨٧) الواقعة ١٥ ٢٦ .
 - (٨٨) الواقعة ٩ .
- (٨٩) الواقعة ٤١ ٤٤ .
 - (٩٠) النساء ٥٦ .
- (٩١) الواقعة ٥١ ٥٥ .
 - (٩٢) الحج ١٩ .
 - (٩٣) الحبج ٢٠ ٢١ .
 - (٩٤) الحج ٢٢.
- (٩٥) الأعراف ٤٤ ٥٠ .

(٩٦) الأعراف ٥٠ - ٥١ . (٩٧) البقرة ١٣٦ . (٩٨) البقرة ٩٨٥ . (٩٩) آل عمران ٢ . (۱۰۰) آل عمران ۳. (١٠١) النساء ١٩٣ (١٠٢) النساء ١٦٤ . (۱۰۳) النساء ۱۲۵ . (١٠٤) المائدة ١٤ . (۱۰۵) المائدة ۲3 . (١٠٦) البقرة ٤ . (١٠٧) البقرة ٥ . (١٠٨) البقرة ٤٠ . (١٠٩) البقرة ٤١ . (١١٠) البقرة ٤٢ . (١١١) الأنعام ٣٣ . (١١٢) الأنعام ٣٤ . (١١٣) الأنعام ١٥٤ . (١١٤) البقرة ٨٣ . (١١٥) البقرة ٨٨. (١١٦) الأنعام ١٥٥ . (١١٧) الأعراف ١٥٧ . (١١٨) البقرة ٩١ . (١١٩) البقرة ٩٢ . (١٢٠) البقرة ١٣٩ . (۱۲۲) النساء ۸۲ . (١٢٣) البقرة ١٣٧ . (١٧٤) آل عمران ١٩٩. (١٢٥) البقرة ٢٠٨. (۱۲۹) يونس ۹۶ . (١٢٧) المائدة ٢٣ . (۱۲۸) المائدة ع٤ . (١٢٩) البقرة ١٧٩ . (۱۲۰) آل عمران ۱۸. (١٣١) البقرة ١٨٣ . (١٣٢) البقرة ١١٠ . (١٢٣) البقرة ١٤٠ .

(۱۳۶) البقرة ۱۲۸ . (۱۳۵) البقرة ۱۳۱ . (۱۳۲) البقرة ۱۳۲ . nverted by 11ff Combine - (no stamps are applied by registered version)

```
(١٣٨) البقرة ١١٣ .
  (١٣٩) البقرة ١١١ .
  (١٤٠) البقرة ٢٦٨ .
(١٤١) آل عمران ١٩ .
   . 14 JULI (117)
  (١٤٣) فصلت ٤١ .
  (١٤٤) فصلت ٤٢ .
  (١٤٥) فصلت ٤٣ .
   (١٤٦) الصف ٦ .
    (١٤٧) هود ١٤٤ .
    (۱٤۸) هود ۶۸ .
  (١٤٩) الانبياء ٥١ .
  (١٥٠) الأنبياء ٥٢ .
  (١٥١) الأنبياء ٨٥.
  (١٥٢) الأنبياء ٦٢.
  (١٥٣) الأنبياء ٦٣.
  (١٥٤) الأنبياء ٦٨.
  (١٥٥) الأنبياء ٦٩.
  (١٥٦) الأنبياء ٧١ .
   (۱۵۷) يوسف ٦ .
   (۱۵۸) يوسف ۷ .
   (١٥٩) يوسف ٨ .
   (۱٦٠) يوسف ٩ .
  (۱۹۱) پوسف ۱۰ .
  (١٩٢) يوسف ٢٤ .
  (١٦٣) يوسف ٢٤ .
  (١٦٤) يوسف ٥٦ .
(١٦٥) يوسف ١٠١ .
   (۱۹۲) يوسف ۲ .
 (۱۹۷) يوسف ۱۰۲ .
 (۱۲۸) يوسف ۱۰۵ .
       . 9 4 179)
     · YE ab (1V+)
    (۱۷۱) هود ده .
    (۱۷۲) هود ۲۱ .
    (۱۷۳) هود ۲۷ .
    (۱۷٤) هود ٤٩ .
 (١٧٥) البقرة ١٢١ .
```

(۱۷۹) يونس ۳۷ .

(١٣٧) البقرة ١٣٠ .

(١٧٧) ال عمران ٣٥ (۱۷۸) آل عمران ٤٢ (١٧٩) آل عمران ٤٥ . (١٨٠) آل عمران ٤٧ . (۱۸۱) آل عمران ۹۹ (۱۸۲) آل عمران ۵۰ . (۱۸۳) آل عمران ۵۱ . (١٨٤) آل عمران ٥٥ (١٨٥) النساء ١٥٧ . (١٨٦) النساء ١٥٨. (١٨٧) النساء ١٧١. (۱۸۸) النساء ۱۷۲. (١٨٩) البقرة ٢٧٥ . (١٩٠) الأنعام ١٤٦ . (١٩١) الأنمام ١٤٧ . (١٩٢) الأنعام ١٤٥ . (١٩٣) البقرة ٢١٣ . (١٩٤) البقرة ١٤٦ . (١٩٥) البقرة ١٤٧ . (١٩٦) البقرة ١٥٩ . (١٩٧) البقرة ١٧٤ . (۱۹۸) آل عمران ۷۷ . (١٩٩) البقرة ١٦٠ . (۲۰۰) آل عمران ۷ . (۲۰۱) آل عمران ۷۸ . (۲۰۲) آل عمران ۲۹ . . ۲۰۳) يونس ۱۷ . (۲۰٤) آل عمران ٧٥ . (۲۰۵) التوبه ۳۴ . (۲۰۲) الماللة ۲۹. (۲۰۷) آل عمران ۲۰۰ (۲۰۸) آل عمران ۲۰۸. (۲۰۹) آل عمران ۷۰ . (۲۱۰) آل عمران ۷۱ . (۲۱۱) آل عمران ۲۱۱. (٢١٢) آل عمران ١١١ . . £7 elmil (Y1Y) (۲۱٤) آل عمران ۱۸۷ . (٢١٥) آل عمران ١١٢ .

(٢١٦) المائدة ١٤ .

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(۲۱۷) المائدة ۱۰ . (۲۱۸) آل عمران ۲۶ . (٢١٩) آل عمران ٦٠ . (۲۲۰) آل عمران ٦٦ . (٢٢١) آل عمران ٦٧ . (۲۲) آل عمران ۸۸ . (۲۲۳) النساء ١٥٥ . (۲۲٤) النساء ١٥٦ . (٢٢٥) النساء ١٦٠ . (٢٢٦) النساء ١٦١ . (۲۲۷) المائدة ۱۳ (۲۲۸) المائلة ۲۱۱ . (٢٢٩) المائلة ١١٧ . (٣٣٠) التوبة ٣٠ . (۲۳۱) المائلة ۲۵ . (۲۴۲) التوبة ۳۱ . . ۲۲۳) المالنة ۲۸ (١٣٤) المائدة ٨٠ . (۲۲۰) المائلة ۸۱ . (۲۳٦) المائدة ۱۸. (۲۳۷) المائلة ۲۸ . (٢٣٨) الأنعام ٢١ . (٢٣٩) الأنعام ٢٣ . (١٤٠) الأنعام ٢٤ . . ۷۷ تناللا (۱۹۲) . ١٩ تناللا (٢٤٧) (۲۶۲) المائلة ۱۹ . (٤٤٣) المائلة ٥٩ . (٤٤٤) الأنمام ٧ . (٧٤٥) الحجر ١٤ . (٢٤٦) الحجر ١٥ . (٢٤٧) الأنمام ٣٥. (٤٨) الأنعام ٤٦) . (۲٤٩) يونس ٤٢ . (۲۵۰) يونس ٤٣ . (٢٥١) الروم ٢٥ . . (٢٥٢) الأعراف ٤٠ . (۲۰۳) الرعد ۱٤ .

> (۲۰۶) النور ۳۹ . (۲۰۵) النور ۲۰ .

(۲۵۷) العنكبوت ٤٣ . (٢٥٨) الأعراف ٢٧٥. (٢٥٩) الأعراف ١٧٦. (٢٦٠) الأعراف ١٧٧. (۲۲۱) الحبح ۷۳ . (٢٦٢) الأنعام ١٧٨. . ١٥ عمد (٢٦٣) (۲۲٤) المائدة ۲۰ . (۲۲۵) هود ۵ , (٢٦٦) الأسراء ٩ . (٢٦٧) الأنعام ١٥٣ . (۲۲۸) الرحن ۹ . (٢٦٩) الأنعام ٨٧ . (۲۷۰) العصر ۳. (٢٧١) الأسراء ٩ . (٢٧٢) الأنعام ١٥٣. (۲۷۳) النساء ۲۰ . (۲۷٤) النجم ۱ - ۳ . (۲۷۵) النجم ٤ ه ٥ . (٢٧٦) الأنعام ٨٨ . (۲۷۷) النساء ۵۹ . (٢٧٨) البقرة ٢٢١ . (۲۷۹) النور ۳ . (۲۸۰) النساء ۲۲ . (٢٨١) النساء ٢٣. (۲۸۲) النساء ۲۹. (۲۸۳) المائدة ٥ . (٢٨٤) النساء ٢١. (٥٨٧) الروم ٢١ . (٢٨٦) الأعراف ١٨٩. (۲۸۷) النساء ٤ (۲۸۸) النساء ۳٤ . (۲۸۹) النساء ۲۵. (۲۹۰) النساء ۱۲۸. (٢٩١) النساء ١٩. (١٩٢) النساء ٢٠ .

(٢٥٦) العنكبوت ٤١ .

(۲۹۳) النساء ۱۲۹ . (۲۹۶) النساء ۱۳۰ . (۲۹۰) النساء ۱۵ .

(٢٩٧) البقرة ٢٢٦. (۲۹۸) البقرة ۲۲۴ . (٢٩٩) البقرة ٢٢٥. (٣٠٠) المجادلة ٢ . (٣٠١) البقرة ٢٢٧ . (٣٠٢) البقرة ٢٤١. (٣٠٣) البقرة ٢٢٩ . (٤٠٤) البقرة ٢٣١. (٣٠٥) البقرة ٢٣٧. (٣٠٦) البقرة ٢٣٦. (٣٠٧) البقرة ٢٢٨ . (٣٠٨) البقرة ٢٤٠ . (٣٠٩) البقرة ٢٣٤. (۳۱۰) النساء ۳۳ . (٣١١) النساء ٧ . (٣١٢ النساء ١١ . (٣١٣) النساء ١٢. (٣١٤) النساء ١٧٦ . (٣١٥) البقرة ١٨٠ . (٣١٦) البقرة ١٨١. (٣١٧) النساء ٩ . (٣١٨) البقرة ١٨٢ . (٣١٩) المائلة ٢٠١ . (۲۲۰) المائدة ۱۰۷) (۲۲۱) المائدة ۱۰۸. (٣٢٢) النساء ٢ . (٣٢٣) النساء ٣. (٤٢٤) الأسراء ٣٤ . (٣٢٥) النساء ٦ . (٣٢٦) النساء ٥. (٣٢٧) البقرة ٢٨٧ . (٣٢٨) البقرة ٢٨٣ . (٣٢٩) الشمس ٧ – ١٠ . (۳۳۰) النساء ۷۹ . (٣٣١) المائدة ١٨ . (٣٣٢) البقرة ١٧٩. (٣٣٣) المائدة ٥٠ .

> (۳۳۶) النحل ۲۲۳ . (۳۳۵) المائدة ۳۲ .

(٢٩٦) النساء ١٦ .

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- (٣٣٦) البقرة ١٧٨ .
- (٣٣٧) المائدة وع .
- (۲۳۸) المائنة ۲۸ .
- (٣٣٩) أليقرة ١٨٨ .
 - (٣٤٠) النور ٢ .
 - (٣٤١) النور ۽ .
 - (٣٤٢) النور ٢ .

الفصل الثاني

القصص القرآني

جرى الناس على تعريف علم التاريخ ، بأنه ذلك العلم الذى يتناول دراسة أحوال البشر حسب تواريخ حدوثها أى حسب ترتيبها الزمني .

وما الأحداث البشرية إلا حركة هذه الشعوب فى مكان معين وفى زمن محدد فعلم التاريخ بهذا المعنى هو ذلك العلم الذى سجل تطور الجماعات البشرية ممثلة فى تلك الشعوب التى عاشت فى أماكن معلومة من سطح الأرض ممثلة فى أوطانها .

هذا التطور يشمل التغيرات التي انتابت الشعب في أعماله وعاداته وتقاليده ونُظُمِه (الاجتماعية والسياسية والاقتصادية) كما يشمل تطوره الحضارى .

ولا يقتصر علم التاريخ على دراسة تطور كل شعب منفصلا عن بقية شعوب الأرض بل يتناول أيضا تسجيل العلاقات بينها ممثلة فيها نشب بينها من حروب أو ما وصل بينها عن طريق التبادل التجارى والثقافي والسياسي.

ولكى يحدد علم التاريخ ما يتناوله من هذه الدراسات تحديدا دقيقا ، لابد له من بيان اسم الشعب (أو الشخص) وأرضه وزمنه الذى تحرك فيها وعمل وفكر وتطور .

وكما أن تاريخ الشعب وتطوره يتأثران بأحوال ما جاوره من شعوب أخرى ، فهو يتأثر أيضا في كثير من الأحيان بأشخاص كان لهم أكبر الأثر فيها حدث في هذا الشعب

من تطور أو تغيير ، لذلك يتناول هذا العلم تاريخ حياة هؤ لاء الأشخاص البارزين وهو ما يعرف بالسِّير .

ومن أبرز شخصيات التاريخ التي يجب أن يوليها العلم اهتماما أكبر ، الرُّسل والأنبياء ثم كبار المصلحين الاجتماعيين ثم المخترعين والمستكشفين ، وهم كلهم من أهم عوامل التطور البشرى لا داخل شعوبهم فحسب بل تطور البشر كافة وتدرجهم في سلم الحضارة الإنسانية .

ويأتى الرسل والأنبياء فى المقام الأول بين هذه الشخصيات التاريخية فهم الذين اهتموا أول ما اهتموا ، وبما أوحى الله إليهم ، بجوهر الإنسان ، هذا الجوهر الذى يتناول روح الإنسان وضميره ، وبغير الروح والضمير لا يكون إنساناً ، ثم بينوا بما أوجى إليهم من ربهم ، نوع السلوك الذى يؤدى إلى تطهير الروح وتنقية الضمير وهو ذلك السلوك القويم القائم على سلامة الفكر وصدق القول وصالح العمل ، ومناط كل هذا ، الإيمان بالله وحده وتقواه وتنفيذ أوامره والانتهاء عن نواهيه . وهم بذلك لاتقتصر رسالتهم على شعب بعينه بل هم رسل الله للناس كافة .

ثم بعد ذلك يأت دور المصلحين ، وهم هؤ لاء الذين هداهم الله بنور الإيمان ، وكَشَفَ لبصائرهم عيوب مجتمعهم ونواحى الفساد والعوج الذى يسير عليه الناس ، فتناولوا الظواهر الاجتماعية والعادات والتقاليد بالإصلاح والتقويم وعملوا على الارتقاء بها إلى ما هو أصلح وأقوم .

أما جماعات المخترعين والمكتشفين فهم هؤلاء الذين اهتموا بالمادة فتناولوهما بالدراسة وطوعوها لفائدة الناس ، وقد يكون فيها اخترعوا أو اكتشفوا فائدة حقيقية يسعد بها البشر أجمعون ، كها قد تكون من عوامل دمارهم وهلاكهم . ومناط هذا النفع أو الضرر صفاء روح الإنسان ونقاء ضميره أو فسادهما .

وقد اهتم القرآن الكريم ، من بين ما تناوله فى كافة شئون الكون ، بتاريخ الشعوب وسير الأشخاص .

تناول خاتم كتب الله هذا التاريخ وتلك السير ، بما تناول به الخالق المبدع المدبر كل كونه اللانهائي ، بـأسلوب خاص يخـالف ما جـرى عليه البشـر فى أساليبهم وأهدافهم فى عرضهم للتاريخ وللسير . فهو سبحانه وتعالى ، بحكمته وعلمه إنما يرمى بما أوحى به من تواريخ وسير إلى أهداف غير تلك التى يرمى إليها البشر ، فيسير القرآن فى عرضه التاريخي بالأسلوب الذى يحقق هذه الأهداف ، ولذلك يخرج عن مسمّيات البشر لعلم التاريخ ، إذ أطلق عليه اسما أشمل وأعم ألا وهو القصص فهو سبحانه وتعالى ، يقص علينا من علمه بأحوال الأمم والأشخاص ما يريد وبما يشاء وينتقى منها لعباده المؤ منين أحسنه وأنفعه :

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ »(١) .

« تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمِينِ (٢) بَنْتُلُو عَلَيكَ مِن نَّبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ ي يُوْمِنُونَ »(٣) .

أهداف القصص القرآن:

إن أهدافُ سرد البشر لتاريخ الأمم وسِير الأشخاص تختلف اختلافاً بيّناً عها يقصه القرآن من ذلك التاريخ وتلك السير:

فالمؤرخ أو القصَّاص قد ينحرف بها عن جادة الحق نتيجة لما يعتمل في نفسيها وضميرهما من عوامل ودوافع بشرية كالتحيز واتباع هوى النفس أو التفاخر أو نتيجة لشطط في التفكير وسوء في التدبير ، الأمر الذي يخرج بها إلى الخطأ في التقدير ، ومن ثم لا يسلم أي منها من الزلل فيه ، ومن ثم تكون النتيجة تشويه التواريخ والسير أو تزييفها .

أما أهداف القصص القرآنى فيحكمها القصد الإلهى فى ضرب الأمثال الواقعية والعظة والعبرة ، لن يتعظ ويعتبر ، بأحوال من سبقنا من أمم وأفراد . كما أن هذه الأهداف تُتَسِمُ بالعمومية ، ومن ثم فقد تطهّرت من أى تحيز أو هوى .

۱۰ - العظة والعبرة: وهما الهدف القرانى الأول ثما نزل فيه من آيات ، العظة للناس بالتي هي أحسن ، والعبرة لمن يعتبر بما جرى وبما فرى في هذا الكون وبما في أنفسنا بقدرته ، سبحانه وتعالى ، فنزداد منه خشية وبه إيماناً ، ونسلم لقُدَرِه ولأوامره

وفيها الخير كل الخير للبشر اجمعين ، وفي هذا القصص القراني نلمس وتحسُّ سوء مَغَبَّةِ المسيءِ وثوابِ المحسن .

وإذْ أَنْزَلَ اللهُ على الناس ، فى قرآنه الكريم ، الآية تِلْوَ الآية ، إنما يأمر فيها بالنظر والاعتبار من ألقى السمْعَ وهو شهيد :

« هَذَا بَيَانُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمُوْعِظَةً لِلْمُتقَّينَ »(١) .

« قَـدْ خَلَتْ مِن قَبِلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأرْضِ فَـانْظُرُوا كَيْفَ كَـانَ عَاقِبـةُ الْكُذُبِينَ »(°) .

ثم يخفف الرحمن عن المؤمنين ما قد يصيبهم أحياناً من أذى أو يلحقهم من شر وكرب ، وكلها من أعراض هذه الدنيا الزائلة ، وعلى المؤمن أن يقبلها بحلوها ومرها إيماناً منه بربه ، وإسلاماً لقدره فيها يبلو به المؤمنين من خلقه ليزدادوا إيماناً بربهم وثباتاً على دينهم ، فيزيدهم الله منه قُرباً ورحمة ، وينصرهم على أنفسهم وعلى أعدائهم وأعداء ربهم :

« وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تُحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُم مُّوْمِنِينَ (٦) إِن يَمْسَمُمْ قَرْحُ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُداوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَ الله الذِين آمُنوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداء والله لاَ يُحِبُّ السَظَّالِدِينَ (٧) وَلِيُمحُّصَ الله السَّدِينَ آمنُوا وَيَحَقَ الكَافِرينَ » (٨) .
 الكَافِرينَ » (٨) .

ويُقص الله على خاتم أنبيائه ورسله ، قصص أقرب الناس وأحبهم إليه وهم أنبياؤه ورسله ، ويخلع عليهم أحسن ما شاء لهم من صفات وألقاب ، فكلهم صادقون فيها بلَّغوا من وحى ربهم ، وكلهم مخلصون أمناء على الرسالة ، وكلهم إذا وعد صدق وعده ويأمر الله نبيه الأمين ، على ، بذكر هذه السير العاطرة للمؤمنين كمُثُل عليا لعباد الله المخلصين :

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْراهيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِياً (٩) إِذْ قَالَ لَأْبِيِهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالاً يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنْكَ شَيْئاً »(١٠) .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا »(١١) .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كِانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَّ رَسُولاً نَّبِيًّا ،(١٢)

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿١٣) .

« ذَلِكَ عِبْسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الذِّي فِيهِ يَمْتُرُونَ ﴿(١٤) .

وأنبياء الله ورسله هم أولئك البشر الذين مَنّ الله عليهم بنعمة الهداية والرضوان جزاء تقواهم وخشيتهم ربهم ، وهم الذين اصطفاهم من بين بنى آدم واختارهم ليبلغوا رسالاته :

« أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّنَ مِن ذُرِّيَّةِ آدمَ وِيمَّنْ حَمَّلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةٍ إِبْراهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِّن هَدَيْنَا وَاجْتَبِينَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا »(۱۹).

ویبین لنا فی محکم تنزیله ، فضله علی من آتاه من نعمه ، فحمد ربه وشکر ، وزاد به إیماناً وتقوی :

« وَلَقَدْ آتَيْنا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاً الْحَمْدُ اللهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلَى كثِير مِنْ عَبَادِهِ الْمُؤْمنِينَ »(١٦) .

« وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْبُينُ »(١٧) .

وشتان بين هذه القدوة الصالحة من أنبياء الله ورساه ، وبين أولئك الكفرة - الجاحدين لنعم الله وفضله عليهم ، الذين طغوا وتجبروا بما آتاهم الله بدلا من شكرهم وحمدهم له ،

فهذا قارون الذي آتاه الله ما لم يؤتُ أحدٌ من قبل فازداد كفراً وعتوا فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر جزاء كفره وغروره واستعلائه :

« إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْم مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ أُولِي الْقُوّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفَرحِينَ »(١٨) .

ه قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدى أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهُ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ
 مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكَثْرُ جُمْعاً وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوجِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٩٥)

« فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدارِهِ الأَرْضَ فَهَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ ينصُرُونَه مِن دُونِ الله ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ »(٢٠) . وهو ، سبحانه وتعالى ، العزيز ذو الاقتدار ، يأخذ بمن يفسد فى الأرض شعوباً بأكملها بما ظلموا وعَاثُوا وأفسدوا ، وكم فى القرآن الكريم من قصص هذه الشعوب ساقها الله عبرة وعظة لعباده المؤمنين ، وهو برحمته وبره بالمؤمنين لقادر على نجاة الصالحين مما أصاب قومهم من غضبه ونقمته وعذابه :

«أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَينْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُرَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُومِهُمْ وَمَا كَانَ لهم مَنِ الله مِن وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ الله إنَّه قُويً شَدِيدُ الْعِقَابِ »(٢٢).

وها هو نوح عليه السلام ، قد نجاه ربه ومن تبعه من المؤ منين وأورثهم الأرض بعد أن أغرق الكافرين وطهر الأرض منهم ، جزاء تكذيبهم بما آتاهم هذا النبى من ربة من بينّات

« فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَثِفَ وأَغْرَقْنَا الذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبةُ المُنْذَرِينَ »(٢٣) .

ومثل قوم نوح قوم فرعون الذين أخذهم الله بظلمهم ونجا موسى ومن تبعه ولم يقبل الله توبة فرعون ، لأنها توبة من لا حول له ولا قوة ، توبة الخائف من الموت :

« وَجَاوَزْنَا بِبَنِي اسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ »(٢٤).

ولم يكن لفضل الله ونعمه ورحمته ببنى إسرائيل ما يملأ قلوبهم بتقوى الله والحشوع له ولا ما يزيدهم إيماناً به أو حمدا له بمل ظلوا فى عتوهم وفسادهم وجبروتهم :

« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِن بَعْدِ ذلِك فهى كالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهِ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُّ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »(٢٠) فباءوا بغضب الله وألبسهم من بعد العز ذلا ، وشتت شملهم بعد أن قطعوا صلتهم بالله وبالناس :

« وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَةُ وَالْمُسْكَنَةُ وَبَـاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ذَلِكَ بِـأَنَّهُمْ كَانُـوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصُوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ »(٢٦) .

وها هم قوم لوط الذين أتاهم نبيهم بآيات من ربهم مبينات سوء أفعالهم وانذرهم بعاقبة ما كانوا يأتون من فاحشة ، فلم يرتدعوا ولم يتوبوا ، فأرسل الله عليهم ريحاً صرصرا محملة بالأتربة والحصى أعمت أبصارهم وردمتهم فدفنوا أحياء ، ونَجَى الله نبيه لوطاً ومن معه من الصالحين :

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٢٧) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرِهُ (٤) .

وقد كان أهل مَدْيَن أصحاب الأَيْكَةِ الذين أنعم الله عليهم وآتاهم المال والبساتين ذات الأشجار الملتفة الأغصان ، ولكنهم أكلوا أموال الناس بالباطل ودلسوا في البيع والشراء ، فأرسل الله إليهم ومنهم نبيه شعيباً ، يأمرهم بتقوى الله وتجنب هذه الآثام والبُعْد عن ظلم الناس وأكل أموالهم بغيرحق ، ولكنهم عصوا أمر ربهم فأخذهم برجفة جاءتهم بغتة فماتوا بكفرهم :

« وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْم ِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا في اْلأَرْضِ مُفْسِدِينَ »(٢٩) .

« فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَّتُهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ »(٣٠) .

هذه بعض آيات الله البينات في قرآنه الكريم ، أوردناها هنا على سبيل المثال لا الحصر ، يبين فيها العليم الخبير لعباده المؤمنين عاقبة الظلم والطغيان سواء أتاهما فرد أو شعب ، عظة وعبرة ليهتدى الناس إلى صراط الله المستقيم في حياتهم الخاصة وفي علاقاتهم بالغير :

« وَلَقَدْ أَرْسُلْنَا رْسُلاً مِنِ قَلْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمَنْهُم مَّن لُمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُول ٍ أَن يَأْتِي يِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِىَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ»(٣١). ٧ - مساندة الرسول: كان بعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى أكثر الناس معارضة للرسول، وكانت كل من الطائفتين تدعى أن كتابها هو وحده الحق وأنه آخر كتب الله الذى لن ينزل من بعده من كتاب، وبرغم أن القرآن الكريم قد جاء مصدقا لما بين أيديهم من كتب سماوية، فقد كذبوا الرسول وجادلوه وتحدوه وهو يه ذلك النبى الأمى الذى لا علم له سابق بما أوحى الله إليه فى كتابه الكريم. ويمكننا أن نتصور موقف نبينا المخلص الأمين أمام عتاة الكهنة والأحبار من أهل الكتاب إذ يطالبونه بأن ينبئهم بما ورد فى كتبهم من قصص أمم وسير أشخاص لم يسبق له بهم علم، ولم يوح الله بها إليه بعد، ولكن الرحمن لم يترك صفيه وحبيبه بلا يسبق له بهم علم، ولم يوح الله بها إليه بعد، ولكن الرحمن لم يترك صفيه وحبيبه بلا تاريخ البشر أفرادا وجماعات منذ آدم عليه السلام، بل أنبأهم رسولنا الكريم من تاريخ البشر أفرادا وجماعات منذ آدم عليه السلام، بل أنبأهم رسولنا الكريم من قبل م بل كانت كلها من علم الله بخلقه يؤتيه من يشاء من عباده المخلصين الصابرين، فكان من هذا القصص القرآني ما ساند الله به رسوله وشد من أزره بما يود كيد الكافرين والمكذبين:

« ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا(٣٢) إنَّا مَكَّنَّا لَهُ في الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ٣٣٥) .

ويضرب لنا القرآن الكريم مثلا واقعيا بمدى حلم رسول الله وسعة صدره وما آتاه الله من القدرة على الصبر أمام المعاندين من المشركين وإصرارهم على التكذيب والاستهزاء به وبما جاءهم من الحق :

« يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُومِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ خُورِجُ مَّا تَحْذَرُونَ (٢٠٠) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِالله وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ »(٣٠) .

ومن أمثلة صبره ، ﷺ ، على محاولات أهل الكتاب المعاندين تعجيزه بطلب ما لا قبل لبشر أن يأتيه من معجزات إلا بإذن الله :

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّبَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا الله جَهْرَةً فَأَحَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ الْخَذُوا العِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيْنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى شُلْطَانًا مُّبِينًا »(٣٦).

ويؤيد الله رسوله ويسانده ببعض من علمه بما يقرع به كل مكابر من أهــل الكتاب ، وينبئهم بما يعملون ، ويكشف ما يخبئون :

« وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَـوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَـأَتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَـانُوا يَفْسَقُونَ »(٣٧) .

ومع كل ما جاء به الرسول من وحي ربه من القصص الحق ، ومع علم أهل الكتاب بصدق ما يروى الرسول عن ربه ، عاندوا وكذبوا بالحق من بعد ما بينه لهم بإذن الله . ألا إنه الحسد والحقد المركب في بعض النفوس المريضة التي تأبى الخير والهداية الربانية لغيرهم ، فتحاول إطفاء نور الحق ولكن الله يأبي إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، ويأمر الله رسوله الأمين والمؤمنين المخلصين بالصبر والعفو ، وترك الأمر لله ليفعل ما يشاء :

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُم كُفَّاراً حَسَدًا مِنْ عَنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِمَا تَبَيْنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَقَّ يَأْتَى الله بِأَمْرِهِ ، إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٣٨) .

أسلوب القصص القرآن: --

وكما حدد الله الهدف من قصصه القرآنى ، صاغها أيضا في الأساليب الملائمة لتحقيق هذه الأهداف ، وعرضها بأساليب جديدة لم يألفها البشر في عرضهم التواريخ والسير ، وهي مع غرابتها على الناس فإنها تقرع الآذان وتنفذ إلى القلوب وتهز الضمير هزاً عنيفا ، وهي ناحية أخرى من نواحي الإعجاز القرآني التي أيد بها الله رسوله الأمين بالبلاغ المبين .

فمن أساليب القصص القرآن:

١ - عدم التقيد بالتسلسل الزمني : فلا نجد في القرآن الكريم ذلك السرد

الرتيب لنشأة الأمم ومكانها وتطورها ونهوضها ثم سقوطها حسب الترتيب الزمنى المتعارف عليه ، بل يتناول القرآن من أطوار الأمة ما يناسب الهدف من السورة ، فقد يذكر في القرآن طور الأمة عند انهيارها دون ذكر نشأتها وقد يذكر بعد ذلك دور نشأة الأمة وبدء تكوينها . وقد يذكر حال أمة لاحقة في موضع من القرآن ثم يذكر بعد ذلك حال أمة سابقة . وقد يذكر مختصراً لتاريخ الأمة منذ نشأتها حتى بلوغها أقصى قوتها ثم يذكر انهيارها مبينا أسباب هذا الانهيار ومن بينها الكفر بنعمة الله أو الإفساد في الأرض أو العدوان على بقية الناس :

فمن هذه الأمم قبيلة عاد التي عاشت في الأحقاف بجنوب الجزيرة العربية وآتاها الله من القوة والمنعة ما جعلها أقوى القبائل وأشدها بطشا ، ثم أخذها الله بظلمها وطغيانها :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلادِ (٣٩٠) .

« الَّذِينَ طَعْوا في البِلاَدِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَـوْطَ . عَذَابِ * إِنَّ رَبُّكَ لِبالْلِرْصَادِ "(٤٠) .

« كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَوْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَحْلٍ مُنْقَعِرٍ »(٤١)

وفى سِيرَ الأشخاص كثيرا ما يتبع القرآن نفس الأسلوب الذى اتبعه فى تواريخ الأمم فلا يسير على الترتيب الزمنى المعروف منذ مولد صاحب السيرة ومكانه ثم نشأته ، والعوامل المؤثرة فى هذه النشأة ثم ما قام به من أعمال حتى وفاته ، بل يسير على أسلوبه المعروف فيبدأ بذكر صاحب السيرة فى عنفوان قوته وعظمته ، ثم يذكر مولده وقصة طفولته ، وهذا ما نراه فى ذكر موسى عليه السلام فى سورة طه :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ، ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ (٤٢)

« إِذْ أُوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٤٣) أَنِ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُدُهُ عَدُوٌ لِيَّ وَعَدُوٌ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ نَحَبَّةً مِّنِي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْبٍ (٤٤) .

٧ - التكرار: وهو الأسلوب القرآنى المتبع فى كافة المجالات، لا فى القصص وحده. وهى تلك المجالات التى تبين عظمة الخالق وقدرته وحكمته وتدبيره لهذا الكون اللانهائى، وهو ذلك التكرار المحبب الذى يخاطب به المولى جل وعلا قلوب الناس وضمائرهم، تذكرة وتثبيتاً لإيمانهم وتأكيدا لهذه القدرة اللانهائية، وهذا أيضا من الإعجاز القرآنى، إذْ تجد نفس الآية لها وقع السحر مها تكررت ومها اختلفت مواقعها فى مختلف السور، فهو سبحانه وتعالى، يكرر ذكر تاريخ أمة بعينها أو سيرة نفس الشخص، حيث يجب أن تُذكر، وذلك تثبيتاً لمعنى معين أو تحقيقا لهدف مقصود.

فها هى سيرة نَبِى الله داود قد تكررت فى سورتى النمل وص ، وسيرة إبراهيم عليه السلام فى سورتى الأنبياء والعنكبوت ، كما تكررت سيرة موسى عليه السلام فى سور البقرة وآل عمران ومريم وطه والشعراء وغيرها ، يرجع إليها القارىء جميعا فى مواضعها ليتبين حكمة الله ، سبحانه وتعالى ، من هذا التكرار البليغ .

وقس على ذلك تكرار تواريخ الأمم .

هوامسش الفصسل الثان

- (۱) يوسف ۲ .
- (٢) القصص ٢ .
- (٣) القصص ٣ .
- (٤) آل عمران ١٣٨ .
- (٥) آل عمران ١٣٧ .
- (٦) آل عمران ١٣٩ .
- (٧) آل عمران ١٤٠ .
- (٨) آل عمران ١٤١.
 - (٩) مريم ٤١ .
 - (١٠) مريم ٤٧ .
 - (۱۱) مريم ۱۵ .
 - (۱۲) مريم ١٤ .

 - (۱۳) مريم ۵۱ .
 - (١٤) مريم ٣٤ .
 - (٩٥) مريم ٥٨ .
 - (١٦) النمل ١٥.
 - (١٧) النمل ١٦ .
 - (١٨) القصص ٧٦ .
 - (١٩) التمس ٧٨ .
 - (۲۰) القصص ۸۱ .
 - (۲۱) غافر ۲۱ .
 - (۲۲) غافر ۲۲ .
 - (۲۳) يونس ۷۷ .
 - (۲٤) يونس ۹۰ .
 - (٧٠) البقرة ٧٤ .
 - (٢٦) البقرة ٢١ .
 - (۲۷) القبر ۲۳ .
 - (٢٨) القمر ٢٤.
 - (٢٩) العنكبوت ٣٦ .
 - (۳۰) العنكبوت ۳۷.
 - (۳۱) غافر ۷۸ ،
 - (٣٢) الكيف ٨٣.
 - (٣٣) الكهف ٨٤.

787

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٤٣) التوبه ٦٤ . (٣٥) التوبه ٦٥ . (٣٦) النساء ١٥٣ . (٣٨) الأعراف ١٦٣ . (٣٩) الفجر ٢ - ٨ . (٤١) الفجر ١٦ - ٨ . (٤١) الفجر ٢١ - ٢٤ . (٢٤) طه ٩ ، ٢٤ . (٣٤) طه ٩ ، ٢٤ .

الفصل الثالث

القرآن والحَلْق

الأسباب والمسببات:

إن القاعدة العلمية التي توصل إليها العقل البشرى هي أنه لكل نتيجة مقدمة ولكل ظاهرة سبب ، هذه حقيقة ثابتة وأزلية لا يختلف فيها اثنان .

فأية ظاهرة كونية ، مادية كانت هذه الظاهرة أو معنوية لا توجد بذاتها ، بل لابد من توافر شروط أو مقدمات أو أسباب حتى نرى الظاهرة أو نحس بها .

والظاهرة ، لكى توجد ، لابد لها من حدوث سلسلة من الأسباب المتوابطة ، بحيث يكون كل سبب منها نتيجة لسابقه ومقدمة أو سببا للاحقه .

إذن لابد من بداية لهذه السلسلة السببية حتى تنتهى آخرتها بالنتيجة أو الظاهرة المتوقعة ، أى لابد من وجود سبب أول حتى تتتابع بقية الأسباب .

وهنا ينقسم العلماء في تعريف السبب الأول أي سبب الأسباب لكل ظاهرة دنيوية :

فالماديون من هؤلاء العلماء يقولون إن العقل هو السبب الأول أى البداية ويقصدون بهذا العقل ، العقل البشرى أى أن العقل البشرى هو الموجد لهذه السلسلة من الأسباب أو بمعنى آخر أن هذا العقل هو الموجد والمبدع لهذه الظواهر

والمسببات ، بل تمادى هؤ لاء الماديون في السمو بهذا العقل والإعلاء من شأنه فجعلوا منه الخالق للموجودات والظواهر ، ولا يؤ منون إلا به ولا يصدقون إلا ما يوحى به ، والعياذ بالله .

انظر. كيف قاد الغرور هذه الطائفة من العلماء إلى الكفر والجحود ، إذْ لا يؤ منون بالغيب ولا بيوم الحساب ولا بغير ذلك من أسس الإيمان التي حددها الخالق المبدع ، حل شأنه وعلا عما يأفكون . فهم ليسوا أولئك العلماء الذين وصفهم الله بخشيتهم له وحده .

أما الطائفة الثانية من العلماء فهم أصحاب العلم الحق اللذين هداهم الله ورضى عنهم وألهمهم الحق ، فأرجعوا السبب الأول لجميع الأسباب وموجدها إلى إله واحد مفرد بذاته ، هو الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يسبقه ، سبحانه وتعالى ، سبب ، وهو وحده الخالق المبدع القادر ، موجد الوجود كله وما فيه مما نرى ومما لا نرى ، هو وحده الخالق لكل شيء ، وبإرادته وبكلمته ، وهو سبحانه وتعالى ، الأزلى الأبدى الذي يغير ولا يتغير ولا يتبدّل .

وإلا فمن غيره ، سبحانه وتعالى الذي صنع ويصنع السبب الأول لكل الأسباب ؟ فهو سبحانه وحده الذي يهيء للبشر من الأسباب ما يمكنهم من الحصول على ما يرغبون :

وهو وحده ، جلت قدرته ، المذي يخلق ويبدع مالا يستطيع عمله العقل البشري .

وهو وحده الذي يبعث الحياة بكلمته ويقبضها حين يشاء.

إذن هو الله وحده المبتدأ ، وهو المبدىء والمعيد ، وإليه وحده مصير كل شيء :

« إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا »(١)

« إِمَّا أَمْرُهُ إِذَا أَرادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ »(٢)

« بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وإذَا قَضَى أَمْراً فَإِثَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ٣٠٪ .

« وَمَا كَانَ لِنَفْسَ أَنَ تُمُوتَ الاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً فَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُوْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الاَّخِرَةِ نُوْته مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ »(٢٠) « سُنَّةَ اللهِ في الَّذِينَ خَلَوْا مِن قبلُ وَلَن تَجدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً »(°).

وهو سبحانه وحده المفرد بذاته ولا شريك له فيها يبدئ وفيها يعيد وفيها ينهى ، وهو الله وحده المحيط بكل شيء علمها ما ظهر منه وما بطن

« هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُو بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »(٦) .

« أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِيءُ اللَّه الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ »(٧) .

« إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالِقسَطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِن حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَأَنُوا يَكْفُرُونَ »(^) .

الطريق إلى الإيمان برب العالمين:

إذا ما هدانا الله إلى الاقتناع والإيمان والتيقن بأن كل أسباب ومقدرات ما نرى من أشياء وما نحس به من مظاهر هذا الكون ، إنما مرجعها إلى سبب واحد هو موجد كل الوجود وسبب كل أسباب هذا الوجود ومظاهره ، ألا وهو الله جلت قدرته الذى لا إله غيره ، كان علينا نحن المؤمنين أن نلجأ إلى كتابه الكريم ، قرآنه المبين وخاتم كتبه أجمعين ، نلجأ إلى هذا الكتاب الذى أنزله الحق ، سبحانه وتعالى ، بالحق مبينا لنا فيه ما شاء لنا من معرفة بأصل هذا الوجود ومظاهره .

يسوق لنا المولى ، جل وعلا ، فى كتابه الكريم ، من الآيات ما يوضح بها للناس ما شاء لهم من علم ومعرفة بهذا الكون ، فيبين للناس كيف أنشأه بكلمته وقدرته وحكمته ، منذ بدايته ثم يفصّل للناس دقائقه وبعضا من أسراره .

وهذا نوع من التربية الإلهية والإيجاء الربّاني للناس بطلب العلم وأسلوب البحث العلمى ، وحثا لهم على الاستطلاع وتحصيل المعرفة ، يقودهم بذلك إلى التسليم بعظمة الخالق وكمال تدبيره ، وإسلام الأمر كله لـه والإيمان بـوحدانيتـه وحكمته ، والاتجاه إليه وحده في طلب العون ، والخضوع المطلق لقدّره وأوامره .

فلنتبصر في القرآن الكريم آيات الخالق المبيّنات ، نستبين منها هذا الكون بما فيه

من سماوات وأفلاك ، ولننظر فى هذه الأرض التى عليها نعيش ، ولنتدبر طبيعتها وما فيها من جامد وحيّ :

١ - الكون:

ولنبدأ بالكون ولنتناول أصله ولنستطلع نظامه وحركته وتطوره واستمراره لنرى ولنؤ من بقدرة العزيز ذى الاقتدار الذى خلقه وأمسك بزمامه بما فيه من حركة وحياة ثم رعاه بالحق فى ذلك النظام الدقيق الذى لا يعلم سره إلا هو ، سبحانه وتعالى .

إن هذا الكون الذى أمكننا إدراكه ، بما شاء الله لنا من إدراك ، ليس هو الكون الوحيد الذى خلقه الله ، بل إن قدرة الخالق العظيم لا حدود لها ، وهو سبحانه قادر على خلق غيره من أكوان :

« أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ الْعَلِيمُ »(٩) .

لنتأمل هذه الآية الكريمة ولنتدبر ما توحى إلينا به عن أصل هذا الكون :

« ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَمَا وَلِلأَرْضِ اثْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ »(١٠) .

فالآية تبين وتقرر أن أصل الكون الذى خلقه الله لم يكن سوى دخان ، ثم بكلمته وأمره ، سبحانه وتعالى ، كوّن من هذا الدخان كل ما فى الكون من شموس وكواكب ، ما تكوّن منها وما لا يزال فى دور التكوين بإذن الله .

فهذا الدخان ما هو إلا مادة ، ولكن ما طبيعة هذه المادة ؟

هل هي نوع من البخار ؟

وإذا كان بخاراً ، فهل هو بخار ماء أم غازات تكثفت أم ذرات معدنية صلبة متناهية في دقتها ؟

إذا كان هذا الدخان بخار ماء فحسب ، لما تحول إلى تلك الأجسام الصلبة التي تتكون منها الكواكب المعروفة ، والتي قوامها المعادن والصخور ، بل لتحول هذا

البخار إلى ماء سائل أو ثلج صلب طبقاً للظروف التي يهيؤها الخالق لإحداث هذا التحول ، ولما بقيت الشموس أو النجوم ذات درجات الحرارة المتناهية الارتفاع .

وإذا كان هذا البخار مجرد غازات من ذلك النوع المعروف لنا ، لما تحولت هذه الغازات إلى تلك الصخور والمعادن التي تتكون منها الأرض وغيرها من الكواكب .

فالأصح إذن والأقرب إلى طبيعة الأشياء ، أن هذا الدخان كان يتركب من جميع هذه المواد مجتمعة ومختلطة ، ففيه ذرّات الماء وذرات الغازات وذرات المواد الصلبة .

وقد افترض علماء الفلك والطبيعيات أن الكون بغازاته وشموسه وكواكبه ، كان فى الأصل سديما مكونا من ذرات ، وأن هذا السديم كان أشبه بالدخان وعلى درجة عالية من الحرارة لا يتصورها العقل وتعجز عن قياسها أدق ما لدى البشر من أجهزة القياس .

وقد افترض بعضهم أن هذا السديم (الذي يشبه الدخان شكلا وقواما وخفة) قد جاء نتيجة انفجار في مركز المادة الكونية في أول تكوينها فتناثرت على أثره جزئيات هذه المادة وتباعدت عن هذا المركز إلى مالا نهاية ، ثم تجمعت أجزاء منها في تجمعات مستقلة حول مراكز ثانوية مكونة نجوماً وكواكب ، وأن من هذه النجوم مالا يزال يتباعد عن مركز الكون بسرعة ١٧٣ مليون ميل في الثانية الواحدة أي قدر سرعة الضوء حوالي ١٠٠٠ مرة .

ولعل الحكمة الإلهية في خلق هذا الدخان أو السديم هي ، بعد تأكيد قدرة الخالق ، تأكيد وحدة الكون الذي من أصل واحد ، وحدته الذرة ، أو الجوهر الفرد كما يجلو لبعض العلماء تسميتها بهذا الاسم

ثم بكلمة الحق تعالى وبأمْرِهِ خَلَقَ من هذا الدخان السموات والأرض ، هذه الأرض التى نعيش عليها وتلك السماء التى تقع تحت أبصارنا ، ولكن لا يزال الكثير من الشموس والكواكب فى دور التكوين من هذا السديم ، بل لا يزال من السدم ما هو فى دور الخلق .

ويبين لنا العليم الخبير خلق الكواكب والشموس من هذا السديم :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ المّاءِ
 كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْ مِنُونَ ﴾(١١)

فمن هذا السديم الذى كان مفككا وسائبا ، خلق الله الأرض واخواتها من الكواكب الأخرى والشموس ومنها شمسنا ، كما خلق الماء الذى يملأ البحار والمحيطات التى يتصاعد ماؤها بُخاراً ليسقط فى شكل مطر يحيى به ما على الأرض من نبات وحيوان .

أما تاريخ خُلْق تكوين الكواكب والشموس وزمنه ، ومدته ، فعلمه عند الخالق وحده ، وما تقريره ، سبحانه وتعالى بيوم أو يومين إلا تقريبا إلى أذهان البشر وبيانا لعظم القدرة الإلهية ، فاليوم عند الله غير يومنا الأرضى المتعارف عليه ، ولم يحدده الله تحديداً نهائياً ، فهو جلت حكمته ، قد قدّره لنا بالف سنة مما نحسب ونعد حيناً ، ثم قدره بخمسين ألف سنة حيناً آخر ، وهو سبحانه وتعالى أعلم بما يقدر ، وهو القادر على أن يخلق الكون أو يغيره فيها بين طرفة عين وانتباهها .

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهَ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَنْفِ سَنَةٍ عِمَّا تَعُدُّونِ »(١٢) .

« تَعْرُجُ الْمَلاَثِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ١٣٥٪ .

فهو سبحانه وتعالى قادر على خلق الأرض وما حولها من سماوات ، ونجوم وشموس في يومين ، قدرته على خلق ما هو أكثر ، بلا قيد زمني مما نحسب ونقيس :

« قُلْ أَثِنَّكُمْ لَتَكُفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ في يَوْمَيْن 'وَعَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ العَالِمِينَ »(١٤) .

« فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ في يَوْمَيْن وَأَوْحَى في كُلِّ سَهَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَا السَّهَاءَ الدُّنْياَ بِمَصَابِيحَ وَحفظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَليِمِ »(١٥) .

وما هذه المصابيح التى تلمع فى السهاء سوى تلك النجوم والشمس الملتهبة المضيئة التى نراها من فوقنا ومن خلال السهاء التى تحيط بأرضنا ، وهى إحدى السموات السبع المذكورة فى الآية ، فيا لعظمة الكون بعظمة خالقه !

هذا هو أصل الكون وما فيه من شموس وكواكب مما مكنتنا قدراتنا الضئيلة من رؤ يتها ولم نحط منها إلا بالنزر اليسير مما يشاء الله لنا بــه علما . وسنقف موقف

العاجزين عن إدراك مدى قدرة الخالق وخلقه ، وستصغر نفوسنا ويتضاءل علمنا وقدرتنا أمام جلال الخالق ، وما علينا إلا الخشوع لعظمته وإسلام الأمر كله لـه والإيمان به وحده .

ثم بعد ذلك نتساءل ، كيف تماسك هذا الكون ذلك التماسك المتين الذى لا فكاك فيه ولا تشتت ، ما سر هذا التماسك بين أطراف الكون وأجزائه وجزئياته ؟ وما السر فى دقة هذه الحركة التى تدور بها شموسه وكواكبه ؟ وما الذى قدر لها جميعا السير فى أفلاك أو طرق محدودة التزمتها منذ خلقها بحيث لم تجد عنها قيد أنملة ؟ ألا يثير فينا استمرار هذا التماسك ودوام هذه الحركة بتلك السرعة المنتظمة تساؤ لات وتطلعات إلى تلك القوة الجبارة التى تمسك بها وتسيرها وتنظم حركاتها ؟ وهلا زاد عجزنا حيال هذه القوة من إيماننا بوجود الخالق ووحدانيته ، بعد أن عجزت حواسنا عن إدراكه ؟

انظر أيها القارىء المؤمن وتأمل ثم تدبر هذا الوصف الرباني للقدرة الإلهية في تدبير الخالق لكونه وضبطه وتسييره:

« اللّهُ نُورُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ مَثْلُ نُورِه كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، المِصْبَاحُ في زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ مَسْسُهُ نَارُ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْمَثَالَ لِلنَّاسِ وَالله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »(١٦) .
 الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَالله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »(١٦) .

فيا لقدرة الخالق التي لا يقف في سبيلها شيء! ويا لسعة علمه الذي لا حدود لها!

فهو الله الذي جلت قدرته ، وهو القادر الذي لا يدرك قدرته فيخشع له إلا من أضاء الله قلبه بنور الهدى والرشاد والإيمان به ، ولا يدرك من علمه إلا من أضاء عقله وأرهف حسه ، فيحس مظاهر قدرة الخالق فيها يرى ، ويتدبر ما يلهمه الله به من علم ومعرفة الما إحلق .

وهو سبحانه وتعالى المحيط بنور علمه كل شيء ، وعلى هدى نوره يهتدى كل شيء هذا هو النور الرباني الذي ينفذ في كل شيء هذا هو النور الرباني الذي ينفذ في كل شيء هذا هو النور الرباني الذي ينفذ في كل شيء هذا هو النور الرباني الذي ينفذ في كل شيء هذا هو النور الرباني الذي ينفذ في كل شيء فيكشف منه ما ظهر وما بطن ،

وهو النور الذى لا يخبو ولا يضعف ولا ينفد له وقود . فهو ليس نورا عاديا ، بل هو نور فوق نور ، هو النور الإلهى الذاتى الأبدى يمده بوقود لا ينفد ، أودعه الله فى شجرة بارك فيها فلا ينفد زيتها .

أفبعد هذا مثلُ يُضرب لمن لايزال في شك من أمره في قدرة الخالق وعلمه وحسن تدبيره ؟

أفبعد هذا مجال لمكابر أو معاند أو متردد فى الإيمان بالحق الذى خلق السموات والأرض وهي منه وبه وإليه :

« وَلله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى الله الْمَصِيرِ »(١٧) .

وإذا ما نظرنا إلى ما فوقنا من سماوات ، وما يتحرك فى أفلاكها من كواكب وتدبرنا ما نرى ، تجلت لنا قدرة الخالق ومحكم تدبيره وصرفه لما خلق :

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرُ كُلٌّ فِي فَلَكِ يَسْبَحُونَ ، ‹١٨٠ .

« خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يكوِّر اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ويكوَّر النَّهَارَ عَلَى اللَّهُ وَسَخْرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَىرِ كُلُّ يَجْرِى لِأَجَلِ مُسَمَّى أَلاَ هُــوَ العَزِيــزُ الغَفَّارُ ﴾ (١٩٠) .

« وَالشَّمْسُ عَبْرِي لِمُسْتَقَرُّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »(٢٠) .

فتعاقب الليل والنهار ، كما نراهما على سطح كوكبنا الأرضى ، هو نتيجة حتمية لدوران الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة كل يوم . ومن إحكام تدبير الخالق ومن مظاهر قدرته ، أنه يخلق من محكم الأسباب ما يستتبع محتوم الغايات والنتائج :

فبقدرته وحده وبكلمته خلق الأرض ، وبمحكم تدبيره دارت الأرض حول نفسها أمام الشمس في نظام ثابت ودقة لا تخطىء ، بحيث تتم دورة كاملة في زمن عدد قدرناه ، بمقاييسنا الأرضية ، بأربع وعشرين ساعة ، وقدره الخالق ، جلت قدرته بالزمن بين مشرق الشمس في فجر يوم إلى مشرقها في فجر اليوم التالى ، وكانت هذه الدورة الكاملة للأرض حول نفسها منذ أن خلقها الله وكورها ، وستظل بإذنه وإلى ما شاء لها من حركة ودوران . وليست حركة الشمس التي نراها من الشرق

إلى الغرب إلا حركة ظاهرية ، لأن الشمس ثابتة ، وإنما الأرض هي التي تدور حول نفسها أمام الشمس من الغرب إلى الشرق وتستمد منها الضوء نهارا ويلفها الظلام ليلا ، ونصف الكرة الأرضية المواجه للشمس هو الذي يضيء بينها يكون النصف المقابل مظلها ، ثم بدوران الأرض حول نفسها يحل الظلام بالنصف الأول بينها يضيء النصف الثاني ، أما تكور الليل والنهار على سطح الأرض ، كها ذكرت الآية ، فهو نتيجة طبيعية لشكل الأرض الكروى .

وسنرى فيها يلى المزيد من آيات الله البيّنات التى يكشف فيها لنا العليم القدير الكثير من أسرار كونه العجيب:

وكما تسير الأرض بحركتيها ونظاميها اللذين أحكم تقديرهما الخالق جلت قدرته ، كذلك يسير القمر وتسير الكواكب الأخرى . فالقمر يسير حول الأرض فى فلك طوله . . . , ٧٤٧ ميل ويبعد عن الأرض بنحو . . . , ٢٣٩ ميل . ويتم القمر دورته حول الأرض في شهر قمرى (وهو أقل في عدد أيامه من الشهر الشمسى) ومن ثم قسمت السنة القمرية إلى اشنى عشر شهرا تسمى بالشهور العربية التى اتخذت أساسا للتقويم الهجرى الإسلامى .

أما بالنسبة للشمس فالأمر يختلف تماما عنه بالنسبة للأرض والقمر ، وما هذه الشمس إلا نجم من ملايين النجوم ، وإن من بين هذه النجوم ما يفوق شمسنا حجا وبعداً عن الأرض بملايين المرات .

ولكنها تظهر لنا أكبرها بسبب قربها النسبي من الأرض.

وإذا علمنا أن بعد الشمس عن الأرض هو ..., ... ٩٣, ميل ، وأن حجمها قدر حجم الأرض ..., ١,٣٠. مرة وأن درجة حرارة الشمس تبلغ ٣- ٦ مليون درجة مثوية عند سطحها و ٣٠ - ٦٠ مليون درجة عند مركزها ، لزاد إيماننا بوحدانية الخالق ولخشعت قلوبنا أهام قدرته التي لا حد لها ، فهو سبحانه وبحكمته قد وضع الأرض الوضع المناسب لها من الشمس وسيرها حولها في ذلك النظام الرئيب الدقيق لتبقى عليها أسباب حياة الناس ومعاشهم ، إذ لو قل هذا البعد عاهو عليه لانصهرت الأرض ولتحولت إلى ذرات تائهة في الهواء ، ولو زاد هذا البعد لحرمت من حرارة الشمس وبالتالي لاستحالت عليها الحياة من أي نوع .

وغير الشمس والقمر وما نعرف ونرى من نجوم أو كواكب ، فإن هناك من الشموس والكواكب والأقمار ما يفوق كل هذا عددا ، ولا يعلم غير الله مكانها وطبيعتها وأحوالها .

فاذا حدثنا القرآن عن أسرار كون الله اللانهائي إنما يحدثنا بالقدّر الذي يرى الله فيه صالح الناس في حياتهم الدنيا وبالقدر الذي يزيد المؤمن إيمانا بربه وباليوم الأخر. وهو سبحانه وتعالى ، في معرض ضرب الأمثال لمن يعقل ويتدبر إنما يضرب منها ماهو أقرب إلى حس الناس وبصرهم وفهمهم ، فالشمس تعطينا الحرارة وهي مصدر الحياة ، وبالقمر نحدد أوقاتنا وحسابنا ، ثم يترك للإنسان مواصلة البحث والاستطلاع في أسرار بقية الكون بما يعود عليه بالفائدة والنفع الدنيوي وبما يزوده بتقوى الله والخضوع لأوامره وأحكامه .

« هُوَ الذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّنِينَ وَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ۚ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمِ يَعْلَمُونَ »(٢١) .

ولما سأل الناس الرسول ، ﷺ ، عن ظاهرة تغير أوجه القمر أى عدم ثبات المساحة المضيئة منه ، ولعل كان من بينهم بعض المكابرين من أهل الكتاب الذين أرادوا إعناته وتعجيزه عن تفسير ما ليس له به علم ، وهو النبى الأمى الأمين الذي لا ينطق عن الهوى ، لما سئل النبى في ذلك أنطقه الله بوحى من عنده بالإجابة في آية

محكمة ايس فيها تفاصيل علمية لم تتهيأ لها أفهام الناس بعد ، إذ اكتفى الوحى بما يفيد المسلمين فائدة عملية في ذلك الوقت فنزلت الآية :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرَّ بَأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَ الْبِرَّ مَن اتقى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن أَبْوابِهَا واتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢٢) .

وفى آية أخرى يبين قدرته سبحانه وتعالى على تغيير أوجه القمر ، ولكنه يوحى بالتفسير العلمى لأسباب هذا التغيير بأنه نتيجة لتغير أوضاع القمر فى مساره حول الأرض :

« وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ القَديمِ ٣٣٠) .

ويسير الأسلوب العلمي القرآني في تبصير المؤمنين بما شاء الله من أسرار الكون في شكل مبسط لا تعقيد فيه ، وبني هذا الأسلوب على المشاهدة ثم التفسير .

فتنزل الآيات المجملة كمدخل لآيات أخرى مفصلة . مثال ذلك :

الآية التي تبين للناس فائدة خلق الله الليل والنهار:

« وجَعَلْنَا الَّلْيْلَ والنَّهَارَ آيتَيْنْ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لَتَبْتَغُوا فَضْلاً من رَّبِكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَلَدَ السَّنِينَ وَالحِسَابَ وُكَلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ٣^{٢٤)} .

والآية : « فَالِقُ الإصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً ، والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ »(٢٥) .

فهاتان آيتان تبينان الفائدة العملية للناس من خلق الليـل والنهار ، وهي أن يكون النهار وقت عمل وسعى للارتزاق ، ويكون الليل للراحة والهدوء .

وهما فى نفس الوقت مدخل لحقيقة علمية تفسر أسباب تعاقب الليل والنهار فمن أراد الإلمام بطرف من أسرار تعاقب الليل والنهار فليرجع إلى الآية :

« وَتَرَى الجِبالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِى تَمُرُّ مرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّه الَّذَى أَتْقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إنه خَبِيرٌ بِمَّا تَفْعَلُونَ »(٢٦) . فهذه الجبال الشامخة الراسية فى الأرض وتبدو لنا ساكنة ، إنما هى فى حركة مستمرة وسريعة مع حركة الأرض اليومية حول نفسها وحركتها السنوية حول الشمس .

ومن الأساليب العلمية القرآنية التلميح للبشر ببعض أسرار الكون مع الاحتفاظ بالهدف المباشر من نزول آيات الله البينات ، وهو بيان معنى الإيمان بالله وفضل الإسلام ، وهذا ما تبينه الآية الكريمة :

« فَمَن يُرِد اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضيِّقاً حَرَجاً كَأَيْما يَصَّعَدُ فِي السَّهاءِ كَلَدَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِجْسَ عَلَى الَّلْذِينَ لاَ يُوْ مِنُونَ »(٢٧).

فهذه الآية تصف حالتين متناقضتين ، حالة المؤمن المسلم ، وما أدخل الله في قلبه من أمن وطمأنينة وهدوء نفسى ، وحالة الكافر المكابر الذى صدته نفسه المريضة عن الإيمان بالله والإسلام له ، وما هو فيه من قلق نفسى وكرب وعذاب وضيق يعجزه عن التنفس . هذا هو الهدف المباشر للآية .

وبجانب هذا الهدف المباشر ، توحى نفس الآية بحقيقة علمية أثبتتها التجارب والأبحاث عن طبيعة الغلاف الهوائي المحيط بالأرض . فهذا الهواء مركب من غازات أهمها الاكسجين اللازم للحياة والذي يحصل عليه الانسان بتنفسه الهواء ثم استخلاص الأكسجين منه . وهذا الاكسجين تقل نسبته في الهواء كلما ارتفع الإنسان عن سطح الأرض وصعد إلى طبقات الهواء العليا ، فتزداد حاجة هذا الصاعد إلى مزيد من الأكسجين فتزداد سرعة تنفسه ، وتتزايد هذه السرعة كلما زاد ارتفاعاً في المواء فيزداد صدره ضيقاً عن استيعاب ما يلزم من الأكسجين حتى يبلغ في ارتفاعه إلى طبقة هوائية يندر فيها الأكسجين أو ينعدم فيصاب بالإغاء ثم الاختناق .

ثم يتناول القرآن الكون كله بما فيه من كواكب وشموس وغيرها من الأجرام السماوية فيين لنا قدرة الخالق وحكمته إذ يوحى لنا بذلك القانون الذي توصل إليه العلم أخيرا ، ألا وهو قانون الجذب العام ، ذلك القانون الذي يبين لنا السر في بقاء هذه الأجرام على حالها من حيث الحجوم والأبعاد والحركات ، فلا ترتطم هذه الأجرام بعضها ببعض ولا يتساقط الواحد منها تلو الآخر هباء منثوراً .

وهى رغم هذا التنظيم المحكم لا يربط بينها رباط محسوس ولا ترتكز على أعمدة نراها ، والسر فى بقائها على الحال التى خلقها الله عليها يكمن فى قوة الجذب الكامنة التى أودعها الله فى كل جرم ، وانتظام سرعته وثبات أطوال المسافات بين كل هذه الأجرام ، إن هذا النظام الدقيق أوحت لنا بأسراره الآية المختصرة الآتية :

« اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّموَاتِ بغَيْرِ عَمَدٍ تَروْنَهَا ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِى لِأَجَلِ مُسَمَّى يَدَبُّرُ الْأَمْرَ يُفَصُّلُ اْلآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ »(٢٨)

« وَالسُّمَاءُ رَفَعَها وَوَضَعَ المِيزَانَ »(٢٩) .

٢ _ الأرض:

« قُلْ أَثِنَّكُمْ لَتَكُفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ الْأَرْضَ في يومين وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالِينَ »(٣٠) .

تقرر الآية أن الله القوى القادر ، قد خلق الأرض في يومين اثنين .

وقد سبق أن بينت لنا بعض الآيات القرآنية ، أن التقدير الإلهى للزمن غير ذلك المقياس الزمنى الذى وضعه البشر ، ففى التقدير الالهى قد يكون اليوم عند الله كالف سنة أو خمسين ألف سنة بحسابنا الأرضى او أكثر أو أقل ، ولا عجب فى ذلك ، فهو سبحانه وتعالى الخالق لكل شىء مما نعلم ومما لا نعلم ، هو الذى خلق المادة والزمان والمكان وبإذنه وبكلمته وحده تبدأ الحركة وتستمر وتتوقف ، وهذا كله من الأسرار الإلهية التى احتفظ الله بها فى علمه اللانهائى . فهو سبحانه وتعالى ، إذ يقرر انه خلق الأرض فى يومين ، إنما يوحى إلينا بقدرته التى لا حدود لها على خلق ما يشاء بما يرى وكيف يريد دون التقيد بحدود الزمان أو المكان ، بل إنه بكلمته سبحانه وتعالى قد خلق ما هو أعظم وأكبر من أرضنا هذه فى أيام معدودات :

« هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسَتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ
 مَا يَلجُ في الأرضِ وما يخرج مِنهَا وَمَا يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وما يعْرجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمُ أَيْنَهَا
 كُنْتُمْ وَاللّهُ بَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣١).

ولهذه الآية معنى سام آخر إذْ يشرّف الله الأرضَ بأن خلقها فى يومين بينها قد خلق الكون كله بنجومه وكواكبه وسماواته فى ستة أيام .

أَوَ لَيْسَ هذا فضل من الخالق على بنى آدم _ أهل هذه الأرض _ ما بعده فضل ؟

أَوَ لَيْسَ في هذا تكريم رباني لهم ما بعده تكريم ؟ .

أما آن للبشر ، كل البشر ، بعد كل ما آتاهم الله من فضل وتكريم ، أن يقابلوا هذه النعم بالحمد والشكر لخالقهم الكريم ، أليس فى كل هذا ما يوعظ به البشر فيخشعون لجبروت الخالق وعظمته ويسلمون الأمر كله له وحده ؟

وما محاولات جهابذة العلم من البشر لتقدير عمر الأرض إلا ضربا من الخيال لا جدوى منه ولا غناء ، والدليل على ذلك هذا التناقض فى تقدير البشر هذا العمر فقد جعل البعض عمر الأرض ٢٠٠٠ مليون سنة بينا قدره البعض الآخر بنحو ١٣٠٠ مليون سنة . ولا يزال عمر هذه الأرض منذ خلقها الله سراً من أسراره ، التى احتفظ بها لنفسه . ولم يأذن الله بعد بالكشف عنه للناس ، وربما يأذن الله بذلك مستقبلاً ، إذا أراد ، فيلهم به الناس عندما يرى فى ذلك جدوى لهم .

فعلى البشر تقصى ما يفيدهم من حقائق علمية عما يرون في هذه الارض بما طوّع الله من وسائل عقلية أو مادية . وعليهم أن ينظروا إلى أرضهم ، يتقصون حقائق ما يرون منها من حيث طبيعتها ومادتها وكائناتها وطرائق العيش عليها والسلوك فيها بالحق والعدل ، فهذا أجدى لهم وأنفع . في الوقت الحاضر على الأقل ، من استطلاع مالا جدوى منه ولا فائدة .

وعليهم الاهتداء في ذلك إلى السبيل القويم الـذي رسمه الله لهم في محكم تنزيله .

فعليهم مثلا استطلاع موقع الأرض من الشمس ، مصدر الحياة ، وعلاقتها بها وأثرها عليها .

وعليهم مثلا استطلاع شكل الأرض وتحركاتها وأثر ذلك في حياتهم العملية .

وعليهم ايضاً تقصُّى أحوال الهواء المحيط بأرضهم وتركيبه وأثره عليها .

وعليهم مثلا البحث عما يكمن في هذه الأرض من مواد نافعة ، وما ينمو عليها من نبات وما يدرج عليها من حيوان ، فيفيدون منها في حياة رغدة كريمة وعليهم قبل ذلك كله ذكر الخالق المبدع ، ثم حمده وشكره على هذه النعم .

وليكن القرآن الكريم مرجعهم وملاذهم فى استطلاعهم وبحثهم وسعيهم وسيجدون فى آياته ما أوحى الله به للبشر بطرف من علمه الواسع وبالقدر الذى رأى فيه نفعاً لهم .

فَفَى قُولُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً ﴾ (٣٢).

إنما يذكر الناس برحمته بهم وعطفه عليهم بتذليله تلك الأرض وتمهيدها وبسطها ليسيروا فيها في يسر ، سعيا وراء أرزاقهم ، ويفسر ذلك في الآية :

« لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجاَجاً » (أي طرقاً)(٣٣) .

فلا يضل الإنسان عن حقيقة شكل الأرض ولا يظن ، كما قال الأقدمون ان الأرض مسطحة ، في حين أن الله سبحانه وتعالى خلقها وشكلها في هيئة كرة مستديرة .

« خَلَقَ السَّموَاتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ الَّليْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَىَ اللَّيلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرى لِأَجَلِ مسمَّى أَلا هُوَ العَزِيزُ الغَفَّارُ »(٣٤) .

فالليل أو النهار الذي يحل بهذه الأرض يتخذ شكلها الكروي .

بل يزيدنا الله علم وبيانا دقيقا بشكل الأرض ، في قوله تعالى :

« وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا »(٣٥) والدُّحْيُ هو البيض .

أى أن الكرة الأرضية ليست تامة التكور ، وليست أبعاد سطحها عن مركزها متساوية ، بل إن شكل الأرض الحقيقى كالبيضة ، وهذا ما أثبته العلم الحديث . إذ لوحظ أن الكرة الأرضية مبططة عند القطبين ومنبعجة أى منتفخة عند خط الاستواء وهذا هو الشكل الحتمى الذي يتخذه أي جسم لين يدور حول نفسه ، كما

كانت حالة الأرض في أول تكوينها . وهي الفكرة التي تقوم على ما يسمى بقوة الطرد المركزى وما يتفرع عنها من نظريات وما يَسْتَبِعها من آثار ومظاهر ، هذه القوة تظهر إذا دار أي جسم حول نفسه بسرعة كبيرة وتعمل على إبعاد ذرات الجسم وجزيئاته عن مركزه . ومعنى ذلك أن الجسم يتفتت ويتحول إلى هباء متناثر ولكن الله سبحانه وتعالى قد خلق أيضاً قوة مضادة لقوة الطرد المركزية في الأرض وهي قوة الجذب التي تعمل على جذب ذرات الجسم ، أثناء حركته هذه وجزئياته نحو مركزه وبذلك يلم شتاتها ويمنعها من التناثر ، وهذا ما حدث للأرض منذ نشأتها ولا يزال يحدث ، ولم تترك هاتان القوتان المتضادتان من أثر في الأرض سوى ذلك الشكل البيضاوى المذكور .

وحين نزل الوحى بالقرآن على محمد على ، لم يكن من البشر من يعلم أو يدور بخلده أن الأرض تتحرك وتدور حول نفسها بينها يراها بناظريه ثابتة تحت قدميه . بل كان الناس فى الواقع يحكمون على ما يرون بظواهره . فقدروا أن الحركة الظاهرة أمامهم هى حركة الشمس من الشرق إلى الغرب ولم يدر بخلدهم أن الشمس ثابتة فى الواقع وأن حركتها هذه إنما هى حركة ظاهرية ناشئة عن حركة الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشرق ، ورغم أن القرآن قد ألمح إلى هذه الحقيقة العلمية فإن البشر لم يدركها إلا بعد ذلك بمثات السنين :

« وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُّرُ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيُرُ بَمَا تَفْعِلُونَ »(٣٦) .

فحركة الجبال ليست مستقلة عن حركة الأرض بل هي تدور معها في حركتها حول نفسها وحول الشمس .

فالأرض كغيرها من الكواكب السيارة تدور حول نفسها بسرعة قدرها حوالى المراض كغيرها من الكواكب السيارة تدور حول نفسها بعدنا عن وسطها حتى الساعة عند وسطها وتتناقص سرعتها كلم بعدنا عن وسطها حتى تنعدم هذه الحركة عند نقطتى القطبين .

وإذْ يوحى العليم الخبير في قرآنه الكريم إلى الإنسان بأن يبحث بحثاً علمياً عن ظاهرة تعاقب الليل والنهار على سطح الأرض كل يوم ، فإنه جلت حكمته يوحى

إليه بالكثير من المعاني السامية والمواعظ والعبر:

« يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ وَيُولِجُ النهارَ في اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيم بِذَاتِ الصَّدُورِ »(٣٧) .
 فالليل لا يخيم على الأرض فجأة ، والنهار لا ينتشر نوره على غير انتظار .

بل إن كلا من الليل والنهارياتى تدريجياً ليجُبَّ كل منها الآخر ، فيزحف الليل على النهار ابتداء من غروب شمس كل يوم ويجثم على الأرض حتى مطلع فجر اليوم التالى فيبدد نوره ظلام الليل ويمحوه محواً .

وما أبلغ بيان الآية الآتية لهذه الظاهرة ، وما أروع تصويرها لكثير من المعانى الأخلاقية :

« إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذَّى خَلَقَ السَّموَاتِ والأَرْضَ في سِتَّة أَيَّام ثُمَّ اسْتَـوَى عَلَى
الْعَرْش يُعْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ مُسَحَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ
 لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ العَلِلينَ »(٣٨).

فهو ، سبحانه وتعالى ، إذ يبين لنا بالدليل المحسوس ، قدرته ومحكم تدبيره لما خلق ، إنما يبين للناس ، عن طريق هذه الظاهرة الطبيعية وبجانب فالدتها العملية ، طبيعة الخير والشر .

فالشرياب إلا أن يطرد الخير من الوجود . فها أشبهه بالليل المظلم وما أشبه الخير بالنهار المضىء ، ويصور الله موقف الشر من الخير ودأبه على اقْتِفَاء أثره واسراعه الخُطى ليلحقه ويقضى عليه ، ولكن العزيز الرحيم يأبى إلا أن يتم نوره ، فلا يجمع النقيضين فى وقت واحد وفى مكان واحد ، فاذا حل الظلام بَعُدَ عنه النور بُعْدَ الخير عن الشر . وسيظل الصراع قائماً بين الخير والشر ما ظلت الأرض تدور وما ظل تعاقب الليل والنهار ، إلى أن يقضى الله أمره .

« يُقَلِّبُ الله اللَّيْلَ والنَّهارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرةً لَأُولِي الأَبْصَارِ ٣٩٠» .

ثم يسير القرآن الكريم بنا على هذه الأرض هادياً لنا ومرشداً لنستطلع ونتعظ بديع صنع الخالق ومحكم تدبيره لما هو عليها وفيها هو في باطنها من مواد وكاثنات ، ما عظم منها وما دق .

« يَابُنَى الْبَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَل مِ فَتَكُن فِي صَخْرةٍ أَوْ فِي السَّمَواتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا الله إِنَّ الله لَطيفُ خَبِيرٌ ، (٤٠) .

ثم يتدرج القرآن الكريم معنا في مراقى العلم والمعرفة بأسلوبه البليغ ، فيبصّرنا بالظاهر المحسوس وممهداً لنا التعرف على خفايا هذه الأرض وأسرارها .

فيبدأ ببيان أضخم ما على الأرض من موجودات إلى أدقها :

فيبصرنا بالجبال في عظمتها وشموخها ، وما يشقه فيها وابل المطر وجارف السيول من وديان وطرق واضحة المعالم شكلاً ولوناً ، ليتخد الناس من هذه الظاهرة العبرة في اتباعهم صراط ربهم المستقيم الذي حدده الله للمؤمنين تحديد تلك الجبال الشاخة الراسخة للطرق والسبل التي يسير فيها الناس في انتقالهم من مكان إلى مكان سعياً وراء رزقهم وتحصيل معاشهم ، فلا يضلون السبل ولا تفرق بينهم المسالك .

« أَلَمْ تَر أَنَّ الله أَنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً ٱلْـوَانُهَا وَمِنَ الجُبَال ِ جُدَدٌ بِيضٌ وحمر مُخْتَلِفٌ ٱلْوائْها وَغَرابِيبُ سُودٌ »(١٠) .

والجُدَد هي الطُّرُق .

وإذْ يذكر لنّا القرآن الكريم أثراً آخر للمطر ، فضلاً عن نحت الوديان والمسالك التي يسير فيها الناس لبلوغ مقصدهم ، إنما يذكّر بالتبصر والتمييز بين ما يفيد وما لايفيد .

« أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدْرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِيَا وَبِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتَغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الحَقَّ وَالبَاطِلَ فَيَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتَغَاء وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسِ فَيَمكُثُ فِي الأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الأَمْثَالَ »(٤٢) .

فالمطر يفتت الصخور المختلفة ويحملها سيله مختلطاً بعضها ببعض ، وبعد أن ينتهى المطر أو يجف السيل يلتقط الناس من بين هذه الصخور ما قد يكون فيها من معادن نافعة ويتركون غير النافع من الصخور ، تماماً كما يجب على الإنسان العاقل من تمييز الطيب والخبيث من قول أو فعل فيأخذ بالأول ويناى بنفسه عن الثانى .

ثم يوضح لنا وظيفة هامة ، حلق الله من أجلها الجبال وأرساها على هذه الأرض :

« وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيَهَا فِجَاجًا سُبِلاً لَعَلَّهُمْ مَتَدُونَ »(٤٣) .

« وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيَد بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَمْتَدُونَ »(**) . ثم يزيدنا بياناً بوظيفة الجبال :

« أَلَمْ نَجْعَل الأرْضَ مِهَاداً وَالجِبَالَ أَوْتَاداً »(°²) .

والوتد فى اللغة هو الشيء الذي يمسك شيئاً آخر ويثبته فى موضعه فيمنعه من السقوط أو الإفلات .

فالخيام ترتفع على أعمدة ثم نمت بالحبال إلى أوتاد تغرس فى الأرض حتى لاتنهار ، والبهيمة تشد بحبل إلى وتد يدقه صاحبها فى الأرض حتى لاتفلت منه أو تهرب وهنا مثار العجب والبحث فى هذه الآية .

فكيف تكون الجبال الراسية على الأرض وتدور معها فى تحركاتها أوتاداً تشد هذه الأرض وتمنعها من السقوط ، وكيف يرتكز الوتد على نفس الشيء الذي يحرص الخالق ، سبحانه وتعالى ، على حفظه من الانهيار والإفلات ؟

إن التفسير العلمى لهذه الوظيفة التى ناطها الخالق بالجبال الراسية على الأرض يكمن في تركيب الكرة الأرضية نفسها ، وطبيعة هذا التركيب :

فالمقطوع به علمياً وبالدليل المادي وبالمشاهدة هو:

أن الكرة الأرضية تتكون من ثلاثة أغلفة كروية متتالية وذات مركز واحد هو مركز هذه الكرة كلها .

وأعلى هذه الأغلفة هى القشرة الأرضية الباردة الصلبة وسطحها هو الظاهر لنا والذى نسير عليه . وسمك هذا الغلاف ضئيل جداً بالنسبة لسمك الطبقتين اللتين تحته ، إذ لايتجاوز ٥٪ من سمك الأرض من مركزها إلى سطحها ، ويتكون هذا الغلاف من معادن وصخور صلبة .

ويلى هذه القشرة ويقع أسفلها مباشرة ما يعرف بباطن الأرض ، ويقدر سمكه بنحو ٧٠٪ من سمك الكرة الأرضية كلها ، ويلى باطن الأرض طبقة ثالثة متكوّرة على المركز ، ويبلغ سمكها حوالى ٢٥٪ من سمك الكرة الأرضية (من سطحها إلى مركزها) ، وتسمى لب الأرض .

وكانت الكرة الأرضية عند أول خلقها ملتهبة مكونة من معادن مصهورة وغازات ساخنة ، ثم بعدت عن أمها الشمس بمسافة شاسعة ودخلت في أجواء أقل حرارة بكثير بما كانت عليه الأرض فبرد الجزء الخارجي إلى ذلك العمق النسبي الذي سبق ذكره وهو القشرة الأرضية . وبقي ما يلي هذه القشرة وأسفلها في درجة حرارة عالية جداً جعلت من باطن الأرض مادة لينة من المعادن والصخور المصهورة كها ظلت معادن وصخور الطبقة الثالثة (اللب) في حالة سيولة تامة .

وطبقاً لهذه النظرية ، كان من المتوقع أن تغوص القشرة الأرضية الصلبة فيها تحتها من طبقات لينة أو سائلة فلا يبقى لها من أثر .

ولكن الله القوى القادر قد هيأ لهذه القشرة من الوسائل والأسباب ما يحفظ للقشرة الأرضية توازنها وبقاءها في مكانها وأمسكها من الغوص والاختفاء داخل هذه الكتلة الباطنية المصهورة .

فيا أشبه هذه الجبال بالأوتاد ، لا من حيث الشكل والوضع بل من حيث الوظيفة فكلما أوشك جزء من سطح الأرض على الغوض بفعل الجاذبية الأرضية في جانب ، أنقذها الله بخلق جبل في الجانب المقابل فيثبتها في مكانها ويعيد إليها تماسكها واتزانها .

ويبين لنا القرآن الكريم أيضاً تلك الظاهرة المعروفة باسم التعرية ، وهي تلك الظاهرة التي رتب لها الإنسان الأسباب واستنبط لها من العوامل التي تعمل على تفتيت أجزاء من سطح القشرة الأرضية الصلبة ، ومن هذه العوامل الأمطار والأنهار والرياح وغيرها من العوامل الطبيعية وما سببٌ هذه الأسباب وما هيأ تلك العوامل سوى السبب الأول للوجود كله ، وهو الله الخالق المبدع ، ونلمس نحن المؤمنون في الآية الآتية معنى هذه القوة والمقدرة .

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَالله يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكَمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »(٤٦) .

وهذه أيضا بجانب ما تبصرنا به من حقيقة علمية ، تقيم الدليل اليقيني بالله وقوته وعظمته وقدرته على كل شيء .

ثم يصف القرآن الكريم بأسلوبه إلعلمى المبسط ظاهرة سقوط المطر والثلج من السهاء إلى الأرض ويوحى للمؤمنين من واقع ما يرون من هذه الظاهرة الطبيعية كيف يصرف الأمور وكيف ينذر ويبشر الناس ، إذ جعل البرق نذيرا بصاعقة تنقض على الكافرين ، وبارقة أمل ورجاء للمؤمنين بالله وحده ، وهو سبحانه وحده القادر على أن يفعل ما يشاء :

« هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِيءُ السَّحَابِ الثَّقَالَ »(٤٧)

كما يبين لنا محكم التنزيل ظاهرة السحاب وتراكمه سحابة من فوق سحابة في طبقات الجو العليا حيث يشتد البرد ويتكثّف ما في هذا السحاب المتراكم من بخار الماء فينزل حيث يشاء وكما يريد سائلا ، في شكل مطر منهمر أو صلباً في شكل برَدٍ وثلج يتحول بدوره على الأرض إلى ماء يجرى بالخصب والنهاء .

« أَلْمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنزِّلُ مِنَ السَّاءِ مِن جِبَال فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يشَاءُ ويَصْرِفُهُ عَمَّن يَشَاءُ ويَصْرِفُهُ عَمَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ "(٤٨) .

٣ - الحياة:

ثم يبين ذلك التعاون الذى أوثقه الحكيم القدير بين الرياح والأمطار لإحياء ما خلق من نبات وحيوان وإنسان ، فالرياح تحمل حبوب لقاح من نبات ذكر فى مكان ما إلى نبات أنثى فى مكان آخر ، والمطر يسقى كل حى على الأرض ، وتواصل الرياح حمل حبوب اللقاح لتستمر حياة النبات ويتكاثر .

« وَأَرْسَلْنا الريِّاحَ لَواَقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّاءِ ماءُ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَاأَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ »(٤٩)

« وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِه حَتَّى إِذَا أَقَلَتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدِ مَيَّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الشَّمراتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْقَ لَعَلَكُمْ تَذَكَّرُونَ »(٥٠).

ومن عجيب صنع الخالق ، سمت حكمته وجلت قدرته ، أن يسقى ما على الأرض من نبات بماء واحد ، ولكن ما أودع فى هذه النباتات من خصائص يجعلها تنبت ثماراً متباينة :

« وَهُوَ الَّذِى مَدِّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِى وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنُ اثْنَيْنُ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُوُنَ (٥١) وفي الأَرْضَ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتُ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى جَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضَّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأَكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »(٢٥).

« وَشَعَجَرةً تَغْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِاللَّهْنِ وَصِبْغٍ لِلأَكِلينَ »(٥٣) .

وكها سخر الله السحاب والمطر لسقيا الزرع والإنسان ، زاد الإنسان تكريماً وفضلاً لعله يحمد الله ويشكره ويتقيه ، فجعل من ماء البحر فوائد للإنسان لا تنكر ، فمن البحر يستخرج طعاما وحلية جميلة ، كها جعل من البحر وسيلة ميسرة لتنقل الإنسان من مكان إلى مكان .

« وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ خَمْاً طَرِيًا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَنْ تَشْكُرُونَ »(٤٥) .

ثم يجمع محكم التنزيل ، في آية واحدة فضل الله على الإنسان بما خلقه من ماء عذب وماء ملح ، تذكرة له وعبرة .

« إِنَّ فَى خَلْقِ السماواتِ والأرْضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلْكِ التي تجرى في البحر بما ينفعُ الناسَ وما أنزلَ اللَّهُ مَن السهاءِ من ماءٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتِها وبثُّ فيها من كل دابةٍ وتصريفِ الرياحِ والسحابِ المسخرِ بين السهاءِ والأرضِ لآياتٍ لقوم يعقِلونَ "(٥٥).

بل ما أبلغ لغة القرآن في الإيجاز العلمي ، إذ لَّقِص في آية واحدة وفي ترتيب

زمنى واقعى ، خلق السموات ثم الأرض ، ثم ماء البحر ثم ماء المطر ثم النبات والحيوان .

وكما جرى القرآن الكريم فى أسلوبه العلمى ، إذْ يفصل فى آيات ما أجمل فى آية فانه قد تناول دورة حياة النبات فى بضع آيات ، بين فيها للناس ما كان خافياً ، كما بين قدرة الخالق فى إخراجه الحى من الميت والميت من الحى :

فالثابت علمياً أن النبات لا يثمر إلا إذا لُقِّح . ومن ثم جعل الله من كل صنف من النبات زوجين ، ذكر وأنثى لابد من تَزَاوُجِها حتى تحدث عملية التلقيح التي تؤدى في نهاية الأمر إلى إثمار أنثى النبات ثمراً يحتوى على بذور من نفس النوع . هذه البذور تظهر لنا وكأنها لا حياة فيها ، ولكن إذا ما سُقيت ماء يسوقه لها الخالق جلت قدرته ، نها في داخلها الجنين وكبر حتى يبلغ حجباً تنشق بعده البذرة ، ثم يزداد الجنين نمواً حتى يبرز فوق سطح الأرض وفي نفس الوقت تخرج زوائد دقيقة من البذور تتحول فيها بعد إلى جذور ممتدة في باطن الأرض يثبت بها النبات إلى الأرض وعن طريقها يستمد غذاءه . ثم يزداد هذا النبات الصغير نمواً حتى يزهر أزهاراً تحمل أعضاء الأنثوية التصقت بها فتتحول الزهرة إلى ثمرة ناضجة صالحة لغذاء الإنسان أعضاء الأنثوية التصقت بها فتتحول الزهرة إلى ثمرة ناضجة صالحة لغذاء الإنسان أو الحيوان . وتحتوى هذه الثمار على بذور من نفس نوعها . فإذا ألقيت هذه البذور في أرض صالحة وسقيت بالماء أنبتت نباتاً آخر من نفس النوع الذي جاءت منه ، وهكذا دواليك ، كل هذا فصّله القرآن الكريم في بعض آياته :

« سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجِ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ومِنْ أَنْفُسِهِم ومِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ »(٥٦) .

« أَوَلَمْ يَرَوا إِلَى الأَرْض كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كريم " (٥٠) .

« إِنَّ الله فَالَقُ الْحَبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ اْلْحَىَّ مِنَ اللَّبِ وَمُخْرِجُ اللَّبِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ »(٥٩) .

« وآيَةٌ لَهُمُ اْلأَرْضُ المَيْنَةُ أَحْيَيْناهَا وَأَخْرُجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْه يَأْكُلُونَ »(٥٩).

« وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وفَجَّرنَا فِيهَا مِن الْعُيُونِ ٣٠٠٪ .

« لِيَاْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وما عمِلَتْه أَيْديهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ »(٦١) .

وكها صنع الله الحياة فى شكل نبات ، خلق أيضاً الحيوان بمختلف أنواعه وأجناسه وسلالاته ، خلق الزواحف وذوات الرجلين وذوات الأربع ، كها خلق ما هو أرقى من ذلك وما هو أدنى ، وما لا يزال خافياً عليناً ولا يعلمه إلا الخالق جلت قدرته :

وكها خلق مبدع الخلق من كل نوع من النبات زوجين ، ولما كان حفظ كل نوع يتطلب تزاوج ذَكَرِه وأنثاه لإنجاب سلالة متشابهة ، كذلك يتزاوج الحيوان . إذْ ينزل الماء من الذكر إلى الأنثى حيث يحدث التلقيح ويتكون الجنين في رحم الأنثى ويصوره الخالق ويشكله على مثال أبويه ، ويظل ينمو ويكبر إلى أن يكمل الله صورته في مدة حددها ليخرج بعدها إلى هذه الدنيا .

وهذا ما يحدث أيضاً بين أزواج النوع البشرى .

وتصور لنا آيات الله البينات في قرآنه الكريم ، طريقة هذا الخلق أبدع تصوير : « هُوَ الَّذِي يصوركم في الأرْحَام كَيْفَ يشاءُ لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ العزيز الْحُكِيمُ »(٦٣) .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسِ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَتُّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ونسَاء واَتَّقُواً الله الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ الله كَانَ عَليكم رَقِيباً »(٦٤) .

« هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِن نَّفْسِ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لَيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَلَتْ خَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّت بِهِ فَلَمَّا أَتْقَلَت دَّعَوَا الله رَبَّهَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ »(٦٥) . الشَّاكِرِينَ »(٦٥) .

ثم يصور لنا ويزيدنا من تفاصيل العلم ما يزيدنا إيمانا على إيمان بقدرته سبحانه

وتعالى وحكمته ، إذْ يبصرنا بحال الجنين ، وهو مازال في بطن أمه :

« خَلَقَكُم مِّن نَّفْس وَاحدةٍ ثُمَّ جعَلَ مِنها زوجها وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةً أَزواج يخلقكم في بطون أُمَّهَاتِكُمْ خَلقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثلاثٍ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الْلُكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّ تُصْرَفُونَ »(٢٦) .

فهو سبحانه وتعالى ، القادر على أن يقول لأى شيء كن فيكون ، يضرب لنا مثلا في الأناة والتأنى في العمل والإبداع والسير في عملنا بخطوات ثابتة حتى نتقن ما نريد من عملنا ونجنى منه أحسن الثمرات ، فالجنين في بطن أمه لا يخلق بصورته النهائية دفعة واحدة بل يخلق جزءاً جزءاً ، وكل جزء يعد لتركيب الجزء التالى حتى تكتمل الصورة وينجز العمل على أكمل وجه . ثم بعد ذلك يبين لنا الخالق موضع الجنين في بطن أمه في مكان أمين يلفه بأغشية ثلاثة هي المشيمة يعلوها جدار الرحم ثم جدار البطن ، فإذا كمل خلق الجنين وأعِد بعد ذلك للحياة الدنيا خرج بإذن ربه من هذه الظلمات المتراكبة إلى نور الدنيا بشراً سوياً .

ويمن الله على عباده ، بما آتاهم من نعم وما سخر لهم من أنعام خلقها نفعا لهم فيفيدون منها في شتى مطالبهم في حياتهم الدنيا .

« والأنعامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ »(٦٧) .

« وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ »(٦٨) .

ومن الأنعام ما يؤخذ منها لبن صاف غذاء للناس ولأطفالهم . يخلقه الله لهم في بطون الحيوان ويصفيه ويعزله من بين الدم وما تهضم المعدة من طعام :

« وَإِنَّ لَكُمْ فِي اَلْأَنْعَامِ لِعِبْرةً نُسِقيكُمْ عِمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْن فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنَا خَالِصاً سائِغاً للشاريين »(٢٩٠) .

« وَلَهُمْ فيها مَنَافعُ ومَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ »(٧٠) .

ومن الحيوان ما سخره الرحمن لراحة الناس في تنقلهم وحمل متاعهم ومتاجرهم من مكان لآخر ، فييسر لهم برحمته سبل العمل والارتزاق :

« وَتَحْمِل أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تكونوا بالِغِيهِ إِلاَّ بِشقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لرءوفٌ رَّحيمٌ »(٧١) .

بل إن الله اللطيف بعباده قد زاد الإنسان من نعمه وفضله ، فهيأ له من أسباب الزينة ما يزيده لله شكرا وحمدا :

« وَالْخَيْلُ وَالْبِغَالَ وَالْحِميرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ »(٧١) .

كها رود الرحمن مما خلق من حيوان بما يوفر به للإنسان ما يشتهي من حلو الطعام فقد سخر له النحل يمده بعسل شهي :

« ثُمَّ كُلِي مِن كُل الشَّمَرَاتِ فَاسْلُكى سُبُلَ رَبَّكِ ذُلُلاً يَغْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ خُتَلفُ أَلَوانُهُ فِيه شِفاءً لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلكَ لاَيةً لِقَوْمِ يِتَفكَّرُونَ »(٧٣)

ثم بعد كل ما أق الله الإنسان من نعمه وأفضاله ، يوحى إليه ، من خلال قرآنه الكريم ، بضرورة تمسكه بتقواه والبعد عن الغرور بما أتاه ، فكل هذا من متاع الدنيا الذي لا غنى فيه عن النهاية المحتومة لكل إنسان . ويبين لنا الخالق جلت حكمته ، كل هذا من خلال آية مختصرة وبليغة بين فيها مراحل عمر الإنسان وما يطرأ عليه من تغير في كل مرحلة منها :

« الله الَّذِي خَلَقَكُم مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ العَلِيمُ الْقَدِيرُ »(٧٤) .

تم بحمد الله المؤلف

الفصل الثالث

- (١) الكهف ٨٤ .
 - (۲) یس ۸۲ ،
- (٣) البقرة ١١٧ .
- (٤) آل عمران 1٤٥
- (٥) الأحزاب ٢٢.
 - (٦) الحديد ٢ .
- (٧) العنكبوت ١٩ .
 - (٨) يونس ۽ .
 - (٩) يىن ٨١ .
- (۱۰) نصلت ۱۱ .
- (١١) الأنبياء ٣٠ .
- 444 14 ...

ţ

- (۱۲) الحج ۷۷.
- (١٣) المعارج ٤
- (۱٤) فصلت أ. (۱۵) فصلت ۱۵ .
- (١٦) النور ٣٥ .
- (١٧) النور ٤٢ .
- (١٨) الأنبياء ٣٣.
 - (١٩) الزمراه .
 - (۲۰) یس ۳۸ .
 - (۲۱) يونس ٥ .
- (٢٢) البقرة ١٨٩ .
 - (۲۴) یس ۳۹ ،
- (٤٤) الأسراء ١٢ .
- (٢٥) الأنعام ٩٦.
- (٢٦) النمل ٨٨ .
- (۲۷) الأنعام ۱۲۵
 - (۲۸) الرعد ۲ .
- (٢٩) الرحمن ٧ .
- (۳۰) فصلت ۹ .
- (٣١) الحديد ٤ .
- (٣٢) نوح ۱۹ ،
- (۳۳) نوح ۲۰ .

- (٣٤) الزمر ٥ .
- (٣٥) النازعات ٣٠.
 - (٣٦) النمل ٨٨ .
 - (٣٧) الحديد ٦ .
- (٣٨) الأعراف ٤٥.
 - (٣٩) النور ٤٤ .
 - (٤٠) لقمان ١٦ .
 - (٤١) قاطر ٧٧ .
 - (٤٢) الرعد ١٧ .
 - (٤٣) الأنبياء ٣١.
 - . 10 النحل 10 .
 - (20) النباء ٦ ، ٧
 - (٤٦) الرعد ٤١ .
 - (٤٧) الرعد ١٢.
 - (٤٨) النور ٤٣ .
 - (٤٩) الحجر ٢٢.
- (٥٠) الأعراف ٥٧ .
 - (٥١) الرعد ٣ .
 - (٥٢) الرعد ٤ .
- (٥٣) المؤمنون ٢٠ .
 - (١٤) النحل ١٤ .
- (٥٥) البقرة ١٦٤ .
 - (۵۹) یس ۳۲ .
- (٥٧) الشعراء ٧ .
- (٥٨) الأنعام ٥٥.
 - (٥٩) يس ٣٣ .
 - (۲۰) يس ۲۴.
 - (٦١) يس ٣٥ .
 - (٦٢) النور ٥٤ .
- (٦٣) آل عمران ٦ .
 - (٦٤) النساء ١ .
- (٦٥) الأعراف ١٨٩.
 - (۲۳) الزمر ۲ .
 - (۲۷) النحل ٥ .
 - (۹۸) یس ۷۲ .
 - (٦٩) النحل ٦٦ .
 - (۷۰) یس ۷۳ .
 - (٧١) النحل ٧ .
 - (٧٢) النحل ٨ .
 - (٧٣) النحل ٦٩ .
 - (٧٤) الروم ٤٥ .



الفمــرس

٥	تقليم
9	البابُ الأول : الإنسان
**	الباب الثانى: الإِيانا
٤١	الفُّصل الأول: موضع الأسلام من الاديان السماوية
04	الفصل الثاني : الايمان وشعائر الأسلام
۸۷	الفصل الثالث: مقومات الأيمان
1.9	الفصل الرابع : صفات المؤمن وسماته
144	الفصل الخامس : مراتب الإيمان
149	الباب الثالث : الأخلاق في القرأن
121	الفصل الأول : القرآن والسلوك الشخصي
175	الفصلُّ الثاني : القرآن والسلوك الاجتماعيُّ
144	الفصل الثالث: القرآن والسلوك الدولي
197	الفصلُ الرابه : القرآن والسلوك القتالي
747	- الرابع : القرآن والسلوك العلمي
404	الفصل الأول : علوم القرآن
440	الفصل الثاني : القصُّص القرأني
484	الفصلُ الثالث : القرأنُ والخُلُقْ
۳۷۷	
1 V V	

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٧/١٥٦٣

ISBN 4VV - • \ - \ Y £ £ - 0



nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتناول فعلما الكتباب نبواحي السلوك الإنسبان الفردسة والاختماعية كما أمر اقد سبحانه وتعالى في قرآئمه الكريم وقد توخينا في هذا الكتاب نواخي السلوك البشري سواه مع نفسه أو مع غيره من بني جنسه كما بينها الله تعالى في خاتم كتبه قرآنه الكريم . فلك السلوك الذي هو الرباط الروحي والمادي الذي يصل الإنسان بأخيه الإنسان بدءا من مبلوكه الشخصي إلى سلوكه الاختماعي مع غيره من بني أدم ، القريب مهم والمربب. ولو سام الناس عبل هذي كتباب الله الكريم الاختلوا إلى حير السبل والملاقات الإنسانية الكريمة التي غيها معادة الفرد والمجتمع في هذه الحياة اللانبانية الكريمة التي غيها معادة الفرد والمجتمع في هذه الحياة اللانبانية الكريمة التي غيها معادة الفرد والمجتمع في هذه الحياة اللانبانية الكريمة التي غيها معادة الفرد والمجتمع في هذه الحياة اللانبانية الكريمة التي غيها معادة الفرد والمجتمع في هذه الحياة المدنيا ورضوان الله وحتالة في المحادة المدنية المحادة المدنيات المحادة المدنيات المحادة المدنيات المحادة المدنيات المحادة المدنيات المحادة المدنيات المحادة ا

مطايع الجباة الصرية العابة للكتاب

، ، ە قرش